دكتور عبد الغنى محمد سعد بركة

أساليب الدعوة القرآنية

بلاغة.. ومنهاجا

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعـة الأولى

١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٣ م

دار غريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى ـ القاهرة)
ص٠ب ٥٨ (الدواوين) ـ تليفون : ٢٢٠٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« رب اشرح لى صدرى ..

ويسر لى أمرى ..

واحلل عقدة من لسانى ..

يفقهوا قولى .. » .

« صدق الله العظيم »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقــدمة

الحمد لله ، ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ، شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين وعلى آله وصحابته ومن اتبع هديه الى يوم الدين ٠

وبعــد ٠٠

فان القرآن الكريم هو روح من أمر الله ، ونور يهدى به من يشــاء من عبــاده ، وصــدق الله العظيم « **وكذلك أوحينا اليك روحا من امرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم ٠ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا الى الله تصير الأمور** » (١) ٠

ولا شك فى أن اغــلى أمانى المسلم أن يشرفه الله بخدمة القرآن الكريم ، وأن يوفقــه لعمل يبرز به بعض جوانب الخير فى هذا الكتاب الذى لا تفنى عجائبه ولا ينفد عطاؤه ٠

وقد نبتت هذه الأمنية فى نفسى ــ يعلم الله ــ من عهد الصبا يــوم أن كان أســاتذتنا الأجــلاء يلقنوننا فى أول درس من كل عــلم من العلوم العــربية والاســلامية أن شرفه على غيره من العلوم مستمد مما يقوم به من خــدمة للقرآن الكريم ٠

وظلت هذه الأمنية تنمو فى نفسى وتنضج تبعا لمراحل نموى ونضجى ، فبعد أن كانت رغبة مبهمة ، أخذت تحقق ذاتها بتوجيهى للتنقيب عن ميــدان استطيع من خلاله أن أحظى بهذا الشرف العظيم ٠

لهذا عندما سنحت الفرصة ــ من خلال تخصصى فى البلاغة ــ لم أتردد لحظة فى التوجه بكل جوارحى الى القرآن الكريم ملبيا هواتف عميقة فى وجدانى ٠ ولكن الى أى جوانبه أقصد ؟

---

(١) الشورى : ٥٢ ــ ٥٣ ٠

ان القرآن الكريم لا يضـم فقط العقيدة والشريعة التى يريد ان يتلقاها الناس عنه ويقيموا حياتهم الروحية والمادية على أساسها ، ولكنه عرض عليهم ذلك ودعاهم اليه فى أسلوب فريد ، به من وسـائل التأثير ما يكفـل لمبادئه وأحكامه تلك أن تستقر فى أعماق النفوس وتخالط حنايا القـلوب . وهو الى جانب هذا وذاك كتاب معجز ليظل اعجازه آية صـدقه وهاديا الى موحيه . وبذلك تفرد فى كماله ، وصدق فيه قول الحق جل وعلا « **ذلك الكتاب** » بهذا الأسلوب الذى يسقط ما عداه من الكتب عن رتبـة مشاركته فى هـذه الصـفة .

هـذه الجوانب الثلاثة التى لم تجتمع الا فيه ، والتى جـاء كل منها فى بابه ذروة فى الكمال ، جعلته يحظى بما لم يحظ به كتاب على مدى التاريخ من اهتمام العلماء به ، ودراساتهم حوله ، تجلية لهديه ، وكشفا عن نفائسه ، واغترافا من علومه ومعارفه .

واذا كان الجانب الأول قد استأثر به ما هو أمس به رحما مـن علوم الفقه والكلام والتفسير والأصول وغيرها ، فان الجانب الثالث وهو جـانب اعجازه وخروجه عن طوق البشر أصبح حقيقة تاريخية لا سبيل الى المراء فيها ، كما أنه أيضا قد نال مـن البحوث والدراسات ما يجعل كل محـاولة للحديث عنه من جديد تكاد تكون من مكرر القول ومعاد الكلام .

لم يبق اذن الا الجانب الثاني وهو النظر فيه باعتباره كتاب دعوة وأسلوب عرض لمبادئه وتشريعاته ، وهذا الجانب ـ فى نظرى ـ يمثل جوهر البحوث البلاغية ، وفيه وجدت ضالتى ، اذ هو الميدان الذى يجب أن تتجه اليه العزائم، وتتطلع الهمم .

ولا أدعى أنه مجال بكر لم تعالجه الأقلام ، ولم تتنافس فيه القـرائح ، فمنذ كانت البلاغة والعلماء يتخذون من النص القرآنى مادتهم الأساسية فى بحوثهم ودراساتهم . يكشفون عن سمو بلاغته وأسرار نظمه وألوان جماله .

ولكن جهودهم المشكورة على ما بها من ثاقب النظر ودقة الفهم وسـمو الذوق ، وصـفاء الفطر ، ظلت قاصرة عن أن توفى هـذا الجانب حقـه . اذ استنفدوا الجزء الأكبر من جهدهم فى بحوث جزئية متتبعين الألوان البلاغية فى القرآن كاشفين عن جمالها وروعتها أو متحدثين عن سمو منزلتها وعلو مكانتها بين غيرها مما فى كلام البشر من ألوان البلاغة والبيان . فاذا جاوزوا

هذه الدائرة الضيقة ، وتناولوا نصا كاملا عالجوه كوحدة قائمة بذاتها لا كجزء من كل يعالج موضوعا ويدعو الى هدف ·

فالقرآن الكريم كتاب دعوة ، وكل دعوة لابد لها من أساس فكرى يمثل العقيدة ، وتشريع عملى يمثل ضوابط السلوك ويحدد الحقوق والواجبات · هذا حق · ولكن الدعوة تحتاج بجانب هذا الى داعية يؤمن بهذه العقيدة وهذا التشريع ايمانا يخالط كيانه كله ، ويدفعه الى نقل ما يؤمن به الى الآخرين مستمدا من حرارة ايمانه ، وتأجج مشاعره ما يعينه على عرض ما لديه فى أسلوب يصل الى قلوب المخاطبين ، ويلامس وجدانهم ويستقر فى نفوسهم ليصبح ايمانا راسخا يوجه سلوكهم ويحدد اتجاههم ، ويضفى طابعه على كل ما يصدر عنهم ، وبذلك تؤدى الدعوة دورها فى نقل الأفكار والمبادىء من واقعها النظرى الى الواقع العملى ·

ولقد قام القرآن الكريم بذلك كله ، فهو كتاب دعوة ، بل هو المثل الأعلى للدعوة · وعندما ننظر فى كتاب الله بهذا المعيار ، ونتناول بلاغته من هذا الجانب ، فلن تغنينا حينئذ تلك النظرة الجزئية بما تتضمنه من ألوان البلاغة ولا تلك النظرة التى تتجه الى نص فى موضوع بمعزل عن بقية النصوص التى تتكامل معه وتمثل فى مجموعها دعوة القرآن الى هذا الموضوع · بل لابد لنا من النظرة الشاملة التى يتسع مداها ليشمل مجموع النصوص التى تدعو الى هدف معين ، فذلك هو المنهج القادر على الوفاء بحق القرآن الكريم ككتاب دعوة حقق نجاحا لا يتطاول اليه فى تثبيت الايمان فى القلوب ، وبناء حضارة منبثقة عن هذا الايمان ·

وهذا المنهج فى دراسة القرآن الكريم أرجو أن يكون جديدا ، وهو جدير بأن تبذل فيه الجهود ، وتحشد له الطاقات ، وهذا هو موضوع هذه الدراسة وذلك هو منهجها · ومنه جاء اختيارى لعنوانها « أساليب الدعوة القرآنية بلاغة · ومنهاجا » ليكون معبرا عن الموضوع والمنهج الذى اتجهت اليه ·

وعلى الرغم من وضوح المنهج فقد واجهت عقبات كثيرة كان لابد من تذليلها · واتخاذ قرار باختيار واحد من بين البدائل المطروحة لمعالجة كل عقبة واجهتنى ·

وأول ذلك أن القرآن الكريم كله كتاب دعوة أنى اتجهت اليه وجدت ما يمس موضوعك ويتصل به · وكانت هناك خيارات لابد أن أستقر على أحدها ·

وواضح أن دراسة القرآن الكريم كله تكاد تكون أمرا مستحيلا لخروج ذلك عن طوق الباحث وعدم تلاؤمه مع دراسة لها حدودها ، ففكرت فى الاقتصار على هدف واحد من الأهـداف التى يدعو اليهـا القرآن الكـريم ولكنى لاحظت تفاوتا فى الأسلوب القرآنى مـن موضوع الى موضـوع ، ولو اقتصرت على دراسة موضوع واحد فلن تكون نتـائج الدراسة معبرة بدقة عن خصـائص أسلوب الدعوة القـرآنية • فلم يبق الا أن أختـار عدة موضـوعات تمثل فى مجموعها الجوانب المختلفة التى عالجها القرآن الكريم • فاخترت موضوع «الدعوة الى الوحدانية» ليمثل أسلوب الدعوة الى العقائد ، واخترت موضوع «الانفاق فى سبيل الله» ليمثل أسلوب الدعوة الى العبادات ، واخترت موضوع « التشريع للأسرة » ليمثل أسلوب الدعوة الى المعاملات •

وبعد أن استقر رأيى على ذلك واجهتنى عقبة جديدة ، ذلك أن النصوص الواردة فى كل موضوع من هذه الموضوعات من الكثرة والتعـدد بما يجعل دراسة لها حجم متعارف عليه ، عاجزة عن استيعاب كل هذه النصوص وهنا لجأت مرة أخـرى الى الاختيار ، وكان رائدى فى ذلك أن تكون النصـوص المختارة فى كل موضوع ممثلة لكل أساليب العرض التى استخدمها القرآن الكريم فى عرضه والدعوة اليه •

وواجهت بعد ذلك موضوع المراجع اللازمة للبحث ، وأدركت أن طبيعة الموضوع تجعل الباحث فى حاجة الى الاستعانة بكل فروع المعرفة الانسانية ولكنى مضيت فيه مستجيبا لنصيحة رسول الله صلى الله عليه وسلم « سددوا وقاربوا » فحسبى أن أبذل طاقتى وغاية جهـدى والله من وراء ذلك يمـدنى بالتوفيق ويهدينى الى الصواب •

هذا وقد أقمت البحث على مقدمة ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة • أما الباب الأول فعنوانه « البلاغة والدعوة » قسم البحث فيه الى ثلاثة فصول عالجت فى الفصل الأول موضوع الدعوة فى ذاتها ، أيا كانت بشرية أم سماوية وجعلت عنوانه « الدعوة والداعية » تحدثت فيه عن عناصر الدعوة ومهمتها ، ووسائل التاثير اللازمة لابلاغها •

ولما كانت الدعـوة الاسلامية ذات طبيعة خاصـة تستلزم تعـددا فى الأساليب وتنوعات فى طرق العرض فقد جعلت ذلك موضوع الفصل الثانى وعنوانه « طبيعة الدعوة الاسلامية » وعالجت فيه كل ما يتصل بالموضوع •

أما الفصل الثالث فكان موضوعه « البلاغة وصلتها بالدعوة » تحدثت فيه أولا عن البلاغة مـن حيث دوافع البحث فيها ومنهجه ، ورسمت صـورة للبلاغة تبرز سماتها قديما وحديثا • ثم انتقلت الى جوهر الباب وهو صلة البلاغة بالدعوة مبرزا وظيفة البلاغة فى الحياة وأنها من هذه الناحية تعتبر سلاح الداعية الذى يناضل به للوصول الى غايته • وبهذا جاء الباب تمهيدا ضروريا لما بعده ، بما اشتمل عليه من دراسات نظرية لابد منها •

أما الباب الثانى فهو دراسة تطبيقية فى ضوء ما سبق فى الباب الأول وقد قسمته الى ثلاثة فصول •

الفصل الأول خاص بدراسة : « البلاغة فى الدعوة الى العقائد » واخذت « الدعوة الى الوحدانية » ليكون موضوع الدراسة •

والفصل الثانى خاص بدراسة : « البلاغة فى الدعوة الى العبادات » واخترت « الدعوة الى الانفاق فى سبيل الله » موضوعا له •

والفصل الثالث خاص بدراسة : « البلاغة فى الدعوة الى المعاملات » وكان « التشريع للأسرة » هو موضوع الدراسة فيه •

وقد استغرق هذا الباب الجزء الأكبر من الرسالة • وهو يمثل الجانب التطبيقى فيها •

أما الباب الثالث فكان استخلاصا لخصائص الأسلوب القرآنى وسماته التى أبرزتها الدراسة النظرية والتطبيقية فى البابين الأول والثـانى وعنوانه « خصائص الأسلوب القرآنى » وقد قسم الى فصلين •

الفصل الأول عنوانه « وسـائل التأثير فى الأسـلوب القـرآنى » سجلت فيه الملامح والسمات البـلاغية التى تجلت فى دراستنا للأسـلوب القرآنى فى الدعوة وبلوغها الغاية التى لاتدرك فى بابها •

والفصـل الثـانى عنوانه « توافق الأسـلوب القرآنى مع موضـوع الدعوة »ركزت فيه على تأكيد الحقيقة التى لا يجوز تجاهلها ، وهى ان البلاغة ليست ألوانا بلاغية تحشد فى النص كيفما اتفق ، بل لابد ان يستدعيها المقام ويتطلبها الموضوع فتأتى ملبية لندائه لا مقحمة نفسها عليه •

أما الخاتمة فقد تضمنت الاشارة الى أهم نقاط البحث ونتائجه التى حققها ·

هذا وبالله التوفيق ، واليه التوجه بالرجاء والضراعة أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، محققا لما انبعث عنه من نية صادقة فى خدمة كتاب الله ، وأن يتجاوز عن كل ما قصرت عنه الهمة ، وهو حسبى ونعم الوكيل ·

عبد المغنى محمد سعد بركه

***

الباب الأول

البـلاغة والدعوة

- المدعوة .. والداعية
- طبيعة الدعوة الاسلامية
- البلاغة وصلتها بالدعوة



الفصل الأول

الدعوة والداعية

ان التحولات الانسانية العظيمة ، والتى تمثل فى حياة البشرية تغييرا جذريا ، وبعثا جديدا ، وانطلاقا الى آفاق رحبة مشرقة ، وخروجا من أنماط حياتها المتوارثة العتيقة ، التى تكبل مسيرتها وتسد أمامها منافذ النور والخير ، ان هذه التحولات لابد لها أن تبدأ من نقطة انطلاق أساسية هى : تغيير النفوس ، واصلاح السرائر ، وتزكية الضمائر واحياء القلوب ، وايقاظ العقول ، وبعث روح جديد يوقظ كل ما أودعه الله فى النفس البشرية من طاقات خلاقة ، وملكات مبدعة وقوى كامنة ، لتهب من سباتها ، وتنهض من كبوتها ، وتبنى ما شاء الله لها أن تبنى من صروح الحضارة ، ومعالم التقدم فى حياتها الروحية والمادية · **« سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا »** (١) وصدق الله العظيم حيث يقول : **« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم »** (٢) ·

وقد يبدو للنظرة الأولى أن ما يعتور الحضارات من تغيير هو وليد تحولات سياسية ضخمة ، كغزو الأمم ، وسقوط الممالك ، غير أن البحث الدقيق يدل على أن ذلك كان نتيجة لتطور عميق فى أفكار الأمم ، وتغير فى الآراء والمبادىء والمعتقدات ومشاعر الناس · كما يدل على أن التغيير الهام الذى تتجدد به الحضارة هو ما يتم فى ضمائر الناس ومشاعرها وأفكارها والذى يؤدى الى تغيير روح الأمم · وذلك وحده هو المحرك الحقيقى وراء كل ذلك (٣) ·

ومن هنا يأتى دور الدعوة ، وتبدو أهميتها ، وتتبين الحاجة اليها · ومن هنا أيضا تتحدد سماتها ، وتتضح معالمها ، وتبرز عناصرها ·

---

(١) الأحزاب : ٦٢ ·　　(٢) الرعد : ١١ ·

(٣) انظر روح الجماعات · جوستاف ليبون · طبعة دار المعارف ١٩٥٥ ص ١٢ وما بعدها ·

ذلك أن الدعوة تعنى : محاولة الداعى استمالة الناس نحو هدف معين واقناعهم به اقناعا تطمئن اليه عقولهم ، وترضى عنه قلوبهم ، وتنشرح له صدورهم ، ويخالط وجدانهم ، ويسرى فى مشاعرهم ، ويمتزج بكيانهم ، ويصبح ايمانا راسخا ، كى يتهيأ لهذا الايمان أن يكون محركا لكل ما يصدر عنهم من فكر وعاطفة وسلوك ، به يؤمنون ، وبتوجيهه يعملون ، وفى سبيله يبذلون وعنه ينافحون ، ومن أجله يستشهدون .

★ ★ ★

عناصر الدعوة

نحن اذن أمام ثلاثة عناصر لابد منها لتتحقق الدعوة وتؤتى أكلها :

الأول : هدف ، هو لب الدعوة وجوهرها ، كما أنه نقطة البدء والنهاية فيها .

الثانى : داعية ، وهو رائد أهلته صفاته المتميزة وملكاته الخاصة لحمل اللواء وقيادة الجموع ، رائد تخطى ما عليه الناس من مواضعات ، واستشف ــ من خلال ما يحيط به من زيف وباطل ــ نور الحقيقة ورأى هدفه هناك يناديه ويلح عليه ويملأ كيانه ويمتزج بكل جوارحه وتنفعل به أحاسيسه، فيعيش به وله ، ولا يملك أن يحول عنه وجهه أو يصم عن ندائه المدوى فى أعماقه أذنيه ، ولا يستطيع ــ حتى لو أراد ــ أن يستأثر به دون الناس ، أو يطوى عليه صدره ، ويحبس صوته . فاذا هو مجاهر بما يجد فى نفسه ، صادع بما يعتمل فى أعماقه داع الناس اليه ، صامد لكل ما يواجهه ، صابر على ما يصيبه ، مضح بكل ما يملك فى سبيله .

الثالث : مدعوون الى الهدف ، تعرض عليهم الدعوة ، وتشرح لهم مبادئها وتجلى آفاقها ومعالمها ، وتوضح دوافعها وأسبابها ، ويبدد كل ما يثور حولها من اعتراضات ، وما تواجه به من رفض .

وذلك اجمال لابد له من تفصيل .

● **أولا ــ الهدف :**

ان الدعوة ــ سواء أكانت سماوية أم بشرية ــ لابد أن تنهض على أسس فكرية ودعائم فلسفية ، تكون هى الاطار الذى يتحرك الداعية فى نطاقه ويقيم

دعوته عليه · فمن المستحيل أن يتحرك الانسان خطوة فى هذا السبيل دون أن يكون وراءها دافع معنوى يقود خطاه ، ويوجه نشاطه ، ويضفى طابعه الخاص على كل ما يصدر عنه ، ويبعث فى نفسه طاقة ايجابية توجه سلوكه ، وتمده بزاد روحى يعينه على مواصلة الخطى ليقترب شيئا فشيئا من تحقيق هدفه والوصول الى غايته ·

والواقع أن الأفكار هى نقطة البداية فى كل نهضة وأساس كل تغيير انسانى فهى التى تعطى الحضارة الوليدة لونها المميز وسماتها الخاصة · والتاريخ الانسانى فى جوهره ما هو الا تسجيل لأثر انتقال الأفكار من شخص الى آخر أو هجرتها من بيئة الى أخرى كى تحدث أثرها فى البيئة الجديدة ·

يقول جلبرت هايت « ان أسلم طريقة لتسجيل التاريخ هى تتبع الأفكار فى هجرتها ، حيث تتفاعل وتنشىء حضارة تتسم بطابعها ، وتصطبغ بصبغتها » ·

ثم يأخذ فى التدليل على نظريته تلك ، بتحليل الحضارات وردها الى الأفكار الأساسية التى قامت عليها ، عارضا نماذج كثيرة تدل على صدق نظريته كتأثر الحضارة الأوروبية بالأفكار التى حملها العرب معهم الى الأندلس ، وأن هذه الحضارة ما هى الا ثمرة للفكر العربى ··· الى آخر ما يورده فى هذا المقام (١) ·

وليست كل فكرة تؤدى الى تغيير انسانى · فكم من الأفكار قد وئدت فى مهدها دون أن تترك بصمة واحدة تدل عليها · وكم من الأفكار هبت كالزوبعة المفاجئة التى تحدث من اختلال فى الضغط الجوى ثم لم تلبث أن تبدد شملها ، وذهب ريحها ، وأضحت أثرا بعد عين · وكم من الأفكار لم يكن لها من القوة الذاتية ما يضمن لها الوجود ، ولكن دعاتها قد فرضوها فرضا بقوة التسلط والبطش ، وأكرهوا الناس على الحياة فى ظلها ، معتمدين على أيديهم الفولاذية التى تمسك بزمام الأمور ، غير أن تلك الأيدى القابضة سرعان ما تكل وتلين وتفقد صرامتها ، فتنساب الأمور من فرج الأصابع ، وتتفلت منها المقاليد واحدا بعد الآخر ، حتى تكون النهاية المحتومة زلزالا يدمر ما تبقى من رسوم ويأتى على الأخضر واليابس ·

---

(١) انظر هجرة الأفكار · تأليف جلبرت هايت · ترجمة أسعد فريد ·

غير أن هناك من الأفكار ما يملك قوة ذاتية غلابة تفرض نفسها على النفوس فتقبلها حتى تتحول الى ايمان يصل من القلوب الى الشغاف ، وتفرض نفسها على الحياة ، فتصوغها من جديد بسلاحها الذى لا يفل ، وهو ايمان الناس بها ·

« كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » (١) ·

هذه الأفكار تكون فى مجموعها نظرية ، أو هدفا ، أو رسالة ودينا ، غير أنه من الواجب أن نلاحظ البون الشاسع بين النظريات البشرية والرسالات السماوية سواء من ناحية نشأة كل منهما أو طبيعته ·

فالأولى : (فى نشأتها) نتيجة لخلل فى الحياة الانسانية يؤدى الى تناقضات صارخة ، وصراعات عميقة ، تمزق المجتمع ، وتسمم حياته ، وتقوده الى التحلل والانهيار ·

وهى (فى طبيعتها) اجتهادات شخصية ، وحلول لمشاكل تعانى منها المجتمعات ، قد تنجح فى علاجها أو تفشل · ولذلك كان طبعيا أن تتسم بعدم الشمول وبالمحلية وبالمرحلية · بمعنى أنها تواجه واقعا محددا ، تعالج مشاكله المعينة ، فى نطاق دائرته الخاصة · وبالتالى لا يمكن أن تكون بناء متكاملا يغطى احتياجات الانسان المتنوعة ما بين مادية وروحية · ولكنها تستجيب فقط للدوافع الملحة فى بيئة خاصة ، واذا جاز لها أن تصلح جانبا فان ذلك يكون على حساب جانب آخر ، كما أنها محلية أيضا ، لأن عوامل وجودها محلية ولا حاجة اليها فى مجتمعات لا تعانى من المشاكل التى أوجدتها فى بيئتها الخاصة وفى نفس الوقت لا يمكن لها أن تتسم بالخلود ، بل هى مرحلية مؤقتة اذ من المستحيل أن يقف التطور الانسانى عند حدودها ، بل ان سنة الحياة تسير وتجدد وفق ما ينبت فى ساحتها الخصبة من ضرورات ودواع ، واستقراء التاريخ الانسانى خير شاهد على صحة كل ذلك · وهو ذاخر بمئات المثل التى لا تخفى على باحث ·

أما الرسالات السماوية : فى نشأتها وطبيعتها ، فهى على العكس من كل ما تقدم ، فهى لا تواجه واقعا محددا ، ولا تتنزل حلولا لمتناقضات يعانى منها

---

(١) الرعد : ١٧ ·

مجتمع . بل انها هداية السماء للأرض ، وتشريع رب الناس للناس ، وصراطه المستقيم ، وحبله المتين ، وهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه من صنع الحق الذى خلق الحياة وخلق لها ما يصلحها ..

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (١) .

وسوف يأتى تفصيل ذلك عندما نتعرض لطبيعة الدعوة الاسلامية ..

★★★

● **ثانيا ـ الداعية :**

تظل الأفكار أو النظريات معانى تجريدية حبيسة فى صدور أصحابها أو مسطرة فى كتبهم حتى تجد داعية اليها ، ينقلها من واقعها التجريدى الى واقع الحياة ، حيث تتحول الى قوة مؤثرة ، بعد أن تتبوأ مكانها فى النفوس فتتغير بها الحياة (٢) .

فالداعية اذن هو الذى يحمل الدعوة ، بعد أن تملأ عليه كل كيانه العقلى والروحى ، ويعبر بها واقعها النظرى الى التطبيق العملى ، حيث تصارع الواقع فتعيد صياغته من جديد ، وتحتل كل يوم موقعا تثبت فيه أقدامها لتثب منه الى موقع آخر ، فتصل فى النهاية الى السيطرة الكاملة على الحياة ، وتحقق لذاتها وجودا ملموسا متمثلا فى قيم جديدة ، وعلاقات جديدة ، وحضارة جديدة .

ومن هنا كانت مهمة الداعية بالغة التعقيد ، تحتاج الى نوع فريد من البشر يملك طاقات لا تنفد من العزيمة والجلد ، ويتمتع بملكات روحية وعقلية تجعله أهلا لأداء الرسالة .

---

(١) الملك : ١٤ .

(٢) يقول الأستاذ البهى الخولى فى كتابه « تذكرة الدعاء » :

« لقد ظلت النازية مثلا فلسفة باردة تقرأ فى الكتب وتدرس فى الجامعات ، حتى تلقفها وجدان هتلر فغلى بها وفار ، ونهض ينادى فى حماسة وثقة وقوة ، حتى أخذت قلوب الشعب تتهيأ لرسالة هذا الزعيم الجديد ، وتنتقل بالتدريج الى ما يشاء . وساعدته ظروف الزمان والمكان حتى صارت النازية عقيدة راسخة يقاتل الشعب فى سبيلها ، برغم ما فيها من حماقة وسخافة » ص ٣٣ .

ومن دراسة نماذج الدعـاة الناجحين وأصـحاب الرسـالات يورد الباحثون فى علم النفس والاجتماع الكثير مما يمتازون به · وما يجب أن يتوفر لهم من خصائص·غير أن المثل الأعلى للداعية من غير شك ،هم رسل الله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالاته ، لما علمه فيهم من عظمة تتناسب مع جلال المهمة وثقل التبعة ، فان العظائم كفؤها العظمـاء ·· « **الله أعلم حيث يجعل رسالته** » (١) ·

وأول خصائص الداعية : أنه مؤمن بفكرة تأخذ عليه أقطار نفسه وتملأ كيانه ، فيبدو وكأن قوة سحرية توجه حركته ، فلا يصدر عنه قول أو فعـل الا من وحى فكرته وفى اتجاه هدفه ، فهو يدعو اليها بقوله وسلوكه ، مؤتمرا بأمرها فى اقدامه واحجامه ، فلا يقبل فيها مساومة ، ولا يطلب عليها أجـرا هتافه دائما :

« **ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين·لا شريك له ، وبذلك أمـرت** » (٢) ·

وثانيها : أن يكون قادرا على التصرف فى فنون القول بما يمكنه مـن توصيل ما يريد الى المدعوين ، « فلا يكفى أن يعلم ما ينبغى أن يقول بـل يجب أن يقوله كما ينبغى » (٣) · مستعينا بكل ألوان الأساليب :

من حجة عقلية ، ودليل وجدانى ، وأسلوب تصويرى ، وضرب أمثال ، وقصص وترغيب وترهيب ، حتى ينفذ الى عقل المستمع ووجدانه ، ويخاطب فيه كل ملكاته · وقديما أحس سيدنا موسى عليه السلام بحاجة الى ذلك فسأل ربـه قائلا :

« **وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى ، انى أخاف أن يكذبون · قال سنشد عضدك بأخيك** » (٤) ·

فالنص الكريم يؤكد حاجة الداعية الى البيان والفصاحة كسلاح يصاول به المكذبين ووسيلة يصل بها الى قلوب المعاندين · وهو يعلى من قدر البلاغة

---

(١) الانعام : ١٢٤ ·
(٢) الانعام : ١٦٢ ، ١٦٣ ·
(٣) أرسطو · الخطابة ص ١٤٠٣ ·
(٤) القصص : ٣٤ ، ٣٥ ·

ويكشف عن قيمتها في مجال الدعوة . ونظرة الى ما في النظم الكريم من خصائص تكشف لنا عن كل ذلك وتجليه .

فموسى عليه السلام وقد كلف بابلاغ الدعوة الى فرعون وقومه يدرك أنه بحاجة الى ما يعينه على أداء مهمته الصعبة ، وأن أول ما يلزمه هو بيان قوى يجادل به الكفار ويبسط به حجته ويزين به الايمان ويستميل به القلوب ، يأنس ذلك في أخيه هارون ، فيتوجه الى ربه داعيا أن يعينه بأخيه « **وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا** » والردء اسم ما يعان به (١) . ثم يضيف الى ذلك « **يصدقني ، اني أخاف أن يكذبون** » فهو يستعين بفصاحة أخيه في تحقيق تصديق قومه له . ويلاحظ اسناد التصديق الى ضمير هارون . مع أن المقصود تصديق قومه له . بدليل قوله « **اني أخاف أن يكذبون** » لأنه لما كان هارون سببا في تصديق قومه لفصاحته وقدرته على المحاجة وعرض الدعوة عرضا يصل الى القلوب أسند الفعل اليه على سبيل المجاز العقلي ، وسر العدول عن الاسناد الحقيقي الى الاسناد المجازي بيان أهمية السبب في تحقيق التصديق واشارة واضحة الى قيمة البلاغة وقوة البيان في نجاح الداعية .

ثم تكون استجابة الله لموسى في صيغة تؤكد هذا أيضا وتقرره قال : « **سنشد عضدك بأخيك** » فالمعنى سنعينك ونقويك ، ولكن النظم الكريم آثر أسلوب الكناية مبالغة في الصفة كما هو شأن الكناية دائما اذ هي تصور المعنى وتعرضه مصحوبا بدليله « فاليد تشتد بشدة العضد ، والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور » (٢) .

وذلك يضيف تأكيدا لقدر الفصاحة وتنبيها على خطرها . اذ بها تكون هذه القوة المؤكدة .

ومما يشير الى أهمية تمكن الداعية من اللغة والتصرف في فنونها قوله تعالى : « **وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم** » (٣) .

فالمراد باللسان هنا اللغة ، ولكن التعبير الكريم آثر استعمال « اللسان » مجازا عن اللغة لأنه أداة النطق وآلته وذلك ليشير الى أهمية

---

(١) الكشاف ص ١٧٦ جـ ٣ . (٢) الكشاف ص ١٧٦ جـ ٣ .

(٣) ابراهيم : ٤ .

تمكن الرسول من لغة قومه حتى لكأن ألسنهم فى فمه بها يعبر وبها يفصح ويبين •

ثالثا : أن يكون عالما بروح الجماعة ، وطرق التأثير فيها ، وخصائص تفكيرها ، ونزعاتها النفسية ، وموقفها من الدعوة ، حتى يواجه كل ذلك بما يناسبه •

ورابعها : أن يكون فى سيرته وسلوكه قدوة حسنة ، وصورة لما يدعو اليه ، والمثل الأعلى فى ذلك سيدنا رسول ﷺ فقد أوجزت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ وصف أخلاقه حين سئلت عنها قائلة : « كان خلقه القرآن »•

وخامسها : اذا كان هدف الداعية الأساسى هو الوصول بالمدعوين الى الايمان بدعوته ، فمن الطبيعى أن من يريد الوصول الى الايمان عن طريق أى لون من الوان الاكراه فانما يحاول عبثا ، ذلك لأن الايمان بطبيعته يتنافى مع الاكراه • وطالما كان موضوع الدعوة بعيدا عن الهوى والغرض الشخصى وهدفها هو الخير والمثل العليا ، فان أول ما يجب أن يلاحظه الداعية هو أن الحرية الفردية ، وكرامة الفرد من القيم الرفيعة التى يجب أن تتحقق فى حياة الانسان ، عن طريق أية دعوة للاصلاح ، ولنقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

« انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين • وأن أتلوا القرآن ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين » (١) •

فالنص الكريم أكد هذا المعنى عندما أشار بجلاء الى حرية الانسان فى اختيار الهدى أو الضلال مادام مستعدا لتحمل نتائج عمله ، ثم عندما بين مهمة الرسول عليه السلام وأنه من المنذرين ، بهذا الأسلوب المؤكد مستخدما القصر بـ « انما » حتى لكأن مهمته مقصورة على الانذار فليس له أن يجبر أحدا على الهدى •

وسادسها : أن الداعية أيضا بجانب ايمانه الراسخ بدعوته ، يجب أن يكون على حظ وافر من القدرة على التحمل والصبر ، فلا تحمله المحن على أن يستسلم لأعداء الدعوة ، أو أن تتبدد طاقته استبطاء للنتائج المرجوة •

---

(١) النمل : ٩١ ، ٩٢ •

ولعل خير ما يشير الى ذلك هـذا الاعـــداد الروحى الخاص الذى أمر الله تعالى سيدنا رسول الله ﷺ أن يأخذ به نفسه منذ بدء الدعـوة فى قوله تعـــالى :

« يا أيها المزمل • قم الليل الا قليلا • نصفه أو انقص منه قليلا • أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا • انا سنلقى عليك قولا ثقيلا • ان ناشئة الليل هى أشد وطئـا وأقوم قيلا • ان لك فى النهار سـبحا طويلا • واذكر اسم ربك وتبتـل اليه تبتيلا • رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا • واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » (١) •

فمع أن طبيعته الخاصة السامية ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهلتـه للرسالة ، يأمره الله تعالى أن يوطـن نفســه على تحمل المصاعب ومواجهة الخطوب والنهوض بعبء الدعوة الثقيل ، بهذا الاعداد الروحى الذى يمـد الرّوح بزاد يعينها على الصمود والصبر •

هـذا وما دام الداعية هو فى واقعــه زعيما لأتباعه رائدا لهم ، فهـو بحاجة الى صفات أخرى توفى بحق القيادة ، آثـرنا الا نتعـرض لها حتى لا يبتعد بنا الحديث عن موضوعنا الأساسى ، مثل القدرة على التنظيم وتربية القيادات وايجاد استقطاب حول الدعوة ، الى غير ذلك من الصفات (٢) •



● **ثالثا ـ المدعوون :**

الداعية يتوجه بدعوته الى الجماعة يريد استمالتها اليها ، ويحثهم على الايمان بها والانضواء تحت لوائها ، كى يتاح لهذا الايمان أن يقـوم بدوره فى تغيير ما عليه الجماعة من فساد فى العقائد والقيم والسلوك ،

---

(١) المزمل : ١ ـ ١٠ •

(٢) اقرأ فى هذا الموضوع :

ـــ الدعوة الأسلامية فى عهدها المكى • دكتور رؤوف شلبى

ـــ تذكرة الدعاة • الأستاذ البهى الخولى •

ـــ السبيل الى دعوة الحق والقائم بأمرها • دكتور محمد البهى •

ـــ روح الجماعات • دكتور جوستاف ليبون •

ـــ مبادىء تنمية المجتمع • دكتور عبد المنعم شوقى •

ـــ الخطابة • لأرسـطو •

ليبنى على أنقاض ذلك عقيدة صحيحة ، ويغرس قيما فاضلة ، ويقوم سلوكا معوجا ، فيصل فى نهاية الأمر الى بناء حضارى جديد يحقق بـه دعـوته فى الواقـع الملموس . « ذلك لأن العقيدة الجـديدة اذا ما رسخت فى روح الجماعات أوحت الى هذه الروح بنظمها وفنونها وسلوكها ، وهناك يغـدو سلطان العقيدة على النفس مطلقا ، فيفكر رجال العمل فى تحقيقها ، ويفـكر المشرعون فى تطبيقها ، ويفكر الفلاسفة والفننون والأدباء فى التعبير عنهـا بمختلف الوجوه » (١) .

لكن تعامل الداعية مع الجماعة يجعل مهمته غاية فى الصعوبة والعسر لأن للجماعات خصائصها النفسية التى تجعلها متميزة فى طريقة تفـكيرها وشعورها وسلوكها عن الطريق التى يسلكها كل فرد فيها لو كان منفردا عنها .

لهذا كان من الضرورى للداعية أن يكون عالما بخصائص الجماعات ، وطرق التأثير فيها ، والوصول الى اقناعها ، ليتمكن من الوصول الى غايته المأمولة ، وسنشير فى هذا المقام الى أهم ما توصل اليه الدارسون لخصائص الجماعات وطرق التأثير فيها ، لنصل الى هدفين هما :

أولا : أن يكون ذلك عونا للدعاة الذين يقفون حياتهم على هذه المهمة الجليـلة .

ثانيا : لنثبت أن أسلوب القرآن الكريم هو ذروة ما يتطلع اليه المصلحون والدعاة فى التعامل مع الجماعات وتغييرها .

★ ★ ★

خصائص الجماعات

● الوحدة النفسية للجماعة :

ولا يقصد بالجماعات مجرد اجتماع عدد من الأفراد عرضا فى مكان واحد بـل لابـد أن بينهم شىء يمتد أثـره اليهم جميعـا : كخضوعهم لبعض المثيرات القوية كحادث قومى ، أو انتمائهم الى طائفة أو فرقة معينة أو طبقـة خاصة ، مما يؤلف بين أفرادها وحدة نفسية تربط بينهم .

---

(١) روح الجماعات . جوستاف ليبون ص ١٣٢ .

هذه الجماعة متى وجدت اكتسبت صفات جديدة مختلفة أشد الاختلاف عن صفات كل فرد فيها · اذ تتجه أفكار كل واحد من أولئك الأفراد صوب اتجاه واحد ، تجعلهم يفكرون ويشعرون ويسيرون على وجه يخالف ما يشعر به ويفكر فيه ويسير عليه كل واحد منهم وهو منفرد ·

ويمكن أن نرجع ظهور صفات خاصة بالجماعة الى أسباب مختلفة ·

أولا : أن الفرد يكتسب فى الجماعة بفعل العدد شعورا بقدرة لا تقهر فبينما الفرد وحده يردع غرائزه ويخضعها لارادته ، لشعوره بالمسئولية ، اذا هو وسط الجماعة يذعن لغرائزه طوعا ، نظرا لزوال الشعور بالمسئولية ما دامت الجماعة غفلا ، ومن ثم غير مسئولة ·

ثانيا : العدوى النفسية فالفرد فى الجماعة تسرى اليه بالعدوى المشاعر الجماعية بطريقة لم يتوصل الى تفسيرها ، وان كانت موجودة وتسهل ملاحظتها وانتقال شعور الجماعة الى الفرد بالعدوى يسهل للفرد ان يضحى بمصلحته الشخصية فى سبيل الجماعة العامة ، وهذا استعداد مخالف لطبيعة الفرد لا يقدر عليه الانسان الا اذا كان جزءا من جماعة ·

ثالثا : قابلية الانسان للتلقين · فمما هو معلوم أن الانسان يمكن وضعه فى حال يفقد فيها ذاته الشاعرة ، فينقاد لتلقينات الفاعل الذى أفقده اياها ويقترف ــ وهو فى حالته تلك ــ أشد الأعمال مخالفة لطبيعته وعاداته ولعل ذروة ذلك يتم فى « التنويم المغناطيسى » ، حيث تستولى ارادة المنوم على وسيطه ، فالشخص فى الجماعة يكون فى حالة قريبة الشبه بذلك وحين تزول ملكات الفرد الشاعرة تنشط ملكاته غير الشاعرة ، فيندفع بفعل التلقين الى أشد الأعمال بعدا عن طبيعته فيقدم الجبان ، ويسخو البخيل ، ويثور الحليم ، وباختصار ، لا يصبح الفرد كما كان بل يصير آلة تعجز ارادته عن قيادتها ·

وقد أقر القرآن الكريم هذه الحقيقة العلمية ودعا الى وضعها فى الاعتبار عند مباشرة الدعوة وذلك فى قوله تعالى :

« قل انما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » (١)

---

(١) سبأ : ٤٦ ·

قال صاحب الكشاف فى تفسير الآية الكريمة بعد أن شرح مفرداتها ، « والمعنى : انما أعظكم بواحدة ان فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ، وهى أن تقوموا لوجه الله خالصا متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا ٠ ثم تتفكروا فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ٠ أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين، لا يميل بهما اتباع هوى ، ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه ٠ وكذلك الفرد يفكر فى نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابر ، ويعرض فكره على عقله وذهنه ، وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم » ثم يقول : « والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الروية ، ويخلط العقول ، ومع ذلك يقل الانصاف ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج الغضب ولا يسمع الا نصرة المذهب » (١) ٠

فما ذكره صاحب الكشاف من تعليل لطلب التفكير بعيدا عن الجماعة هو ما يقوله علماء النفس والاجتماع من سيطرة روح الجماعة على الأفراد ، سيطرة لا تترك لهم حرية التفكير بعيدا عن التأثر بها (٢) ٠

ولعل ذلك أيضا يفسر لنا الطريقة التى أسلم بها كثير من الأفراد ممن كانوا يبدون أعنف المقاومة للدعوة طالما ظلوا مرتبطين بالجماعة ، حتى اذا أتيح لأحدهم أن يخلو الى نفسه ، وعرضت عليه الدعوة فى ظروف خاصة يتخلص خلالها من تأثير الجماعة ، نراه يسرع الى الاستجابة لها ، وينتقل طواعية الى صفوف المؤمنين ٠

من ذلك ما روى عن سبب اسلام سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ٠ وملخصها : أن عمر خرج متوشحا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطا من أصحابه قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء ، وفى الطريق لقيه نعيم بن عبد الله فسأله عن وجهته فأخبره بغرضه ، فحذره بنى عبد مناف ، ودعاه أن يرجع الى بعض أهله : ختنه (٣) سعيد

---

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٩٤ ٠

(٢) انظر فى هذا : روح الجماعات ص ٢٨ وما بعدها ٠ فصل : الخصائص النفسية للجماعات ٠

(٣) الختن بالتحريك : الصهر أو كل من كان من قبل المرأة كالاب والاخ والمراد هنا زوج أخته ٠ القاموس المحيط ص ٢٢٠ ج ٤ طبعة الحلبى ١٩٥٢ ٠

ابن زيد بن عمرو ، وأخته فاطمة بنت الخطاب زوج سعيد فقد صبأ عن دينهما ٠

فذهب اليهما عمر مغيظا محنقا وهناك سمع خبابا يتلو عليهما القرآن فاقتحم الباب ، وبطش بختنه سعيد ، وشج أخته فاطمة ، ثم أخذ الصحيفة بعد حوار ، وفيها سورة طه ، فلما قرأ صدرا منها قال :

« ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » ٠ ثم ذهب الى النبى ﷺ فأعلن اسلامه ٠ فكبر المسلمون تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم ٠

هكذا عندما واجه عمر رضى الله عنه نفسه ، بعيدا عن تأثير الجماعة انقاد لطبيعته الخاصة ، فى لحظة صدق بعيدا عن المؤثرات ٠

وما من شك فى أن تأثير القرآن الكريم هو العامل الحاسم فى اسلام عمر ، ولكننا نذكر القصة من زاوية دلالتها فقط على قوة تاثير الجماعة على الفرد اذ من المستبعد أن تكون هذه هى المرة الأولى التى يستمع فيها عمر رضى الله عنه الى القرآن الكريم ٠

ولعل الحادثة التالية أوضح دلالة على ما نحن بصدده من تأثير الجماعة ، فصاحبها اتخذ موقفا من الدعوة وكادت تصل الى أعماقه ويستسلم لها عندما احتكم الى طبيعته الخاصة ، ولكنه لحظة العاثر قدر له أن يضع نفسه مرة أخرى فى غمار الجماعة ويقع تحت تأثيرها ، ذلكم هو الوليد ابن المغيرة فقد روت كتب السيرة أن النبى ﷺ قام فى المسجد يصلى ، والوليد قريب منه يسمع قراءته ، فلما فطن النبى ﷺ لاستماعه ، أعاد قراءة الآية ٠ فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم فقال : « والله لقد سمعت من محمد ﷺ آنفا كلاما ، ما هو من كلام الانس ، ولا من كلام الجن ٠٠ والله ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق وأنه يعلو ولا يعلى عليه » ٠ ثم انصرف الى منزله ٠ فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، ولتصبأن قريش كلها ٠ فأوفدوا اليه أبا جهل يحتال لصرفه عن الاسلام ان كان قد نوى الدخول فيه ، ومازال به حتى قام معه الى مجلس قومه ، فقال لهم : تزعمون أن محمدا ﷺ مجنون ، فهل رأيتموه يحنق قط ؟ تزعمون انه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ تزعمون انه شاعر وما فيكم أعلم بالشعر منى ، فهل رأيتموه ينطق بالشعر قط ؟ تزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه كذبا ؟ ٠ يسألهم ويجيبونه : كلا ، فى كل سؤال ٠

حتى أعيـاهم أن يردوا كلامه • فقال أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه فقال : دعنى حتى أتفكر • ثم قال « ما هو الا سحر يؤثر ، أما رأيتمـوه يفرق بين الرجل وأهـله وولده ومواليه ؟ فهو ساحر وهذا هو السحر المبين » فنزل قوله تعـالى :

« ذرنى ومن خلقت وحيدا • وجعلت له مالا ممدودا • وبنين شهودا • ومهدت له تمهيدا • ثم يطمع أن أزيد • كلا انه كان لآياتنا عنيدا • سـأرهقه صعودا • انه فكر وقدر • فقتل كيف قدر • ثم قتل كيف قدر • ثم نظر • ثم عبس وبسر • ثم أدبر واستكبر • فقال ان هذا الا سحر يؤثر » (١) •

فهاهو ذا التعبير القرآنى يصور مغالبة الوليد لطبيعته ، التى أستجابت للحق ، ومحاولته أن يطمس نور القرآن الكريم ، الذى نفذ الى صدره ، حين استقبله متجردا من المشاعر التى يؤججها ارتباطه بالجماعة وتأثره بهـا • فينكص على عقبيه ، بعد أن استسلم لتيار الجماعة ، واغرق نفسه فى لجـة مشاعرها المتلاطمة •

فلنتابع الآن دراستنا للجماعات ، مادام تاثيرها بهذه المثابة من القوة الغلابة ••

● مشاعر الجماعة وتعقلها :

يقول جوستاف ليبون :

« الجماعة تسير بتأثير النخاع أكثر من تأثير الدماغ » (٢) •

وذلك راجع الى ما قدمناه من الصفات النفسية للجماعة ، والتى أثبت القرآن الكريم صحتها • وهى أن الفرد اذا انخرط فى جماعة تلاشت ملكاته الشاعرة ، ونشطت ملكاته غير الشاعرة ، فيندفع بفعل التلقين والاستهواء الى أشد الأعمال بعدا عن طبيعته الخاصة •

---

(١) المدثر : ١١ ـ ٢٤ •

(٢) روح الجماعات ص ٣٨ •

فعندما يتعرض الفرد لما يثير مشاعره ، فانه يستطيع ، وهو بعيد عن الجماعة أن يزن الأمور بعقله ، ويدرك ما سيترتب على اندفاعه من أخطار ، فيكبح جماح مشاعره ، ولا يسمح لها بأن تقوده الى ما يعرضه للأذى · أما في الجماعة فانه بفعل الشعور بالقوة وبالعدوى والتلقين ، يفقد قدرته على السيطرة على ارادته وتجرف مشاعره المتأججة كل مقاومة يبديها عقله وفكره ·

ومن هنا كانت مشاعر الجماعة دائما متسمة بالعنف والغلو فى أى اتجاه مالت اليه ، خيرا كان أم شرا ، حسبما تتعرض له من مثيرات ، ووفق التلقين الذى يعين اتجاهها ·

ومن هنا أيضا كان صوت العقل والمنطق خافتا متواريا فى خضم تدفق المشاعر وحدتها ، وكان حظه ضئيلا فى توجيه الجماعة وقيادتها ·

ولعل هذا يفسر لنا كيف تستطيع النظم السياسية حتى الآن بما تملك من وسائل التوجيه والاعلام ، أن تعبىء الجماهير ، وتثير مشاعرها ، وتدفعها الى العمل وفق ما تريد ، بما توجهه اليها من تلقين مرسوم قد أحكمت صياغته فلا يلبث أن تنشب أفاعيله فى النفوس ، ويحدد اتجاه مشاعرها ويطغى على كل ما لدى أفرادها من قدرة على النقد والتبصر ·

واننا نشاهد العداء ينشب بين الدولتين المتجاورتين لا يفصل بينهما سوى خط حدود وهمى ، وقد يلتقى فرد من احدى الدولتين بفرد من الدولة الأخرى فيولى كل منهما ظهره للآخر ، ولا يدع لصاحبه فرصة لاقناعه بوجهة نظره ، فقد يكون الحق مع أحدهما فيتبعه الآخر ، وقد يكتشفان بعد المناقشة أن الأمر لا يعدو أن يكون لعبة سياسية ، يدفع اليها طموح الحاكم ورغبته فى فرض نفوذه ، وأنه يسخر شعبه فى تحقيق مطامعه ، ولكن لا سبيل الى شىء من ذلك ، لأن كلا منهما واقع تحت تأثير روح الجماعة التى لا تدع لعقله مجالا للنقد والحكم على الأمور والأعجب من ذلك أن الأزمة بين الدولتين قد تنتهى الى لا شىء ، أو تستجد ظروف ترى معها القيادة السياسية تغيير موقفها ، فتعمد بايحاء جديد مرسوم ومقدر أيضا الى هذه المشاعر فتتهنه حدتها ، أو تحولها الى الاتجاه المغاير تماما لمسارها ، فيتقابل هذان الفردان عينهما ، ويتعانقان فى بلاهة ، وكأنهما دميتان تحركهما خيوط سحرية تمسك بها أيد خفية ·

وليس معنى ذلك انه ليس هناك مجال للعقل فى توجيه الجماعة ، فهناك قطعا الأفراد المتازون الذين تستعصى عقولهم على كل تاثير يراد له أن يحجب بصيرتها . كما انه لابد أن يكون التلقين الأول ـ الذى يراد به اثارة الجماعة ـ ذا صبغة مستساغة ، لا تصطدم مع ما تدركه بداهة العقل ، كى يجد لـه طريقا ينفذ من خلاله الى النفوس فيؤجج مشاعرها . ولكن ذلك كله لا يضع العقـل والفكر فى المقام الأول بين العوامل المؤثرة فى الجماعة .

● **خيال الجماعات :**

الخيال جزء من الفطرة الانسانية ، وهو احـدى الملكات المركوزة فى النفس لتؤدى دورها فى الحياة ، فبه يوسع الانسان حدود العالم الذى يعيش فيه ، « فلا فارق فى الاحســـاس النفسى بين الخيال والواقع حين يوجد كل منهما فى النفس ، كل خيال وجد فى النفس بالفعل ، فهو حقيقة شـــعورية نفسية تؤدى الى نتيجة فعلية : من غم أو فرح أو نشاط أو تقاعس . ومن ثم يعيش الانسان ، عن طريق الخــيال ، فى عــالم أوسع من العالم الواقعى المحدود » (١) .

وارتباط الخيال بالمشاعر والعواطف ارتباط وثيق محكم ، فالعواطف الثائرة والمشاعر الملتهبة لا تجد فى الواقع ما يفى بالتعبير عنها وتصويرها ، ومن ثم تلجأ الى الخيال ، فتجـد فيه الأداة الكاملة . كما أن الخيال مـن جهة أخرى سواء اكان ابتكاريا ، (وهو الذى يختار عناصره من بين التجارب السابقة ويؤلفها مجموعة جديدة) ، أو تأليفيا (وهو الذى يجمع بين الأفكار والصور التى تنتهى الى أصل عاطفى واحد) ، او تفسيريا (وهو الذى يخلع على الأشياء الجامدة طبيعة انسانية تجعلها تحس وتتألم وتفرح وتتفلسف) ، هذا الخيال بكل الوانه هو أهم الوسائل لبعث العواطف واثارة المشـاعر فى النفــوس ، وبالتــالى دفعهــا للعمــل والحــركة فى اطار ما توحى به مـن اتجاه (٢) .

وقد سبق أن أوضحنا أن الجماعة تمتاز بتدفق المشاعر وحدتها وأن صوت العقل فيها يبدو خافتا . ولذلك كان خيال الجماعة التصورى ذا استعداد

---

(١) دراسات فى النفس الانسانية . محمد قطب . دار الشروق ص ١١٧ .

(٢) انظر فى هذا فصلى العاطفة والخيال من كتـاب أصول النقد الأدبى للأستاذ احمـد الشايب . ص ١٨٠ وما بعدها .

للتأثر العميق • وكان للصور التى يثيرها الخيال من الأثر البعيد ما للأمور الواقعية • والجماعات اذا لم تقدر على التفكير بغير الخيالات ، لا يؤثر فيهـا بالخيالات • ولذلك كان للتمثيل الروائى الذى يبرز الخيال على وجهه السافر تأثير عظيم فى كل حين •

يقول جوستاف ليبون : « ولا شيء يقف الخيال الشعبى أكثر من الرواية التمثيلية ، فتعترى البهو روعة واحدة فى آن واحد ، واذا كانت هذه الروعة لا تخرج الى حيز العمل من فورها فلأن أكثر الحضور عدم شعور لا يجهـل أنه ضحية الأوهام ، وأنه ضحك أو بكى بفعل مغامرات خيالية • ومما يحـدث أحيانا ، مع ذلك ، أن تكون المشـــاعر التى توحى بها الأخيلة من القوة ما تنتقل به الى العمل كما يؤدى اليه التلقين غالبا ، ومما يروى فى ذلك قصة المسرح الشعبى الفاجعى الذى كان يضطر الى حماية الممثل الذى مثل دور الخائن عند خروجه من المسرح انقاذا له من عنف الجماهير الذين أغضبتهم جرائمه الخيالية » (١) •

واذا كانت الجماعات بهذه المثابة : من حدة فى المشاعر ، وخفوت فى صوت العقل ، وتحليق فى الخيال ، فما هى وسائل التاثير فيها ، والوصـول الى استمالتها واقناعها ؟

ذلك ما سنوجزه فيما يلى •



عوامل التأثير فى الجماعات

● **التعامل مع النفس البشرية بكل جوانبها :**

لا شك أن هدف الدعوة هو الوصول بالمدعو الى الايمان بها ، ايمانا لا يقف عند حد التصديق والاقتناع العقلى بما تعرضه من أفكار ، بل يتعـدى ذلك الى اطمئنانه النفسى الذى يحمله على العمل ـ بمقتضى هذا الايمـان ـ وتقويم سـلوكه فى الحياة ـ وفق ما يمليه عليه ايمانه من قيم ومثل ، وان خالف مقتضى الأهواء والشهوات والتقاليد والعادات •

---

(١) روح الجماعات ص ٦٣ ـ ٦٤ •

وفى هذا النطاق فان البيان والاعلام والأمر والنهى لا يكفى فى الحمل على الالتزام بالقيم الجديدة والعمل بمقتضاها ، اذا تعارض ذلك مع الموانع النفسية المتمثلة فى عواطفه وشهواته ، وفيما للتقاليد والعادات فى النفوس من أثر قوى لا يمكن مغالبته الا لأفراد قلائل ممن أوتوا ارادة صلبة وبصيرة نافذة . والدعوة لا توجه لهؤلاء وحدهم ، وانما توجه الى الجماعة كلها .

ومن هنا كان لابد ـ لتثبيت الايمان فى القلوب ، ومنحه القدرة على مغالبة هذه الموانع النفسية ـ ألا نكتفى بجعله ايمانا عقليا باردا ، بل لابد أن يتحول الى ايمان وجدانى ، حاكم على القلب ، راجح على ما يخالفه من رغب ورهب وأمل وألم .

ولن يتهيأ ذلك الا بأن نتوجه الى كل منافذ التأثير فى الانسان ، لنصل من خلالها الى ما نريده من جعل الدعوة فى قرار مكين ، وأن نغير بها النفوس قبل أن نغير السلوك .

يقول الدكتور محمد رجب البيومى : « اذا كان القرآن الكريم قد أوتى ـ الاقناع المنطقى الملزم ، فانه لا يتجه بحديثه الى الفكر وحده فيلزمه الحجة مكتفيا به عن سواه ، اذ أن فاطر السموات والأرض يعلم أن المعرفة العلمية وحدها لا تكفى فى الانجذاب والتأثير ، فلا بد معها من غزو لمناطق الشعور، وبعث لكوامن العواطف ، حتى يتهيأ السامع اذا سمع ، والقارىء اذا تلا ، الى انجذاب نفسى يدفعه الى أشرف المبادىء وأحكم المثل . ولو كانت المعرفة وحدها كافية للهداية لكانت كتب العلوم الأرضية المخلصة دليل المهتدى ، اذا قرئت ودرست ولكنك تشاهد الناس يقرأونها مقتنعين ، ثم يحيدون عن أكثر ما تهدى اليه ، اذ أن العلم شىء ، والسلوك الانسانى شىء آخر . لذلك اتجه القرآن الى التأثير ـ الوجدانى بعد الحجة المقدمة ، ليغزو مناطق الشعور الانسانى بتصويره ، كما غزا مناطق التفكير العقلى بحججه ، فجاء التصوير البيانى فى القرآن الكريم آية الآيات فى الروعة والاعجاز » (٢) .

والانسان سواء أكان منفردا أم فى جماعة يجمع فى طبيعته من الملكات المتعددة ما يجعل اهمال بعضها اهدارا لجانب من الطبيعة الانسانية خلقه الله تعالى ليقوم بدوره ، ويؤدى وظيفته .

---

(١) البيان القرآنى ص ٧٨ دكتور محمد رجب البيومى .

وحين اتجه علمـاء الكلام الى العقل وحـده ، ماذا كانت الثمرة التى جناها الاسلام من وراء جهودهم الخارقة التى ظلت قرونا وقرونا تبدىء وتعيد فى حجج عقلية باردة لا تثير وجدانا ولا تدفع الى عمل ؟

ان علينا أن نلتقى بالانسان فى قواه المختلفة ، وأن نتعامل معها جميعا ، نتعامل مع العقل بما له من قوة الادراك والتمييز ، ونتعـامل مع الوجدان باعتباره وعاء الأحاسيس والمشاعر التى تنشأ عن التأثير بما يسر ويؤلم ، ونتعامل مع الارادة باعتبـار ما تتخذه من قرارات هو النتيجـة النهـائية لاستجابتها أو رفضها للدعوة • ذلك أن الصفات النفسية للانسـان مرتبط بعضها ببعض ، ويؤثر بعضها فى بعض • والايمان هو حالة نفسية ، مرتبط بالجوانب النفسية كلها ، يتأثر بها ويؤثر فيها •

يقول الدكتور محمود حسب الله : « فالعقائد الدينية لا تعتمد على جانب واحد من جوانب الحياة النفسية للانسان ـ الوجدانية والارادية والعقلية ـ ولكنها تتصل بها كلها اتصالا وثيقا ، ولا ترضى نفس المرء ولا تكتمل شخصيته الا اذا تضامنت شخصيته ونواحيه النفسية كلها ، وعملت معا على تقبل كل عقيدة من عقائده ، فلا يوجد شىء من التضارب بين قواه المتعددة ، حـول عقيدة من العقائد ، بل انسجام ووئام • فيوجد قبول عقلى ، واطمئنان قلبى ، والتقاء مع الارادة ، وذلك هو كمال الشخصية وكمال العقيدة » (١) •

ثم يقول : « وما دامت العقائد الدينية متصلة بكل من العقل والوجدان والارادة ، احتاجت ، فى وسـائل نشرها ، الى الاعتمـاد عـلى كل هـذه القوى » (٢) •

وما دام هذا شأن من توجه له الدعوة وطبيعته ، فلا بد لنا ـ كى نصل الى التأثير فيه ـ أن نلاحظ طبيعته بكل جوانبها غير أن الفرد فى جمـاعة يواجه واقعا يحدث فى طبيعته بعض التعديل • حيث ينشط جانبه الوجدانى ، بسبب تفاعله مع الجماعة ، واستهوائها له ، وسيطرة روحها العامة عـلى ملكاته الخاصة كما سبق الحديث عن ذلك •ومن هنا يأتى الحديث عن الوسائل الخاصة للتأثير فى الجماعات باعتبارها تضفى على الطبيعة صفات مميزة • اذ ترهف المشاعر ، وتخدر الفكر ، وتطلق عنان الخيال والأوهام •

---

(١) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ •

(٢) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص ٢٧٤ •

● الأسلوب التصويرى :

وأول وسائل التأثير فى الجماعات وأبعدها أثرا هو الصورة ، الصورة الموحية التى تترك فى النفس انطباعا وجدانيا ، يمثل فيها دور الشرارة الأولى التى لابد منها فى احداث الحركة والانفعال · هذا الانطباع يوقظ فى النفس جذوة من الأحاسيس مناسبة له ، تسير فى اتجاه ما يوحى به ، سرورا كان ذلك أو ألما ، رضا أو رفضا ، بشاشة أو اكتئابا ، ترحيبا أو نفورا · ويظل هذا الانطباع يؤدى وظيفته فى توجيه قوى النفس ، وايقاظ المشاعر ، وتفجير القوى اللازمة لتحويل هذا الشعور الى عمل ، وترجمته الى سلوك · فوراء كل عمل انسانى دافع نفسى من هذا الطراز ·

واذا لم تكن الصور لدينا فى كل وقت ، أمكننا أن نستحضرها باستعمال الألفاظ ، والصيغ استعمالا بارعا يؤدى دور الصورة ان لم يرب عليه ·

يقول جوستاف ليبون : « الحق أن الألفاظ والصيغ اذا استخدمت بحذق اتفق لها من السلطان الخفى ما عزاه اليها المؤمنون بالسحر فيما مضى ، ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية سلطان الألفاظ والصيغ لأمكن أن يقام منها هرما أعلى من هرم خوفو القديم » (١) ·

وتكمن قدرة الألفاظ على التصوير فى أن لكل لفظ الى جانب دلالته اللغوية دلالة أخرى شعورية تتمثل فيما يوحى به اللفظ من الصور والظلال وما يبثه من موسيقى خاصة وايقاع متميز · وبالنجاح فى استغلال طاقة اللفظ اللغوية والايحائية ، نستطيع أن نصور المعانى ، ونجسم الأفكار ونشخص الأشياء ، ونرسم بالألفاظ لوحات ذات أبعاد واضحة يتملاها الوجدان ببصيرته ، فينفعل بها ، ويتأثر بوحيها ، ويستجيب لهتافها ·

اذن فسلطان الألفاظ والصيغ مرتبط بما تثيره من الصور ، وما تبثه من ايحاء ، وهو شىء مستقل عن معناها اللغوى ، زائد عليه ، وان كان كل منهما يعضد الآخر ويؤازره · والعالم أو الفيلسوف حينما يستخدم الألفاظ يحاول أن يجردها من كل طاقاتها الشعورية ، وما توحى به ، ليحتفظ لها بدلالتها الذهنية التجريدية ، حتى يضمن وضوح الدلالة وثبوتها · فالمعنى

---

(١) روح الجماعات ص ٩٦ ·

اللغوى ثابت لا يتغير ، أما المعنى الشعورى فمتغير ، لانه يكتسب كل يوم ملابسة شعورية جديدة تضاف الى رصيده ٠

ومن هنا كان الاسلوب التصويرى هو المتفرد بالقدرة على التأثير فى المشاعر ، والوصول الى أعماق النفس البشرية ، محركا لكوامنها ، مؤججا لقواها ٠

يقول فضيلة الدكتور أحمد موسى : « من أسباب تأثير التشبيه فى النفوس أنه ينقل النفس من الخفى الى الجلى » ٠ وايضاح ذلك أن كثيـرا من التشـبيهات ينقل النفس عن المعقـول الى المحس ، وعما يعلم بالفكر والروية الى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، وذلك يوفر لها الانس بالمعنى ، ويملؤها ثقة به ٠ واطمئنانا اليه ، ومرجع ذلك الى سببين :

أولهمـا : ان العـلم المسـتفاد من طريق الحـواس ، أو جهـة الطبع والضرورة ، يفضـل العلم المستفاد من جهة العقـل والفكـر : فى القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قيل : « ليس الخبر كالعيان ، ولا الظن كاليقين » ، وكما روى « ان الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل فلم يلق الألواح ، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت » ٠

وثانيهما : ان العـلم المسـتفاد من جهـة الحواس ، أو من الطبـع والضرورة ، أسبق الى النفس من العلم المستفاد عن طريق العقل والروية لأن العلم يجىء أولا عن طريق الحواس والطباع ، ثم من جهة العقل والفكر فكل من الحسى والضرورى أمس بالنفس رحما ، وأقوى لديها ذمما ، وأقدم صحبة ، وآكد حرمة »(١) ٠

وما ذكره أستاذنا الدكتور أحمد موسى يلقى أضواء قوية على خصائص الاسلوب التصويرى وأثره فى النفس ، ويجعل منه أداة التعامل معها ، ووسيلة الوصول الى أعماقها ٠

ويؤكد هـذا أن القـرآن الـكريم يؤثر الاسلوب التصـويرى من بين الأساليب فى دعوته الى مبادئه ، كما سندرس ذلك تفصيلا ، لأن صياغة المبادىء فى صورة قوانين ونظم محكمة ، تعبر عما تريد تعبيرا عقليا جافا

---

(١) بتصرف من البلاغة التطبيقية ص ٩٤ وما بعدها لفضيلة الدكتور أحمد موسى ٠

مجردا عما يرغب فيه ويشحذ الهمم الى اعتناقه غير مجد فى قيادة الجماعات والتأثير فيها ·

« فالانطباعات النفسية التى تحدث فى الجماعات هى التى تستهويها »(١) ·

« هناك من يعرض معانيه عرضا نظريا محضا ، لا هم له الا أن يستوعب العلل والمعلولات ، ويتعمق فى التفكير التجريدى ليحيط بالكليات والجزئيات ، وهذا منهاج لا تحرك به الجماهير ، ولا تثار به النهضات فالداعية حقا هو الذى يواجه الواقع العملى ، ويصلح بسنة الله ما شذ عن سنة الله · فالله سبحانه حين عرض علينا الحقائق - عرضها عرضا عمليا محسا، ولم يعرضها عرضا نظريا · فقدرته مثلا لم يحدثنا عن كنهها وكيفها ، وعن أسرارها الخفية ، ومعانيها التجريدية ، بل عرضها عرضا سافرا فى مخلوقاته ، فأنت تراها فى البحر والجبل ، والزهر والشجر ، والشمس والقمر ، ونحو ذلك مما تقع عليه العين فى الأرض والسماء » ·

« فهؤلاء المتعلقون بالنظريات المعنة فى الفروض ، يفسدون أنفسهم حين لا يسايرون قوانين الحياة ، ويحاولون أن يفسدوا على الناس نظام طبيعتهم السهل · والداعية يريد أن يهدى الى حضارة جديدة · ويدعو الى فضائل ويصد عن رذائل ، فعليه أن يتبع سنة الله فى عرض المعانى ، ويعرضها فى صور عملية تمشى على قدمين ، وتسعى على الأرض ، وتؤثر فى الناس فذلك هو السبيل الوحيد الى بث الحياة فى القلوب ، وبث الحركة فى العقول »(٢) ·

● التوكيد والتكرار :

التوكيد من أهم الوسائل فى تثبيت المعنى فى القلوب ، وبثه فى النفوس وحملها على التصديق والايمان به · « ولا يكون التوكيد ذا نفوذ حقيقى الا اذا دام تكراره بعبارة واحدة ما أمكن » · « والأمر اذا ما أكد انتهى بالتكرار الى الرسوخ فى النفس على أنه حقيقة ثابتة »(٣) ·

---

(١) انظر روح الجماعات ص ٢٢ ·

(٢) بتصرف عن كتاب تذكرة الدعاة ، للاستاذ البهى الخولى ص ٤٣ - ٤٤ ·

(٣) روح الجماعات ص ١١٥ ·

ولا شك فى أن التوكيد والتكرار لهما أثر كبير فى النفوس · وهـذا شيء هديت اليه فطرة الانسان ، فلجأ الى تأكيد كلامه للسامع وتكرار مايريد نقله اليه ، لما رأى من أثر ذلك فى تثبيت المعانى وتأكيد الأفكار لديه ·

غير أن التكرار له فى نفس الجماعة أثر أكبر منه فى نفوس الأفراد وذلك لما سبق بيانه من أن نفسية الجماعة تكون أشد تأثرا ، وأسرع تصديقا لعدم احتكامها الى العقل فيما تأخذ وتدع ، لخفوت صوت العقل لديها فى خضم المشاعر المتدفقة ، فلا تشغل بالها كثيرا بتبين نصيب ما يكرر عليها من الصدق أو الكذب ·

« والأمر اذا كرر لم يلبث فى الحقيقة أن يستقر فى مناطق «اللاشعور» العميقة ، حيث تنضج عوامل سيرنا ، ونحن اذ ننسى مصدر الزعم المكرر بعد انقضاء بعض الزمن ، لا نلبث أن نؤمن به · وبهذا تفسر قوة الاعلام العجيبة » (١) ·

ولعل ذلك يفسر لنا لجوء الزعماء الى هـذا الأسلوب للتأثير فى الشعوب ، وحملهم على الايمان بسياساتهم ، وما الشعارات التى يصوغها الحكام وزعماء الأحزاب ، ويظلون يلوكونها صباح مساء ، الا استغلالا لهذا الاسلوب فى التأثير على الجماهير ·

« والقرآن الكريم استخدم التوكيد وسيلة لتثبيت المعنى فى نفوس قارئيه ، واقراره فى أفئدتهم ، حتى يصبح عقيدة من عقائدهم · وقد يكرر القرآن الجملة المؤكدة عدة مرات بألفاظها نفسها ، علما منه بما لذلك من أثر فى النفس » (٢) ·

ومن ذلك ما نراه من تكرار جمل بعينهـا فى بعض السور عقب كـل آية مثلما نقرأ فى سورة القمر قوله تعالى : « **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** »(٣) ·

وكما نجد فى سورة الرحمن : « **فبأى آلاء ربكما تكذبان** » · ومن ذلك أيضا ما نراه من تكرار للآيتين التاليتين خمس مرات فى سـورة الشعراء

---

(١) روح الجماعات ص ١١٥ ·
(٢) من بلاغة القرآن ـ الدكتور أحمد بدوى ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ·
(٣) القمر : ١٧ ·

دون أن يغير من ألفاظها حرفا واحدا · فقال على لسان بعض رسله صلوات الله عليهم : « **فاتقوا الله وأطيعون · وما أسألكم عليه من أجر ، ان أجرى الا على رب العالمين** »(١) ·

كما نرى القرآن الكريم يؤكد صفات الله : « **ان الله على كل شيء قدير** » ، « **ان الله بما تعملون بصير** » ، « **ان الله واسع عليم** » ·

كما يكرر مؤكدا وعده ووعيده فيقول :

« **ان الله مع المتقين** » و « **ان الله يحب المتقين** » ·

« **ان الله لا يحب الكافرين** » و « **ان الله لا يهدى القوم الكافرين** » ·

وكل هذه الألوان من التوكيد والتكرار ، انما هى أسلوب نفسى يؤدى دوره الأدبى فى التأثير الوجدانى · وهو عدة الداعية فى تبليغ الدعوة ·

ولعل هذا أيضا يفسر لنا ما انتدب اليه المؤمنون من دوام ذكر الله : « **الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم** »(٢) ·

● **الحجة العقلية :**

قلنا عند الحديث عن عوامل التأثير فى الجماعة : « ان علينا أن نلتقى بالانسان فى قواه المختلفة وأن نتعامل معها جميعا »(٣) ·

والعقل هو أحد هذه القوى ، ولكننا فى مجال تأثيره فى الجماعة لا يجب أن نمنحه فوق ما يستحقه · وان كنا نسلم بأن له دورا يقوم به ، متعاونا مع الجوانب الأخرى فى الطبيعة الانسانية · وما نريد تسجيله هنا عن تأثير الحجج العقلية يمضى بنا فى اتجاهين :

أولا : ان طبيعة التكوين النفسى للجماعة تجعل العقل فى مؤخرة ما تحتكم اليه ، وما تنقاد له فى سلوكها ، فقوة مشاعرها وتمكن الآراء

---

(١) الشعراء : الآيات : ١٠٨ ـ ١٠٩ ، ١٢٦ ـ ١٢٧ ، ١٤٤ ـ ١٤٥ ، ١٦٣ ـ ١٦٤ ، ١٧٨ ـ ١٧٩ ·

(٢) آل عمران : ١٩٢ ·

(٣) انظر ص ٣١ من هذا البحث ·

البالية المتوارثة من وجدانها ، واستعدادها الفطرى للاستهواء والتلقين ، كل ذلك يمثل حاجزا حصينا دون وصول صوت العقل والمنطق اليها ، لأنها لا تتأثر الا بما يلمس وجدانها ويثير خيالها •

« فالجماعات هى التى يخاطب الخطباء مشاعرها ، لا عقلها ابدا ، والجماعات هى التى لا تأثير لسنن المنطق العقلى فيها » ، « ولا يستطيع رجال المنطق الذى تعودوا البراهين المتسلسلة الوثيقة أن يعدلوا عن طراز الاقناع هذا حينما يخاطبون الجماعات ، وهم يحارون عندما يرون عدم تأثير أدلتهم على الدوام »(١) •

ولعل هذا يفسر لنا ما يقوله أرسطو : « ان الخطباء غير المثقفين اقدر على اقناع الجماهير من الخطباء المثقفين •• فالأولون أبرع فى فن القول أمام الجماهير ، لأنهم يصوغون الأفكار العامة المشتركة من موضوعات معارفهم ، فتأتى معارفهم قريبة من الجمهور » (٢) •

ولكن ذلك كله لا يعنى تنحية الحجج العقلية تماما عن عوامل التأثير فى الجماعة ، ولكنه فقط يؤكد ضرورة أن تصاغ هذه الحجج العقلية فى أسلوب يجمع بين ما يحرك الفكر ويثير الوجدان فى وقت واحد • ولعل تعبير « المنطق الوجدانى » يعبر بدقة عما يجب أن تكون عليه الحجج العقلية فى مخاطبة الجماهير •

« فالخطابة والمنطق يشتركان فى طرق التقرير والبرهنة والتفنيد ولكن المنطق يستخدم على الأخص للوقوف على قيمة التعريفات فى ذاتها وفى خصائصها وعوارضها ، وبهذا يمكن أن يكون أداة للمعارف العلمية فلا أثر فى المنطق لمزاعم الجماهير ، بل السير فيه وراء هذه المزاعم خطأ محض ، على حين تنظم الخطابة بالمنطق مادة موضوعها ، وتسوق حججها بحيث تكون ذات أثر فى جمهور معين ، ولابد من الملاءمة بين العبارات والحجج وملابسات الجمهور »(٣) •

---

(١) روح الجماعات ص ١٠٤ ـ ١٠٥ •

(٢) الخطابة ، أرسطو ، الكتاب الثانى ص ١٣٩٥ •

(٣) انظر النقد الادبى الحديث ص ٩٩ ـ ١٠٠ دكتور محمد غنيمى هلال •

والقرآن الكريم هو القمة التى لا تطاول فى هـذا الجانب ، كما سندرس ذلك ـ ان شاء الله ـ عند الحديث عن أسلوب الجدل فى القرآن ٠

ثانيا : ان العقل على ما له من فضل واقتدار جعل منه عنصر الامتياز الذى اختص به الله الانسـان وكرمه ، فانه فى ذات الوقت له مـداه الذى لا يمكنه أن يصل الى أبعد منه ، وله قدرته التى لا يتعداها ٠٠ فاذا كنا نلقى اليه الزمام طائعين فى كل ما يتعلق بأمور الحياة المادية ونسـلم له بالفضل فى بناء الحضارة المـادية ، فان استقراء التاريخ الفكرى النظرى البحت يثبت أن العقل قد عجز عجزا تاما فى هـذا المضمار ، ولم يتمكن من القيام بدور مثمر فيه ٠

يقول الدكتور عبد الحليم محمود : « ان كل من يدرس تاريخ الفكر البشرى يلاحظ أن المسائل العقلية البحتة التى طرحت للبحث العقلى فى العصور القـديمة ، هى نفس المسـائل التى طـرحت للبحث فى العصـور الوسطى ، وهى نفس المسائل التى تطرح الآن للبحث ٠

ان مسائل ما وراء الطبيعة ومسائل الأخلاق مازالت كما كانت مجالا للبحث ، انها لم تتقدم خطوة واحدة نحو الحل ٠ ومازال الخلاف مستمرا بنفس الحـدة التى كانت فى القرون السابقة للميلاد ٠

وقد حاول القدماء كما حاول المحدثون اختراع مقياس فيصل للتفرقة بين الحق والباطل ، ومن أشهر المقاييس القديمة ما اخترعه أرسطو تحت عنوان « المنطق » ٠

ولكن هـذا المنطق لم يعصم فكر المخترع نفسه عن الضلال ٠ ولقد برع فى المنطق كثير من المفكرين القدماء ، ومن مفكرى الاسلام ٠

لقـد برع فيه الكنـدى والفارابى وابن سينا ٠ بل لقد برع فيه الامام الغزالى براعة كبرى ، وبرع فيه فلاسفة الاسلام الغربيون مثل : ابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشـد ٠

وهؤلاء جميعـا اختلفوا ـ اختلافا جـذريا ـ فى آرائهم ونزعاتهم فما الحق فى آراء هؤلاء ، وما الباطل ؟

ان منطق أرسطو وقف عاجزا عجزا تاما عن بيان الخطأ والصـواب فى آراء هؤلاء المنـاطقة ٠

الام يرجع هؤلاء للتثبت من ارائهم ؟ انهم يرجعون الى أدلة عقلية ، يسهل جدا هدمها بأدلة عقلية ، كما يسهل جدا هدم الهدم .

لقد قام الغزالى بعمل عظيم ممثلا فى كتابه « تهافت الفلاسفة » انه فى هـذا الكتاب هـدام آراء الفلاسـفة ، رأيا رأيا ، فانهـارت تحت قلمه وسقطت فى ضـوء بيانه .

وقد استغرق هـذا الهدم ما يقرب من خمسة وتسعين فى المـائة من الكتاب ، أما الخمسة فى المـائة الباقية فقد أبان فيها الامام الغزالى الأساس الذى قام عليه الكتاب ، وهو بيان أن العقل الانسـانى لا يتأتى له فى عالم الالهيات والأخلاق ، الا ظنون لا تصل الى اليقين وأن ذلك العقل غير مؤهل للبحث فيها .

ومضى الزمن فى طريقه بعد الغزالى ، حتى نشأ ابن رشد ، فأخـذ يهدم آراء الغزالى فى نقد الفلاسفة ، وكان أبرع رد على ابن رشد أن عمله هـذا انما كان تأييدا للامام الغزالى أكثر مما كان هدما له وأن كل من يتأمل قليلا فى الموضوع ، يرى أن رأى الامام الغزالى هو أن العقل الذى يبنى هو العقل الذى يهـدم .

ويمضى ابن رشد ، فيجىء « ديكارت » ويزعم أنه اخترع مقياسا للفصل بين الخطأ والصواب . وكان منهج « ديكارت » أملا عذبا ، ولكن البحث أظهر أنه سراب وليس بمـاء .

وانتهى الأمل فى « ديكارت » ، كما انتهى فى « أرسطو » . وبقيت المسائل التى بحثت قبل الميلاد كما كانت ــ ظنية ــ مجالا للبحث ــ مختلفا فيها ــ والآراء فيها متعارضة . بين انكار مطلق ، واثبات مطلق ــ عجز العقل عن الحمل عليها ــ وعن الوصول لليقين فيها »(١) .

اذن فهـذا هو مجال العقل ، وتلك هى حدود قدرته : نجاح مذهل فى الجـانب المـادى ، يقابله اخفـاق فى الجانب النظرى . فما مغـزى ذلك كله ؟ وما الموقف السديد للداعية ازاء هـذا العقل ؟

ان هـذا الموقف تحدده طبيعـة الدعوة . والدعوة ترمى الى تغيير واقع انسـانى لا ترضى عنه . وهـذا التغيير يقوم على أسس فكرية وعلى

---

(١) بتصرف من كتاب « التوحيد الخالص .. أو الاسلام والعقل » ص ٥ ، ٦ ، ٧ .

عقائد وقيم • ووسيلة هــذا التغيير ، هى الوصول بالنفس الانسانية الى الايمان بهــذه العقائد والقيم الجديدة ، ايمان فعال ، يدفع الى العمل ، ويوجه الســلوك فأين دور العقل فى هــذه المهمة ؟

لقد أثبتنا من خلال دراستنا لنفسية الجماعات أنها لا تلقى بالا للعقل المجرد واقيسته المنطقية • كما اتضح أيضــا أن العقل ــ حتى مع خــاصة الخاصة من الفلاسفة والمفكرين ــ لم يصل بهم الى اليقين الذى يعتبر أساس الايمان • فهل معنى ذلك أن ينسحب العقل نهائيا من ميدان الدعوة كالقائد المنهــزم ، ويدع الأمــور لغيــره من القــادة يدبرون أمــرها ؟ والجــواب بالتأكيد : لا •

فان العقل مع ذلك كله مازال له دور هناك يؤديه ، ويجب أن يؤديه • فاذا كان العقل قد عجز عن الوصول الى اليقين فى قضايا الدعوة • فانه لم يعجز عن الوصول الى الظن المرجح ، والى ادخــال المسألة فى نطاق الممكن الذى لا يجب رفضه • ويكفى العقل أن يصل بنا الى هــذا الحــد ، ويترك الباقى للجوانب الأخرى من الفطرة الانسانية لتكمل المسيرة ، وتصل بالركب الى بر الأمان •

وعند هــذا الحــد تنهض البصيرة ــ التى هى ثمرة الوجدان ــ كى تصل بالأمور الى منتهاها ، وتبلغ ذروتها ، ولعــل ذلك يعيننا على ادراك ما يعنيه الامام الغزالى بقوله . واصفا حاله التى انتهى اليها باليقين بعد الشك والتردد : « لم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام بل بنــور قذفه الله تعالى فى الصدور » ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ولمــا سئل رسول الله ﷺ عن « الشرح » ومعناه فى قوله تعالى : « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاســلام** »(١) •

قال : « هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب »(٢) •



---

(١) الأنعــام : ١٢٥ •

(٢) المنقذ من الضلال للامام الغزالى ص ٩٣ •

الفصل الثانى

طبيعة الدعـوة الأسلامية

● **ظاهرة تفرد بها النص القرآنى :**

تحدثنا فى الفصل السابق عن الدعوة باعتبارها وسيلة نقل المبادىء والأفكار ، من صورتها النظرية فى الكتب أو فى صدور أصحابها الى الواقع العملى فى الحياة ، حيث يستجيب لها الأفراد ، ويؤمنون بها ويصـوغون سلوكهم على مقتضاها ، ويقيمون حضارة تصطبغ بصبغتها • كما تحـدثنا عن عناصر الدعـوة بهـذا الاعتبـار •

ونخصص هـذا الفصل ـ ان شاء الله ـ لدراسـة طبيعـة الدعـوة الاسـلامية •

وأول مـا نحب التنبيـه اليه ، هو أن لفظ الدعوة قد يطلق ويراد به المبدأ أو الدين نفسه ، بمعنى مجموع أفكاره وأحكامه • فعندما نقول مثلا : الاسلام دعوة عالمية ، فانما نعنى بكلمة الدعوة : الدين نفسه ، وأنه هداية السماء للناس كافة ، ونحن فى هـذا الفصل نسـتعمل لفظ ـ الدعوة ـ بهـذا المعنى ، لا بالمعنى السـابق ، ونعنى بها الدين الاسلامى فى عقائده وعباداته وتشريعاته وأخلاقه وسائر جوانبه •

وبطبيعة الحال فليس هـدف دراستنا للدعوة ـ بهـذا الاعتبـار ـ بيان هـذه العقائد والمبادىء ، وذكر تفصيلاتها وأدلتها ، فذلك جانب له مجاله ، ولا يتصل بموضوع الرسالة •

وانمـا ندرس الدعوة ـ بمعنى الدين ـ من زاوية أخرى ، وثيقـة الصلة بموضوعنا ، ولا يمكن التغاضى عنها وتجاهلها •

وسوف نرى أن طبيعة الدعوة الاسلامية ـ كدين ـ هى التى حـددت وسيلة تبليغها والدعوة اليها ، وجعلتها على ما هى عليـه لتلائم طبيعتها وخصائصها •

فما طبيعة الدعوة الاسلامية اذن ؟

ان الدارس للدعوة الاسلامية ، يجد نفسه أمام ظاهرة جليلة حقا ، ظاهرة متفردة فى طبيعتها وخصائصها ، لم تسبق بمثلها ، ولن يلحق بها ما يشبهها أو يقرب منها ، ذلك أن كتابها ــ القــرآن الكــريم ــ قد جمع فى نصه الربانى بين جوانب ثلاثة من المســتحيل أن تجتمع لغيره • فهو أولا الدين والرسالة ، وهو ثانيا أسلوب العرض والتبليغ للرسالة ، وهو ثالثا وفى نفس الوقت دليل صدق الرسالة •

أما أنه الدين فلأنه قد سجل المبادىء والأفكار والأحكام التى يريد ابلاغها للناس ، وهو المصدر الأول للشريعة الاسلامية ، باجماع المسلمين ، وما عداه من المصادر كالسنة والقياس والاجماع انما يدور فى فلكه ويهتدى بنوره بيانا وشرحا أو استنباطا وتطبيقا •

وأما انه أسلوب العرض والتبليغ فلأنه قد صيغ فى صورة هى المثل الأعلى فى قوة التاثير فى النفوس ، وحمل المخاطبين على الاقتناع والايمان ويكفى أن يبلغه الرســول ﷺ للناس ويقــرأه عليهم دون زيادة أو نقص ، ليتحقق ما يريد ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا •

وأما أنه دليل صدق الرسالة ، فلأنه هو نفسه معجزة النبى ﷺ التى أمر أن يتحدى بها الناس ، اثباتا لنبوته لمــا جرت عليه سنة الله فى الرسل أن يمنح كل نبى من أنبيائه ــ صــلوات الله عليهم أجمعين ــ أمرا خــارقا للعادة يعجز قومه عن الاتيان بمثله ، لأنه فوق طاقة البشر ، ليكون دليلا على صدقه • فكان القرآن فى نصه هو معجزة نبينا ودليل صدقه •

اذن فنحن أمام دعوة فريدة لا تنفصل فيها الأفكار عن أسلوب التبليغ • ولا تنتظر هناك ــ كغيرها من المبادىء ــ فى صورتها النظرية حتى يتهيأ لها من يستطيع أن ينقلها الى الواقع ويبث فيها الحياة بقدرته على الاقناع ونبوغه فى وسائل التبليغ •

لا •• انها دعوة الهية فى مصدرها ، الهية فى صيغة تبليغها تستمد من ذاتها دليل صدقها ، وليس فى هــذا انتقاص لمقام سيدنا رســول الله ﷺ • فيكفيه اصطفاء الله له دون غيره ، والله أعلم حيث يجعــل رسالته ، ويكفيه صلوات الله وســلامه عليه نهوضــه بعبء تبليغها وصــبره على الأذى فى سبيلها ، وجهاده المرير لأعدائها • جزاه الله عنا خير ما يجــزى نبيا عن أمتــه •

وانه لشرف – أى شرف – للغتنا العربية أن تكون وعاء لهـذا النص الربانى المعجز ، الذى يجمع بين هـذه الجوانب كلها · وأحسب أن لغة أخرى غيرها لم تظفر بهـذا الشرف ، منذ أن عرف الناس اللغات وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ·

فلنتحدث بشىء من التفصيل عن كل من هـذه الجوانب الثلاثة للقرآن الكريم ·

● أولا – القرآن باعتباره أسلوب عرض للدعوة وتأثيره فى النفوس :

اذا تحدثنا عن القرآن ، باعتباره أسلوب عـرض للدعوة ، وباعتباره المثل الأعلى فى قوة التأثير والاقناع ، فسنجد الشواهد القاطعة على كل ما قلناه · فقد واجه العرب الدعوة بكل ألوان المقاومة ، ولم يدعوا وسيلة لمقـاومتها الا اتبعوها ، باللطف والمساومة ، أو بالعنف والبطش ·

ولم يكن موقفهم هـذا من القرآن لـما يعلنه من أفكار وعقائد فقط بل كان الأساس فيه هو هلعهم الشديد مما لمسوه من أثره فى النفوس وقدرته على اقناع الناس به ، وضمهم الى صفه ·

فقد كان فى العرب حنفـاء من فحول الخطبـاء والشـعراء ، كقس ابن ساعدة ، وأمية بن أبى الصلت ، وفيهم الموحدون على دين ابراهيم كورقة ابن نوفل ، وفيهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى · وكان كل واحد من هؤلاء – طبعا – يدعو الى دينه · ويرغب فيه ، فلم يعـاد الجمهور أحـدا من هؤلاء أو يحتقره ، بل كانت لهم مكانتهم اللائقة بهم كأمثالهم من المشركين ولم يكن لليهودية ولا للنصرانية فى مكة أدنى صولة ، ولا خافها رؤسـاء قريش على زعامتهم الدينية ولا الدنيوية ·

فلما جاءهم محمد ﷺ ، تغير موقفهم هـذا لأنهم أحسوا فى قرآنه قوة غلابة ، وتيارا جارفا يريد أن يبسط سلطانه حيث يصل صوته · فكان طريقهم الوحيد عندهم لمقاومته ، هو الحيلولة بمختلف الوسائل بين هـذا القرآن والناس مهما كلفهم ذلك من تضحية · فتواصوا بعدم سماعه وكانوا يلاقون القبائل الواردة الى مكة فى المواسم يحـذرونها منـه · ويحـكى القرآن الكريم عنهم ذلك فى قوله :

« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » (١) • وما ذلك الا لأنهم أدركوا تأثير هذا القرآن فيهم وفى اتباعهم ، وهم يرون هؤلاء الأتباع يسحرون بين عشية وضحاها بالآيات يستمعون اليها ، فتنقاد اليها النفوس ، وتهوى اليها الأفئدة •

« وهذا التأثير هو الذى كان يجذب رؤساء أولئك المعاندين ليلا لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ فى بيته ، على ما كان من نهيهم عنه ، وتواصيهم وتقاسمهم ألا يسمعوا له ، ثم كانوا مع ذلك يتسللون فرادى مستخفين ، ويتلاقون متلاومين »(٢) •

وتروى كتب السيرة أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق كان كل واحد منهم يأتى من ناحية ليستمع قراءته ﷺ من حيث لا يراه الآخرون ، فاذا تلاقوا بعد الانصراف تلاوموا وتواعدوا الا يعودوا ، لئلا يعلم بهم غيرهم فيقتدوا بهم •

ويروى البخارى فى باب جوار أبى بكر فى عهد النبى ﷺ وعقده • قال : « قال أبو صالح : حدثنى عبد الله عن يونس عن الزهرى ، قال : اخبرنى عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : لم أعقل أبوى قط الا وهما يدينان الدين(٣) ولم يمر علينا يوم الا ويأتينا رسول الله ﷺ طرفى النهار بكرة وعشيا ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا قبل الحبشة ، حتى بلغ برك الغماد(٤) ، لقيه ابن الدغنة ، وهو سيد القارة ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجنى قومى ، فأنا أريد أن أسيح فى الأرض فأعبد ربى • قال ابن الدغنة : ان مثلك لايخرج ولايخرج (٥)• فانك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وأنا لك جار ، فارجع فاعبد ربك ببلادك • فارتحل ابن الدغنة فرجع مع أبى بكر ، فطاف فى أشراف كفار قريش ، فقال لهم : ان أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج • أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟ فأنفذت

---

(١) فصلت : ٢٦ (٢) الوحى المحمدى ص ١٣٦

(٣) يدينان الدين : أى يطيعان دين الاسلام •

(٤) برك الغماد : بفتح الباء وسكون الراء وفتح الغين : موضع باليمن •• أو وراء مكة بخمس ليال • القاموس ص ٣٠٤ جـ ٣ •

(٥) لايخرج ولايخرج : الأولى بفتح الياء وضم الراء ، والثانية بضم الياء وفتح الراء •

قريش جوار ابن الدغنة ، وأمنوا أبا بكر ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل وليقرأ ما شاء ولا يؤذنا بذلك ولا يستعلن به ، فانا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا · قال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر فطفق أبو بكر يعبد ربه فى داره ، ولا يستعلن بالصلاة ولا القراءة فى غير داره · ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجدا بفناء داره ، وبرز فكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، فينقذف(١) عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون اليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا الى ابن الدغنة فقدم عليهم ، فقالوا له : انا كنا قد أجرنا أبا بكر ، على أن يعبد ربه فى داره وانه جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره وأعلن الصلاة والقراءة ، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا ، فأته ، فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وان أبى الا أن يعلن ذلك فسله أن يرد اليك ذمتك ، فانا كرهنا أن نخفرك(٢) · ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان · قالت عائشة . فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : قد علمت الذى عقدت لك عليه ، فاما أن تقتصر على ذلك واما أن ترد الى ذمتى ، فانى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له · قال أبو بكر : انى أرد اليك جوارك وأرضى بجوار الله »(٣) ·

اذن فتأثير القرآن ، وسلطانه على النفوس ، هو ما كان يخشاه المشركون ، فما كانت حملاتهم موجهة الى القرآن فى الصدور ولا فى داخل البيوت ، فقد قبلوا منه أن يعبد ربه فى بيته كيف شاء ، انما كانت مصوبة الى هدف واحد ومقاومة لخطر واحد ، هو اعلان هذا القرآن ونشره بين العرب(٤) ·

ومما يؤيد ذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول حين يعرض نفسه على الناس فى الموقف · « ألا رجل يحملنى الى قومه ؟ فان قريشا منعونى أن أبلغ كلام ربى » · فلم يمنعوه من تلاوته بينه وبين نفسه كما يشاء ، وانما منعوه أن يبلغه للناس ، لثقتهم من تأثيره فيهم ، واستجابتهم له ·

---

(١) ينقذف عليه نساء المشركين : أى يجتمعن عليه ·

(٢) نخفرك : ننقض عهدك ·

(٣) صحيح البخارى جـ٢ ص ٣٩ ·

(٤) انظر النبأ العظيم · دكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٨ ·

ولا حاجة بنا الى الحديث عن أثره فى قلوب المؤمنين فقد عبر عنه القرآن أروع تعبير :

« الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » (١) ·

أما سر هذا التأثير فلاشك أنه كامن فى بلاغته المعجزة ، التى تجلت فى أسلوب عرضه للدعوة ، وكانت وسيلته فى الوصول الى القلوب ، والأداة التى شق بها طريقه الى نفوس المؤمنين والكافرين على السواء ، فأخبت له الأولون وفزع منه الآخرون ·

★★★

● **ثانيا ــ القرآن باعتباره معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الخالدة :**

ادعاء النبوة وما يلزمه من الاتصال بالملأ الأعلى وتلقى خبر السماء ، دعوى عريضة لا تقبلها العقول دون دليل حاسم يثبتها · ولهذا جرت سنة الله تعالى أن يظهر على يدى كل نبى أمرا معجزا ، يكون دليلا على صدق دعواه ، حتى يتبين الحق من الباطل ، وتنقطع به حجة المعارضين ·

ولكى تكون المعجزة قاطعة لكل حجة مرتفعة فوق كل مكابرة كانت دائما من جنس ما يحسنه قوم النبى وينبغون فيه ، فكانت معجزة موسى عليه السلام وهى قلب العصا حية ، واخراج يده من جيبه بيضاء للناظرين ، من جنس ما نبغوا فيه وهو السحر · كما كانت معجزة عيسى عليه السلام هى احياء الموتى ، لشهرتهم فى الطب والعلاج ·

وعلى هذه القاعدة جاءت معجزة سيدنا رسول الله ﷺ قرآنا يتلى لأن البيان والتفاخر به كان كل بضاعتهم ومناط تطاولهم ·

غير أن النظرة الدقيقة تعطى معجزة النبى ﷺ أبعادا أخرى تتناسب مع طبيعة رسالته الخاتمة ·

ذلك أن معجزات الأنبياء السابقين كانت مادية ملموسة ينتهى أثرها بمجرد حدوثها ، ولا تلزم الا من اطلع عليها أو صدق ناقلها · وذلك شىء يتناسب مع طبيعة هذه الرسالات · فهى رسالات مرحلية ، لا يلبث القدر أن يصطفى نبيا جديدا ، يجدد شرع الله ويذكر به ، أو يضيف اليه ويوسع فى آفاقه ·

---

(١) الزمر : ٢٣ ·

اما رسالة نبينا محمد ﷺ فهى خاتمة الرسالات وهى الحلقة الأخيرة فى سلسلة النبوات الطاهرة . ومن هنا كان لابد أن تكون معجزتها شيئا باقيا ثابتا أبد الدهر ، ليكون حجة الله القائمة على خلقه ، ولتظل الدعوة محروسة بمعجزتها الى قيام الساعة . فكانت كتابا يتلى ويتعهد الله بحفظه ، ويصونه أن يحرف أو يبدل .

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (١) .

والعجيب أن العرب ظلوا يطالبون رسول الله ﷺ بمعجزات مادية من جنس معجزات الأنبياء السابقين .

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . او يكون لك بيت من زخرف او ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه »(٢) .

ولكن الله سبحانه وتعالى بين لهم أنهم لو كانوا صادقين حقا فى أنهم سيستجيبون للمعجزات فان القرآن اكبرها جميعا ، واعلى شانا مما يطلبون :

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين . أو لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون »(٣) .

ولقد تحداهم القرآن الكريم وكرر عليهم ذلك التحدى فى صور شتى ، متهكما بهم ، متنزلا معهم الى الأخف فالأخف . فدعاهم اول مرة أن يأتوا بمثله :

---

(١) الحجر : ٩ .
(٢) الاسراء : ٩٠ ـ ٩٣
(٣) العنكبوت : ٥٠ ، ٥١

« أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون · فلياتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين »(١) ·

فلما عجزوا دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله :

« أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صـادقين · فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو ، فهل أنتم مسلمون »(٢) ·

فلما عجزوا فى هذه المرة أيضا طاولهم مرة أخرى وطلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله :

« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبـدنا فأتوا بسـورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين »(٣) ·

ثم أخبرهم أنهم لن يستطيعوا الى ذلك سبيلا ، زيادة فى استثارتهم وتحريضهم :

« فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النـار التى وقودها النـاس والحجارة ، أعـدت للكافرين »(٤) ·

وزاد ذلك تأكيدا :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القـرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(٥) ·

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز : « فانظر كيف تنزل معهم فى هـذه المرتبة من طلب المماثل الى طلب شىء مما يماثله · وكأنه يقول : لا أكلفكم

---

(١) الطور : ٣٣ ، ٣٤

(٢) هود : ١٣ ، ١٤

(٣) البقرة : ٢٣

(٤) البقرة : ٢٤

(٥) الاسراء : ٨٨

بالمماثلة العامة بل حسبكم أن تأتوا بشيء من جنس المماثلة ومطلقها وبما يكون مثلا على وجه التقريب لا التحديد · وهذا أقصى ما يمكن من التنزل فانظر أى الهاب وأى استفزاز هذا ·· لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد فى قوله : « ولن تفعلوا » ثم هددهم بالنار ثم سواهم بالأحجار فلعمرى لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا على منافسته وهم الأعداء الألداء ، وأباة الضيم الأعزاء ، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم ، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها الى معارضته ولا سلما يصعدون به الى مزاحمته ، بل وجدوا أنفسهم أمام طود شامخ ، فما استطاعوا أن يظهروه ، وما استطاعوا له نقبا » (١) ·

فالقرآن اذن بشهادة التاريخ الناطقة فقد أعجز العرب عجزا لم يستطيعوا له دفعا ، ولم يجدوا عنه مهربا · ومضى الأمر على ذلك ، حتى انتهى عصر القرآن وتتابعت بعده العصور · وكلما جاء عصر كانت معجزة القرآن أسطع بريقا ، وأشد توهجا ، وكان أهله أشد عجزا ، وأقل طمعا فى الوصول اليها أو التجرؤ على مطاولتها · وما زال القرآن حتى الآن غضا طريا يحمل راية الاعجاز ويتحدى أمم العالم فى يقين وثقة ، قائلا فى صرامة الحق وقوته وسلطان الاعجاز وصولته :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٢) ·

ولقد بذل سادتنا العلماء جهودا مشكورة فى هذه القضية ، بحثا عن طبيعة هذا الاعجاز ووجوهه ، بين مقل ومكثر · وليس غرضنا دراسة قضية اعجاز القرآن هنا دراسة مستوعبة تحيط بكل ما قيل حولها وتناقشه لتأخذ أو تدع أو تضيف ولكننا نتعرض لها من زاوية خاصة ، تلك أنها سمة من سمات القرآن الكريم باعتباره كتاب الدعوة الاسلامية ، الذى استكمل كل عناصرها ووفى بجميع احتياجاتها ، فجمع بين الأفكار ، وصياغتها ، ودليل صدقها · لذلك سنكتفى باستعراض بعض وجوه الاعجاز معقبين عليها بما يتصل بموضوع الرسالة فقط ·



---

(١) النبأ العظيم · دكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٤ ـ ٨٥

(٢) الاسراء : ٨٨

وجوه الاعجـاز

● **الاخبـــار بالغيب :**

لقد اشـتمل القرآن على كثير من أنباء الغيب ، سـواء فى هـذا ما يتصل بالمـاضى أم بالحاضر أم بالمستقبل · وقد بلغ القرآن فى ذلك حـدا مذهلا · وصل الى درجة التنبؤ بحوادث جزئية محددة ، منها على سبيل المثال قوله تعالى فى شأن الوليد بن المغيرة :

« سنسمه على الخرطوم » (١) ·

كان ذلك بمكة حيث لا تجد الدعوة من يدفع عنها الأذى ، ولا يدور فى خيال انسان أنه سيأتى اليوم الذى يلتقى فيه رجالها بأعدائهم لقـاء حرب وطعان ولكن الأيام تمضى ويأتى يوم بدر ، ويخطم الوليد بن المغيرة بضربة سيف على خرطومه ، تكون له سمة ليعير بها ما عاش (٢) ·

وواضح أن وجه الاعجاز فى الاخبـار بالغيب ، هو أن ذلك ليس فى طاقة الانسان · لأن غاية ما يستطيعه العقل البشرى أن ينقل عن غيره أو يقيس غائبا على شاهد · وكل ما كان بعيدا عن هـذه الدائرة فهو مما لا يمكن لعقل الانسان أن يناله بحال · والقـرآن زاخر بالاخبار بالغيب بكل ألوانه وما يتصل منه بالحاضر او بالمستقبل لم يتخلف منه شىء ، بل وقع كما اخبر به واذن فهو صادر عن جهة أعلى شـأنا من الانسـان · وهى الله سبحانه وتعالى ·

ولاشك أن الاخبار بالغيب مما يعجز البشر عن أن يأتوا بمثله · ولكننا مع من يرون أن ذلك ليس وجه الاعجـاز الذى وقع به التحـدى ، لأن التحدى انما كان بسـورة منه ، وليس فى كل سـورة انباء بالغيب ، فيكون بعضه معجزا وبعضه غير معجز · ومع ذلك لا يمكن أن نقلل من قيمة هـذا الوجه ، لأن نبؤات القـرآن الكريم لم تنته بعـد · وكلما تحقق بعضها كان ذلك بمثابة دليل متجدد يذكر بقيمة القرآن وصدقه · والقـرآن خاتم الرسالات فلابد أن يكون فيه الاعجاز المتجدد على مر الزمان ·

---

(١) القلم : ١٦

(٢) انظر تفسير الكشاف ص ١٤٣ والنبأ العظيم ص ٥١

● الاعجاز العـلمى :

عهدنا بالقمم الانسانية فى ذروة امتيازها من المفكـرين والعـلماء أن يبرز كل منهم فى جانب من جوانب المعرفة والعلم · ويكون تفوقه هـذا جسرا يصل بين ما سبق به من المعرفة فى فنـه ، وبين ما سيضيفه لاحقه اليه · كما أن أفكاره لن تكون الكلمة الأخيرة فيما يتصدى له من مسـائل واننا نرى أن أعظم الفلاسـفة قدرا لا يكاد يمضى على وفاته سـنوات حتى تكون أفكاره قد تصدع بنيانها لكثرة ما وجه اليه من نقد ومأخذ · ولكننا نرى القرآن على العكس من ذلك كله ، فهو يشتمل على ما لا يحصى من العلوم والمعارف ، فى العقائد والتهذيب والأخـلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع وكل ما يحتاج الانسـان اليه فى دينه ودنياه · وهو فى كل ذلك ليس تطويرا لما كان موجودا فى البيئة التى نشأ فيها ، وليس كل ما فيه حلولا لمشاكل كانت تبحث عن حل لها ، بالاضافة الى أن معارفه لا يرقى اليها النقص ولا الفساد ، بل هى صالحة لكل زمان ومكان · بل الفسـاد انما يضرب أطنابه عندما يبعد ركب الحياة عن هديهـا ، ويتفلت منهـا ، لأنهـا كالنواميس الطبيعية التى لا تتخلف ، فاذا أضفنا الى كل ذلك أن من جاء بها رجل أمى نشأ فى بيئة بدائية لا رصيد لها فى الفكر العلمى المترابط الـذى يفرز مثل هـذه المعارف والعلوم ، لكـان ذلك دون ريب اعجـازا لا يستطيعه بشر ·

وهذا الوجه فى الاعجاز – على قيمته فى الاقناع والدعوة – ليس هو وجه الاعجاز المتحدى به لما سبق أن أوضحناه ·

● العلوم الكونيـة :

القرآن الكريم كتاب هداية وتزكية للنفس الانسانية ، فى المقـام الأول ، ومع ذلك فقـد اشتمل على كثيـر من العـلوم الكونية · وقـد راق لبعض الباحثين أن يتوسعوا فى هذا الجانب وأن يتلمسوا فى آيات الله البينات ما يمكن تفسيره على ضـوء ما توصـل اليه العلم التجـريبى من نظـريات وفـروض · ومع ما فى هـذا المنهج من خطـر ومـزالق ، نظـرا لأن معظم النظريات العلمية لا يكتب لها الدوام والسلامة من النقص ، مما يؤدى الى البلبـلة والشـكوك وعنـدما نخضع تفسـير آياته البينات لما تثبته نظرية من النظريات العلمية ، ثم يمر الزمن فاذا النظرية نفسها لا تقف على أرض صلبة وتتعرض للنقد أو الهدم ، وهذا يستدعى الحيطة والحـذر ، خصوصا وأن ذلك ليس من مقاصد القـرآن الأساسية · بل يتركها لأنهـا

خاضعة لقانون التطور الانســـانى ، ولا يمــكن للبشر أن يحيطوا بدقائق العلوم وتفصيلاتها مرة واحدة ، وانما هى أسرار يجليها الله وقتما يشاء ، ويلهمها من يريد وفق مشيئته فى صلاح الحياة .

« وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » (١) .

ولكن ما تضمنه القرآن من هذه العلوم ، انما سبق فى اطار هدف جليل من أهـــدافه وهو الحث على التدبر فى آيات الله ومعـــرفة أسرارها وحكمتهـا ، وما تنطق به من دلالة عـلى قدرة خالقهـا العظيم ، ومدبرهـا الحـكيم ، ليؤدى ذلك ثمرته عمقـا فى اليقين ، واستشعارا للجـــلال ، واستسلاما للعظمة .

« أو لم ينظـروا فى ملكوت السـموات والأرض ومـا خلق الله من شىء » (٢) .

« وكاين من آية فى الســـموات والأرض يمـرون عليها وهم عنهـــا معرضون » (٣) .

« أفلم يســيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بهـــا أو آذان يسمعون بهــا ، فانهـــا لا تعمى الأبصــار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (٤) .

ولا شك فى أن القرآن الكريم تضمن الكثير من العلوم الكونية ولكن أسلوبه فى عرض هذه المعارف أسلوب معجــز حقا . حيث جمع بين البيان والاجمال بصورة تتيح لكل قارىء ، وفى كل عصر أن يفهم التعبير وفق مستواه هو ، واستعداده الحضارى . وسوف نعرض الكثير من النماذج لهذا اللون فى موطنه من البحث ولكننا نكتفى هنا بأن نقول : أن هـــذا الجانب على أهميته ودلالته على الاعجاز ، ليس وجه الاعجاز الذى تحدى به القرآن العرب .

---

(١) الحجر : ٢١ — (٢) الأعراف : ١٨٥

(٣) يوسف : ١٠٥ — (٤) الحج : ٤٦

هذا وقد زاد العلماء كثيرا من وجوه الاعجاز فوق ما تقدم مثل سياسته فى الاصلاح ووفائه بحاجات البشر (١) ، الى غيرها من الوجوه ٠

● الاعجـــاز البلاغى :

غير أن الوجه الذى نراه فى الاعجاز متسعا لكل ما ذكروه من وجـــوه هو الاعجاز البلاغى ٠ ذلك لأنه يتحقق فى كل أجـزاء القرآن وفى القـدر المتحدى به ، وهو أقصر سورة منه ، كما أنه متحقق أيضا فى آيات التشريع والانباء بالغيب والعلوم الكونية وسائر ما ذكر من وجوه ٠ فاذا كانت هذه الوجوه معجزة بذاتها ومادتها فهى أيضا معجزة فى طريقة التعبير عنها ٠

والاعجاز البلاغى للقرآن الكريم بحـر متلاطم من الأسرار والعـــلوم ولا يستطيع باحث أن يجليه تجلية كاملة ، وغاية ما يحققه أن يضيف لبنة فى صرح شامخ ٠

« فلمثله انتدب العلماء والأدباء من قبلنــا وفى عصرنا ٠ فحفيت من دونه أقلامهم ، ولم يزيدوا الا أن ضربوا له الأمثال ، واعترفوا بأن ما خفى عليهم منه كان أكثر مما فطنوا له ، وأن الذى وصفوه مما أدركوه أقل مما ضاقت به عباراتهم ولم تف به اشاراتهم » (٢) ٠

ولا أرانى فى حاجة الى تفنيد الرأى الذى يذهب الى أن عجز العرب عن محاكاة القرآن كـان بسبب صرف الله لهم عن معــارضته ، وتوجيــه هممهم عن ذلك ٠ فقد كفانا سادتنا العلماء هذا الجهد بما يوفى بالحــاجة ويربو عليها (٣) ٠

وننتقل الآن للحديث عن الجانب الثالث من جوانب القرآن الكريم ، باعتباره وعاء للرسالة والدين ٠ مبرزين أهم الخصائص المتصلة بموضوع دراستنا ٠

★★★

---

(١) انظر مناهل العرفان ص ٢٤٧ ـ ٢٥٧ ٠

(٢) النبأ العظيم ص ١٠١ ٠

(٣) انظر مناهل العرفان ص ٢١٠ ـ ٢١٦ ٠

● **ثالثا ــ خصائص الرسالة الاسلامية :**

عالمية الدعوة وما يتطلبه ذلك من الأساليب

الاسلام دين الله للبشرية ، منذ أول يوم من أيامها ٠ ومنذ أن كان هناك وحى ٠ قال تعالى :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب » (١) ٠

ويبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن الرسالات بناء واحد ، وأن لكل نبى نصيبا فى هذا البناء : « مثلى ومثل النبيين قبلى كمثل رجل بنى دارا فأحكمها وأحسنها الا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون : لولا موضع اللبنة ، فأنا اللبنة ٠٠ أنا خاتم النبين » رواه البخارى ٠

فالرسالات السماوية واحدة لأن الحق واحد ولأن مصدرها واحد هو الله تعالى ٠ فهى قوانين سماوية ليس لبشر فيها نصيب من اضافة أو اختراع ٠

غير إنها فى تتابعها على أيدى الرسل تتكامل حسب الحاجة حتى اخذت صورتها الأخيرة فى القرآن الكريم ٠

« اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (٢) ٠

واذا كان الاسلام هو دين الله الكامل ، فهو دين الانسانية كلها ، أبيضها وأسودها ٠ فبينما يحكى القرآن عن الرسالات السابقة أنها كانت لقوم كل نبى بخاصة ، نجده بالنسبة للاسلام ينص فى صراحة قاطعة أنها دين الله للناس جميعا ٠

---

(١) الشورى : ١٣ ٠ (٢) المائدة : ٣ ٠

قال تعالى فى شأن الرسالات السابقة :

« لقد أرسلنا نوحا الى قومه » (١) ·

« والى عاد أخاهم هودا ، قال يا قوم اعبـدوا الله ما لـكم من اله غيره » (٢) ·

« والى ثمود أخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » (٣) ·

« ولوطا اذ قال لقومه » (٤) ·

« والى مدين أخاهم شعيبا » (٥) ·

وقال فى شأن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » (٦) ·

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (٧) ·

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (٨) ·

واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قـد أمر فى بدء الرسالة أن ينذر عشيرته الأقربين ، فما ذاك الا لأن هذه هى البداية الطبيعية لكل شىء تبدأ نقطة ثم تتسع دوائرها وتتداح متتابعة حتى تصل الى أبعد مدى توصلها اليه قوتها المركزية :

« وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » (٩) ·

فحيثما بلغ صوتها فالسامعون منذرون مدعوون ·

وسلوكه ﷺ قاطع فى هذا · ففى أشـد أيام اليـأس حيث لا يرى بصيص من نور ، لمن ينظر للأمور بظواهرها ، يمر الرسول ﷺ ببعض أتباعه

---

(١) الأعراف : ٥٩ (٢) الأعراف : ٦٥ ·
(٣) الأعراف : ٧٣ · (٤) الأعراف : ٨٠ ·
(٥) الأعراف : ٨٥ · (٦) الأعراف : ١٥٨ ·
(٧) الأنبياء : ١٠٧ · (٨) سبأ : ٢٨ ·
(٩) الأنعـام : ١٩ ·

يعذبون ، يكاد معين صبرهم ينفد لشدة الأذى ، ويسأله أحدهم : يا رسول الله ٠٠ الا تدعو لنا ؟ فيجيبه عليه الصلاة والسلام : « صبرا ٠٠ والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يكون السائر من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله أو الذئب على غنمه » ٠ وعندما يلحق به سراقة ، فى طريقه صلى الله عليه وسلم للهجرة ، طمعا فى الجائزة التى رصدتها قريش لمن يأتى به حيا أو ميتا ، يقول له الرسول : « ارجع يا سراقة ولك سوارى كسرى » ٠

وما يكاد المقام يستقر به عليه الصلاة والسلام فى المدينة حتى يأخذ فى تبليغ الدعوة عالميا فيبعث بكتبه ﷺ الى رؤساء جميع الدول المحيطة بالجزيرة العربية ، والتى يمكن أن تبلغها وفوده ٠ فيكتب الى كسرى ملك الفرس والى قيصر ملك الروم ٠ والى النجاشى ملك الحبشة ، ويكتب لعظيم مصر ٠ ويصل دعاته الى هذه الدول ، ويسلم بعض هؤلاء فعلا كالنجاشى ، ويتريث بعضهم ويكرم وفوده ويرسل له الهدايا كما فعل عظيم مصر ، ويميل بعضهم للاسلام ولكنه لا يستطيع أن يمضى مراده لعوامل داخلية فيرجىء البت فى الأمر ٠ المهم أن عالمية الدعوة صفة أكيدة من صفاتها منذ أول أيامها ، سواء أتبينا ذلك من النصوص أم من سلوك الرسول ﷺ ٠

هذه العالمية فرضت على الدعوة واقعا لابد لها أن تواجهه بوسائل التبليغ المناسبة له ٠ ففى الجزيرة العربية ، حيث أخذت تتشكل نواتها الأولى ، كان عليها أن تتعامل مع الطوائف الآتية :

● **مجموعة القبائل المحيطة بمكة : وهم قريش ، وما ولدت من غيرها ،** وكانوا يسمون أنفسهم « الحمس » لتحمسهم فى الدين وهو تصلبهم (١) ٠

وتضم هذه المجموعة : قريشا ، وكنانة ، وخزاعة ، وبنى ربيعة ، وهم ربيعة وكلاب وعامر (٢) ٠

وهؤلاء كانوا يزعمون أنهم على دين ابراهيم وأنهم من سلالته وأن مجاورتهم للبيت الحرام وقيامهم بأمره يجعلهم فى منزلة لا يشاركهم فيها غيرهم ، وليس لأحد من العرب مثل حقهم ٠

---

(١) انظر أساس البلاغة للزمخشرى ص ١٩٧ طبعة الشعب ٠

(٢) شفاء الغرام جـ ٢ ص ٤١

واستتبع ذلك مجموعة من التقاليد والطقوس كانت تعبيرا عن فكرتهم هـذه (١) ·

الحنفاء : وهم مجموعة من العرب كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وينتظـرون النبـوة ، وكانت لهم سـنة وشرائع · ومنهم قس بن سـاعدة الأيادى ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وأمية بن أبى الصلت ، وخالد بن سنان ·

مجموعة أخرى ممن رفضوا الأصـنام : كفكرة صـحيحة للالوهية فراحوا يلتمسون لأنفسهم دينا ، وتفرقوا فى الأمصار يلتمسون الحنيفية : دين ابراهيم · ومن هؤلاء ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن جحش ، وعثمان ابن الحـويرث ، وعمر بن عبسة السلمى (٢) ·

أهل الكتاب : من اليهـود بيثرب وما جـاورها · وهـؤلاء كانـوا يجدون صفة رسول الله ﷺ فى التوراة ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عـرفوا كفروا به ، وكانوا اشـد الناس عنـادا واعصاهم انقيادا · وبجانبهم النصارى ، وكانت قاعدتهم نجران باليمـن ، وحديث وفدهم الذى قدم على النبى ﷺ ليجادله فى المسيح مشهور ·

وقد دعاهم الرسول ﷺ الى المباهلة :

« فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » (٣) ·

وبجانب كل هؤلاء : مجموعات من القبـائل الأعـراب متفرقون فى أنحـاء الجزيرة يتناحرون على مواطن الكلأ ، ويعيشـون على الاغارة والسلب ، وهم كما وصفهم القرآن أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ·

فاذا تركنـا الجـزيرة العـربية ، فاننا نجـدها محـاطة بالديانات والفلسفات المتعددة :

---

(١) انظر بشائر النبوة الخاتمة ص ٨٣ ــ ٨٤ دكتور رؤوف شلبى ·

(٢) المصدر السابق ص ٥٤ ــ ٦٩ ·

(٣) آل عمران : ٦١ ·

ففى الشرق : حيث الديانات البوذية المنحرفة التى تقوم على تقسيم البشر الى طوائف ، وتدعو الى السلوك السلبى وقتل الجسد ورغباته وصولا الى السمو الروحى والاتحاد من الاله ·

وفى فارس : المجوس ، حيث عبادة النار والكواكب واستعباد الملوك للشعوب ·

وفى الشمال : حيث الروم وفلسفتهم ومنطقهم وثقافتهم وحضارتهم ومسيحيتهم المحرفة ·

وفى مصر : حيث أخلاط من المسيحية والديانات المصرية القديمة ·

وكان لابد للدعوة أن تواجه هذا الواقع العريض كله ، مادامت موجهة الى العالم كله ، وأن تتعامل مع هذه النماذج الانسانية كلها ، والديانات والفلسفات كلها ·

كان عليها أن تتجه الى النفس الانسانية لتوقظ فيها معنى الكرامة التى تأبى لبشر أن يسجد لحجر أو لبشر مثله ، وتذكرها بالمساواة الانسانية التى يوجبها انتسابها الى أب واحد ، وتتجه بها بعد ذلك الى خالق واحد وتحملها مسئولية السلوك وتعمق فيها الايمان بالبعث والجزاء ·

وكان عليها ثانيا : أن تجادل أهل الكتاب وتفند حججهم ، وتفضح جرائم رجال دينهم الذين حرفوا الكتب ، وبدلوا الأسفار ، لتوافق هواهم واشتروا بايات الله ثمنا قليلا · وتدعوهم الى دين الله الواحد منذ أن خلق الله الانسان ·

وكان عليها أن تواجه المعتقدات الفاسدة في عبادة الكواكب أو غيرها من ظواهر الطبيعة ، وتبين بالحجة فساد كل ذلك ·

وعليها أن تعيد التوازن بين الروح والجسد الذى انحرفت به البوذية وغيرها من الديانات السلبية ، وتبنى الانسان المتكامل بروحه وجسده ليعمر الحياة فى نفس الوقت الذى يزكى فيه النفس ويدعم القيم والفضائل ·

وكان عليها أن تواجه حضارات الغرب بمنطقه وفلسفاته وتجاربه بنفس سلاح العقل والمنطق ·

كـان ذلك كله واجبا على الدعـوة أن تنهض به وقـد فعلت • فلونت فى أساليبها ، وعددت فى وسائل اقناعها ، وسلكت كل سبيل الى النفس والعقل حتى أوفت بهـذا الواجب ونهضت بما تفرضـه عليها عالميتها ، وقطعت السبيل على كل متردد •

وكانت البلاغة أيضا هى وسيلتها فى تحقيق كل ذلك ، فقد توجه القرآن الكريم الى كل فريق من هؤلاء وعالج كل واحدة من هـذه القضايا بما يطابق حاله فجاء آية الآيات فى بلاغته وقمة القمم فى بيانه •

● الدعوة القرآنية تلبى كل حاجات البشر المادية والروحية :

يقول الامام الأكبر فضيلة الشيخ شلتوت : « تلقى محمد عن ربه الأصل الجامع للاسلام فى عقائده وتشريعه ، وكان القرآن عند الله وعند المسلمين المصدر الأول فى تعريف التعاليم الاسلامية للاسلام • ومن القرآن عرف أن الاسلام له شعبتان أساسيتان ، لا توجـد حقيقتـه ، ولا يتحقق معناه ، الا اذا أخذت الشـعبتان حظهما من التحقق والوجـود فى عقل الانسان وقلبه وحياته » • وهاتان الشعبتان هما : العقيدة والشريعة •

والعقيدة هى : « الجانب النظرى الذى يطلب الايمان به أولا وقبـل كل شىء ايمانا لا يرقى اليه شك ، ولا تؤثر فيه شبهة » •

والشريعة هى : « النظم التى شرعهـا الله أو شرع أصـولها ، ليـأخذ الانسان بها نفسه فى علاقته بربه وعلاقتـه بأخيـه المسـلم وعلاقته بأخيـه الانسان وعلاقته بالكون وعلاقته بالحيـــاة »(١) •

هـذا هو ما يدعو اليه الاسلام • عقيدة ترضى فى نفس الانســان تطلعه الفطرى ونزوعه الى معرفة يقينية للاجابة على الأسئلة التى تؤرقه ، ولا يهـدأ له بال حتى يصل اليها •

« ما العالم ؟ ما الانسان ؟ من أين جاء ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ ما هدفهما ؟ كيف بدأ ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ • ما القـانون الذى يجب أن يقود عقولنا فى أثناء عبورنا فى هـذه الدنيا ؟ أى مستقبل

---

(١) بتصرف عن « الاسلام عقيدة وشريعة » فضيلة الشيخ محمود شلتوت ص ٤ ـ ٥

ينتظرنا بعد هــذه الحياة ؟ هل يوجد شيء بعد هــذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتها بهــذا الوجــود ؟ » ٠

« هذه الأسئلة لا توجـد أمة ولا شـعب ولا مجتمـع الا وضـــع لهـا حلولا ، جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سخيفة ، ثابتة أو متحولة » (١) ٠

هــذه العقيدة ، يقدمها الاسلام حلولا لكل هــذه الأسئلة فى جانبها النظرى ثم هو لا يقدمها فى صـــورة تقريرية مجردة ، بل يسوقها مشـفوعة بأدلتها ، مصحوبة بما يحمل النفس على قبولها والاطمئنان اليها ، ويظل يلح على النفس البشرية مخاطبا كل قواها ، نافذا من جميع مداخلها ، حتى تتحول الى ايمان راسخ يمنح النفس هدوءها وتوازنها ، ويباشر دوره فى قيـادتها الى السـلوك فى حيـاتها فى اطـار هذا الايمـــان وهـــذه العقيـــــدة ٠

ثم يأتى بعد ذلك الجانب العملى ـ وهو الشريعة ـ ليرسم الحـدود ، ويقيم المعالم ، وينظم كل علاقات الانســـان : ٠

أولا : بربه ، فيشرع له العبادات التى تصله به وتجعله يعيش حياته مستشعرا رقابته عليه وعون الله ورحمته به ٠

ثانيا : بأخيه المسلم ، فيضـــع النظم الاجتمـاعية التى تبنى عليها الأسرة وتحدد فيها الحقوق والواجبات بين أفرادها : ابنا كان أو أبـا أو اما أو زوجة ، فى الحياة وبعد الموت ، ويضع التشريعات الاجتماعية التى تجعل الفرد عضـــوا فى أسرة كبيرة ولبنـــة فى بنـــاء شـامخ ، يقوم بدوره حسب موقعـــه فيـــه ، حاكما كان أو محـكوما ٠ ولكل ذلك قوانينه وأحكامه الاقتصادية والسياسية والتربوية والخلقية ٠

ثالثا : بأخية غير المسلم ، سواء فى ذلك على المســتوى الفردى أم الجماعى ٠ فينظم علاقة الفرد بمن يخالفه فى الدين ويضـــع لذلك الحـدود والقواعد ، وينظم علاقة الـدولة المســـلمة بغـيرها ، سـلما ، وحـربا ، واقتصادا ، وسـياسة ٠

رابعا : علاقته بالكون ٠ فيبيح له حرية البحث والنظر فى الكائنـــات واستخدام آثارها فيما يعود بالنفع عليه وعلى الانسانية كلها ، موجها

---

(١) عن كتاب « الدين » ٠ دكتور عبد الله دراز ص ٨٣

نظره الى أن هذا الكون انمـا خلق من أجـله ، وعليـه أن يكتشف قوانينه وأسراره وينتفع بها فى حياته ٠

خامسا : بالحياة ٠ فيرسم له الطريق السوى الذى لا تفريط فيه ولا افراط ، ويبيح له التمتع بطيباتها ، وينهاه عن خبائثها ، ويضع لكل ذلك ما يضع الانسان على جادة الحق والصواب ٠ والاسلام وهو يضم كل هـذه الجوانب التى تأخذ بيد الانسان فى دنياه ، هادية مسددة خطاه فى دروب العقيدة والعبادة والسلوك ، حتى تسلمه الى الآخرة راضـيا مرضيا ، أو مذموما مخذولا ، حسب استجابته وسلوكه ٠ نقـول ان الاسلام في جمعه بين هـذه الجوانب انما هو فريد بين الديانات ، لأنها ـ كما سبق أن أوضحنا ـ ديانات مرحلية تعقبها أخرى تواجه نقصها ، وتجدد باليها ٠ أما الاسلام فهو الدين الكامل العالمى ، ومن هنا كان على هـذا النحو من الكمال والشـمول ٠

هـذا الشمول فى الدعوة الاسلامية لكل حاجات الانسان استوجب تعددا فى الأساليب لتبليغ كل ذلك للناس ، وعرضه عليهم ، واقناعهم به ٠ فالدعوة الى عقيدة ما تحتاج الى أسـلوب مختلف عن الدعـوة الى نظـام اقتصادى أو ترغيب فى البـذل والعطاء أو دعوة الى الجهاد وبذل النفس ، لكل من ذلك أسـاليبه التى تلامس مـن النفس الانسـانية مواطن التـأثير والاستجابة ومن العقل نطاق القبول والاطمئنان ٠

وقد نجح القرآن الكريم فى دعوته لكل هـذه الجوانب ووصل مع النفس الانسانية فى كل ما دعاها اليه الى حـد الاستسلام له ، والانقياد لندائه والاخبات لصـوته ٠

ولم يترك القرآن للدعاة من بعـده الا أن يتتـلمذوا على بلاغته ، ويتربوا فى مدرسـة بيانه ، ومن هنـا كانت أهمية ما نحن بصـدده من دراسـة ٠

● الدعـوة القرآنية خاتمة الدعـوات :

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسـول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما » (١) ٠

« أنا العاقب فلا نبى بعـدى » ٠

---

(١) الاحزاب : ٤٠

هكـذا يخبرنا القرآن الكريم ويبلغنا الأمين صلوات الله وسـلامه عليه وتمضى اربعة عشر قرنا منذ أن اعلن القرآن هـذه الحقيقة ، فاذا الواقع يؤيدها ولا يسجل التاريخ ما يشكك فيها · وأية حـاجة للبشرية فى دين جديد من بعـد أن وفى الاسلام بحاجتها ومنحها ما يلبى كل مطالبها ؟

واذا كان هناك من تطـاول وادعى ، فقد جعلته دعـواه سـخرية الساخرين وحديث المتفكهين ، ولم يستطع أحدهم أن يترك اثرا واحدا يـدل على حاجة البشرية الى سخافاته وحمقـه ·

وهـذه الخاصة من خصائص الدعوة الاسـلامية قد اضـافت الى أعبائها عبئا جديدا باهظا ، كان عليها أن تتحمله لتكون صالحة لكل زمـان ومكان ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ·

واذا كانت عالميتها قـد فرضت عليهـا أن تواجه كل ما تحدثنا عنـه من تجمعات بشرية وأفكار وفلسفات وأديان ، فان خاتميتها تفرض عليها أن تواجه بجانب ذلك كل ما يستجد فى حياة البشر من تطورات اجتمـاعية وسياسية واقتصادية وفلسفية ، وذلك لتثبيت أمرين لا مفر منهما :

أولهما : أنها قادرة على استيعاب ذلك كله والاستجابة له ·

ثانيهما : أن ما عنـدها هو الحق ، وما عند غيرها مما يخالفها هـو الباطل الذى لا ريب فى بطلانه ·

ولقد سلكت الدعوة الاسـلامية فى هـذا الجـانب سـلوكا عجبا لا يسـتطيعه الا رب النـاس الذى يتسـاوى فى علمه ما كان وما يـكون ، سبحانه جل علاه · وعند دراسـتنا للنصـوص القرآنية فى الأغراض المختلفة سنرى كيف عبر عن الدعوة وقضاياها وكيف صيغت افكارها فى اساليب بليغة جعلتها صالحة لانسان القرن العشرين ولمن بعـده ، كمـا كانت صالحة لمن تنزلت عليهم فى شعاب مكة ، وصحارى الجزيرة العربية القـاحلة ·



الفصل الثالث

البلاغة وصلتها بالدعوة

● أولا ـ البلاغة :

منذ العصر الجاهلى وصناعة الكلام تجد بين العرب سوقا نافقة ، وأخبار أسواقهم الأدبية ، وتفاخرهم بالبيان ، واحتكامهم الى النقاد أوضح من أن يشار اليها ·

ولعل العرب من اكثر الأمم معرفة لقدر البيان ، وادراكا لخطره ، بل واحساسا باثره واستجابة له · فكم من بيت من الشعر رفع وضيعا ، أو وضع رفيعا · وكم من شعر قتل قائله واورده موارد الهلكة ، وكم من شعر أمد قائله او المتمثل به بطاقة نفسية جبارة ، تذهب روعه وتثبت فؤاده ·

يروى أن معاوية أوصى ابنه يزيد قائلا : يابنى : ارو الشعر وتخلق به ، فلقد هممت يوم صفين بالفرار مرات ، فما ردنى عن ذلك الا قول ابن الاطنابة(١) :

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
واقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مكارم صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صريح(٢)

---

(١) ابن الاطنابة هو : عمرو بن عامر بن زيد مناة الكعبى الخزرجى ·· شاعر جاهلى ، كان أشرف الخزرج ، اشتهر بنسبته الى أمه « الاطنابة » بنت شهاب من بنى القين ·

وفى الرواة من يعده من ملوك العرب فى الجاهلية · كانت اقامته بالمدينة ، وكان على رأس الخزرج فى حرب لها مع الأوس ·· انظر الأعلام جـ ٥ ص ٢٣٨ ·

(٢) الأمالى لأبى على القالى · طبعة دار الكتب جـ ١ ص ٨
ـ المشيح : الجاد المبادر · ـ جشأت : نهضت وارتفعت من حزن ونحوه ·
ـ جاشت النفس : غليت او استدارت للغثيان كتجيشت ·

ومن هنا كان اهتمامهم بالبيان ، وفخرهم بالشاعر ينبغ فى القبيلة فتهنأ به ، وتقام الولائم والأفراح ٠

وقد دفعهم هـذا الى محاولة الكشف عن سره ٠ من أين له هـذا التأثير الذى يلهب النفوس حماسا ، ويدفعها الى البذل والتضحية ، أو يستل حقدها ويمـلؤها سـماحة وحلمـا ، ويثير كوامن الخـير ومشـاعر الانسانية النبيلة فيها ؟

من أين له تلك الهيمنة على النفوس حتى لترى الناس يستمعون الى الشاعر أو الخطيب وكأن على رؤوسهم الطير ، يميلون معه حيث مـال ، ويصدقونه فيما يدعى ٠٠ ينفرون اذا استنفرهم ، ويصـفحون اذا حبب اليهم الصفح ؟

● دوافع البحث البلاغى :

هذا الاحساس الفطرى بقيمة البيان وخطــره ، هو الذى أثار فيهم كل هذه التساؤلات ، فراحوا يتلمسون أسـباب التفاوت بين كـلام وكلام ، ويتتبعون الفرق بين بليغ وبليغ ٠

واذا كان العصر الجاهلى قد مضى دون أن يخلف وراءه سوى طائفة من الأحكام النقـدية العـامة ، التى يصـدرها نقاد الكلام عـلى الأعمـال الأدبية ، التى كانت تعرض عليهم فى الأسواق والمحافل فان نزول القـرآن الكريم بلسان عربى مبين وتحديه للعرب أن يأتوا بمثله أو بشىء من مثله ، قـد تركهم ذاهلين على أنفسـهم لا يدرون ما يقولون فيه ، بعد أن بهرهم بمحكم أياته وبديع بيـانه ٠

ان نزول القرآن الكريم عـلى هذا الوضـع قد أعطى القضـية أبعـادا جديدة وخلق دوافع قوية للبحث لم تعرفها الحياة العربية قبل نزوله ٠

فمن جهة كانت قضية الاعجاز حافزا للعلماء على دراسة القرآن اثباتا لاعجازه ، وبيانا لمنزلته ، وتعـليلا لروعته وسـموه ، لأنهم رأوا فى ذلك هدفا دينيا يجب أن يحتل المكان الأول بين اهتمامات العلماء ٠ ذلك لأن اعجاز القرآن يؤدى بالضرورة الى الايمان بما فيه ، والاذعان له ، ويعبر الامام عبد القاهر عن ذلك بقوله : « وجملة الأمر أنه ان قيـل : انـه ليس فى الدنيا علم قد عرض للناس فيـه من فحش الغـلط ، ومن قبيل

التورط ، ومن الذهاب مع الظنون الفاسدة ما عرض لهم فى هـذا الشأن ، ظننت أن لا يخشى على من يقوله الكذب . وهل عجب أعجب من قوم عقلاء يتلون قول الله تعالى :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(١) .

ويؤمنون به ويدينون بأن القرآن معجز ، ثم يصدون بأوجههم عن برهان الاعجاز ودليله ، ويسلكون غير سبيله»(٢) .

ومن جهة ثانية فان قضية الاعجاز نفسها كانت وراء جهود مشكورة بذلها العلماء الأجلاء متصدين لما أثارته طائفة من الملاحدة الذين تسللوا بين المسلمين ، بعد أن اتسع نطاق الدعوة الاسلامية ، وتغيرت صورة المجتمع ، وأصبح يضم أخلاطا من الشعوب والأجناس والثقافات واللغات . وفى ظل سماحة الاسلام برز هؤلاء ينفثون سمومهم ، وينفسون عما تنطوى عليه صدورهم من حقد دفين لهذا الدين الذى أدال دولهم ، وعفى على آثار حضاراتهم ، فيجاهرون بأن القرآن لا يفضل غيره من الكلام المأثور ، بل ربما وقع دونه . كالذى يرويه الباقلانى : « وذكر لى بعض جهالهم أنه يعدل القرآن ببعض أشعار العرب ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه . وليس هذا ببديع من ملحدة العصر » (٣) .

ويعلن آخرون أنهم يسلمون بعجز العرب عن الاتيان بمثل القرآن ، ولكن ذلك لم يكن لخاصة فيه ، وصفة لا يمكن ادراكها ، بل لأنهم صرفوا عن معارضته وسلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة .

وينهض العلماء بالرد على كل ذلك ، فنرى الجاحظ يرد على أستاذه النظام صاحب مذهب الصرفة ، كما نرى أبا الحسن على بن عيسى الرمانى المتوفى عام ٣٨٦ هـ يؤلف رسالة « النكت فى اعجاز القرآن » ويؤلف الخطابى المتوفى عام ٣٨٤ هـ « البيان فى اعجاز القرآن » ، ويسهم الباقلانى بأكبر نصيب فى هذا الجانب بكتابه « اعجاز القرآن » .

---

(١) الاسراء : ٨٨
(٢) اعجاز القرآن ص ٤
(٣) دلال الاعجاز ص ٢٨٢

ومن جهة أخرى كانت هناك دعوات هدفها ليس انكار الاعجاز فقط بل الطعن فى بلاغة القرآن ذاتها ، كالذى يروى عن أبى عبيدة معمر ابن المثني البصرى ، قال : أرسل الى ابن الربيع ، والى البصرة ، فى الخروج اليه سنة ثمان وثمانين ومائة · فقدمت الى بغداد ، واستأذنت عليه ، فأذن لى ، فدخلت عليه ، ثم دخل رجل فى زى الكتاب له هيئة ، فأجلسه الى جانبى وقال لى : انى كنت مشتاقا وقد سئلت عن مسألة · افتأذن لى أن أعرفك اياها ؟ فقلت : هات · قال : قال الله تعالى : « **طلعها كانه رؤوس الشياطين** »(١) ·

وانما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف · قلت : انما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى
ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به ، فاستحسن الفضل ذلك واستحسن السائل ، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابا فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه ، وما يحتاج اليه من علمه ، فلما رجعت الى البصرة عملت كتابى الذى سميته « المجاز »(٢) ·

وتبعه فى هذا الاتجاه ابن قتيبة ، فألف كتابه « مشكل القرآن » وكان همه فيه الدفاع عن القرآن · والرد على الطاعنين فى وجوه القراءات ، وفيما ادعى على القرآن من اللحن ومن التناقض والاختلاف ، أو من وجوه التشابه والاستحالة وفساد النظم ·

فاذا أضفنا الى ما سبق تلك الثورة العلمية التى أشعلها الاسلام فى المجتمع الاسلامى ، متمثلة فى علوم اللغة من نحو وصرف وعلوم التفسير والكلام وكلها كانت فى منشئها ترمى الى الحفاظ على لغة القرآن الكريم وتفسيره ، وتعرض أصحابها فى بحوثهم لبعض مسائل البلاغة والبيان ، وعندما أصبحت الكتابة حرفة لها أصحابها المعتنون بها ، أسهم هؤلاء أيضا فى هذا المضمار بوصاياهم التى كانوا يضعونها فى أصول صناعتهم ، كوصية عبد الحميد الكاتب التى وجهها الى الكتاب ، ووصية ابن المقفع ، والجاحظ ·

---

(١) الصافات : ٦٥

(٢) معجم الأديان لياقوت · ص ١٥٨

وفى ظل هذه الوفرة من الدوافع الى البحث البلاغى ـ التى أشرنا اليها ـ نضج كثير من البحوث البلاغية فى فترة وجيزة جدا . فما أن انتصف القرن الخامس الهجرى ، حتى كانت البلاغة قد اكتمل بناؤها ، وبلغت ذروتها على يد الامام عبد القاهر الجرجانى ، الذى أخمل سابقيه وأيأس لاحقيه ، بما بذله من جهد فكرى جبار فى معالجة قضايا البلاغة ، وتوطيد أركانها ، والوصول بها الى درجة من التكامل والوضوح ، مما يعد بحق أكبر جهد بذله مفكر فى هذا المجال . أما من أتى بعده فلم يزد على ضبط آرائه وتقنينها ـ ان صح هذا التعبير ـ ووضعها فى صورة قواعد محددة تضبطها التعاريف الجامعة المانعة ، ويغلب عليها الأسلوب المنطقى الجاف ، الذى لا يحرك وجدانا ، ولا ينمى ذوقا . واذا اعترفنا لمنهجهم بتيسير استظهار هذه القواعد للدارسين ، فلابد أن نسجل عليهم أنهم قد نأوا بالبيان عن هدفه من ارهاف الحس ، وتنمية الذوق ، وصقل الملكات، حتى أصبحت البلاغة قواعد تحفظ وتردد ويتوارثها العلماء طبقة بعد طبقة .

● منهج البحث البلاغى :

قلنا ان البحث البلاغى ، قد حقق نتائج باهرة ، خاصة على يد الامام عبد القاهر ، فى الوصول الى هدفه الأساسى ، الذى يتمثل فى محاولة العثور على اجابة واضحة للتساؤل الفطرى عن سر الجمال فى التعبير ، وأسباب تأثيره العميق فى النفوس ، وتحريكه لكوامنها ، لتصبح هذه الاجابة فى النهاية قواعد مطردة ، وخصائص معينة ترشدنا الى الطرق والوسائل التى تجعل للكلام حظا من الحسن والتأثير والجمال .

وطبعى أن يكون مجال بحثهم هو النصوص الأدبية ، التى يرون فيها هذا الحسن والتأثير ، لأنه لابد لكل حسن نحسه فى الكلام من أن يكون له مصدر معلوم ، وعلة معقولة ، وأن يكون هناك سبيل الى التعبير عنه .

يقول الامام عبد القاهر : « وجملة ما أردت أن أبينه لك ، أنه لابد لكل كلام نستحسنه ، ولفظ نستجيده ، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة ، وعلة معقولة ، وأن يكون لنا الى العبارة عن ذلك سبيل ، والى صحة ما ادعيته من ذلك دليل . وهو باب من العلم اذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة ، ومعان شريفة ، ورأيت أن له أثرا فى الدين عظيما ، وفائدة جسيمة ، ووجدته سببا الى حسم كثير من الفساد فيما يعود الى التنزيل ، واصلاح كثير من الخلل فيما يتعلق بالتأويل ، وأنه يؤمنك من

أن تغالط فى دعواك وتدافع عن مغزاك ، وبريا بك عن أن تستبين هدى ثم لا تهتدى اليه ، وتدل بعرفان ثم لا تستطيع أن تدل عليه ، وأن تكون عالما فى صورة مقلد ، ومستبينا فى صورة شاك ، وأن يسألك السائل عن حجة يلقى بها الخصم فى آية من كتاب الله أو غير ذلك فلا ينصرف عنك بمقنع ، وأن يكون غاية ما لصاحبك منك أن تحيله على نفسه وتقول : قد نظرت فرأيت فضلا ومزية ، وصادفت لذلك أريحية ، فانظر لتعرف كما عرفت ، وراجع نفسك ، واسبر وذق ، لتجد مثل الذى وجدت ، فان عرف فذاك ، والا فبينكما التناكر ، تنسبه الى سوء التأمل ، وينسبك الى فساد فى التخيل »(١) .

وواضح أن عبد القاهر يرى أن للحسن أسبابا موضوعية يمكن ادراكها والتعبير عنها ، غير أنه يجب أن نلاحظ أن ادراك هذا الحسن ليس الشأن فيه كالعلوم المضبوطة بقواعد لا تتخلف ، بل ان أمر الجمال أدق وأخفى ، حيث لا ميزان له الا القرائح والأذواق ، ويحتاج ادراكه الى استعداد فطرى ، وطبيعة خاصة ، ذات حس مرهف ، وذكاء لماح .

« واعلم أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعا من السامع ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومىء اليه من الحسن واللطف أصلا ، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الأريحية تارة ، ويعرى منها أخرى ، وحتى اذا عجبته عجب ، واذا نبهته لموضع المزية انتبه ، فأما من كانت الحالان والوجهان عنده أبدا على سواء ، وكان لا يتفقد من أمر النظم الا الصحة المطلقة ، والا اعرابا ظاهرا ، فما أقل ما يجدى الكلام معه » (٢) .

وقد لا يستطيع الناقد أن يصل الى معرفة السبب الذى جعل الكلام جميلا ولكن ذلك لا يجب أن يكون سببا لليأس من الوصول اليه بل لابد أن يتخذ المرء ما يعرفه سبيلا الى مالا يعرفه وأن يبذل الجهد للوصول الى هذه المعرفة مؤمنا بأن كثيرا من هذه الأسباب لم يهتد اليه السابقون ، وأن فى استطاعة اللاحقين أن يهتدوا اليه (٣) .

ومضى العلماء على هذا المنهج فى دراستهم للنصوص يتلمسون أسباب الجمال ومظاهره ، ويسجلون نظراتهم وخواطرهم ، ليجعلوا منها مقاييس وقواعد مطردة ، لتكون معالم يهتدى بها الناقد ، ويستعين بها المتأدب .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٣ ـ ٢٤ (٢) المصدر السابق ص ٢٢٥

(٣) انظر أسس النقد الأدبى عند العرب ص ٩١

قالت سمية قد وغيت بأن رأت

حقا تناوب ما لنا ووفـــودا

غى لعمــرك لا أزال أعوده

مادام مال عنــدنا موجــودا

المعنى « ذاك غى لا أزال أعود اليه فدعى عنك لومى » • ثم يدعو القارىء الى أن يستقريها بيتا بيتا ، وينظر الى موقعهـا فى النفس ، والى ما يجده من اللطف والظرف اذا مر بموضع الحذف منها • ثم يتكلف أن يرد ما حذف الشاعر منها وأن يخرجه فى لفظه ويوقعه فى سمعه ، فانه ســيدرك الفرق بين العبارتين ، وأن حذفه أحســن من ذكره ، واضــماره فى النفس أولى وآنس من النطق به » (١) •

ثم ينتقل الى دراسة أسلوب الحذف للمفعول فيشير الى أن اللطائف فيه أكثر ، وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر •

ويذكر من مواقعه أن يكون غرض المتكلم فى ذكر الفعل المتعــدى أن يقتصر على اثبات المعنى الذى اشتق منه للفاعل ، من غير أن يتعرض لذكر المفعول فيكون الفعل المتعدى كغير المتعدى،فى أنك لا ترى له مفعولا لا لفظـا ولا تقديرا ويمثل له بقوله تعالى : « **قل هل يســتوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » (٢) المعنى هل يستوى من له علم ومن لا علم له من غير أن يقصد النص على معلوم وكذلك قوله تعالى : « **وأنه هو أضحك وأبكى • وأنه هو أمات وأحيا** » (٣) ، وهكذا كل موضــع كان القصد فيه أن يثبت فى نفســه فعلا للشيء وأن يخبر أن من شانه أن يكون منه أو لا يكون الا منه ، أو لا يكون منه ، فان الفعل لا يتعدى هناك لأن تعديته تنقص الغرض وتغير المعنى ، ألا ترى أنك اذا قلت : هو يعطى الدنانير • كان المعنى على أنك قصــــدت أن يعلم السامع أن الدنانير تدخل فى عطائه ، أو أنه يعطيها خصوصا دون غيرها وكان غرضك فى الجملة بيان جنس ما تناوله الاعطاء لا الاعطاء فى نفسه ، ولم يكن كلامك مع من نفى أن يكون فيه اعطاء بوجه من الوجوه ،

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١١٢ ـ ١١٧ •

(٢) الزمر : ٩ •

(٣) النجم : ٤٣ ، ٤٤ •

بالجمال والتأثير · ثم أن يحدد مسائلها ويذكر أقسامها ويبرز أسرارها البلاغية وأثرها فى جمال الكلام وسمو التعبير وقد وصل عبد القاهر فى دراسته التطبيقية هذه الى ذروة كشفت عن شخصيته التى اجتمع لها الذكاء اللماح والحس المرهف والعبقرية المبدعة ·

ولنستعرض بعض جهوده فى مجال التطبيق لنظرية النظم ودراساته للفنون البلاغية لنرى صدق ذلك · بدراسته لأحد موضوعات علم المعانى وهو أسلوب الحذف ·

● أسلوب الحذف :

اذا نظرنا فيما قاله علماء البلاغة قبل عبد القاهر عن أسلوب الحذف لم نجد سوى اشارتهم على أن الحذف من سنن العرب فى كلامهم دون ذكر أسرارد وألوانه « يقول قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ : ان العرب تستعمله للايجاز والاختصار والاكتفاء بيسير القول اذا كان المخاطب عالما بمرادها ، وذلك كقوله عز وجل : « **واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون** » (١) وسكت عن تمام الكلام لعلم المخاطب به ، **فكأن تقدير ذلك** : « **واذا قيل ··· استكبروا وتمادوا وعتوا** »(٢) ويمضى فى عرض بعض الأمثلة له ، ويختم الفصل بأن الحذف كثير فى كلام العرب ، واذا مر بك عرفته ان شاء الله ·

ومثل هذا نجده لدى ابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ · فبعد أن ذكر أن الحذف من سنن العرب أورد له بعض الأمثلة من كلام العرب ومن القرآن الكريم دون تحليل لخصائص هذا الأسلوب وأسراره البلاغية(٣) ·

ويأتى عبد القاهر فيتناول أسلوب الحذف فيرى أنه « باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر · فانك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الافادة أزيد للافادة ، وتجدك أنطق ما تكون اذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا اذا لم تبين » (٤) ، ثم يتعرض لأسلوب الحذف فى المبتدأ ، فيذكر أمثلة متعددة من جيد الشعر ، حذف فيها المبتدأ كقول الشاعر :

---

(١) يس : ٤٥ ·
(٢) نقد النثر ص ٦٩ ·
(٣) انظر الصاحبى ص ١٧٥ ·
(٤) دلائل الاعجاز ص ١١١ ·

نظم اللفظ وترتيبه ، حيث قدم الكاف الى صـدر الكلام ، وركبت مع أن ٠ واذا لم يكن الى الشك سبيل أن ذلك كان بالنظم فاجعله العبرة فى الكلام كله » (١) ٠

ويستدل عبد القاهر على فكرته تلك بأن عـدم التسليم بها يؤدى الى جهالة عظيمة ، وهى أن تكون الألفاظ مختلفة المعانى اذا فرقت ، ومتفقتها اذا جمعت وألف منها كلام ٠ وذلك أن ليس كلامنا فيما يفهم من لفظتين مفيدتين مثل قعد وجلس ٠ ولكن فيما يفهم من مجمـوع كلام ومجموع كـلام آخـر نحو أن تنظر فى قوله تعـالى : « **ولكم فى القصاص حياة** » (٢) ٠

وقول الناس : « قتل البعض احياء للجميع » فانه وان كانت قد جرت عادة الناس أن يقولوا فى مثل هذا انهما عبارتان معبرهما واحد ، فليس هذا القول قولا يمكن الأخذ بظاهره ، أو يقع لعاقل شك أن ليس المفهوم من أحد الكلامين المفهوم من الآخر (٣) ٠

وعبد القـاهر يفـرق بين الأدب وغيره من الصـناعات التركيبيـة كالصباغة والنقش ٠ فيمكن للصائغ مثلا أن يصوغ سوارا على مثال آخر ، ويضمنه من الصنعة ما يكون به متماثلا معه كل التماثل ، ولا يمكن ذلك فى الكلام (٤) ٠

* * *

● ثانيا ــ مسائل النظم وفنون البلاغة :

اذا كانت البلاغة فى النظم ، فان كل بحـوث البـلاغة وألوانهـا هى مسائل النظم ، لا فرق فى ذلك بين ما اعتبره المتأخرون من عـلم المعانى ، أو البيان أو ماعدوه من وجوه تحسين الكلام ٠ فعبد القاهر لم يعرف هـذا التقسيم لبحوث البلاغة ، بل نظر اليها كلها على أنهـا مسائل تتعـلق بنظم الكلام والاتيان به على صورة جميلة معجبة ٠ وعالج الفنون البلاغية كلهـا معالجة ترمى الى هدفين واضحين فى كل دراسـاته ، وهمـا : أن يؤكد ارتباطها بالنظم فيها يكون ، ومن خـلاله تحقق أثرها فى التعبير ، وتمده

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٩٩ ٠ (٢) البقرة : ١٧٩ ٠

(٣) دلائل الاعجاز ص ٢٠٢ ٠ (٤) دلائل الاعجاز ص ٢٠١ ٠

وعلى الأديب بعد أن يعلم هذا وذاك أن يؤلف كلاما تتحقق فيه الصحة ، كما يتحقق له اختيار المناسب للمقام · وكلما قويت ملكة الاديب ودق حسه ، ونما ذوقه ، أخرج لنا أسلوبا هو فى مقام التفضيل له قدم ومكان وانما يقع التفاوت بين ناظم وناظم بمقدار ما أوتيه كل منهم من توفيق فى التقاط الألفاظ المناسبة والصيغة المناسبة بحسب الموضع الذى يريد والغرض الذى يقصد ·

« وانما سبيل معانى النحو سبيل الأصباغ التى تعمل منها الصور والنقوش ، فكما انك ترى الرجل قد تهدى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة والنقش فى ثوبه الذى نسج الى ضرب من التخير والتدبر فى أنفس الأصباغ وفى مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وتركيبه اياها ، الى ما لم يتهد اليه صاحبه فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب ، وصورته أغرب ، وكذلك حال الشاعر مع الشاعر فى توخيهما معانى النحو ووجوهه التى علمت أنها محصول النظم » (١) ·

اذن فالمعنى الواحد تختلف عليه الصور التى يمكن أن يعرض فيها وتتفاوت الصور فى الجمال بمقدار التوفيق فى المؤاخاة بين المعنى والصورة الدالة عليه ·

غير أنه يجب أن يلاحظ أن المعنى لا يبقى بحاله عند تغيير الصورة بل يختلف عن الأول قطعا ، واذا كان السابقون يقولون : انه قد أتى بالمعنى على حاله ، فذلك تجاوز منهم · ويعنون بالمعنى : الغرض العام ·

« لا تكون لاحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها فى المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها ، فان قلت : فاذا أفادت هذه ما لم تفده تلك ، فليستا عبارتين عن معنى واحد ، بل هما عبارتان عن معنيين اثنين · قيل لك : ان قولنا المعنى فى مثل هذا ، المقصد به « الغرض » الذى أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه · نحو أن تقصد تشبيه رجل بالأسد فتقول : زيد كالأسد ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول : كأن زيدا الأسد · فتفيد تشبيهه أيضا بالأسد · الا أنك تزيد فى معنى تشبيهه به زيادة لم تكن فى الأول · وهى أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه ، وأنه لا يروعه شىء ، بحيث لا يتميز عن الأسد ولا يقصر عنه ، حتى يتوهم أنه أسد فى صورة آدمى · واذا كان كذلك فانظر هل كانت هذه الزيادة ، وهذا الفرق الا بما توخى فى

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٠ ·

وتجيء به حيث ينبغي له ، وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصيته في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه ٠ نحو ان يجيء ـ بما في نفي الحال ، و ـ بلا ـ اذا أردت نفي الاستقبال ٠ و ـ بأن ـ فيما يترجح بين أن يكون أو لا يكون و ـ باذا ـ فيما علم أنه كائن ٠

وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل « الواو » من موضع « الفاء » من موضع « ثم » وموضع « أو » من موضع « أم » وموضع « لكن » من موضع « بل » ٠ ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله ، وفي الحذف والتكرار والاضمار والاظهار ، فيضع كلا من ذلك مكانه ، ويستعمله على الصحة وما ينبغي له » (١) ٠

« واعلم أننا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فنستند الى اللغة ، ولكننا أوجبناها للعلم بمواضعها ، وما ينبغي أن يصنع فيها ، فليس الفضل للعلم بأن « الواو » للجمع و « الفاء » للتعقيب بغير تراخ ، و « ثم » له شرط التراخي و « ان » لكذا و « اذا » لكذا ، ولكن لأن يتأتى لك اذا نظمت وألفت رسالة أن تحسن التخير ، وأن تعرف لكل من ذلك موضعه » (٢) ٠

« فالنظم ليس شيئا غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم ، وأنك ترتب المعاني أولا في نفسك ثم تحذوا على ترتيبها الألفاظ في نطقك » (٣) ٠

وهكذا يشرح عبد القاهر فكرته ، ويحدد ماهية النظم ، ويبرز ملامحه فهنا دوران :

الأول : ينهض به علم النحو ، فيحكم بالصحة والخطأ على الصيغ ، ويبيح للناظم أن يستعمل صورا ، ويحرم عليه أخرى ٠

الثاني : تنهض به دراسة مسائل النظم في علم البلاغة فيبين الأحوال التي تناسب كل صيغة والتي تحقق للنظم ميزة لا تتوفر في غيرها ٠

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٦٤ ـ ٦٥ (٢) دلائل الاعجاز ص ١٩٣ ٠
(٣) المصدر السابق ص ٣٤٩ ٠

فعلين أن تجعل أحدهما شرطا فى الآخر ، فتجىء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى ٠٠ » (١) وعلى هذا القياس · فالنظم اذن أن تجعل الكلمة بسبب من جارتها ، متتبعا فى ذلك ما يميزه على النحو ، ويشهد له بالصحة ·

ولكن أين البلاغة فى ذلك ؟ ان الحكم على الكلام بالفضل والتقدم لا يكتفى فيه بالنظر فى صحته أو فساده من ناحية النحو · بل ينظر اليه من حيث تكون فيه أمور تدرك بالفكر اللطيفة ، ودقائق يتوصل اليها بثاقب الفهم ، فليس الجرى على الصواب فضيلة حتى يشرف موضعه ، ويصعب الوصول اليه ·

وهنا يجيب عبد القاهر بأن المتكلم صانع ، له من صناعته بمقدار جهده ، وتتفاوت الجهود بمقدار ما بذل فى صنع أسلوب جميل · ذلك أنه ليست هناك صيغة واحدة لكل معنى ، يلزم الأديب بالتعبير بها · بل ان النحو يحكم بالصحة على عدد غير محدود من صيغ التعبير ، لكل منها فضيلة ليست فى الأخرى وعلى الأديب أن ينتقى من بينها الصيغة التى تناسب ما يريد من معنى ، ناظرا فى ذلك الى اعتبارات مقام القول وملابساته وأحوال المخاطب والمتكلم نفسه الى آخر ما يمكن أن يلاحظ من اعتبارات ·

« اعلم أنه ليس النظم الا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها · ذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه ، فينظر فى الخبر الى الوجوه التى تراها فى قولك : زيد منطلق · وزيد ينطلق · وينطلق زيد · ومنطلق زيد · وزيد المنطلق · والمنطلق زيد · وزيد هو المنطلق · وزيد هو منطلق · وفى الحال الى الوجوه التى تراها فى قولك : جاء زيد مسرعا · وجاءنى يسرع · وجاءنى وهو مسرع - أو وهو يسرع - وجاءنى وقد أسرع · وجاءنى قد أسرع · وفى الشرط والجزاء الى الوجوه التى تراها فى قولك : ان تخرج أخرج · وان خرجت خرجت · وان تخرج فأنا خارج · وأنا خارج ان خرجت · وأنا ان خرجت خارج · فتعرف لكل من ذلك موضعه ،

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٠ - ٤١

● **ماهية النظم :**

يمهد عبد القاهر لشرح فكرته بأن يوضح الفرق بين نظم الحروف ونظم الكلمات · فنظم الحروف هو تواليها فى النطق فقط ، من غير أن يكون هذا النظم ناشئا عن معنى اقتضاه ، فلو أن واضع اللغة كان قد قال : ربض ـ مكان ـ ضرب ـ لما كان فى ذلك ما يؤدى الى فساد ، أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك ، لأنك تقتفى فى نظمها آثار المعانى ، وترتبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس ·

فهو اذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشىء الى الشىء كيف جاء واتفق · لذلك كان عندهم نظير النسيج والتأليف والصياغة والبناء والوشى وما أشبه ذلك ، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض ، حتى يكون لوضع كل جزء حيث وضع علة تقتضى كونه هناك ، وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصح ·

« والفائدة فى معرفة هذا الفرق انك اذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن تتوالى ألفاظها فى النطق ، بل ان تناسقت دلالتها ، وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل »(١) ·

ثم يمضى عبد القاهر بعد بيان هذا الفرق يوضح طبيعة العلاقات بين الكلمات ، وكيف تأتى مترابطة ترابطا يقتضيه المعنى ، فيقول :

« اعلم انك اذا رجعت الى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم فى الكلم حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب تلك · هذا مالا يجهله عاقل · فما معنى ذلك وما محصوله ؟ ·

اذا نظرنا فى ذلك علمنا أن لا محصول له غير أن تعمد الى اسم فتجعله فاعلا لفعل ، أو مفعولا ، أو تعمد الى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثانى صفة للأول أو تاكيدا له أو بدلا منه أو تجىء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثانى صفة أو حالا أو تمييزا ، أو تتوخى فى كلام هو لاثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما او تمنيا فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك ، أو تريد فى

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٠ ـ ٤١

● عبد القــاهر :

جاء عبد القاهر والبلاغة على ما رأينـا ، فاستطاع بثقافته وعبقـريته أن يصحح مسارها بوضعه لنظرية النظم ، كما استطاع أن يصل بالألوان البلاغية والكشف عن أسرارها الى مدى لم يترك لمن أتى مـن بعده الا أن يدور فى فلكه ويتتلمذ عليــه ، وذلك بجهوده الرائعــة التى بذلها فى مجال التطبيق على نظرية النظم وانطواء كل فنون البـلاغة تحت لوائها • وسنتحدث باختصار عن كل من هــذين الانجازين العظيمين اللذين حققهما عبد القاهر فى مجال البحث البلاغى •

● أولا ـ نظرية النظم :

ينطلق تفكير عبد القاهر فى موضوع موطن البلاغة فى الكلام من قاعدة مسلمة لديه ، وهى : أن القرآن معجز ببلاغته ، واذا كان كذلك فلابــد لاعجازه من جهة يلتمس فيها ومرجع يعود اليه •

ولا يجوز أن يكون ذلك فى الكلم المفــردة لأن تقــدير كونه فيها يؤدى الى المحال وهو أن تكون الألفاظ المفــردة قــد حــدث فى مذاقة حروفهــا واصدائها أوصاف لم تكن فيها قبل نزول القرآن •

كما لا يجوز أن تكون معانى الكلم المفردة التى لها بوضــع اللغــة ، لأنه يؤدى الى أن تكون قد تجدد فى معنى : الحمــد ، والرب ، والملك ، وغيرها وصف لم يكن لها قبل نزول القرآن •

ولا يجوز أن يكون ذلك فى تركيب الحركات والسكنات ، ولا فى أوزان الكلمــات ولا فى الفواصــل وأواخــر الآيات ، ولا فى الجــريان والسهولة والسلامة من أن تلتقى فيه حروف تثقل على اللسان ، ولا لمــا فى القــرآن من استعارة وكناية ومجاز ، واذا امتنع أن يكون فى شىء من ذلك ، لم يبق ـ أى الاعجــاز ـ الا أن يكون فى النظم والتأليف(١) • واســتطاع عبد القاهر بذلك أن يقنع برأيه الذى آمن به ايمــــانا لا يتزعزع ، وهــو أن اعجاز القرآن فى نظمه ، واعجازه ببلاغته فبلاغته فى نظمه •

والآن الى تبين ماهية النظم وملامحه •

---

(١) اقرأ فى هذا « دلائل الاعجاز » ، وبخاصة الصفحات : ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٦٤ ، ٤٠١

وكذلك فعل أبو هـــلال العسـكرى اذ لم يزد على أن أتى بعبـارات مأثورة تمجد معرفة الفصل والوصل فى الكلام (١) ٠

ونجد مثل هذا فى أسـلوب الحــذف والقصر ، وغيرها مـن أبـواب المعانى ٠ مما يمكننا القول معه « بأن ما بذله عبد القاهر من جهد خصب صادق لم يتجـه الى تطوير علم المعانى بل فى ايجاده » (٢) ٠

أما أبواب البيان من تشبيه واستعارة ومجاز وكنـاية فقد سـبق عبد القاهر ببحوث مستفيضـة فى هـذه الأبواب تبين ألوانهـا وتجلى أسرارها البلاغية مما يمكننا من القول باستفادة عبد القاهر ممن سبقوه فى هــذه الأبواب استفادة كبيرة ، وان كان من الواجب أن نثبت لـه فضـل من أكمل البناء ، وأضاف اليه ما هـدته اليه عبقريتـه الفريدة وذكاؤه اللماح ، وذوقه الراقى ٠

أما عن البديع وألوانه قبل عبد القاهر ، فان الحديث عنه مسهب مستفيض يقول السيوطى عنه « أول من اخترع ذلك ابن المعتز ، فجمع منها سبعة عشر نوعا وعاصره قدامة فجمع منها عشرين نوعا ٠ ثم تبعهما الناس فجمع العسكرى سبعة وثلاثين ، ثم جمع ابن رشيق مثلها ، وأضاف اليها خمسة وستين بابا من الشعر وتلاهما شرف الدين الشاشى فبلغ السبعين ، ثم تكلم فيها ابن أبى الاصبع واسـتخرج عشرين ، وكتـابه : « المحـرر » أصح كتب هذا الفن لاشتماله على النقل والنقـد » (٣) ٠

أما عبد القاهر فلم يتجه بعنـايته الى البديع ولكنـه تعرض لبعض ألوانه كالتجنيس والسجع من زاوية واحـدة ، وهى ربط التحسين باقتضـاء المعنى له ٠

تلك صـورة البلاغة قبل عبد القـاهر فلننتقل الى عبد القاهر الذى تمثل جهوده مرحلة متميزة ، حيث خطت بالبـلاغة خطوات أشرفت بها عـلى قمة ما وصلته من كمال ونضج ٠

---

(١) انظر الصناعتين ص ٤٢٣

(٢) انظر فصول من تطور البيان العربى ، دكتور كامل الخولى ص ٥٦

(٣) شرح عقود الجمان ص ٩٢ ٠ هذا وقد آثرنا أن ننقل النص كاملا ونشير هنا الى أن ابن رشيق كان معاصرا لعبد القاهر اذ توفى سنة ٤٦٣ هـ وأن ابن أبى الاصبع من تابعى عبد القاهر اذ توفى سنة ٦٥٤ هـ ٠

وكلمة سيبويه هذه على ايجازها ربما كانت أهم ما قيل فى الموضوع قبل عبد القاهر فهى تشير الى بعض أسرار التقديم · وذلك ما لم يتعرض له غيره ممن أتى بعده من أمثال أبى عبيدة معمر بن المثنى حيث لم يتجاوز فى كتابه : « مجاز القرآن » بيان المقدم والمؤخر من غير ذكر لدواعى التقديم وأثره البلاغى مثل قوله فى مقدمة كتابه : « ومن مجاز المقدم والمؤخر قال : « فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » (١) أراد ربت واهتزت » (٢) ·

أما ابن قتيبة فقد عقد فى كتابه : « تأويل مشكل القرآن » باب المقلوب وعد منه التقديم والتاخير فيقول : ومن المقلوب أن يقدم ما يوضحه التاخير ، ويؤخر ما يوضحه التقديم كقوله تعالى : « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله » (٣) أى مخلف رسله وعده ، لأن الاخلاف يقع بالوعد كما يقع بالرسل فنقول : « أخلفت الوعد وأخلفت الرسل » (٤) · ويستمر هكذا فى سرد الأمثلة مسجلا لظاهرة التقديم والتأخير دون أن يشير الى سر التقديم أو أثره البلاغى ·· ونجد مثل هذا عند المبرد الذى يسمى هذا الأسلوب « التحويل » ، وينسج على منواله ابن فارس فى كتابه « الصاحبى » وكذلك يفعل قدامة بن جعفر فى كتابه : « نقد النثر » فلا يزيد على أن يذكر بعض أمثلة التقديم مثل قوله تعالى : « ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى » (٥) ثم يعقب عليها بقوله « أراد : ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما ، ثم يختم الباب بقوله : وفيما ذكرنا دليل على ما لم نذكره ان شاء الله » (٦) ·

وهكذا ظل أسلوب التقديم والتأخير حتى جاء عبد القاهر فعالجه بما لا مزيد عليه · حيث بين مكانه بين الأساليب ، وفصل ألوانه وضروبه كاشفا عن أسرار التعبير به ·

وفى الفصل والوصل لا نجد قبل عبد القاهر سوى قول الجاحظ :

« عندما سئل الفارسى عن البلاغة قال : هى معرفة الفصل والوصل » (٧) · دون أن يبين مواضع الفصل ولا مواضع الوصل بل لم يزد على هذه الجملة التى رواها ·

---

(١) الحج : ٥ . فصلت : ٣٩ (٢) مجاز القرآن ص ١٢
(٣) ابراهيم : ٤٧ (٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٤٨
(٥) طه : ١٢٩ (٦) نقد النثر ص ٧٣
(٧) البيان والتبيين ص ٧٥

رباط بالمعنى . مما يجعلنا نعتقد أن عبد القاهر قد اقتبس فكرة النظم من قولة الجاحظ هـذه .

فاذا ألقينا بعد ذلك نظرة على جهود هؤلاء فيما يتعلق بالفنون البلاغية والكشف عن أسرارها فلن نجد لديهم الكثير ، ولعل من المفيـد أن نذكر وصف عبد القاهر لحال البلاغة قبل عصره وفى عصره حيث يقول : « أعلم أنك لا ترى فى الدنيا علما جرى الأمـر فيه بديئا وأخـيرا على ما جرى فى علم الفصـاحة والبيان ، أما البـدىء ، فهو أنك لا ترى نوعا من أنواع العلوم الا واذا تأملت كلام الأولين الذين علموا الناس وجدت العبارة فيه أكثر من الاشارة ، والتصريح أغلب من التلويح ، والأمر فى علم الفصاحة بالضد من هـذا ، فانك اذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جله أو كله رمزا ووحيا وكناية وتعريضا وايماء الى الغرض من وجه لا يفطن له الا من غلغل الفكر ، وأدق النظر ، ومن يرجـع من طبعـه الى ألمعية يقوى معها على الغامض ، ويصل بها الى المخفى » .

« وأما الأخير فهو أنا لم نر العقـلاء قد رضـوا مـن أنفسهم فى شىء من العلوم أن يحفظوا كلاما للأولين ويتدارسوه ، ويكلم به بعضهم بعضا من غير أن يعـرفوا له معنى ، ويقفوا منه على غرض صـحيح ، ويكون عندهم ـ أن يسألوا عنه ـ بيان له وتفسير ، الا علم الفصاحة .. » .

« فمن أقرب ذلك أنك تراهم يقولون اذ هم تكلموا فى مزية كلام على كلام : ان ذلك يكون بجزالة اللفظ ، واذا تكلموا فى زيادة نظم على نظم : ان ذلك يكون لوقوعه على طـريقة مخصـوصة ، وعلى وجه دون وجه ، ثم لا تجـدهم يفسرون الجزالة بشىء ، ولا يقولون فى المراد بالطريقة والوجـه ما يحلى منه السامع بطائل »(١) .

وقد يكون عبد القاهر مبالغا فى حكمه على من سبقوه ، ولكننا اذا تصفحنا كتبهم ـ وبخاصة فيما يتعلق بالموضوعات التى عرفت فيما بعد بعلم المعانى ـ أدركنا سر ضيقه واستهانته بما وجـده لديهم .

ولنذكر بعض النماذج على صدق ذلك .

ففى باب التقديم والتأخير نجد سيبويه يقول : « كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم ، وهم بشأنه أعنى ، وان كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم ، ولم يذكر فى ذلك مثالا » (٢) .

---

(١) دلائل الاعجاز . ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ (٢) المصدر السابق ص ٨٤

والآن حان موعد القاء نظرة عامة على نتائج بحوثهم ، وحصاد جهادهم ويمكننا توزيع ذلك على ثلاث مراحل : مرحلة ما قبل عبد القاهر ، ومرحلة عبد القاهر ومرحلة ما بعد عبد القاهر ، ولا نقصد هنا تتبع علوم البلاغة ومسائلها الجزئية وانما الهدف هو رسم تصور شامل للنتائج التى توصل اليها العلماء ، وبيان قيمتها العملية فى الكشف عن مواطن البلاغة فى النص ، والافصاح عن سر جماله وتأثيره · وهو ما يعنينا فى هـذا البحث ·

● قبل عبد القاهر :

كانت بحوث البلاغة قبل عبد القاهر تنطلق من قاعدة مسلمة لدى العلماء جميعا ، وهى أن للعمل الأدبى : شعرا كان أو نثرا : ركنين أساسيين هما : اللفظ والمعنى ، أو الشكل والمضمون · وأنه اذا كان هناك لبعض الكلام فضل على بعض يستحق بسببه أن يلقى قبولا ، أو تنسب اليه مزية ، أو يحكم له بالسمو على غيره فلابد أن يرجع ذلك الى شىء اما فى لفظه واما فى معناه والى خصائص يمكن ادراكها فى أحد ركنيه ·

ومن هنا تباينت نظرتهم عندما بدأوا يتلمسون موطن الميزة ، ومناط الفضيلة فى الكلام ، فمنهم من رأى ذلك فى اللفظ مستخفا بشأن المعنى ، بينما اتجه آخرون الى المعنى وأخملوا جانب الصياغة والألفاظ ، ومنهم من ساوى بين كلا الركنين فى مده الكلام بالحسن والبلاغة · ولكننا نقف عند أحد هؤلاء وهو الجاحظ ، اذ نعتبر رأيه فى الموضوع هو المصدر الذى ألهم عبد القاهر نظريته فى النظم ، وذلك حين أعلن قولته المشهورة : « المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى ، والبدوى والقروى والمدنى ، وانما الشأن فى اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع ، وجودة السبك ، فانما الشعر صياغة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير »(١) ·

واذا كان البعض قد حمل كلام الجاحظ على اعتداده باللفظ دون المعنى فان الواقع غير ذلك ، فالجاحظ لم يرد الألفاظ مفردة عن تراكيبها فهو يصرح بأن شأن الكلام شأن التصوير والصياغة ، مما يدل على أنه لم يعن باللفظ الا لجلاء الصورة الأدبية ، ولهذه الصورة الأدبية أوثق

---

(١) الحيوان · للجاحظ جـ ٢ ص ١٣١ ـ ١٣٢ ·

بل مع من اثبت أن له اعطاء الا انه لم يثبت اعطاء الدنانير ، فهـذا القسم من خلو الفعل من المفعول وهو ألا يكون له مفعول يمكن النص عليه(١) ٠

القسم الثانى : أن يكون للفعل مفعول مقصود ، الا أنه يحذف من اللفظ لدليل يدل عليه ، وقد يكون ذلك جليا لا صنعة فيه كقولهم :

اصغيت اليه ، أى بأذنى ٠

ومن الخفى أن تذكر الفعـل وفى نفسك مفعول له مخصـوص الا أنك تنسيه نفسك وتخفيه وتوهم أنك لم تذكر ذلك الفعل الا لأن تثبت نفس معناه من غير أن تعديه الى شيء ، أو تعرض فيه لمفعول مثل قول البحترى :

شجو حسـاده وغيظ عـداه

أن يرى مُبصر ويسمع واع (٢)

المعنى لا محالة : أن يرى مبصر محاسنه ويسمع واع أخباره وأوصافه ولكنك تعلم أنه كان يسوق علم ذلك عن نفسه ويدفع صـورته وهمه ليحصـل له معنى شريف وغرض خاص وقال : انه يمدح خليفة ، وهو المعتز ، ويعرض بخليفة ، وهو المستعين ، فأراد أن يقول : ان محاسن المعتز وفضائله المحاسن والفضائل ، يكفى فيها أن يقع عليها بصر ويعيها سمع حتى يعلم أن المستحق للخلافة ، والفرد الوحيد الذى ليس لأحـد أن ينازعه مرتبتها ، فأنت ترى حسـاده وليس شيء أشجى لهم وأغيظ من علمهم بأن ههنـا مبصرا يرى وسامعا يعى حتى ليتمنون أن لا يكون فى الدنيا من له عين يبصر بها ، وأذن يعى معهـا ، كى يخفى مكان استحقاقه لشرف الامامة فيجـدوا بذلك سبيلا الى منازعته اياها (٣) ٠

ومن الخفى أيضا « أن يكون معك مفعول معـلوم مقصـود قصـده ، قـد علم أنه ليس للفعل الذى ذكرت مفعول سواه بدليل الحال أو ما سبق من الكلام الا أنك تطرحه وتتناساه ، وتدعه يلزم ضمير النفس لغرض غير الذى مضى ، وذلك الغرض أن تتوفر العناية على اثبات الفعل للفاعل وتخلص له وتنصرف بجملتها وكما هى اليه » (٤) ٠

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١١٨ ــ ١١٩ ٠

(٢) شجاه ٠ شجوا : أحزنه وأطربه ٠ والمراد الأول ٠ انظر القاموس ج ٤ ص ٣٤٩ ٠

(٣) دلائل الاعجاز ص ١٢٠ ٠ (٤) دلائل الاعجاز ص ١٢١ ٠

ويذكر لذلك أمثلة كثيرة يحللها مبرزا سر الحذف فيها ثم يقول : وان أردت تبيينا لهذا الأصل ، أعنى وجوب أن تسقط المفعول لتتوفر العناية على اثبات الفعل لفاعله ولا يدخلها شوب » فانظر الى قوله تعالى : « **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير · فسقى لهما ثم تولى الى الظل** » (١) ففيها حذف فى أربعة مواضع اذ المعنى : وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم ، وامرأتين تذودان غنمهما ، وقالتا لا نسقى غنمنا ، فسقى لهما غنمهما · ثم لا يخفى على ذى بصر أنه ليس فى ذلك كله الا أن يترك ذكره ويؤتى بالفعل مطلقا وما ذاك الا أن الغرض فى أن يعلم أنه كان من الناس فى تلك الحال سقى ومن المرأتين ذود وأنهما قالتا : لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء · وانه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقى · فأما ما كان المسقى أغنما أم ابلا أم غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه · وذلك أنه لو قيل : وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما · جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود ، بل من حيث هو ذود غنم لو كان مكان الغنم ابل لم ينكر الذود ، كما انك اذا قلت : ما لك تمنع أخاك · كنت منكرا المنع لا من حيث هو منع ، بل من حيث هو منع أخ ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول فى هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت الا لأن فى حذفه وترك ذكره فائدة جليلة وأن الغرض لا يصح الا به » (٢) ·

ثم يعرض علينا عبد القاهر لونا آخر من ألوان الحذف يسميه « الاضمار على شريطة التفسير » كقولهم : أكرمنى وأكرمت عبد الله · أردت « أكرمنى عبد الله ، وأكرمت عبد الله » ثم تركت ذكره فى الأول استغناء بذكره فى الثانى ·

فهذا طريق معروف وشىء لا يعبأ به ، ويظن أنه ليس فيه أكثر مما تريك الأمثلة المذكورة منه · وفيه اذا أنت طلبت الشىء من معدنه من دقيق الصنعة ومن جليل الفائدة مالا تجده الا فى كلام الفحول فمن لطيف ذلك ونادره قول البحترى :

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم
كرما ولم تهدم مآثر خالد

---

(١) القصص : ٢٣ ، ٢٤ ·

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٢٤ _ ١٢٥ ·

الأصل لا محالة : لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته فى الثانى عليه · ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغرابة ، وهو على ما ذكر اك من أن الواجب فى حكم البلاغة ألا ينطقبالمحذوف · فليس يخفى عليك أنك لو رجعت الى ما هو أصله فقلت : لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها · صرت الى كلام غث والى شىء يمجه السمع وتعافه النفس · وذلك أن فى البيان بعد الابهام وبعد التحريك له أبدا لطفا ونبلا لا يكون اذا لم يتقدم ما يحرك ، وأنت اذا قلت : لو شئت ، علم السامع أنك قد علقت هـذه المشـيئة فى المعنى بشىء ، فهو يضـع فى نفسه أن ههنا شيئا تقتضى مشيئته له أن يكون أو أن لا يكون فاذا قلت : لم تفسد سماحة حاتم · عرف ذلك الشىء · ومجىء المشيئة بعد ـ لو ـ وبعد حروف الجزاء هكـذا موقوفة غير معداة الى شىء كثير شائع ، كقوله تعالى : « **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** » (١) وقوله : « **ولو شاء لهداكم أجمعين** »(٢) والتقـدير فى كل ذلك ما ذكرت · فالأصـل « لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم » و « لو شاء أن يهديكم أجمعين لهداكم » الا أن البلاغة فى أن يجاء به كذلك محذوفا » (٣) ·

وقد يتفق أحيانا أن يكون اظهار المفعول هو الأحسن كقول الشاعر :

ولو شئت أن أبكى دما لبكيته

عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

وسبب الجمال فى اظهـار المفعول « انه كأنه بدع عجيب أن يشـاء الانسان أن يبكى دما · فلما كان كذلك كان الأولى أن يصرح بذكره ليقرره فى نفس السامع ويؤنسه به »(٤) ·

وقد يكون حذف المفعول مخافة أن يتوهم السامع فى بدء الأمر شـيئا غير مراد ثم ينصرف الى المراد كما فى قول البحترى :

وكم ذدت عنى من تحامل حادث

وسورة أيام حززن الى العظم (٥)

« فالأصل لا محالة حززن اللحم الى العظم ، الا أن فى مجيئه به محذوفا واسقاطه من النطق فائدة جليـلة ، وذلك أن مـن حـذق الشـاعر أن يوقع

---

(١) الأنعام : ٣٥ ·
(٢) النحل : ٩ ·
(٣) دلائل الاعجاز ص ١٢٦ ·
(٤) دلائل الاعجاز ص ١٢٦ ، ١٢٧ ·
(٥) سورة الخمر وغيرها ، والمراد هنا : شدتها · القاموس المحيط جـ ٢ ص ٥٤ ·

المعنى فى نفس السامع ايقاعا يمنعه به من أن يتوهم فى بدء الامر شيئا غير المراد ثم ينصرف الى المراد . ومعلوم أنه لو أظهر المفعول فقال :
وسورة أيام حززن اللحم الى العظم . لجاز أن يقع فى وهم السامع — الى أن يجيء الى قوله : الى العظم — أن هذا الحز كان فى بعض اللحم دون كله ، وأنه قطع ما يلى الجلد ولم ينته الى ما يلى العظم ، فلما كان كذلك ترك ذكر اللحم وأسقطه من اللفظ ليبرىء السامع من هذا ويجعله بحيث يقع المعنى منه فى أنف الفهم (١) ويتصور فى نفسه من أول الأمر أن الحز مضى فى اللحم حتى لم يرده الا العظم »(٢) .

وبعد : فهذا عرض موجز لجهود عبد القاهر فى أسلوب الحذف ولم يسبق فيه كما رأينا الا بتلك الاشارة الى أنه من سنن العرب فى كلامهم وها هو ذا يتناوله فيجمع النصوص التى تتضمنه ثم يضعها تحت أنوار بصيرته الثاقبة وذوقه الراقى ، وحسه المرهف فيخرج لنا كل ما رأيناه من الوان وفنون ، ويكشف عن أسراره البلاغية ودواعى التعبير به ، فى أسلوب مشرق نراه اليوم أقرب ما يكون الى ذوقنا المعاصر ، وكأن صاحبه مازال يعيش بيننا ، فلا أثر فيه لغموض أو التواء ، وكذلك كان منهجه فى كل ما تناوله بالدراسة من أبواب . بل نجده قد اهتدى الى ألوان من الأساليب لم يحم حولها أحد قبله ، كابتكاره لأسلوب المجاز الحكمى ، ولعل هذا يفسر لنا قول صاحب الطراز « وأول من أسس من هذا الفن — يعنى البلاغة — قواعده وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ، ورتب أفانينه ، الشيخ العالم النحرير ، علم المحققين : عبد القاهر الجرجانى » (٣) .

والآن لنلق نظرة على البلاغة بعده ..

● البلاغة فى مدرسة السكاكى :

لم تلبث البلاغة بعد عبد القاهر أن خمدت جذوتها ، وذهب رواؤها ، ودخلت فى طور من الجمود ، واتجهت الى التقنين والتقسيم والتعريف ومحاولة حصر المسائل وضبط الأقسام ، وافتقدنا فى بحوثها تلك الروح الأدبية التى كانت تتناول فنونها على أساس من الذوق الذى هذبته المعرفة

---

(١) أنف الفهم : أوله .
(٢) دلائل الاعجاز ص ١٣١ — ١٣٢ .
(٣) الطراز جـ ١ ص ٤ .

والحس المرهف الذى غذته الثقافة ، والتى كان منهجها الدراسة التطبيقية للنصوص ، تستوحى أسرار جمالها ، وتكشف عما فيها من الوان الأساليب وفنون الكلام ٠

وانتهى الأمر بالبلاغة الى أن أصبحت تعريفات تحفظ ، وأمثلة تتوارث وغلب عليها الأسلوب المنطقى الجاف الذى لا يحرك وجدانا ، ولا ينمى ذوقا ٠

ولعل أبرز من ظهر فى هذه الفترة أمامان : أولهما أبو يعقوب السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ صاحب « مفتاح العلوم » الذى ضم اثنى عشر علما من بينها علم البلاغة ٠ وثانيهما : الخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ الذى اختصر بلاغة المفتاح وسماه « تلخيص المفتاح » وقد أكب العلماء على شرح هذا التلخيص وداروا فى فلكه يبدؤن القول ويعيدون مما وقف بالبلاغة حيث انتهى بها السكاكى واصبح يطلق على هؤلاء « مدرسة السكاكى » ٠

وقد سيطرت طريقتهم تلك على مجال البحث البلاغى حتى وقت قريب ٠ فماذا عند هؤلاء ؟

بعد أن كانت البلاغة عند عبد القاهر يجمعها اطار النظم الذى يضم كل ما يمد الكلام بالجمال ، وكانت ألفاظ الفصاحة والبلاغة والبيان وما شاكلها تطلق كألفاظ مترادفة المعانى ، تطور ذلك الوضع واختصت الفصاحة بالجمال الذى يعود الى اللفظ ، فأصبحت فصاحة اللفظ تعنى خلوه من تنافر الحروف ومن الغرابة ومخالفة القياس اللغوى ٠ وفصاحة الكلام تعنى خلوه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد اللفظى والمعنوى ، مع فصاحة كلماته ٠

وهذا كله تحدث عنه عبد القاهر ، فقد قال : « وأما رجوع الاستحسان الى اللفظ من غير شرك المعنى فيه وكونه من أسبابه ودواعيه فلا يكاد يعدو نمطا واحدا ، وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ويتداولونه فى زمانهم ، ولا يكون وحشياً غريبا » (١) ٠ وهذه هى الغرابة ٠

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣ ـ ٤ ٠

ويقول : « اعلم أننا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلاستها مما تثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة وأن تكون مما يؤكد الاعجاز » (١) · وهذا هو الخلو من تنافر الحروف ·

ويقول فى شرحه لماهية النظم وأنه توخى معانى النحو :

« فليس من أحد يخالف فى نحو قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس الا مملكا
أبو أمه حى أبوه يقاربه

وفى نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم وعابوه من جهة سوء التأليف · أن الفساد والخلل كانا أن تعاطى الشاعر · ما تعاطاه فى هذا الشأن على غير الصواب ، وصنع فى تقديم أو تأخير أو حذف واضمار أو غير ذلك ما ليس له أن يصنعه » (٢) · وهذا هو التعقيد ·

وهكذا يشير عبد القاهر الى كل ماعده المتأخرون من الفصاحة ، وان جاء عنده مفرقا وفى مناسبات تقتضيه ·

أما عن بلاغة الكلام فقد أصبحت تعنى عندهم « مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته » واذا عدنا الى تفسيرهم لهذا التعريف وجدنا لديهم نفس ما عناه عبد القاهر بالنظم ·

يقول صاحب « المطول » عند شرح تعريف البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال : « وأن الحال هو الأمر الداعى الى التكلم على وجه مخصوص أى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصل المعنى ، خصوصية ما ·

وهذه الخصوصية التى تلاحظ فى تأليف الكلام هى مقتضى الحال » ثم يمضى فى تفصيل مقتضى الحال بقوله : « ان مقتضى الحال وهو الاعتبار المناسب للحال ، واما أن يكون مختصا بأجزاء الجملة ، أو بالجملتين فصاعدا أو لا يختص بشىء من ذلك ·

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٠١ ·

(٢) دلائل الاعجاز ص ٦٥ ـ ٦٧ ·

أما الأول : فيكون اما راجعا الى نفس الاسناد ككونه عاريا عن التأكيد أو مؤكدا ... الخ . أو الى المسند ككونه محذوفا أو مذكورا ... الخ . أو المسند اليه كما ذكر مع المسند مع زيادة كونه مفردا فعلا أو غيره أو جملة اسمية أو فعلية ... الخ .

أما الثانى : وهو ما يختص بالجمل فكوصل الجملتين أو فصلهما .

أما الثالث : فالمساواة والايجاز والاطناب .

واذا تمهد هذا فنقول ان الحال أو المقام الذى يناسبه تنكير المسند اليه أو المسند يباين المقام الذى يناسبه التعريف ، ومقام اطلاق الحكم يباين مقام تقييده بمؤكده أو أداة قصر أو تابع أو ما يشبهه .. فلكل مقام وحال ما يناسبه .

وارتفاع شأن الكلام فى الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب وانحطاط شأن الكلام بعدم مطابقته للاعتبار المناسب ، أى بمطابقته لمقتضى الحال أو عدم مطابقته له ، لأن الاعتبار المناسب هو نفس مقتضى الحال .

ثم قال : وهذا – أعنى تطبيق الكلام لمقتضى الحال – هو الذى يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم ، حيث يقول : النظم هو توخى معانى النحو فيما بين الكلم – على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام » (١) .

وكما ميزوا بين الفصاحة والبلاغة ، ميزوا أيضا بين مسائل البلاغة وجعلوها ثلاثة علوم :

اولها – علم المعانى : وهو خاص بالبحوث المتعلقة بأحوال اللفظ التى بها يطابق مقتضى الحال ، وهى محصورة فى ثمانية أبواب هى : **أحوال الاسناد الخبرى ، أحوال المسند اليه ، أحوال المسند ، أحوال متعلقات الفعل ، القصر ، الانشاء ، الفصل والوصل ، الايجاز والاطناب والمساواة** .

---

(١) انظر المطول ص ٢٥ – ٢٨ .

وثانيها ـ علم البيان : وهو خاص بالبحوث المتعلقة بطـرق التعبير المختلفة عن المعنى الواحد ، وهى التشبيه والمجاز بأنواعه والكناية ٠

وثالثها ـ علم البديع : وهو خاص بوجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة ٠ وقسموا هـذه الوجوه الى ما يرجع الى المعنى مثل الطباق والمقـابلة والمشـاكلة ومراعاة النظيـر والمزاوجة واللف والنشر ، وما يرجع الى اللفظ مثل الجناس ورد العجـز على الصدر والقلب والسجع ٠ وان كان من المهم أن نشير أن هذا التقسيم هو من صنع بدر الدين بن مالك وأن السـكاكى جعل البلاغة علمين اثنين الأول علم المعانى والثانى علم البيان (١) ٠

وأشاروا الى مراتب البلاغة « فجعلوا لها حدا أعلى وهو حد الاعجاز وأسفل وهو ما اذا غير الكلام عنه الى ما دونه التحق بأصوات الحيوانات التى تصدر عن محالها بحسب ما يتفق من غير اعتبار اللطائف والخواص الزائدة على أصل المراد ٠ وبين الطـرفين مراتب كثيرة متفـاوتة ، بعضها أعلى من بعض ، بحسب تفاوت المقامات ، ورعاية الاعتبارات ، والبعد عن أسباب الاخلال بالفصاحة (٢) ٠

هذا اجمال لما صنعوه بالبلاغة التى ورثوها عن عبـد القاهـر واضحة المعالم وطيدة الأركان ٠ ويمكننا القول باننا لا نلاحظ فى صنيعهم اضافة جوهرية ٠ بل هى جهـود بذلوها فى التبويب والتنظيم والحصر والتفسير ٠ ولكننا أيضا نحب أن نسجل عليهم فى سرعة ما يلى :

مع اننا نحمد للسكاكى ومدرسته ما أفادته البلاغة على أيديهم من حسن التنسيق والتبويب ودقة التقسيم والتفصيل ـ فاننا نسجل أن السكاكى كان أول الجناة المسرفين على علم البلاغة باخضاعه لمنهج العـلوم العقليـة فأضـاع بهجته ، وأخـلق ديباجته ، كما كان أول الجناة عليهـا بالجائهـا الى مضايق الاختصار ، ووسمها بميسم التعمية والالغاز (٣) ٠

فأصبحت على يديه قواعد تحفظ وأمثلة تردد ، وغاب فى ظل مدرسته اشراقة البيان ، ووضاءة التعبير التى كانت تطالعنا فى كتابة عبد القاهـــر وعرضه للقواعد ، وتحليله للأساليب ، وكشفه عن أسرار جمالها وتأثيرها ٠

---

(١) انظر الصبغ البديعى ص ٥٠٥ ٠ (٢) انظر المطول ص ٣٠ ـ ٣١ ٠

(٣) الصبغ البديعى ص ٢٥٣ ٠

ان حصرهم البلاغة فى المعانى والبيان ، واعتبارهم البديع وجوها تكسب الكلام حسنا بعد أن يكون قد استوفى فى مقومات بلاغته من مطابقته لمقتضى الحال وفصاحته ، وجعلهم التحسين الذى تكسبه هذه الوجوه الكلام عرضا خارجا عن حد البلاغة ، نقول ان صنيعهم هذا فيه اجحاف بمنزلة البديع الذى سبق أن نقلنا عن عبد القاهر أنه مما يتطلبه المعنى ويستدعيه ، وأنه ركن من أركان بلاغة الكلام .

وقد عالج فضيلة أستاذنا الدكتور أحمد موسى هذه القضية فأعاد الحق الى نصابه ، ورد للبديع اعتباره ، وأعلى قدره ، ونوه بمنزلته بما لا مزيد عليه لباحث (١) .

هذه صورة البلاغة بين يدى السكاكى ومدرسته ، بحسناتها وسيئاتها وقد ظلت مسيطرة على البحث البلاغى حتى عهد قريب حينما دبت الحياة من جديد فى الثقافة العربية ، وتخلصت شيئا فشيئا من روح التقليد التى أفسدت الملكات ، وقضت على روح التجديد والابتكار فى نهج الدراسة البيانية .

والآن لنلق نظرة سريعة أيضا على ما استجد فى حقل البلاغة بعد أن تهيأ للبحث فيها مناخ جديد فى ظل النهضة الجديدة .

* * *

التجديد فى حقل الدراسات البلاغية

يقول الدكتور بدوى طبانة بعد أن بين أن البيان قد أصابه ما أصاب سائر نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والفنية من الضعف والانحطاط :
« ثم كان عصر الانبعاث الذى أخذت فيه هذه الأمة تصحو من غفلتها ، وتجدد فى حياتها ، وتنظم تفكيرها ، وتستمد لحاضرها ومستقبلها مددا من تراثها القديم فى العلم والتفكير » .

وكان البيان ، أو كانت البلاغة العربية ، مما تنبهت الأذهان الى النظر فيه والوقوف على ما انتهى اليه أمره ، وبدا من النظر أن البداية الموفقة كانت بعيدة كل البعد عن النهاية المشوهة التى انتهى اليها ، فاذا كانت الأولى دليل قوة ، ومظهر فتوة ، فان الثانية بدت علامة ضعف وخمول ، وآية تقصير وجمود .

---

(١) انظر الصبغ البديعى . فصل الصبغ البديعى من البلاغة ص ٤٦٧ ـ ٥٠٩ .

حتى يئس كثيرون من هذا البيان الذى لا يعلم البيان ، ونفروا من تلك البلاغة التى تبعد بدارسيها عن البلاغة · وأصبح البيان علما نظريا يستظهر ولا يستظهر به على فهم الأدب أو تذوق تأليفه » (١) ·

وهذا تصوير صادق لما انتهت اليه البلاغة وعلومها · ولكن النهضة الجديدة قد بسطت عليها جناحها ، فتابعت سيرها مواكبة نواحى التقدم الأخرى ·

فرأينا الدعوات القوية للعودة مرة أخرى الى امهات كتب الأدب والنقد التى تفسدها طريقة المتأخرين وأساليبهم المنطقية ، وتفريعاتهم المتكلفة · وبذلت جهود فى نشر هذا التراث الخالد ، وأخذ المتأدبون ينهلون من ورده الصافى ، ويتصلون عن طريقه بالبلاغة الحية التى تعتمد على دراسة النصوص الأدبية لتضع يد الدارس على مواطن الجمال ، وتفتح بصيرته على أسراره · ولقد رأينا مثلا مجددا كالامام محمد عبده ، لا يكتفى بالدعوة الى هذا المنهج ، بل يتولى بنفسه تدريس بعض هذه الكتب · حتى يكون قدوة وصاحب مدرسة (٢) ·

وعادت الحياة مرة أخرى الى البلاغة ليخضر عودها ، وتتفتح أزهارها · غير أن البلاغة فى مسيرتها الجديدة لم تكتف بهذا المورد تنقع به غلتها بل اتجه الدارسون أيضا الى الثقافات الأجنبية بآدابها وفنونها ، وعادوا يحاولون تلقيح البلاغة العربية بما حملوه معهم ، ولم يكونوا على سواء فى تميز شخصيتهم وتماسكها ، فمنهم من جرفه التيار وتنكر لأرومته فلا يرى خيرا الا فى المستورد الدخيل ، واذا وجد شيئا فى البلاغة العربية لا يستطيع انكار سموه ، ادعى أنه منقول عن بلاغة اليونان وفنونهم ، مرتكبا فى ذلك كل شطط ، متعاميا عن كل حجة (٣) ·

ومنهم من نهج نهجا عادلا · فاستغل علمه فى الكشف عن كنوز تراثنا البلاغى ، وما فيه من أصالة وعمق ، يطاول بهما أرقى ما وصل اليه علم

---

(١) انظر مقدمة البيان العربى ص : ج ـ د ·

(٢) انظر دراسات اسلامية ص ١٨٠ ·

(٣) انظر نموذج لهذا التحامل : مقدمة كتاب نقد النثر للدكتور طه حسين ·

الجمال من نظريات ومقاييس (١) ٠ وأعاد عرض هذه الكنوز مستفيدا مما حصله من معارف ٠

فماذا نجد عند هؤلاء ؟

نراهم يتحدثون عن لونين من الأساليب ٠

أولهما : الأسلوب العلمى الذى يخاطب العقل ، ويعبر عن الأشياء كما هى فى الواقع دون أن يسمح لمشاعر الكاتب أن تتدخل فيما ينشىء ٠ ومن هنا كان التعبير عن الشىء الواحد بهذا الأسلوب لا يتفاوت ولا يرد عليه التمايز مهما تعدد المتحدثون عنه ٠

وثانيهما : الأسلوب الأدبى ٠ الذى يعبر عن التجارب الشعورية تعبيرا موحيا فلا يكتفى فيه بذكر الحقائق المجردة ، بل يصوغ الأديب عبارته معبرة عن احساسه بالأشياء ووقعها فى نفسه وما تثيره من عواطف ومشاعر ٠ ومن هنا كان تفاوت الأساليب فى التعبير عن الشىء الواحد ، مادام كل أديب يعبر عن احساسه الذاتى ، وتتمايز الأساليب بمقدار ما فيها من صدق فنى ، وقدرة على نقل المشاعر وتصويرها ٠ وفى هذا المجال لا يمكن الاكتفاء فى التعبير بمعانى الكلمات اللغوية ، بل لابد لتصوير المشاعر ونقلها الى الآخرين أن نستعين برشاقة الكلمات وتأليفها وموسيقاها ومواقعها فى التراكيب ومعانيها المجازية وغير ذلك مما يعين على تصوير العواطف ٠ كذلك لابد أن نستعين بالخيال باعتباره أنفع المواهب النفسية التى تعين على ذلك ، فهو النبع الذى تصدر عنه الصور الأدبية التى تعرض المعنويات فى صورة حسية مؤثرة ٠

كما نراهم يتحدثون عن الأسلوب التجريدى والأسلوب التصويرى ، ويفصلون القول فى هذا وذلك محددين لكل مجال استخدامه وعوامل تأثيره (٢) ٠

---

(١) انظر النقد الادبى الحديث ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ حيث وازن بين عبد القاهر وبين « بندتو كووتشيه » فى رأى كل منهما فى مسالة اللفظ والمعنى ٠

وراجع أيضا كتاب « النقد المنهجى عند العرب » ص ١٨٣ للدكتور محمد مندور حيث وازن بين عبد القاهر والعالم السويسرى « فردناند دى سوسير » فى نفس الموضوع ، وقال « ان مذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل اليه علم البلاغةفى أوروبا لايامنا هذه » ٠

(٢) انظر أصول النقد الادبى للاستاذ أحمد الشايب ٠ فصل الخيال والصورة ٠

وقد سبق أن قال عبد القاهر : « الكلام على ضربين · ضرب أنت تصل الى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وذلك اذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج فقلت : خرج زيد · وضرب آخر أنت لا تصل منه الى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن اللفظ يدلك على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها الى الغرض » (١) ·

وما قاله عبد القاهر قريب مما نسمعه من المحدثين فى هذا الموضوع · وان كان لهم فضل البسط والتعمق فى فهم النوازع النفسية الكامنة وراء نتاج الأديب وتحليل الخيال · وهذا طبعى فى قوم استفادوا بعلوم القرن العشرين وبالتقدم فى الدراسات النقدية والنفسية ·

ويلاحظ الدكتور محمد نايل ـ أن النقد الحديث يوشك أن يسير فى نفس الطريق الذى أفسد البلاغة العربية القديمة ، حينما استجابت لأساليب المنطق والفلسفة ، وفى كثرة التفريع والتقسيم · اذ بدأ يتورط فى تقسيمه الخيال الى تفسيرى وتأليفى وابتكارى ، وهى محاولة ستؤدى الى اصابة الخيال حديثا بما أصيب به قديما (٢) ·

وفى مجال التصوير الأدبى نراهم يتحدثون عن التخييل الحسى والتجسيم · ويقسمون هذا وذاك · فيذكرون من أنواع التخييل :

التشخيص : ويتمثل فى خلع الحياة على المواد الجامدة ، والظواهر الطبيعية والانفعالات النفسية ، مثل قوله تعالى : « والصبح اذا تنفس » (٣) ·

وقوله : « يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا » (٤) ·

وقوله : « وأرسلنا الرياح لواقح » (٥) ·

---

(١) انظر ص ٢٠٢ من دلائل الاعجاز ·
(٢) انظر اتجاهات وآراء فى النقد الحديث · دكتور محمد نايل ص ٨٨ ـ ٨٩ ·
(٣) التكوير : ١٨ · (٤) الأعراف : ٥٤ ·
(٥) الحجر : ٢٢ ·

وقوله : « **ولما سكت عن موسى الغضب** » (١) ٠

فالصبح يتنفس ، والليل يسرع فى طلب النهار ، والرياح تلقح وتنتج، والغضب يهيج ويسكن ٠

التخيل بالصور المتحركة ، يعبر بها عن حالة من الحالات ، أو معنى من المعانى ٠ مثل قوله تعالى : « **وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** » (٢) ٠ تعبيرا عن حالة المسلمين قبل أن يسلموا ٠

التخيل بالحركة المتخيلة ، التى تلقيها فى النفس بعض التعبيرات ٠ مثل قوله تعالى : « **وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** » (٣) ٠

فها هى ذى الأعمال قد صارت هباء منثورا ، لا تحصل منه على شىء ٠ كما أن لفظة « **قدمنا** » تخيل للحس حركة القدوم التى سبقت نثر العمل كالهباء ٠

التخيل بالحركة السريعة المتتابعة ، مثل قوله تعالى :

« **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** » (٤) ٠

التخيل بالحركة الممنوحة لما شأنه السكون ٠ كقوله تعالى : « **واشتعل الرأس شيبا** » (٥) ٠

فحركة الاشتعال هنا تخيل للشيب فى الرأس حركة كحركة اشتعال النار فى الهشيم ٠

---

(١) الأعراف : ١٥٤ ٠
(٢) آل عمران : ١٠٣ ٠
(٣) الفرقان : ٢٣ ٠
(٤) الحج : ٣١ ٠
(٥) مريم : ٠٤ ٠

أما التجسيم فمعناه احالة المعانى والحالات صورا وهيئات مثل قوله تعالى : « مثل الذين كفروا بربهم ، أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف » (١) ٠

وقوله تعالى : « يوم تجـد كل نفس ما عملت من خيـر محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » (٢) ٠

الى آخر ما ذكروه من ذلك (٣) ٠

وواضح أن ما ذكر من أمثلة يمكن رده الى طرق التعبير البيانيـة فى البلاغة القديمة ٠ من تشبيه ، واستعارة تصريحية ومكنية ، وكناية ، ومجاز لغوى وعقلى ، وتعريض ، والتفات ، وغير ذلك ٠ ولكنهم على كل حال تقدموا بالبحث خطوة جديدة وركزوا على الأثر النفسى لهذه الطرق ، وما تمد به الأسلوب من قوة ، وتضفى عليه من جمال يحقق هدف الأدب وهو التأثير فى السامع ٠

غير أننا يجب أن نلاحظ أيضـا أن كثيـرا من مقاييس الجمـال التى نقلوها الينا عن الثقافات الأخـرى هى مقاييس غريبة عن أدبنا العـربى ، لا تصلح له وبالتالى فمن التحكم اخضاعه لها ، والحـكم عليه بموجبها ٠ وان كانت صالحة هناك فى بيئتها ، حيث الأجناس الأدبيـة الخاصة التى تصلح لهذه المقاييس وتخضع لها ٠

ولنأخذ مثلا لذلك حديثهم عن الوحدة العضوية فى الموضوع ، كمقياس من مقاييس الجمال فيه ، ويعنون بالوحـدة العضـوية « وحـدة الموضـوع ووحدة المشاعر التى يثيـرها الموضـوع » ويستلزم ذلك ترتيب الأفكـار والصور ترتيبا تتقدم به القصـيدة شيئا فشـيئا ، حتى تنتهى الى خاتمـة يستلزمها ترتيب الأفكار والصـور على أن كون أجـزاء القصـيدة كالبنية الحية ، لكل جـزء وظيفته فيهـا ، ويؤدى بعضها الى بعض عن طـريق التسلسل فى التفكير والمشاعر (٤) ٠

---

(١) ابراهيم : ١٨ ٠ (٢) آل عمران : ٣٠ ٠

(٣) انظر التصوير الفنى فى القرآن ٠ للاستاذ سيد قطب ص ٦١ ــ ٧٢ ٠

(٤) النقد الادبى الحديث ص ٤٠١ ٠

وبهــذا المقياس يهجمون على الأدب العربى جـاهليه واسـلاميه ٠ ويحكمون عليه من خلال هــذا المقياس وحــده ، ويتهمونه بعدم الترابط ، وأن الوحدة فيه هى وحدة البيت لا القصيدة ، فسواء قدمت أحد الأبيـات أو أخرته أو حذفته ، فان ذلك لا يغير شيئا فى القصيدة العربية ٠ وبالتالى فالأدب العربى كله هابط لا يستطيع التحليق بجوار غيره من الآداب ٠

ومع أن ترابط العمل الأدبى ووحــدة أجزائه من بين الموضوعات التى اهتم بها النقد العربى منذ القدم ، ويمكننا أن ننقل عنهم فى ذلك نصوصا متعددة الا أن ذلك لا يكفى ـ فى نظر المحدثين ـ ولا يصل الى مرتبة الوحدة العضوية التى نقلوها وأعجبوا بها ٠

فنحن نقرأ فى « العمدة » لابن رشيق نقلا عن الحاتمى قوله :

« من حكم النسيب الذى يفتتح به الشـاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعــده من مدح أو ذم ، متصــلا به غير منفصــل عنه ٠ فان القصــيدة مثلها مثل خلق الانسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصــل واحد عن الآخر ، وباينه فى صــحة التركيب غادر الجســم عاهة تتخون محاسنه ، وتعفى معالم جماله »(١)٠

ونقرأ لابن طباطبا قوله : « وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخــــره ، على ما ينسقه قائله ٠ فان قدمت بيتا على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب اذا نقص تأليفها ٠ فان الشــــعر اذا أسس تأسيس فصــــول الرســائل القائمة بأنفسهــا ، وكلمات الحــكمة المستقلة بذاتها ، والأمثلة الســائرة المرسـومة باختصــارها ، لم يحسن نظمه ، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة ، فى اشتباه أولهــا بآخرها »(٢) ٠

ونقرأ لعبد القاهر قوله : « اعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية فى نظمه الحسن كالأجزاء من الصبغ ، تتلاحق وينضم بعضها الى بعض ، حتى تكثر فى العين فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه ، ولا تقضى له بالحذق والأستاذية ، حتى تستوفى القطعة ، وتأتى على عدة أبيات ٠ وذلك ما كان من الشعر فى طبقــة ما أنشــدتك من أبيات البحترى » (٣) ٠ يعنى : « بلونا ضرائب من قد نرى » ٠٠٠

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٩٤ ٠
(٢) ابن طباطبا ٠ عيار الشــعر ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ٠
(٣) دلائل الاعجاز ص ٧٠ ٠

ولو ذهبنا نتتبع الآثار الدالة على اهتمام النقد العربى بوحـدة العمل الأدبى وترابطه ، لما انتهينا منها · ومع ذلك يصر دعاة الوحدة العضوية على أن النقد العربى لم يفطن الى وحـدة العمـل الأدبى فى القصـيدة وأن ما تناثر هنا وهناك من مثل هـذه الأقوال انما هو نتيجة لتأثر هؤلاء النقاد بفكرة الوحدة العضوية التى كشف عنها أرسطو دون أن يدركوا أبعادها (١) متجـاهلين الفروق بين الأدب اليونانى والعربى · وأن مقيـاس الوحـدة العضوية يصلح هناك ، حيث الشعر فى صورة ملاحم ومسرحيات ، الترابط بين أجزائها ترابط عضوى فعلا ، ونمو الحوادث فيها يسير بصورة منطقية متتابعة · أما الشـعر العـربى فهو بجملته من الشعر الغنائى الذى لا يمكن لطبيعته أن تستجيب لمثل هـذه القيود الحـاسمة ·

على كل ، هـذا نمـوذج مما افـرزته ثقـافة هؤلاء الذين اتيح لهم الاتصال بالثقافات الأخـرى ، وقد سبق أن قلنا انهم ليسوا فى هـذا سواء ، ولا يمنعنا ذلك من أن نستفيد من بحوثهم ونظراتهم ، مادامت تثرى ما عندنا وتضيف اليه ·

ولعل صورة البلاغة فى ماضيها وحـاضرها ، بعد هـذا العرض الخاطف ، قـد تحددت ملامحهـا ، وتجلت سـماتها ، بدرجة تسـمح لنا بالانتقال الى النقطة التالية : وهى صلة ذلك كله بالدعوة · والله المستعان ·



● ثانيا ـ صلة البلاغة بالدعـوة :

وظيفة البلاغة فى الحياة :

يقتضينا الحديث عن صلة البلاغة بالدعوة أن نتعرض أولا لوظيفة البلاغة فى الحياة الانسانية وصلتها بها · والبلاغة كصفة للكلام هى الجانب الذى يميز لونين من القول ، أحـدهما يعبر به الانسـان عما فى عقله من افكار ، وما يتوارد عليه من خـواطر ذهنية ، تتصل بقضـاء مصـالحه ، وما تتطلبه ضرورات الاجتماع الانسانى من تبادل المنافع والخبـرات التى يكتسبها نتيجة للتفكير فى حقائق الوجـود ، وما يلمحه بينهـا من ترابط وما تنشأ عنه من أسباب أو تنتهى اليه من نتائج ·

---

(١) انظر النقد الأدبى الحديث ص ٢١٦ ـ ٢١٧ ·

وهـذا اللون من الكلام يفى بحاجة الانسان الفكرية ، ويتناسب مع هـذا الفكر فى دقته ووضوحه ، ويسير فى خط مستقيم يحدوه التسلسل المنطقى ، ويحدد اتجاهه الترابط الذهنى بين المقدمات ونتائجها ، والظواهر وأسبابها · ولكنه لا يفى بما تتطلبه طبيعة الانسان وفطرته الغنية المتعددة الجوانب والملكات ·

ومنذ كان الانسان لم يقنع أبدا بهذا اللون من التعبير · واهتدى الى الوان أخرى ، رأى فيها القدرة على التعبير عن ذاته بكل جوانبها ، ونقل مشاعره وأحاسيسه الى جانب عقله وفكره · فكانت الفنون من رسم وتصوير وموسيقى ، ثم جمع خواص هـذه الفنون جميعا وزاد عليها فى التعبير الأدبى أو البيان الفنى ، الذى يأخذ من الموسيقى جمال ايقاعها فى أسلوبه ، ومن الرسم جمال معانيه فى وصفه ، ومن التصوير فكرته ، ويزيد على ذلك الافصاح ، والوضوح والقدرة على الاتصال بكل ما فى الحياة ، والاستجابة لكل مطالبها المادية والروحية التى تمثل جوانب الحضارة الانسانية ·

هذا الأدب هو اللون الثانى من الكلام الذى يرجع ما فيه من جمال وتأثير الى البلاغة والوانها ، لأن البلاغة ذاتها ـ كقواعد وعلم ـ هى حصاد استقراء النصوص الأدبية ، وتتبع أسباب الجمال فيها ، وصياغتها فى قواعد وضوابط كما سبق أن أوضحنا ·

وعلى هـذا فعندما نتحدث عن وظيفة الأدب فى الحياة ، فان ذلك يعنى أننا نتحدث عن وظيفة البلاغة فى الحياة ، لأن البلاغة هى مناط الأدب وسر تأثيره ، وهى الجانب الذى به يؤدى وظيفته ويحقق هدفه ·

والأدب أو الكلام البليغ هو تعبير عن عقل الانسان ووجدانه معا ، يصور به الأديب ما يجده فى نفسه من معان ومشاعر ، نتيجة لما يعيشه من تجارب ينفعل بها ، وتولد فى نفسه الوانا من الأحاسيس يودعها أدبه ، ويصورها ببيانه ويعرضها على الناس ، ليشاركوه فى تجربته ، ويثير فيهم مشاعرهم السامية القوية · وهو بذلك يقوم بدور من يتلقى بعبقريته من الحياة جمالها وفلسفتها ، فيبلغها للناس فى صورة تعبير جميل ، فيمتهم ويعينهم على فهم الحياة ، وبالتالى يؤثر فى سلوكهم ويحدو خطاهم ·

ومن هنا كانت وظيفة الأدب أو البلاغة فى الحياة ، هى السمو بالانسان وتهذيبه · ويتجلى ذلك فى افادته والتأثير فيه ·

أما عن تأثيره ، فيقول الباقلانى بعد أن أشار الى أن القرآن فى أعلى منازل البيان : « واذا علا الكلام فى نفسه كان له من الوقع فى القلوب والتمكن فى النفوس ما يذهل ويبهج ، ويقلق ويؤنس ، ويطمع ويؤيس ، ويضحك ويبكى ، ويحزن ويفرح ، ويسكن ويزعج ، ويشجى ويطرب ، ويهز الأعطاف ، ويستميل نحوه الأسماع ، ويورث الأريحية والعزة ، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجودا ، وله مسالك فى النفوس لطيفة ، ومداخل الى القلوب دقيقة »(١) ٠

اما عن افادته : « فلسنا فى حاجة الى أن نشير الى اهمية الشعر – والأدب جميعه – فى رقى النوع البشرى وتهذيبه ٠ فقد عمل الشعر كما عملت العلوم على اسعاد الانسان ، وكان للخيال الذى يتضمنه الشعر ما للحقائق العلمية التى تقررها العلوم من الأثر الكبير فى تغيير نظم الحياة ، وتكييف عقلية الآدميين ٠ فبينا الحقائق العلمية تكون مقررة القواعد ، ثابتة الأساس ، سهلة الاتباع ، اذا بالخيال الذى يتخلل الشعر عون على أن يأخذ بيد الانسان ليرفعه من وهدة عميقة مظلمة الى شاهق عال مرتفع ملىء بالنور والحياة ، حتى يمكنه أن يطل على سبيل تقدمه ورقيه ، فاذا هو يراها شاخصة ، واضحة ٠ واذا هو بتكرار النظر يعرفها ويتحقق مسالكها ، واذا هو بعد فترة وجيزة أو غير وجيزة يضع قدمه على أبوابها ، فيسير فيها على طريق مستقيم »(٢) ٠

اذن فالبلاغة لها دورها فى الحياة ، الذى يمكن اجماله فى الافادة والتأثير ، اذ بها نرضى ونسعد مختلف الاتجاهات النفسية للانسان . ونفى بحاجات القوى المتنوعة فيه ، من معرفة علمية ، وتذوق متفنن ، وتطلع الى حياة أفضل ، وبعث لكل طاقات النفس وقواها ، لتحقق فى الحياة ما ترجوه ، نتيجة لوضوح الشعور به ، وقوة الاحساس بالحاجة اليه ٠٠

---

(١) اعجاز القرآن ص ٤١٩ ٠

(٢) من كتاب أصول النقد الأدبى ٠ ص ٧٨ ٠ نقلا عن دائرة المعارف البريطانية ٠

● صلة البلاغة بالدعوة :

واذا كانت الدعوة هى - كما قدمنا - محاولة استمالة الناس الى هدف معين ، واقناعهم به اقناعا يصل الى الايمان الذى يوجه السلوك ويلون كل ما يصدر عن المؤمن بلونه المميز ... اذا كان هذا شأن الدعوة فيمكننا أن نقول فى ثقة كاملة ، ان البلاغة هى أداة الدعوة وسلاحها المرهف ، الذى به تحقق أهدافها وتذود عن حماها ، وتوسع دائرة نفوذها .

وهذه الصلة بين البلاغة والدعوة توجبها وظيفة البلاغة فى الحياة ، ويشهد لها تاريخ الدعوات وسجل النهضات السياسية والاقتصادية والفكرية .

ماذا يريد الداعية ؟ انه يريد تغيير واقع لا يرضى عنه . ونقطة البداية فى كل تغيير هى النفس الانسانية .

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »(١) .

وتغيير النفوس يستوجب تعاملنا مع جميع ملكاتها وجوانبها الفكرية والوجدانية والارادية ، وألا نتجاهل أيا من هذه الجوانب اذا كنا نريد الوصول الى نتائج حاسمة .

والبلاغة هى المؤهلة للقيام بهذا الدور ، لأن الكلام البليغ فى جوهره هو الذى يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع باصابة موضع الاقناع من العقل ، والوجدان من النفس . واذا نجح البليغ فى ذلك كانت ثمرته تحريك الهمة وتوجيه الارادة للعمل وفق ما حصله من اقتناع عقلى وترسب فى أعماقه من انطباعات نفسية .

والداعية لا يحتاج الى أكثر من هذا ، ونجاحه وفشله انما يقاسان بالمدى الذى يصله فى هذا السبيل . فعليه أن يهيمن على السامعين ، ويمسك بمقاليد نفوسهم ، ويصل الى أعماق مشاعرهم ، بملاحظة أحوالهم ، وجعل كلامه مطابقا لمقتضاها ، ولديه فيض من الأساليب ، ووفرة من وسائل التأثير والاقناع . فهو يشرح مبينا ومقنعا أو ينذر مرهبا ومحذرا ، أو يعظ مرغبا ومستميلا ، مستخدما فى كل ذلك الحجة الكاشفة والتصوير المؤثر ، والتأكيد المثبت للمعانى ، الى آخر ما يملكه من « وسائل تمكنه من تحقيق غايته » .

---

(١) الرعد : ١١ .

اما عن شـهادة التاريخ للبلاغة بدورها واقتـدارها ، فيكفى فيه أن نستعرض تاريخ التغييرات الانسانية ، وفى طليعتهـا الدعوات الدينيـة ، لنرى شأن البلاغة فيها • فهى مدينة للبلاغة بتجلية افكارها ومبـادئها ، والدعوة اليها ، ونشرها فى الجماعات • فالقرآن الكريم انما بلغ غايته فى التأثير بل والاعجاز ببلاغته ، والرسول ﷺ كان افصح العرب وأبلغهم بيانا • ومن الظواهر التى لا تتخلف أن يكثر الشعراء والخطباء والكتاب فى عصور النهضات والتغييرات التاريخية ، أو فيما يسبقها تمهيدا لها • لاحظ ذلك فى قيام الدولة الأموية والعباسية ، بل وفى الثورة الفرنسية ، وفى بعث الحضارة العربية ، بل لاحظه فى العناية البالغة التى توليها الدول حديثا لوسـائل اعلامها وأجهـزة الدعاية فيها ، وتفننها فى طـرق التأثير فى الجماهير وتوجيههم والسيطرة على سلوكهم •

وبعد • فهـذه قضية فيها من الوضـوح ما يغنينا عن بسـط الأدلة وايراد الشواهد أما وقد وصل بنا الحديث الى هـذا الحـد ، فلننتقل الى ما هو أهم وأجدى فى نطاق بحثنا • لننعم برحلة مبـاركة مع بلاغة القرآن فى دعوته الى أهدافه

والله المسـتعان ومنه التوفيق

* * *

الباب الثانى

مع بلاغة القرآن
فى دعوته الى أهدافه

- البلاغة فى الدعوة الى العقائد
- البلاغة فى الدعوة الى العبادات
- البلاغة فى الدعوة الى المعاملات

الفصـــل الأول

البلاغة فى الدعــوة الى العقائد

● **نقطة البدء فى طريق الدعوة :**

الومضة الأولى التى انبعثت من مشكاة الوحى الالهى ، واستقبلها قلب المصطفى ﷺ ، حددت نقطة البدء فى طريق الدعوة الى الدين الجديد · تلك هى قوله جل وعلا :

« يا أيها المدثر · قم فأنــذر · وربك فكبر · وثيابك فطهر · والرجــز فاهجــر · ولا تمنن تستكثر · ولربك فاصبر » (١) ·

جاء فى الكشاف : « وقيل هى أول سورة نزلت · وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ : « كنت على جبل حراء فنوديت : يا محمد أنك رسول الله ، فنظرت عن يمينى ويسارى فلم أر شيئا · فنظرت فوقى فرأيت شيئا · وفى رواية عائشة فنظرت فوقى فاذا به على عرش بين السماء والأرض ـ يعنى الملك الذى ناداه ـ فرعبت ورجعت الى خديجة فقلت : دثرونى دثرونى ، فنزل جبريل وقال : « **يا أيها المدثر** » · وعن الزهرى : « أول ما نزل سورة : « **اقرأ باسم ربك** » · الى قوله : « **ما لم يعلم** » (٢) · فحزن رسول الله ﷺ ، وجعل يعلو شواهق الجبال ، فأتاه جبريل فقال : انك نبى الله ، فرجع الى خديجة وقال : دثرونى وصبوا على ماء باردا فنزل : « **يا أيها المدثر** »(٣) ·

وسواء أكان أول سورة « العلق » هــو أول ما نزل من القرآن الكريم أم كان ذلك أول ســورة المدثر ، فان أول ســورة المدثر يمثل نقطة البداية للدعوة الاسلامية · أما أول سورة العلق فهو خطاب يتعلق بالرسول ﷺ ·

---

(١) المدثر : ١ ـ ٧ ·　　(٢) العـلق : ١ ـ ٥

(٣) تفسير الكشـاف · ص ١٨٠ ·

وعلى ذلك فان الانذار هو نقطة البدء ، وهو الصيحة الأولى التى تنبه للخطر وتحذر منه · انه انذار بالخطر الداهم الذى ينتظر البشرية كلها اذا هى لم تحول مسيرتها وتتجه الى الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات والأرض ، انه الانذار بيوم القيامة وما فيه من أهوال ترصد المجرمين ·

والبدء بالانذار بيوم القيامة هو الأسلوب الأمثل فى الدعوة ، لأنه يضع كل عاقل مهما كانت عقيدته أو اتجاهاته ، أمام وضع لابد له من أن يشغل نفسه به ويوليه كل اهتمامه ، ولا يمكنه تجاهله وصرف النظر عنه · ذلك لأن الانسان بفطرته لا يملك أمام الخطر ــ ولو كان محتملا ــ الا أن يأخذ بالأحوط ، ويسارع الى الأسباب التى تدفعه عنه · ولا يملك عاقل ــ اذا أخبره انسان بأن العدو أمام بابه وعليه أن يتسلح له عند خروجه ــ الا أن يأخذ تحذيره مأخذ الجد ويستعد لاحتمال الصدق فيه ·

ولقد صور الرسول ﷺ ذلك بقوله :

« مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قوما فقال : يا قوم انى رأيت الجيش بعينى ، فأنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا ، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم » ·

ثم ان الانذار فى حقيقته انما يصدر عمن يحرص على دفع الأذى كيلا يصيب من يحذره ، تدعوه الى ذلك الرحمة به والاشفاق عليه · ومع أن الله سبحانه وتعالى غنى عن طاعة خلقه فقد اقتضت حكمته أن يوليهم رعايته ويقدم لهم بين يدى دعوته هذا الانذار الذى يتجلى فيه بالغ رحمته سبحانه بخلقه ، وواسع كرمه ، حثا لهم على الاستجابة وقطعا لحجتهم عند المعاندة ·

ولا يعنى ابتداء الدعوة بالانذار بيوم القيامة أن قضية البعث الأخروى لها الأولوية كجانب من جوانب الايمان · فليس من شك أن قضية الايمان بالله ورسوله تأتى فى المقام الأول · وانما كان البدء بالانذار بها باعتبار ذلك هو المنهج الذى يقف كل عاقل أمام مسئوليته ، ويثير من نفسه كل قواها · كالصدمة العنيفة تصيب الانسان على غفلة منه ، فلا تبقى فيه جارحة الا هى فى ذروة تيقظها ، وكامل تهيئها للعمل ، ودرءا للخطر المحيق ·

ولنعش مع هـذه الآيات قليلا ، باعتبارها الومضة الأولى من مشكاة الوحى المبارك نستلهم هديها ونستشف بلاغتها ٠

« **يا أيها المدثر ٠ قم فانذر ٠ وربك فكبر ٠ وثيابك فطهر ٠ والرجز فاهجر ٠ ولا تمنن تستكثر ٠ ولربك فاصبر ٠ فاذا نقر فى الناقور ٠ فذلك يومئذ يوم عسير ٠ على الكافرين غير يسير** » (١) ٠

واول ما يطالعنا فى هـذه الآيات الكريمـة انها مع جـوامع الكلم المعجز ٠ فقد أوحت بكلماتها المعدودة بفيض من المعانى والتوجيهات شمل أصول الدعوة ورسم طريق ابلاغها ٠

ففيها التكليف بالتبليغ :« **قم فانذر** » فانت المكلف بالرسالة والمنتدب لها ، والمصطفى لحمل عبئها وانذار البشرية كلها بما يتهـددها من أخطـار اذا لم تستجب لها ٠ فرسالتك عامة للناس جميعا ٠

وفيها جوهر الدعوة : « **وربك فكبر** » ٠ هكـذا بالقصر المستفاد من تقديم المفعول ٠ فلا تكبر الا الله تعالى ، ولا يعظم فى عينيك سواه ٠ هو الكبير وما سواه من أحد أو شيء صغير ٠ وهـذا يقرر معنى الالوهية والتوحيد وهو جوهر الدعوة ولبهـا ٠

وفيهـا توجيـه لما يجب أن يكون عليـه الداعية : من طهارة القـلب واستقامة السلوك وسمو الخلق « **وثيابك فطهر** » فهى كناية عن تطهير الذات التى تضمها الثياب ٠ تطهير الذات بكل جوانبها ضميرا وقلبا وجـوارح وفكرا ، فالطهارة بهـذا المعنى أول ما يجب أن يتصـف به الداعية حتى يمكنه أن يفيض الطهر على الناس ، ففاقد الشيء لا يعطيه ٠

وفيها توجيه الى الالتزام بحـدود الدعوة والبعد عن كل ما يوجب العذاب ويندرج تحته كل ما يخالف تعاليمها : « **والرجز فاهجر** » ٠ والرجز فى الأصل : العذاب ، وأطلق على موجباته ٠ فالداعيـة قدوة يتأسى بهـا الآخرون ، ومنصب الداعية يفرض عليه أن يكون فى هـذا الجانب مثلا أعلى يستهوى بطهارته وسموه المقصرين ، ويجذب اليه الغافلين ٠

وفيها اخبار للداعية بما يتعين عليه أداؤه من تضحيات وما يبـذله من جهود : « **ولا تمنن تستكثر** » ، فحياته كلها عطاء وبذل ٠ فالدعوة هى

---

(١) المدثر : ١ ـ ١٠ ٠

حياته ، وكل طاقته وقف عليها • وعليه الا يستكثر ما يبذله ولا يمتن به ، والا يكون لذاته نصيب فيه • فلا تستقيم الدعوة الا لمن ينكر ذاته وينسى عطاءه فكل ما يقدمه الداعية انما هو فضل يسره الله له ، واصطفاه ليجريه على يديه وهذا يستوجب الشكر عليه لا المن به واستكثاره •

وفيها توصية بالصبر : « **ولربك فاصبر** » لأنه الزاد الذى يعينه على الثبات فى معركة الدعوة المرهقة لأنها معركة متعددة الجبهات ، فله مع أعدائه المعلنين معركة ، ومع المنافقين معركة ، ومع اعادة بناء الحياة على هدى الدعوة معركة ، ومع نفسه وأهوائه معركة ، ولا يجدى فى كل ذلك سوى الثبات والصبر والمصابرة ، الصبر ابتغاء وجه الله ، وايثارا لما عنده وثقة فى رعايته •

وفيها بيان للمنذر به : وهو يوم القيامة • ذلك اليوم العسير الذى تجد فيه كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تودلو أن بينها وبينه أمدا بعيدا •

أرأيت الى تلك الكلمات القلائل وما تضمنته من معان أشرنا الى بعضها • ولو ذهبنا نستقصيها ونتبع فروعها ومناحيها لاحتاج ذلك الى جهود وجهود • واذا كانت البلاغة الايجاز فلاشك أن تلك قمتها •

فاذا ألقينا نظرة على ما بها وراء ذلك من ألوان البلاغة والحسن رأينا عجبا • وأول ما يطالعنا منه اختيار حرف النداء « يا » ، الذى « وضع فى أصله لنداء البعيد ، فاذا نودى به القريب فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذى يتلوه به جدا »(١) • وأى خطاب أجدر بالعناية والاهتمام مما تتضمنه هذه الآيات التى تعلن بداية دعوة جديدة ستغير وجه الحياة •

فاذا تركنا حرف النداء الى « أى » التى هى اسم مبهم لا يكاد المخاطب يسمعه حتى يستشرف لما يفسر ابهامه ويعين المراد منه • وفى التوضيح بعد الابهام ما يؤكد المعنى ويزيده تمكنا ورسوخا • فاذا أضفنا الى ما سبق حرف التنبيه « ها » نجده يقوى النداء ويعضده فى أداء دوره من تنبيه المخاطب وايقاظه واعلامه أنه المدعو • هذا الحشد من التأكيدات والمثيرات كان هو المطابق لما يقتضيه الحال هنا من أهمية المخاطب به وعظم شأنه •

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٢٤ •

ثم ننظر فى قوله تعالى : « **يا أيها المدثر · قم فأنذر** » وما ترسمه الألفاظ من صورة حية ، لا يملك الخيال الا أن يتملاها واضحة كأنها واقع تشاهده العين · ومن منا يستطيع عندما يسمع هذا التعبير أن يكف خياله عن أن يطير الى هناك ليشاهد ذلك المدثر ينادى « قم » فينهض مستجيبا بادئا فى مهمته ؟ ثم التعبير بـ « أنذر » هكذا دون تعليقها بمعمول خاص ليتقرر بوضوح من أول لحظة فى حياة الدعوة مجال الانذار واطاره ، وأنه المدى الذى يصل اليه صوت الدعوة بالانذار ، وهذا ايماء الى عالميتها منذ أولى خطواتها ·

« **وربك فكبر** » وهذا أسلوب قصر بتقديم المفعول ، ومعناه اختصاص الله بالتكبير وقصره عليه ، لا يشاركه فيه غيره ، وهذا النظم للعبارة هو الذى يقتضيه المعنى ولا يؤدى بدونه ، فالاسلام دين التوحيد الخالص لا يقبل أن تشوبه شائبة · ثم أن اختيار لفظ « الرب » واضافته الى ضمير المخاطب وهو الرسول عليه الصلاة والسلام فيه ايماء الى أنه المستحق للتعظيم ، فهو ربك الذى رباك ورعاك واصطفاك لرسالته · فهو أهل لأن تكبره دون سواه ·

« **وثيابك فطهر** » وطهارة الثياب كناية فى لغة العرب عن طهارة ما تضمه الثياب · فالمأمور به هو طهارة الذات كلها · وللكناية قدرها فى بلاغة الكلام وتقويته وابرازه فى صورة هى أبهى وأنق · ثم اختيار لفظ « طهر » دون ما يؤدى معناه هو اختيار للفظ الذى لا يغنى عنه سواه ، ذلك « أن الطهارة هى الحالة المناسبة للتلقى من الملأ الأعلى ، كما أنها ألصق شىء بطبيعة هذه الرسالة · وهى بعد هذا وذاك ضرورية لملابسة الانذار والتبليغ ومزاولة الدعوة فى وسط التيارات والأهواء والمداخل والدروب ، وما يصاحب هذا ويلابسه من أدران ومقاذر وأخلاط وشوائب تحتاج من الداعية الى الطهارة الكاملة كى يمكنه استنقاذ الملوثين دون أن يتلوث ، وملابسة المدنسين دون أن يتدنس وهى لفتة دقيقة عميقة الى ملابسات الرسالة والدعوة والقيام بها على هذا الأمر بين شتى الأوساط وشتى البيئات ، وشتى الظروف ، وشتى القلوب »(١) ·

« **والرجز فاهجر** » فالرسول عليه الصلاة والسلام كان هاجرا للرجز وموجبات العذاب حتى قبل البعثة ، ومع ذلك أمر بالاستمرار فيه ·

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢٩ ص ١٨٦ ·

تأكيدا لأهمية ذلك ، وإيذانا بأنه طريق لا يلتقى أبدا مع طريق الدعاة ·
ثم التعبير « اهجر » وما يوحى به من أن المطلوب ليس مجرد الامتناع عن مباشرة المعاصى ، بل الواجب الابتعاد والتحرز عن كل دنس ورجز · هذا بالاضافة الى ما يفيده تقديم المفعول من التقوية والاهتمام ·

« **ولربك فاصبر** » وهنا أيضا نرى تقديم الجار والمجرور وما يؤديه من قصر دوافع الصبر على الله تعالى ، فالصبر المطلوب هو الصبر ابتغاء وجه الله وايثارا لما عنده ، لا قصدا لغاية أخرى ، لنفسك فيها نصيب ·

وواضح أن سبب الوصل بين الآيات هو ما بينها من شبه كمال اتصال حيث اتفقت فى الانشاء مع وجود الجامع بينها ·

فاذا انتقلنا الى المنذر به وهو يوم القيامة ، رأينا الآيات تعرضه فى صورة مؤثرة تلمس الوجدان وتهز النفس ·

« **فاذا نقر فى الناقور** » لم يقل فاذا جاء يوم القيامة · بل عبر عنه بمشاهده وما يقع فيه ، تصويرا للمعانى وابرازا للحقائق ، والتعبير بالنقر يوحى بالشدة والعنف الذى يقرع الآذان ، وينبه الغافلين · ثم يصف اليوم بأنه عسير ، وأن عسره على الكافرين وحدهم ويؤكد ذلك بتكراره المعنى فى قوله : « **غير يسير** » · أما المؤمنون فهو هين عليهم ، يلقون فيه جزاء صبرهم وايمانهم ·

فاذا أضفنا الى كل ما مر هذا الايقاع الموسيقى القوى المتمثل فى قصر الآيات وفواصلها المحكمة ، التى تتناسب مع مقام الانذار وما يوحى به من جدية وصرامة · وهى نموذج للسجع الفنى الذى يسهم فى الافصاح عن المشاعر ونقل الخواطر وتصوير المعانى ·

هكذا كانت بداية الدعوة انذارا صارما ، وتحذيرا قاطعا ورسما لمعالم الدعوة ، وتحديدا لمنهج الداعية ، ثم تهديدا قويا للمعاندين تنخلع منه قلوبهم وترتجف أوصالهم ·

● اساليب الدعوة :

هذا وقد قلنا فى الباب الأول أن خصائص الدعوة الاسلامية وهى العالمية والخاتمية والوفاء بحاجات البشر الروحية والمادية جعلتها تواجه واقعا عريضا يمتد عبر أجناس من البشر وألوان من الحضارات والديانات

والفلسفات ، ويمضى بهذا الاتساع عبر الزمن حتى يرث الله الأرض ومن عليها ·

وكان عليها لتواجه هذا الواقع العريض أن تنوع فى أساليبها ، وتعدد فى وسائل عرضها ، حتى تتكافأ مع الواقع العريض الذى تتصدى له ·

ومن الآيات الجامعة التى ترسم طريق الدعوة وتشير الى وسائل عرضها قوله تعالى :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (١) ·

يقول صاحب مدارك التنزيل وحقائق التأويل الامام النسفى فى تفسير هذه الآية : « ادع الى سبيل ربك » الى الاسلام « بالحكمة » بالمقالة الصحيحة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة « والموعظة الحسنة » وهى التى لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها ، وتقصد ما ينفعهم فيها أو بالقرآن · أى ادعهم بالكتاب الذى هو حكمة وموعظة حسنة · والحكمة : المعرفة بمراتب الأفعال ، والموعظة الحسنة : أن يخلط الرغبة بالرهبة والانذار بالبشارة · « وجادلهم بالتى هى أحسن » بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة · أو بما يوقظ القلوب ، ويعظ النفوس ويجلو العقول (٢) ·

فالآية الكريمة تشير الى ثلاثة من طرق العرض والتبليغ وهذه الطرق تستغرق كل أصناف الناس وتصلح بمجموعها لأداء الدعوة على وجهها الأكمل اليهم ·

فلا شك فى أن من الناس طائفة أصحاب نفوس مشرقة ، قوية الاستعداد لادراك المعانى والاستجابة لها ، شديدة الانجذاب نحو المبادىء واتباع الحق وهؤلاء يدعون بالحكمة ، وهى تعنى فى جوهرها بيان الحق لهم بيانا شافيا مؤيدا بأدلته القوية التى تنفى كل شبهة وتقطع السبيل أمام كل تردد ·

---

(١) النحل : ١٢٥ ·

(٢) تفسير النسفى ج ٢ ص ٢٢٥ ·

ومن الناس طائفة شديدة الالف بالمحسات ، تدور حياتهم فى اطار ما توارثوه من عادات ، وما نشأوا فيه من تقاليد وقيم ، لا تنزع نفوسهم الى البحث عما هو حق أو باطل ، ولا تتطلع الى أفضل مما هم عليه ، ولكن ذلك ليس عن عناد منهم أو مكابرة للبرهان · فانهم قاصرون عن ادراك أى برهان · وهؤلاء لهم الموعظة الحسنة ، التى ترقق القلوب ، وتعظ النفوس ، وتنفذ الى الوجدان ، ويختلط فيها الترغيب بالترهيب ·

ومن الناس طائفة من أصحاب اللدد والخصومة والجدال والمعاندة · تشكك فى كل خبر ، وتثير الشبهات ، وتلبس على الناس · وهؤلاء لهم المجادلة بالحسنى التى تعرى زيفهم · وتفضح باطلهم ، وتقطع حجتهم ·

وليس معنى هذا التقسيم أن يعمد الداعية الى تصنيف المدعوين وتوزيعهم على هذه الأصناف بصورة حاسمة ، فالانسان هو الانسان له جوانبه المتعددة ، من عقل ووجدان وارادة ، وانما يقع التفاوت فى نسبة أى من هذه القوى الى الأخرى · فقد يطغى الجانب العقلى عند شخص على الجانب الوجدانى ، وقد يحدث العكس ، وقد يتعادلان لديه فى القوة والاستعداد للتأثر · وأيا كان الأمر فلا غنى للداعية عن تنويع أساليب عرضه والتفنن فى وسائل تبليغه ، حتى يجد كل مخاطب لدى الداعية ما يلمس موطن التأثير فيه ، ويصل الى الاقتناع به والاستجابة له ·

وهكذا كان القرآن ــ وهو المثل الأعلى ــ متنوعا فى الأساليب ، متعددا فى طرق العرض ، مفتنا فى استخدام وسائل التأثير · بلغ فى ذلك مبلغا جعل صناديد قريش والعتاة من رجالها يصفونه بالسحر ، لما رأوا من تأثيره فى القلوب ، وهيمنته على النفوس ·

والآن لنبدأ أولى خطواتنا مع بلاغة القرآن فى دعوته الى الوحدانية باعتبارها أساس العقيدة الاسلامية ، لنرى كيف عرضها القرآن ودعا اليها بأساليبه البليغة المتعددة بادئين بأسلوب الترهيب ·

● أسلوب الترهيب :

قال الله تعالى : « حم · تنزيل من الرحمن الرحيم · كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون · بشيرا ونذيرا فاعرض اكثرهم فهم لا يسمعون · وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون · قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله

واحد فاستقيموا اليه واستغفروه ، وويل للمشركين • الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون • ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم اجر غير ممنون • قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين • وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها فى اربعة ايام سواء للسائلين • ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين • فقضاهن سبع سموات فى يومين واوحى فى كل سماء امرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم • فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود • اذ جاءتهم الرسل من بين ايديهم ومن خلفهم الا تعبدوا الا الله ، قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما ارسلتم به كافرون • فاما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون • فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى ايام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، وهم لا ينصرون • واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون • ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون • ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون • حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون • وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا انطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون • وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون • وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فاصبحتم من الخاسرين • فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين » (١) •

القرآن الكريم فى دعوته يراعى الطبيعة البشرية وما جبلت عليه من ميول ويتحرى أن يصل الى النفس البشرية من منافذ التاثير فيها •

فأسلوب الترهيب يتخذ طريقه الى النفس من خلال ما ركب فيها من غريزة الخوف التى تدفع الانسان الى توقى الخطر ، والبعد عما يعرضه له •

---

(١) فصلت : ١ ـ ٢٤ •

واسلوب الترغيب ينفذ اليها من خلال ما ركب فيها من رجاء يستحث الانسان على بلوغ ما يرجوه ·

« فالخوف والرجاء بقوتهما وتشابكهما واختلاطهما بالكيان البشرى كله فى أعماقه ، يوجهان فى الواقع اتجاه الانسان فى الحياة ، ويحددان أهدافه وسلوكه ومشاعره وأفكاره · فعلى قدر ما يخاف ، ونوع ما يخاف ، وعلى قدر ما يرجو ونوع ما يرجو يتخذ لنفسه منهج حياته ، ويوفق بين سلوكه وبين ما يخاف ويرجو » (١) ·

والقرآن الكريم يستخدم كلا الأسلوبين ولا شك أن فى ذلك منتهى الحكمة فى طريقة الدعوة ·

وهذه الآيات البينات هى صدر سورة « فصلت » وهى من السور المكية التى تعالج فى مجملها القضايا الأساسية للدعوة الاسلامية · كالوحدانية والبعث والنبوة واثباتها · وترتيب هذه السور - حسب النزول - الواحدة والستون (٢) · أى أنها نزلت بعد أن قطعت الدعوة شوطا كبيرا منذ أن قام الرسول الكريم بتنفيذ أمر ربه « **قم فأنذر** » · وخلال هذا الشوط الذى قطعته الدعوة حتى نزول هذه السورة كانت الاتجاهات قد تبلورت من خلال الصراع المتصل حول الدعوة ، فآيات الذكر الحكيم يتوالى نزولها على قلب المصطفى ﷺ فيبلغها للناس ، ويرى صناديد قريش فى الدعوة خطرا على نفوذهم وقضاء على امتيازهم ، فيناصبونها العداء لدوافع مختلفة وكلما تعقبهم القرآن فاضحا لحججهم ، كاشفا لزيفهم ، زادوا من عنادهم ولجوا فى طغيانهم حتى أحاطوا أنفسهم بسياج من الكراهية للدعوة ورجالها ، وأصموا آذانهم عن كل نداء ، وتواصوا : « **لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** »(٣) · واتجهوا الى الأذى يذيقونه الوانا لمن شرح الله صدورهم لدعوته فأسلموا وجوههم له ·

فى هذه الملابسات نزلت هذه الآيات الكريمة تواصل تصديها لهؤلاء ، وتتجه اليهم مبينة عظم جرمهم ، ومنذرة لهم بما ينتظرهم من سوء المصير ·

---

(١) دراسات فى النفس الانسانية ص ٧٦ - ٧٧ ·

(٢) انظر الاتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٥ ·

(٣) فصلت : ٢٦ ·

وتبدأ الآيات الكريمة بالحديث عن الكتاب العزيز ، ثم تصور موقفهم منه ، وتنتقل بعد ذلك الى بيان ما فى موقفهم هـذا من تجاوز لكل منطق وخروجهم عن حدود كل معقول ، ثم تتجه اليهم بالوعيد والتهديد مذكـرة بما حدث للأمم السابقة من عقوبة فى الدنيا ، حين رفضت الهدى ، واختارت سبيل الغى والعناد · ثم تعرض عليهم صورة لـما ينتظرهم يوم الحساب من عذاب الخزى والهوان ·

هـذه هى الأغراض التى تدور حولها هـذه الآيات الكريمة · فلنر كيف صورتها وعبرت عنها ؟

« حم » افتتحت السورة بهـذين الحرفين · وهى ظاهرة تكررت فى بدء كثيرا من سور القرآن الكريم · وقد نقل عن العلماء أقوال كثيرة فى معنى هذه الحروف وفى تفسير هـذه الظـاهرة · غير أننا فى مجـال البحـث البلاغى نشير الى اثنين منها لصلتهما بما نحن بصـدده ·

أولهمـا : « أنهـا حـروف ذكـرت بيـانا لاعجـاز القـرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، مع أنه مركب من هـذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها · ولهـذا فكل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان أعجازه وعظمته ، وهـذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة »(١) ·

وقد تتبعت الدكتورة بنت الشاطىء هـذه السور وأشارت الى الآيات التى تتحدث فيها عن الذكر الحكيم وأثبتت أنها قاعدة مطردة فيها (٢) ·

وعلى هـذا الوجه فان ابتداء السورة بهـذه الحروف هو أمر يتصل ببلاغة القرآن ، اثباتا لها ، وتحديا بها ·

وثانيهما : « أنها أصوات للتنبيه عمد اليها ليكون فى غرابتها ما يثير الالتفات ، وقد ترك ما ألفوا من ألفاظ التنبيه الى ما لم يألفوا لأنه لا يشبه كلام البشر ولكى يكون أبلغ فى قـرع الأسماع ·

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ص ٣٨ ·

(٢) انظر الاعجاز البيـانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق · فصل فواتح السور وسر الحروف ص ١٢٦ وما بعـدها ·

ثم اختلفوا فيمن يكون المقصود بهـذا التنبيه : فابو حيان يرى انهـا تنبيه للمشركين الزاما لهم بالحجة « ليستغر (١) بها المشركون فيفتحـوا لهـا أسماعهم فتجب عليهم الحجة » .

على حين يتجه بها الفخر الرازى الى تنبيه النبى ﷺ ، لا المشركين ، فقال يفصل هـذا الوجه « الحكيم اذا خاطب من يكون محل الغفلة ، ومن يكون مشغول البال بشغل من الأشغال يقدم على الكلام المقصود شيئا غيره ليلتفت المخاطب بسببه ، ويقبل بقلبه عليه ثم يشرع فى المقصود » .

وذلك المنبه قد يكون كلاما له معنى مفهوم كقول القائل : اسـمع ، واجعل بالك الى .... وقـد يكون شـيئا فى معنى الكلام المفهوم كقول القائل : أزيد ، ويازيد ... وقد يكون صوتا غير مفهوم كالصـفير بالفم والتصفيق باليـــد ...

والنبى ﷺ وان كان يقظان الجنان ، لكنه انسان يشغله شأن عن شأن ، فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفا هى كالمنبهات .

ثم ان تلك الحروف التى لا معنى لها تكون أتم فى افادة المقصود الـذى هو التنبيه ، من تقديم الحـروف التى لها معنى . لأن المقدم اذا كان كلاما منظوما وقولا مفهوما ، ربما ظن السامع انه كل المقصود ولا كلام بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه . أما اذا سمع صوتا بلا معنى فانه يقبل ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره ، لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود ، فاذن تقديم الحروف التى لا معنى لها فى هـذا الموضع ، على الكلام المقصود فيه حكمة بالغـة » (٢) .

ومن ذلك نرى أن هذه الحروف التى افتتحت بها السورة انما كـانت لغرض بلاغى تؤديه ، وهو التنبيه وايقـاظ الحس والشـعور لتلقى ما يأتى بعده من أمر عظيم يجب أن تتنبه له الأذهان .

---

(١) استغر فلانا : أتـاه على غفلة ، والمراد أنه فاجأهم بهذه الحروف لاثارة انتباههم . انظر القاموس ص ١٠٥ ج ٢ .

(٢) الاعجاز البيانى للقرآن . فصل فواتح السور وسر الحروف .

« **تنزيل من الرحمن الرحيم** » . وعلى الوجه الذى قدمناه من أن هـذه الحروف للتنبيه ، فان قوله تعالى « **تنزيل** » خبر لمبتدأ محذوف ويكون فيـه ايجاز بالحذف . وسر الحذف هنا أن الخبر وهو قوله « **تنزيل** » مع تعليق قوله « **من الرحمن الرحيم** » به ، كأنه يشـير اليه ، وانـه بلغ من الشـهرة بما علق به مبلغا يغنى عن ذكره . وقوله تعالى « **تنزيل** » هو مصدر أطلق على اسم المفعول للمبالغة فقد جعل المنزل « تنزيلا » وان كان من الجائز أن « **تنزيل** » مبتدأ و « **كتاب** » خبره ، ووجهه أن « **تنزيل** » قد خصص بالصفة فساغ الابتداء به . والتنزيل من الرحمن الرحيم ، واختيار هـذين الاسمين من أسماء الله الحسنى والنسبة اليهما لتنبيههم الى أن الكتاب العزيز من لدن رحمن رحيم ، وأن ما فيه انما هو صادر عن مقتضى رحمة الله بهم محقق لمصالحهم فى الدنيا والآخرة ، وأن رفضهم له هو رفض لرحمة يسوقها الله اليهم . وفى هـذا حث لهم على قبوله واستمالة لقلوبهم .

« **كتاب فصلت آياته قـرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا** » هـذا القرآن المنزل من الرحمن الرحيم قد فصلت آياته فى أساليب مختلفة من قصص ومواعظ وأمثال ووعد ووعيد حسبما تقتضيه المقامات بلسان عربى ، وأنتم أهل اللسان العربى لا يلتبس عليكم منه شىء . انه يبشركم بمـا أعـد لمن آمن به من الكرامة والفضـل وينـذركم عاقبة كفركم به واعراضكم عنه ، فما الذى يصرفكم عنه ؟ وأى عذر لكم فى مخالفته ؟ وهكذا تتوالى لمسـات القرآن الحاثة على الاستجابة والداعية الى الايمان . ويلاحظ ما فى قوله تعالى : « **بشيرا ونذيرا** » من مجاز عقلى فالكتـاب العزيز مبشر به ومنذر بما فيه . ولكن النظم الكريم جعله هو المبشر والمنذر . مبـالغة فى كمـال الصفة فيه كأنه هو الفاعل للتبشير والانذار . وهذا تصوير بتشخيص الأشياء وخلع صفات الأحيـاء عليها .

ثم ينتقل الى بيان موقفهم من هـذا الكتاب الذى صدر عن مقتضى رحمة الله بهم ، والذى سلك معهم كل طرق الاقناع وفصلت فيه الآيات . وهو بلسانهم ولا تخفى عليهم مراميه وأحكامه وحججه . فماذا كان منهم ؟

« **فاعرض اكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون** » .

لقد أعرض أكثرهم ، ولم يستجب له · وفى التعبير عن عدم الاستجابة وهــو معنى ذهنى بالاعراض ما يصــور حــركة هــؤلاء وانصرافهم بعــيدا عــن القــرآن مبــالغة فى التعبير عمــــا فى قلوبهم من بغض له يصرفهم عن الاستجابة لهــديه ·

« فهم لا يسمعون » والمعنى أنهم لا يقبلون ولا يطيعون ولا يستجيبون وقد كنى القرآن عن هــذا المعنى بأنهم لا يسمعون · فنفى السماع عنهم نفيا للازمه وهو الاستجابة والانتفاع ، والكنــاية كما هو معلوم تعــرض المعنى مصحوبا بدليله وهــذا أبلغ وآكد ·

« وقالوا قلوبنا فى أكنــة مما تدعونا اليــه » والأكنة جمع كنان وهو الغطاء وهــذا تصوير لعدم استجابة قلوبهم للحق وتأثرها به ، كأنها مغلفة بأغطية وحوائل تمنع وصوله اليها ونفاذه فيها · فقد شبه مشاعر الكراهية والحقد ونحوها ، التى حالت بين قلوبهم والانقياد للحق ، بالأكنة التى تغلف القلوب وتحول دون وصول شىء اليهــا · ثم حذف المشبه واستعمل المشــبه به بمعنى المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية ، وواضــح أن هذا تصوير بالاستعارة للمعانى وعرضها فى صور حسية تكسبها قوة وتأكيدا ، وتزيد الكلام بلاغة وتأثيرا ·

« وفى آذاننا وقر » الوقر الثقل · والمراد به هنا الصمم · واستعمال الوقر بمعنى الصمم مجاز مرســل علاقته السببية وفائدته تصــوير المعنى تأكيدا له · ثم ان المراد هنا ليس الاخبار بأن فى آذانهم صمما حقيقيا ، فهم يسمعون ، بل المراد تصوير حالهم فى عدم استفادتهم من الكتاب وكراهية أسماعهم له ، بحالة من لا يسمع حقيقة · وهنا لجأ الى تصوير هــذا المعنى بأسلوب الكناية القادرة على أن تقدم الفكرة مصحوبة بدليلها المحس ·

« ومن بيننا وبينك حجاب » وهــذه اســتعارة تصــور تباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وما هم عليه ، وبين الرسول ﷺ وما هو عليه ، حجابا حسيا ساترا وحاجزا منيعا · فلا تلاقى بينهما · فقد صور الحاجز المعنوى بصورة حاجز مادى · ثم استعمل « من » وهى حرف جر زائد لتفيد زيادة فى تأكيد المعنى ، لأنها تفيد أن هــذا الحاجز ابتــدأ منا وابتدأ منك ، فالمســافة المتوسطة لجهتنــا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها (١) ·

---

(١) انظر الكشاف جـ ٣ ص ٤٤٢ ·

ولما كان المقام هنا مقام الاخبار عن موقفهم من التنزيل ، وانهم قد بلغوا كل مبلغ فى رفضه وكراهيته كان تصوير القرآن لحالهم بهذا الأسلوب القوى المؤكد هو المناسب للمقام ، والتعبير عنه بأوفى بيان ٠

« **فاعمل اننا عاملون** » وهذا تعبير عن اصرارهم على موقفهم والمضى فى عنادهم ، وقد تلمح فيه تعريضا بالاستخفاف والتحدى وأنهم لا يبالون به وفيه تسجيل عليهم أنهم قد بلغوا الغاية فى تبجحهم واستهتارهم ٠

« **قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه** » ٠ هكذا صور القرآن الكريم موقف المشركين من التنزيل الحكيم وانهم قد أغلقوا كل منافذ الحس لديهم دونه ، حتى لا يجد طريقا اليهم وأعرضوا عنه وفاصلوه فصالا باتا ليس للقاء معه من سبيل ٠

ثم بدأ فى الرد عليهم بأن أمر الرسول ﷺ أن يجيبهم قائلا « انما **أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد** » وهو دليل على وجوب اتباعهم لدعوته وقبولهم لها ٠ فهو يقول : انما أنا بشر مثلكم أتساوى معكم فى البشرية ، ولكنى مع ذلك يوحى الى ٠ فصحت نبوتى بالوحى الى وأنا بشر مثلكم ، واذا صحت نبوتى وجب عليكم اتباعى ٠ ونرى التعبير القرآنى فى وضوحه قد ساق الدليل بعيدا عن كل صور المنطق وأساليب الجدل المتعارف عليها ، مما حفظ عليه اشراقه ووضاءته ، ثم لنتأمل هذا التلطف معهم على الرغم مما هم عليه من استعلاء وطغيان ، فكأنه يقول لهم : أنا لا أدعى ميزة عليكم ولست من جنس مغاير لكم حتى يكون بينى وبينكم حجاب وتباين يوجب هذا التباعد ، فانما أنا بشر مثلكم مأمور بما أمرتم به ٠ وهذا درس على الداعية أن يتمثله دائما فى تعامله وسلوكه ، اذا كان حريصا على أن يصل الى النفوس ، ويستهوى الأفئدة ٠

« **انما الهكم اله واحد** » مما أوحى الى ، وأنا وانتم سواء فى التكليف به ، توحيد الله وافراده بالعبادة ٠ ولهذا عبر عنه بأسلوب القصر « بأنما » ليفيد قصر الألوهية عليه سبحانه ونفيها عن غيره مطلقا ، فلا اله الا هو أما غيره مما يعبده المشركون من أصنام أو كواكب أو ملائكة أو شمس أو نار أو بشر أو غير ذلك ، فهى مربوبة لله ، ولا يمكن أن يتحول المربوب الى رب ٠ وهذا درس آخر للداعية يوجب عليه أن يكون أول الملتزمين بما يدعو اليه ٠

« **فاستقيموا اليه واستغفروه** » واذا كانت الالوهية لله وحـده فالواجب أن تتجهوا اليه وحـده بالتوحيد واخلاص العبادة ، والا تميلوا الى غيره ، وعليكم أيضا أن تبادروا الى طلب مغفرته وصـفحه عما سـبق منكم من الشرك · والتعبير عن اخلاص العبادة لله وحده بالاستقامة اليه ، وعدم الميـل الى غيره هو أيضا تصوير للمعنى يكسـبه وضوحا وقوة ·

ومن الواضح أن جملة « **قل انما انا بشر** » مفصولة عما قبلها لـما بينهما من كمال انقطاع لاختلافها خبرا وانشاء ·

والى هنا صور القرآن موقفهم من الدعوة ورفضهم لها · ثم رد عليهم باقامة الحجة على وجوب تصديقه ، فهو بشر لا قدرة له على الاتيان بهـذا الذى أعجزهم · وانما القادر عليه هو الله ، ثم بين لهم اساس العقيدة وهـو التوحيد ، وطلب منهم الاستقامة على أمر الله كله والتضرع اليه أن يتجاوز عما سبق لهم من اشراك به ، فكان من تمام نصحه لهم أن يحذرهم عاقبة اصرارهم على موقفهم فقال :

« **وويل للمشركين · الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون** » انه الانذار الصريح بالمصير الذى ينتظرهم اذا لم يستجيبوا · وهو الويـل الطويل والشر المترصد لمن يشرك بالله · ثم خص بالذكر وصفين من صـفات المشركين هما : عدم ايتاء الزكاة ، وانكار البعث ·

أما انكار البعث فهو حقيق بالتنويه بخطره على المنكر ، اذ انه يعنى غياب أكبر باعث الى الاستقامة على أمر الله · وأما منع الزكاة ، فقيل : خص بالذكر لأن المـال أحب شيء الى الانسان ، فاذا بذله فى سـبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته · وقيل ليس المقصـود بالزكاة المـال · وانما المعنى : لا يفعـلون ما يكـونون به أزكياء ، وهو الايمان ، فالمراد بالزكاة طهارة النفس وتزكيتها ، ومن أهم ذلك تزكيتها من الشرك(١) ·

ولعل الرأى الأخير أمس رحما بالمعانى والمواقف التى تعالجها الآيـات الكريمة ، فنحن بصدد نفوس قد انحـرف بها التعصب وأعمـاها الحقـد والعداء فتذكيرها بتزكية النفس هو الموافق لحالها ، فاذا أضـفنا الى ذلك ان الزكاة انما فرضت فى السـنة الثانية من الهجرة ، وأن هـذه الآيات مكية ، زاد اقتناعنا بما رجحناه ·

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢ ·

ثم لنتأمل كيف عبر بالجملة الفعلية فى « **لا يؤتون الزكاة** » ليفيد أن عدم **ايتائها** متجدد ، وهو معنى يتمشى مع ايتاء الزكاة سواء أردنا بها زكاة المال أو تزكية النفس · بينما عبر بالجملة الاسمية فى « **وهم بالآخرة هم كافرون** » ليفيد أن كفرهم أمر مستمر ثابت ·

« **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** » بعد أن حذرهم عاقبة الشرك وتوعدهم بالهلاك ، أردف ذلك ببيان عاقبة الايمان ومصير المؤمنين وأن لهم عند الله أجرا دائما غير مقطوع ، وذلك ليوازنوا بين المصيرين ، ويحقق كل من الترهيب والترغيب أثره ، لعلهم يرجعون ·

وذكر مصير المؤمنين هنا يقتضيه ـ بجانب هذا ـ أنه أخبر عن موقف المدعوين من الدعوة وقال « **فأعرض أكثرهم** » فهناك من آمن وان كانوا قلة بالنسبة للآخرين ، فناسب ذلك أن يبين عاقبة كلا الفريقين ·

« **قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين · وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين · ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين · فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم**»(١) ·

تنتقل الآيات بعد ذلك الى الحديث عن مدى جرم هؤلاء وعظيم تبجحهم واستهتارهم واقدامهم على ما تنكره العقول وتأباه الأفهام ·

« **قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين** » قل لهم : أيليق بعاقل أن يكفر بمن خلق الأرض فى يومين ؟ من أنتم حتى تكفروا ؟ انكم بعض سكانها ، وجزء من خلقه فيها · وهل للمخلوق أن ينكر خالقه ؟ « **أئنكم لتكفرون** » انه يقدم همزة الاستفهام الدالة على الانكار ثم يتبعها ـ بأن واللام ـ لتأكيد هذا الانكار ، والاشارة الى أن فعلهم هذا مما ينكر العقلاء وقوعه ، فيحتاج الى التأكيد · ثم يعبر عمن يقع عليه الكفر باسم الموصول لتفخيم شأنه تعالى بما سيذكره من صلة له وهو « **خلق الأرض فى يومين** » ، هذه الأرض ـ التى ترون عظمتها وجبالها وأنهارها ونباتها

---

(١) فصلت : ٩ ـ ١٢ ·

وحيواناتها وسكانها وكل ما فيها ـ خلقها الله فى يومين . أفمن هـذا شأنه يمكن لعاقل أن يكفر به ؟ انه لسفه عظيم وتطاول كبير .. والتعبير باليومين ـ والله أعلم ـ هو اشارة الى عظيم قدرته سبحانه لأن اليوم الحقيقى كمقياس للزمن لا يتحقق الا بعد وجود الأرض وتسوية سماواتها وابـداع كواكبهـا وترتيب حركاتها ، ولم يكن شىء من ذلك وجد قبـل خلق الأرض .

« **وتجعـلون له انـدادا** » عطف على تكفرون ، داخل فى حكم الانكار . والمعنى أيليق أن تجعلوا للقادر الذى خلق الأرض فى يومين أندادا ؟ ان الند والنظير لابد أن يكون مماثلا لنظيره ونده . فماذا خلق هؤلاء الـذين تجعلونهم أندادا لله ؟ وما مدى قدرتهم ان كان لهم قدرة واستطاعة ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السموات ؟

« **ذلك رب العالمين** » ذلك الذى تكفرون به لم يخـلق الأرض فقط بل هو رب العالمين ، وخالق جميع الموجودات ومربيها . فكيف يتصور أن يكون أخس مخلوقاته ندا له ؟ ولنتأمل التعبير بلام البعد مع قرب العهد بالمشـار اليه وهو « **الذى خلق الأرض فى يومين** » للايذان ببعد منزلته فى العظمة . وكذلك صيغة الجمع فى قـوله « **العالمين** » اشارة الى واسـع ملكه وتأكيدا لعظم قدرته .

« **وجعل فيها رواسى من فوقها** » هـذه الجملة داخلة فى حكم الصلة لأنها معطوفة على « **خلق** » وهى تأكيد لاستحقاقه سبحانه الانفراد بالألوهية واستحالة أن يكون له ند . ونلاحظ أنها قد فصلت عن جملة الصلة الأولى بجملتين : الأولى : قوله تعالى : « **وتجعلون له اندادا** » وهى متحدة بقوله تعالى « **تكفرون** » فهى كالاعادة لها . أما الثانية فهى قوله تعـالى « **ذلك رب العالمين** » فهـذه اعتراضية مقررة لمضمون الكلام ، وبمنزلة التأكيد : فالفصل بهما كلا فصل . والفصل بهاتين الجملتين فيه اشارة الى أن مجرد خلق الأرض كاف فى تحقق الربوبية فكيف اذا انضم اليه ما سيأتى ؟

والمراد بالرواسى الجبال ، والضمائر تعود على الأرض ، أما النص على أن الرواسى من فوقها فللاشارة الى أنها ظاهرة لهم دالة ـ بعظمتها وتعـدد الوانها وتنوع معادنها ـ على قدرة خالقها ، وفيها الدليل لمن كان له قلب يفقـه .

« **وبارك فيها** » وهـذا توجيه آخر لعقولهم كى تدرك قدرة الله . فهم يرون ما قدره الله من كثرة الخير على الأرض وما فيها من انسان وحيوان ونبات وميـاه .

« **وقدر فيها اقواتها فى اربعة ايام سواء للسائلين** » أى أوجد فى الأرض ما يحتاج اليه أهلها وساكنوها من القوت ، فالمراد أقوات أهلها على سبيل المجاز المرسل ، فقد أطلق المحل وأراد الحال · وهـذا لتأكيد أنه قدر من الأقوات ما يسع مـن فى الأرض وما فيهـا · فهو للأرض كلها ، وهـذا القوت قدره الله تعالى للسائلين أى الطالبين المحتاجين · فكل صاحب حاجة تتصل بقوته ومعيشته يجدها فما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها · واذا كان هـذا ظاهرا لهم أليس فيه ما يهـديهم الى قـدرة الله وعظمتـه فينبغى ألا يشركوا به من لا يقدر على شىء ؟

« **فى أربعة أيام سواء** » المقصود فى تتمة أربعة أيام كاملة · أى فى يومين يضافان الى اليومين اللذين خـلق فيهما الأرض ، فالمجموع أربعـة كاملة ، والمراد بالزمن هنا ـ والله أعلم ـ هو ما سـبق أن قلناه عند قوله تعالى : « **فى يومين** » · هذا وفى تفصـيل بيان ما يتعلق بالأرض وما فيهـا من معايش أهلها ما يحملهم على الايمان ويزجرهم عن الكفر ·

« **ثم استوى الى السـماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين · فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء امرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقـدير العزيز العـــليم** »(١) ·

« **ثم استوى الى السماء** » ، عبر عن توجه ارادته سبحانه الى ايجاد السماء وتكوينها بالاستواء ، كما تقول : استوى الى مكان كذا اذا قصـد نحوه قصدا لا يشغله عنه شىء · وهو من الاستواء ضد العوج ، والتعبير بالاستواء يفيد بجانب القصد أن ليس هناك صارف يصرفه عما قصد اليه ، وهـذا المعنى هو الذى يليق بجلال الله سبحانه ، فهو الذى لا يشغله شىء عن شىء ، و « **ثم** » يجوز أن تكون للترتيب والتراخى الزمنى أو للتراخى المعنوى ، ولاشك أن السماء أرفع وأرقى فى الحس ·

« **وهى دخان** » هـذه اشـارة الى ما كان عليه الكون قبل خـلقه ، وحقيقته يعلمها الله سبحانه وتعالى ، وغـاية ما يمكن للعلم أن يعرفه : ظنون واحتمالات على اننا نقرأ الكثير مما كتبه العلماء المتخصصون عن بدء الكون فنرى فيه ما هو قريب مما تذكره الآية الكريمة ، فهم يقولون : انه

---

(١) فصلت : ١١ ، ١٢ ·

كان قبل خلق النجوم ما يسمى بالسديم(١) ، وهـذا السديم غاز ، أى دخان . » والسدم من نيرة ومعتمة ليس الذى بها من غاز وغبار الا ما تبقى من خلق النجوم . ان نظرية الخلق تقول : ان المجرة – وهو مجموعة تضم ملايين النجوم – كانت من غاز وغبار ومن هذين تكونت بالتكثف النجـوم ، وبقيت لها بقية ، ومن هـذه البقية كانت السدم ولا يزال من هـذه البقية منتشرا فى هذه المجرة الواسعة مقدار من غـاز وغبـار يساوى ما تكونت منه النجوم ، ولا تزال النجوم تجر منه بالجاذبية اليها ، فهى تكنس السماء كنسا . ولكن الكناسين – على الرغم من أعدادهم الهائلة – قليلون بالنسبة لمـا يراد كنسه من ساحات أكبر وأشد هولا »(٢) .

واذا كان العلماء يقولون هذا – وهو قريب كما نرى مما تعلنه الآيـة الكريمة – أفلا يكون ذلك دليلا واضحا على صدق هـذا الكتاب وأنه من عند الله ؟ وأنى لمحمد الأمى أن يعرفه ؟ أليس فيها ما يحمل الانسان عـلى الايمان ولاسيما علماء القرن العشرين الذين لمسوا ذلك وهدتهم اليه تجـاربهم وبحوثهم ؟

« فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينـا طـائعين » هـذا تصوير لأثر قدرة الله تعالى فى المقدروات ، فقدرته نافذة لا يصدها شىء ، وجميع من فى الكون وفق مشيئته لا يخرج عنها شىء ، فلم يكن منه سبحانه خطاب للأرض والسـماء ولا جـواب منهما ، وانما هو تمثيل على سـبيل الاستعارة ، فقد شبه حال الأرض والسماء فى خضوعهما لارادته وعـدم قدرتهما على معارضته ، بحال المخاطب المطيع ، الذى يوجه اليه المخـاطب الأمر فلا يملك الا الاستجابة ، واستعار الهيئة الثانية وعبر بها عن الهيئـة الأولى . وللتمثيل قدرته على توضيح المعانى ، والتأثير فى النفوس . اذ أبرز المعنى المجرد فى صور حسية ناطقة تمتع الخيال وتهز الوجـدان .

أما قوله تعالى « طوعا أو كرها » فهو كناية عن اسـتحالة امتناعهما على قدرته وأنهما منقادتان خاضعتان . كما تقول : ستفعل هـذا شـئت

---

(١) السديم : كأمير . الكثير النكر والضـباب الرقيق أو عـام . القاموس ج ٤ ص ١٢٠ . وفى المنجد فى اللغـة والأدب والعـلوم : أن السديم – فى علم الفلك – يقـع فى الكرة السـماوية ضعيفة النور منهـا ما هو تجمـع غازات مضيئة ومنهـا يضم العـديد مـن الكواكب . وتجمع على : سـدم . ص ٣٢٧ .

(٢) انظر كتـاب مع الله فى السماء ص ١٠٣ .

أم أبيت ، وغرضك اخباره أنـه لا يملك المخـالفة • وهـو تأكيـد للمعنى • ويلاحظ ما فيـه من طباق يلفت النظر ويشـد الانتباه •

« **فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها** » أى خلق الله السماوات فى يومين وخلق ما فيهـا مما هى فى حـاجة اليه • ونلاحظ أن الضمير « **هن** » اما أن يعود على السماء باعتبـار المعنى ، أو هو مبهم و « **سبع سموات** » تمييز له ، كما أن الجملة كلها تفصيل لمـا سبقت الاشارة اليه اجمالا فى قوله تعالى : « **ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض** ••• » وللتفصيل بعد الاجمال أثره ، حيث يكون استجابة لمـا فى نفس المخاطب من الشوق لمعرفته •

« **وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا** » بأسلوب الالتفات حيث أسند التزيين الى نون العظمة ، ولاشك أن ذلك يومىء الى مزيد من العناية بالأمر الى جـانب ما فيه من تجـديد لنشـاط السـامع واثارة انتباهه • والمراد بالمصابيح : الكواكب ، فهى استعارة ، لأنها ترى متلألئة كالمصابيح ، وهدف الاستعارة هو توجيه أنظارهم الى ما فى السماء من دلالة على قدرة الله ، حيث أبدعها على هـذه الصورة الرائعة • « **وحفظا** » أى أن الكواكب خلقت زينة للسـماء وحفظـا لها • ومعنى الحفظ تشير اليه آيات أخرى بأنه من الشياطين الذين يحاولون استراق السمع ، وكل هـذه اشارات الى احكام تدبير الله للكون ، وأنه جعـل فيه كل ما يصلحه •

« **ذلك تقدير العزيز العليم** » ذلك الذى عرضته الآيات من خلق الأرض وامدادها بكل ما تحتاجه الحياة ، وابداع السماء وما فيها هو تقدير العزيز العليم • انها ثلاث كلمات لا يسـد مسـدها سـواها • فلفظ « **تقـدير** » هو ما يصلح هنا دون غيره • فالكون وما فيه من قوى وعناصر تتفاعل وتمور لابد من ضبط حركتهـا وتأثيرها بتقدير حتى لا تطغى وتدمر ، والكواكب والنجوم لابد من ضبط أحجامها ومواقعها بتقدير ، والا اختل نظام الكون • كل شىء فى الكون لابد أن يأخذ وضعه المقدر وحجمه المقدر ، وصـدق الله العظيم : « **وخلق كل شىء فقـدره تقديرا** »(١) • « **وان من شىء الا عنـدنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم** »(٢) • وقد نستأنس لهـذا بما نقرؤه عن احكام مذهل يلمسه العلماء فى كل مظاهر الكون • فلو فرض أن الأرض

---

(١) الفرقان : ٢ •   (٢) الحجـر : ٢١ •

مثلا قد زاد حجمها أو نقص ، أو تغير موقعها من الكواكب بحيث قربت من الشمس أو بعدت عنها عما هى عليه الآن ، ولو كان التغيير ضئيلا ، فان ذلك يجعلها غير ملائمة للحياة (١) · فمن ذا الذى يدبر ذلك كله ويقدره ؟ انه **العزيز** ـ البالغ فى القدرة العليم ـ الذى يحيط علمه بكل شىء سبحانه جل ثناؤه وعظم شأنه ·

وبعد هذه السياحة فى الكون أرضه وسمائه ، ومعاينة آثار قدرة الله ودلائل عظمته ، ومشاهدة آلائه ونعمه ، وقبل ذلك ايراد الدليل على وجوب طاعة الرسول وحثهم عليها بالترغيب والترهيب · هل يظل هؤلاء المشركون مصرين على عنادهم جاعلين لله أندادا ؟ اذا كان كذلك فعليهم أن ينتظروا ما أعده هذا القادر لهم من عذاب الدنيا وخزى الآخرة ·

« فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود · اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم الا تعبدوا الا الله ، قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون · فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون · فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، وهم لا ينصرون · وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون · ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » (٢) ·

« **فان أعرضوا** » بعد هذه الدلائل الواضحة وأصروا على أن يشركوا بالله ويتخذوا له أندادا · فقل : « **أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** » ، وعبر بالماضى فى « **أنذرتكم** » بدلا من المضارع للدلالة على تحقق الانذار . المنبىء بتحقق المنذر به · فهى استعارة فى الفعل باعتبار زمنه « **صاعقة** » والصاعقة فى الأصل نار لا تمر بشىء الا أحرقته مع وقع شديد (٣) · والمراد بها هنا العذاب الشديد كأنه صاعقة فهى استعارة يقتضيها مقام الترهيب ، لما توحى به بجرسها ومعناها بالعنف والقوة ، وما تبنيه للخيال من صورة النار تنزل من السماء فتسحق ما تقع عليه وتبيده · وهو ما يتناسب مع شدة جرمهم وتبجحهم ·

---

(١) انظر فى هذا كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » الصفحات من ٥ ـ ١٠ ·

(٢) فصلت : ١٢ ـ ١٨ ·　　　(٣) أساس البلاغة ص ٥٣٦ ·

وتروى كتب السيرة حادثة تصور وقع هذا الانذار على قلب رجل لم يؤمن ولكنه يستمع الى الآيات من رسول الله ﷺ حتى اذا وصل الى قوله تعالى : « **فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة** » يمسك على فيه ويناشده الرحم أن يكف مخافة أن يقع به العذاب ٠

« اجتمعت قريش يوما فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه ٠ فقالوا : لا نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا : أنت يا أبا الوليد ٠ فأتاه عتبة فقال : يا محمد ٠٠ أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فقال : أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فقال : ان كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت ، وان كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، انا والله ما رأينا سخلة (١) قط أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا فى العرب ، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرا ، وأن فى قريش كاهنا ، والله ما ننتظر الا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا الى بعض بالسيوف حتى نتفانى ٠ أيا الرجل ان كان بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش مالا ، وان كان انما بك الباءة فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجك عشرا ٠ فقال رسول الله ﷺ : « فرغت » ؟ قال : نعم ٠ قال رسول الله ﷺ : « **بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ٠ تنزيل من الرحمن الرحيم** » (٢) حتى بلغ « **فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** » (٣) ٠ فامسك عتبة على فيه وناشده الرحم ورجع الى أهله ولم يخرج الى قريش ، واحتبس عنهم ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، والله ما نرى عتبة الا قد صبأ الى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك الا من حاجة أصابته ، فانطلقوا بنا ٠ فانطلقوا اليه ، فقال أبو جهل : يا عتبة ٠٠ ما حبسك عنا الا أنك صبأت الى محمد وأعجبك طعامه ، فان كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد ٠ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمدا أبدا وقال : والله لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا ، ولكنى أتيته وقصصت عليه القصة ، فأجابنى بشىء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر وقرأ السورة الى قوله : « **فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد**

---

(١) السخلة : ولد الشاة ٠ والسخل من الرجال ــ جمعه سخل ــ : المرذول الضعيف القاموس ج ٣ ص ٤٠٦ ٠

(٢) فصلت : ١ ، ٢ ٠ (٣) فصلت : ١٣ ٠

وثمود » فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمدا اذا قال شيئا لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب ، وفى رواية : يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها لى ·· خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ · فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به · قالوا : سحرك يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم (١) ·

« اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم الا تعبدوا الا الله » ·

جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ، أى من كل جانب ، وهى كناية عن كثرة الرسل الذين أرسلوا اليهم ، والكناية أبلغ لتصويرها للمعنى وتأكيده · وفى النص على كثرة الرسل ما يبرر استحقاقهم للعذاب وأنهم دعوا مرات كثيرة وعلى أيدى رسل كثيرين ، ومع ذلك ظلوا على صدهم للرسل وعدم الاستجابة لهم ·

« الا تعبدوا الا الله » نفس ما يدعو اليه الرسول ﷺ قريشا ، وهو وحدانية الله · فدين الله واحد ورسله جميعا ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ يصدرون عن مشكاة واحدة ، وفيه اشارة الى استحقاق مكذبى رسولنا ﷺ نفس العقوبة التى نزلت بمكذبى الرسل السابقين ، فالجريمة واحدة وهى الاشراك بالله ·

« قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون » حكاية لردهم على رسلهم · أى قالوا : لو شاء ربنا ارسال رسل لأنزل ملائكة · ففيه ايجاز بالحذف ، وسر بلاغة الحذف هنا يرجع الى ما فيه من البيان بعد الابهام ذلك أن قوله تعالى : « لو شاء ربنا » يلقى فى نفس السامع أن المشيئة قد علقت بشىء ، فهو ينتظر بيانا له · وعندما يأتى قوله تعالى : « لأنزل ملائكة » يتلقاه السامع بعد تطلعه اليه ، وفى هذا من اللطف والبلاغة ما لا يكون اذا لم يتقدم ما يحرك النفس اليه ويثير تطلعها لمعرفته · فهم قد أبوا الاستجابة محتجين بأن الدعاة بشر مثلهم ، متعامين عما يقدمه هؤلاء من معجزات دليلا على صدقهم ، يلزمهم بتصديقهم · « لأنزل ملائكة » أى لأرسل ملائكة · وعبر بالانزال بدلا من الارسال لأنه لما كان ارسالهم بطريق الانزال قيل « لأنزل » · « فانا بما أرسلتم به كافرون » أخبروا عن أنفسهم بالكفر بهذا التعبير المؤكد بـ « أن » ، واسمية

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٩٠ ـ ٩١ ·

الجملة التى تفيد الاستمرار والثبوت ثم بتقديم المتعلق بالكفر « بما ارسلتم » ، ثم التعبير ـ بما ـ الموصولة للنص على صلته ولتوضيح المكفور به توضيحا كاملا · وذلك اشارة الى اصرارهم وعنادهم وقولهم « أرسلتم » ليس اقرارا منهم بالارسال لأنه مخالف لاعتقادهم ، فالأصل حسب اعتقادهم أن يقولوا « بما جئتم به » ولكنهم عبروا بالارسال مجاراة لكلام الرسل وفيه تهكم بهم · ومثله قول فرعون : « ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون » (١) ·

« فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون · فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، وهم لا ينصرون » ·

هذه الآيات تفصيل لما سبق اجماله من قصة عاد وثمود · وفى التنصيل بعد الاجمال استغلال لعنصر التشويق ، لأن النفس اذا ألقى عليها الكلام مجملا استشرفت الى معرفة تفاصيله ، وتظل متطلعة بكل حواسها الى ما سيلقى اليها فاذا سيق الكلام بعد ذلك مفصلا تمكن فى النفس ووصل الى أعماقها ·

« فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق » تلك هى جريمتهم : استكبروا فى الأرض وتعالوا على أهلها دون مبرر لهذا التعالى والتكبر ، بل ظلما وعتوا بغير الحق · فقد كان الواجب عليهم أن يكون ما هم فيه من قوة ومنعة حافزا لهم على الاعتراف بفضل الله عليهم وشكره على نعمته لا سببا لأن يتكبروا ويطغوا ·

« وقالوا من أشد منا قوة » هكذا أعمتهم القوة ، وغرهم السلطان ، فأنكروا أن يكون هناك من هو أقوى منهم ، وماداموا كذلك فلهم أن يتيهوا بقوتهم ويتطاولوا ببأسهم · ولكن القرآن الكريم لا يمهلهم بل يسوق اليهم بدهية لا يستطيعون انكارها « او لم يروا ان الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة » ؟يالها من سخرية بهم ·· كيف يغفلون عن هذه الحقيقة الواضحة ؟ فالله هو الذى خلقهم ، أليس الخالق أقوى من المخلوق ؟ ثم نلاحظ أنه لم يضف الى الصلة خلقه سبحانه للسموات والأرض وما فيهن ، فالقضية لا تحتاج الى كل هذا ، فهم يدلون بقوتهم مع أنهم أنفسهم وما هم عليه من

---

(١) الشعراء : ٢٧ ·

قوة انما خلقه الله وأفاضه عليهم ليبلوهم به ، ونلاحظ أنه استعمل كلمة « قوة » بالنسبة لله تعالى والمراد بها ـ القدرة ـ وفيها مشاكلة لأنها وقعت فى حيز وصفهم أنفسهم بالقوة ولفظ ـ القوة ـ أبلغ فى مقام الترهيب

« **وكانوا بآياتنا يجحدون** » تسجيل عليهم أنهم كانوا يوقنون بصدق الآيات الدالة على وحدانية الله ولكنهم يجحدونها عتوا واستكبارا · « **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا** » (١) · وهذا دليل آخر على استحقاقهم ما نزل بهم من عقوبة وما حاق بهم من عذاب ·

« **فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا** » ·· أخذ فى وصف العذاب الذى نزل بهم جزاء كفرهم واستكبارهم ، وكان العذاب ريحا باردة شديدة تصوت فى هبوبها ، ولفظ « **صرصرا** » يحكى بجرسه صوت الريح فى عصفها المدوى التى تقتلع أمامها كل ما يصادفها ولا تدع شيئا أتت عليه الا جعلته كالرميم ، ثم ان هذه الريح لم تستمر ساعة أو يوما بل أياما طوالا : سبع ليال وثمانية أيام حسوما : وهذه الأيام والليالى نحسات ، لا يتخللها ما يلوح بأمل ، وواضح ما فى « نحسات » من مجاز مرسل ، يفيد المبالغة فى اثبات الصفة وشمولها ·

« **لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا** » والعذاب لا يذاق ولكنه عبر بالاذاقة مبالغة فى وقع العذاب عليهم واحساسهم به كأنه غصص يتجرعونها مكرهين ·

وأضاف العذاب الى الخزى وهو الذل والاستكانة على أنه صفة له ، كأنه قال عذاب خزى ، كما تقول : فعل السوء تريد الفعل السيىء · وهو اسناد مجازى اذ أسند الى المصدر ما حقه أن يسند الى اسم الفاعل ، والوصف بالمصدر فيه مبالغة فى اثبات الصفة لأن العذاب أصبح هو الخزى نفسه والعار ، وفرق بين هذا وبين أن يصفهم هم بالخزى والعذاب مخز لهم ·

ثم لنتأمل كيف جاءت العقوبة مطابقة للجريمة ، فما ربك بظلام للعبيد فالاستكبار والاستعلاء عقوبته الذل والاستكانة ، والتباهى بالقوة جزاؤه القهر وتدمير ما يعتزون به · ذلك جزاؤهم فى الدنيا وحدها ، ولكن الأمر لن يقف عند ذلك ، بل انه خزى متصل وعذاب دائم ، « **ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون** » فعذاب الآخرة أشد اذلالا لهم · ثم من لهم هناك لينصرهم

---

(١) النمل : ١٤ ·

ولم يستطيعوا فى الدنيا أن يمتنعوا بقوتهم من عذاب الله ؟ وهـذا تعريض بهم وسخرية منهم ٠

وفى جمع الآيات بين العذاب الحسى ٠ الذى توقعه الصاعقة بهم ، والعذاب المعنوى المتمثل فيما يصيبهم من خزى وذل واستكانة ، فيه احاطة بكل ما يثير الفزع فى النفس ويملؤها رهبة وهلعا ، علها تثوب الى رشدها ، وتتطهر مما يعتمل فيها من الأحقـاد ونوازع الاسـتعلاء لتتجه الى الدعوة مستجيبة راضية بعد أن انكشف عنهـا أقنعـة الباطل ٠

« **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صـاعقة العـذاب الهون بما كانوا يكسبون ٠ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** »

وأما ثمود فهديناهم أى دللناهم على الحق بنصب الآيات الكونية ، وارسال الرسل وانزال الآيات التشريعية على الرسل وابلاغهم بها ٠ « **فاسـتحبوا العمى على الهـدى** » هداية الله لهم هى ارشادهم وترك الاختيار لهم ، ان شاءوا انتفعوا بالارشاد واسـتجابوا للدعوة وحققـوا الهداية فى أنفسـهم بالفعل وصـاروا مهديين وان شـاءوا أبوا وظلوا فى الضـلال ٠ وهؤلاء لم يستجيبوا بل آثروا الضلال على الهداية ٠ وقد عبر هنا عن الضلال بالعمى على سبيل الاستعارة ، بجامع عدم الاهتداء فى كل ٠ ولاشك فى أن الاستعارة أقوى فى تأكيد المعنى ، وهو هنا الانحراف عن الطريق الصحيح والتخبط وعدم الوصول الى الهدف ، الى جانب ما فى لفظ العمى من تنفير وتقبيح لمسلكهم ٠ كما تلاحظ المطابقة بين العمى والهـدى وما يبرزه من تنـاقض يقتضيه مقام الترغيب والترهيب ٠

« **فأخذتهم صـاعقة العذاب الهون** » المراد حلت بهم صاعقة العـذاب والتعبير بالأخـذ هنا تصوير للمعنى يضفى عليه عنفا وشدة يقتضيها مقام الترهيب ووصف العذاب بالهون للمبالغة والتهويل ولاضـافة عنصر الألم النفسى الى الألم المـادى ٠

« **بما كانوا يكسبون** » ذلك جزاء وفاقا لمـا ارتكبوه من جرائم منكرة ٠ ثم يحرص القرآن الكريم على أن يؤنس المؤمنين ويقضى على ما قد يحيك فى نفس بعضهم من أن هذه الصـاعقة قد تجتاح فى طريقها الصالح والطالح والبرىء والمسىء فيقول : « **ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** » فهؤلاء فى رعاية الله وكنفه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٠ فقد قدموا مـا يقيهم هـذا الشر ٠

ثم تنتقل الآيات الى ما ينتظر هؤلاء الكافرين وأمثالهم من عذاب فى الآخرة بعد ذكر ما وقع بهم فى الدنيا ·

« ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون · حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون · وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا انطقنا الله الذى انطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون · وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون · وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين · فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين » (١) ·

« **ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون** » هذا تصوير لما سيكون يوم القيامة حيث يحشر أعداء الله الى النار ، والحشر الجمع · واللفظ مشعر بكثرة العدد كثرة يضيق بها المكان ويحشرون فيه حشرا ، وهذه الكثرة تبدو أيضا فى قوله تعالى : « **يوزعون** » فمعناه يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا كما أن التعبير أيضا بـ « **يوزعون** » فى صيغة المضارع يرسم صورتهم كانها مشاهدة وهم يساقون كالقطيع ويدفعون الى النار ، ولكما تباطأوا ــ شأن المقبل على ما يكره ــ دفعوا مكرهين ، ودعوا اليها دعا · هذا الموكب الذليل المهين هو موكب « **أعداء الله** » والتعبير عنهم بأنهم أعداء الله لبيان علة ما يحيق بهم من ألوان العذاب · وهل هناك جريمة أبشع من أن يعادى الانسان خالقه ومربيه ؟ فلا مجال لاشفاق المشفقين ، انهم « **أعداء الله** » ، ثم ان وصفهم بأنهم أعداء الله يبين أن هذا مصير كل الكافرين ·

« **الى النار** » هم لا يساقون الى النار وانما الى موقف الحساب اذ فيه يتم السؤال والجواب وتشهد الجوارح قبل أن يلقى بهم فى النار ، وانما عبر عن موقف الحساب بالنار للايذان بانها مصيرهم وعاقبة أمرهم وأنهم مشرفون على دخولها ، ولا محيص لهم عنها · أو لأن حسابهم يكون على شفيرها فكأنهم يساقون اليها ·

بالاضافة الى تعجيل مساءتهم بذكر النار ·

والآية قد رسمت كما ترى ــ بكلماتها المصورة ــ صورة شاخصة للخيال يتابع حركتها وهو يرى الجمع الهائل يساق قسرا الى مصيره المفزع ، ولتتابع المشاهد ·

---

(١) فصلت : ١٩ ــ ٢٤ ·

« **حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون** » يا لها من مفاجأة تنقطع عندها كل أسباب النجاة ·· ومـاذا بقى لهم ليعتذروا به ، وشهودهم من انفسهم تروى عنهم ما حسبوه سرا لا سبيل الى فضحه والمراد بالجلود الجوارح ، فالرجل تقول سعيت ، واليد تقول بطشت · وقيل المراد بها الفروج ، فهى كناية تليق بسمو الأدب القـرانى فى التعبير · و « ما » فى قوله تعالى « **حتى اذا ما جاءوها** » لتأكيـد أن وقت مجيئهم الى النار يكون ــ لا محـالة ــ وقت الشهادة عليهم ، ولا وجه لأن يخلو منها » (١) كما أن التعبير بــ « اذا » دون « ان للاشارة الى تحقـق دخولهم النـــــار ·

« **وقالوا لجلودهم لم شـــهدتم علينا** » لقد انقطع أملهم فى الدفاع عن انفسهم وانكار جرائمهم ، فلم يبق لهم الا أن يتوجهوا باللوم الى جوارحهم استعظاما لموقفها منهم · انــه تصرف اليـائس ، يدع أصل القضية وينفس عما يضيق به بما يشاء مـن لغو الحـديث ، وهو يعلم انه كلام لن يقـدم او يؤخر شيئا فى موقفه · وواضـح أن ما فى الاســتفهام من انكار وتوبيخ وتعجب يترجم عن مشاعرهم وقد فوجئوا بما لم يكن فى حسبانهم ·

« **قالوا انطقنـا الله الذى أنطق كل شىء** » لقد أقـدرنا الله على النطق فشهدنا عليكم بما عملتم بواسطتنا من القبائح · وليس ذلك عجيبا على قدرة الله ، فهو الذى انطق كل ناطق ·

« **وهو خلقكم اول مرة واليه ترجعون** » فليس من العجيب أن ينطقنـا الله وهو الذى قدر على خلقكم اول مرة وعلى اعادتكم بالبعث للحساب مرة أخرى · فاى مجال لاكباركم وتعجبكم ؟

وقد عبر بقوله« **ترجعون** » بصيغة المضارع مع أن هــذه المحاورة بعد البعث والرجع « لأن المراد بالرجع ليس مجرد الرد الى الحياة بالبعث ، بل ما يعمه وما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند التخاطب ، على سبيل تغليب المتوقع على الواقع ، كما أن فيه رعاية للفواصل » (٢) ·

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٤٥٠ ·

(٢) تفسير أبى السعود جـ ٥ ص ٢٢ ·

كما أن تقديم الجار والمجرور « اليه » مفيد للقصر لتأكيد أن ذلك لابد كائن ولا مهرب منـــه ٠

« **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم** » لم يكن هــذا فى حسبانكم ، ولم تكونوا تتوقعون أن تشهد عليكم جوارحكم ، ولم تعدوا لذلك عدته بأن تستتروا عنها حتى لا تشهد عليكم لأنكم لا تؤمنون بالبعث نفسه ، فكيف تتحرزون مما يواجهكم فيه وأنتم منكرون له ؟ ثم انكم لا تستطيعون أن تستتروا منها حتى لو أردتم ، كيف وهى بعضكم وبها تكسبون ما تأتون من آثام ؟

« **ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعمــلون** » ان جــريمتكم التى أورثتــكم هذا العــذاب وســاقتكم الى هــذا المصــير هى أنكم **ظننتم أن الله** لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وهى الأعمــال الخفيــة ٠ ولذلك اجترأتم على ما فعلتم ٠

« **وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** » ذلكم بلام البعد ايذانا ببعد منزلة ظنهم هذا فى الشر والسوء ٠ هذا الظــن منكم أورادكم موارد الهلاك فأصبحتم فيما أنتم فيه من الخسارة والشقاء ٠

ان هــذه حكاية لمــا سيقال لهم من جهته سبحانه وتعالى توبيخا لهم ثم أى شعور برقابة الله واطلاعه على البواطن يوقظه هــذا التعبير الكريم فى نفس المؤمن أنه دائما تحت رقابة الله وفى دائرة علمه ، لا سبيل الى ستر شىء عنه ٠٠ ان المؤمن الذى يستشعر دائما هــذا المعنى ويعيش فى ظله سيجد نفسه بعيدا عن كل موطن لا يحب أن يراه الله فيــه ، وهذا هــو جوهر السلوك الفاضل ٠ « ألا يراك الله حيث نهــاك ، وألا يفتقــدك حيث أمــرك » ومن هنا جــاء النص على أولئك الذين « **يســتخفون من النــاس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون مالا يرضى من القول** » (١) ٠

وعندما يتحدث العلم الحديث اليوم عن اختزان الذكريات الســابقة كاملة فى خلايا المخ ٠ ويثبت بالتجربة المشاهدة أنه يمكن باثارة بعض هــذه الخــلايا أن يستعيد صــاحبها مامر به ويعيشه مرة أخرى بكل تفاصــيله وملابساته وأحاســيسه ٠ أقول عندما ما يتحدث الطب الحــديث عن ذلك

---

(١) النساء : ١٠٨ ٠

فلا يملك منصف الا آن يخلى جبينه اجلالا لهذا الذكر الحكيم ايمانا به وثقة فى صدقه واقرارا بمنزلته ٠ وانى لمحمد الأمى مثل هذه الأسرار الخفية وهى ليست مما يخطر على خيال ٠٠ وتمضى الأيام ويؤكد علماء القرن العشرين انها حقيقة لا جدال فيها ٠

« **فان يصبروا فالنار مثوى لهم** » لقد انتهى المشهد كله الى غايته واستقر أولئك المجرمون فى النار ، ويأتى هذا التعقيب الساحر بأسلوب الالتفات من الخطاب الى الغيبة ليحكى عنهم ، فهم قد بعدوا عن حيز الخطاب والقوا فى غاية دركات النار ، ثم أى صبر هذا ؟ انه صبر على النار تكون لهم محل ثواء واقامة أبدية لا سبيل الى الفكاك منها ٠

ويلاحظ التعبير بـ « **ان** » دون « اذا » للايماء الى أن صبرهم غير متوقع ، وكذلك تقديم لفظ ــ النار ــ للتعجيل بما يسيئهم ٠

« **وان يستعتبوا فما هم من المعتبين** » ان سألوا الرجوع الى ما يحبون جزعا مما هم فيه فلن يستجاب لهم ٠ لقد قطعت الآمال ، وحسم الأمر ٠

وهكذا تركوا هناك يصارعون الأهوال ، وتمضى الآيات الى شأن آخر وهكذا صور القرآن الكريم حالهم وعرضها هذا العرض المؤثر المفزع ، انذارا للمعاندين ، وترهيبا للمشركين ٠ علهم يبادرون الى ما يجنبهم هذا المصير ٠

« **ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** »(١) ٠

● **أسلوب الترغيب :**

أولا ــ الترغيب بما أعد للمؤمنين فى الدنيا :

قال تعالى : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى**

---

(١) سورة ق : ٣٧ ٠

لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » (١) ٠

جاء فى تفسير ابن كثير « قال الربيع بن انس عن أبى العالية فى قوله تعالى « **وعد الله الذين آمنوا** ٠٠٠ » الآية ، قال : كان النبى ﷺ واصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون الى الله وحده ، والى عبادته وحده لا شريك له سرا ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بالهجرة الى المدينة فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال فكانوا بها خائفين يمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح ، فصبروا على ذلك ما شاء الله ، ثم ان رجلا من الصحابة قال : يا رسول الله ٠٠ أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لن تصبروا الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليست فيه حديدة » (٢) ٠ وانزل الله هذه الآية ٠

فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فآمنوا ووضعوا السلاح ، ثم ان الله قبض نبيه ﷺ فكانوا كذلك آمنين فى امارة أبى بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه فأدخل عليهم الخوف ، فاتخذوا الحجزة والشرط (٣) وغيروا فغير بهم » (٤) ٠

تشير هذه الرواية فى صدرها الى سبب نزول هذه الآية الكريمة ٠ وفى نهايتها يوضح صاحبها أن وعد الله قد تحقق للمسلمين ، حتى اذا ما غيروا غير الله ما بهم ٠ فهذا الوعد معلق بشرط وهو قول الله تعالى : « **يعبدوننى لا يشركون بى شيئا** » ومن هنا كان اختيارنا لها نموذجا للترغيب فى الايمان بالله وتوحيده ، وانها عامة مطردة كسنة لا تتخلف ما تحقق شرطها ٠

---

(١) النـــور : ٥٥ ٠

(٢) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ٠ والمراد بقوله « ليست فيه حديدة » انهم سيكونون فى غير حاجة الى السلاح وهذا كناية عما سينعمون به من أمن ٠

(٣) الحجزة : الظلمة الذين يمنعون بعض الناس عن بعض ويفصلون بينهم بالحق جمع حاجز ٠ القاموس المحيط ص ١٧٨ جـ ٢

والشرط : كصرد : طائفة من أعوان الولاة ، وهو شرطى كتركى وجهنى سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها القاموس ص ٣٨١ جـ ٢

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٠١

ولننظر فيما بها من بلاغة ·

« **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات** » وعده الأمر وبه ، خيرا أو شرا · فاذا أسقطا قيل فى الخير « وعد » وفى الشر « أوعد » (١) · واسناد الوعد الى الله للاشارة الى تحققه ووقوعه ، فالله لا يخلف وعده وذلك يحمل على تصديقه والعمل بمقتضاه ، وعبر عمن تعلق بهم الوعد باسم الموصول ليفيد أنه شامل لكل من تحققت فيه الصفات التى تنص عليها الصلة وهى الايمان والعمل الصالح ، فكل من اتصف بالايمان بالله بعد الكفر وعمل صالحا فهو داخل فى الوعد مستحق له ، من أية طائفة كان وفى أى وقت كان · فهى سنة من سنن الله فى خلقه لا تتخلف · وفى هذا ما يجدد الآمال دائما لدى المسلمين وينبههم الى سبب ما يصيبهم عبر تاريخهم من انحسار سلطانهم ، وتآكل دولتهم ، وتداعى الأمم عليهم ، وسلبهم الأمن فى أوطانهم وعيشهم فى خوف دائم · فذلك كله لأنهم فرطوا ، ولم يوفوا بما يجعلهم أهلا لتحقيق وعد الله لهم · فاذا أرادوا الخلافة فى الأرض والأمن وتمكين الدين ، فالسبيل واضحة امامهم وسنة الله تناديهم : أن وفوا بواجبكم ليتحقق لكم ما تريدون ، كما أن فيها ترغيبا لغير المسلمين فى الاسلام ليحصلوا على ما تعدهم به ·

و « من » فى قوله « **منكم** » تبعيضية ، باعتبار الخطاب موجها لعامة المشركين لدعوتهم الى الايمان وترغيبهم فيما يحقق لهم وعد الله · « ومن جعل الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام وللأمة عموما على أن « من تبعيضية ، أو له عليه السلام ولمن معه من المؤمنين ، على أنها بيانية ، فقد نأى عما يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه بمنازل ، وأبعد عما يليق بشأنه عليه السلام بمراحل »(٢) ·

وتوسط « **منكم** » بين المعطوفين وهما « **آمنوا** » و « **عملوا الصالحات** » للاشارة الى أصالة الايمان وعراقته فى استتباع الآثار والأحكام المذكورة ، وللايذان بأنه أول ما يطلب منهم واهم ما يجب عليهم · فهو الأساس الذى لا تقبل الأعمال الا اذا كانت صادرة عنه مرتكزة عليه · وقوله تعالى :

---

(١) القاموس المحيط · جـ ١ ص ٣٥٩

(٢) انظر تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ٧٠

« **وعملوا الصالحات** » جامع لكل ما يقتضيه الايمان بالله من التزام بشريعته ، والحياة فى ظل ما أمر به ونهى عنـــه ·

« **ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم** » أى يجعلهم خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك فى ممالكهم · أو يجعلهم خلفا للذين لم يكونوا على حالهم من الايمان والأعمال الصالحة · وهـذا أول ما وعد الله به المؤمنين · ونظم الآيـة الكريمة جمـع مؤكدات كثيرة ، أولها القسم المحـذوف الذى دخلت اللام عـلى جـوابه ، تقديره وعـدهم الله وأقسـم ليستخلفنهم · أو نزل وعد الله فى تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قال : أقسم الله ليستخلفنهم · ثم باللام الداخـلة عـلى جـواب القسم ، ثم بنون التوكيد الثقيلة الملحقة بالفعـل ثم بما ذكره من تنظير يؤكد تحقق وعده لهم ، لأنه قد تحقق لمن قبلهم من المؤمنين « **كما استخلف الذين من قبلهم** » وهم الأمم التى تشير اليها الآيات الكريمة : « **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله** ··· » الى قوله تعـالى : « **وقال الذين كفروا لرسـلهم لنخرجنكم من أرضـنا أو لتعودن فى ملتنا ، فأوحى اليهم ربهم لنهـلكن الظالمين · ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقـامى وخاف وعيـد** »(١) فهى اذن سنة الله التى تتكرر كلما تكررت موجباتها ·

والمقام هنا يقتضى كل هذه التأكيدات ، لأهمية الوعد وتمكين الثقـة به فى النفوس ترغيبا لها فى الايمان ·

« **وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم** » والمعنى ليجعلن دينهم ثـابتا مقررا ، بحيث يستمرون على العمل بأحكامه ، ويرجعون اليه فى كل ما يأتون وما يذرون · وقـد عبـر عن هـذا بالتمكين الذى هو جعل الشىء مكانا للشىء · يقال : مكن له فى الأرض ، أى جعلها مقرا له ، واستعارة التمكين لمعنى التثبيت آكد للمعنى وأقوى فى الدلالة على ثبات الدين وسلامته مـن التغيير والتبديل ، لأنها تخيل أنه شىء مستقر على الأرض بثباتها واستقرارها مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف فى الأرض · ثم ان تقديم « لهم » على المفعول الصريح وهو ـ دينهم ـ للمسارعة الى بيان كون الموعود به من منافعهم تشويقا اليه وترغيبا لهم فى قبوله عند وروده · واضافة الدين لهم ، وهو دين الاسلام ، ثم وصفه بارتضائه لهم ، تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه وفضل تثبيت عليه (٢) ·

---

(١) ابراهيم : ٩ ـ ١٤

(٢) انظر تفسير أبى السعود ج ٤ ص ٧١

فاذا أضفنا الى ذلك تلك المؤكدات المتعددة التى تضمنها النظم على مثال ما جاء فى « **ليستخلفنهم فى الأرض** » أدركنا أى اهتمام بتأكيد هذا المعنى وترغيب فيه قد حواه النظم الكريم ٠

على أننا نلاحظ أن الوعد بتمكين الدين ـ وهو أهم الرغائب وأعظمها كان حقه أن يتقدم على الاستخلاف فى الأرض ، ولكنه قدم الاستخلاف

« لأن النفوس الى الحظوظ العاجلة أميل ٠ فتصدير المواعيد بها فى الاستمالة أدخل » (١) ٠

« **وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا** » وهنا أيضا نجد التأكيد المناسب لمقام الاهتمام بالمؤكد والحرص على تمكينه فى القلوب ٠ والتعبير بالتبديل مشعر بما هو فيه من خوف دائم ينغص حياتهم ويسلبهم الراحة والاستقرار وذلك للايذان بعظم نعمة الأمن التى يعدهم بها ٠ فهم أدرى الناس بوطأة الخوف وقسوته ٠ ويلاحظ الطباق بين ـ الخوف ـ والأمن ـ ابرازا للتضاد واشارة لعظم ما سيؤتون ، وكذلك تنكير « أمنا » للتعظيم المناسب لمقام الترغيب ٠

« **يعبدوننى لا يشركون بى شيئا** » العبادة تعنى الطاعة والاستسلام وجملة « **يعبدوننى** » حال من الموصول فى قوله تعالى : « **وعد الله الذين آمنوا منكم** » وهى تفيد تقييد ما سبق من الوعود بالثبات على عبادة الله وتوحيده ، أو جملة مستأنفة لبيان المقتضى لتحقيق الوعد ، وهذا سر فصلها عما قبلها ، وعدم الاشراك يعنى افراد الله بالعبادة والطاعة ٠ وجملة « **لا يشركون بى شيئا** » حال من الضمير فى يعبدوننى ، أى يعبدوننى غير مشركين بى فى العبادة شيئا ٠ ونلاحظ تقديم « بى » على مفعول الفعل الصريح وهو « شيئا » للمسارعة الى بيان من يطلب عدم الاشراك به والتعبير ـ بشىء ـ للدلالة على عموم نفى الشركاء أيا كان نوعهم فهى نكرة فى سياق النفى فتعم ماعدا الله تعالى من أشخاص وأشياء وأهواء وذلك للاشارة الى وجوب اخلاص النية وتطهير القلب من كل ما يشوب التوحيد ظاهرا أو خفيا ٠

« **ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** » بعد أن رغبت الآيات فى الايمان ، وقدمت الوعود وأكدتها وبينت أنها سنة الله فى الأمم السابقة

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ٧١

ودعت الى التوحيد الخالص مبينة أنه المقتضى لاستحقاق الموعود به ، اتجهت الى التحذير من الكفر بعد هذا الوعد الكريم بما فيه من النعم الجزيلة المستوجبة لغاية الاهتمام بتحصيلها والسعى فى ادراكها ٠

وعلى ما اخترناه من أن الخطاب فى الآية موجه لعموم المخاطبين لحملهم على الايمان ، يكون الكفر هنا معناه الاستمرار على الكفر وعدم التأثر بما فى الآيات من الترغيب ، فان الاصرار عليه ـ بعد مشاهدة دلائل التوحيد ـ كفر مستأنف ، واذا اعتبرنا الخطاب موجها للمؤمنين فيكون الكفر هنا هو الكفر بعد الايمان أو معناه كفر النعمة وعدم القيام بحقها ٠ وكلاهما موجب لزوالها ، وأن يسلب الله عنهم هذه النعم التى عددها ٠ ويكون هذا كالتأكيد لما تقدم من توقف حصول هذا الوعد على تحقيق شرطه وهو الايمان والعمل الصالح ٠

وجملة « **فأولئك هم الفاسقون** » بما فيها من تأكيد باسميه الجملة وضمير الفصل وتعريف الفاسقين بلام الجنس ، اشارة لعظم جرمهم بكفرهم هذا وتشنيع عليهم ، وانهم هم المتناهون فى الفسق والخروج عن حدود الايمان بالكفر والطغيان ، لأنهم آثروا الكفر مع توافر دواعى الايمان وموجباته ٠

وبعد : فهل للدعاة اليوم والمصلحين أن يستلهموا هذه الآيات لتدلهم على مواطن الداء وسبب العلة فى حياة المسلمين اليوم ؟ هل لهم أن يجعلوا منها منطلقنا الى علاج ما يئن المسلمون تحت وطأته من خوف وتخلف وذهاب سلطانهم عن أعز مواطنهم منذ أن فقدوا الأندلس الى حيث انتهوا بفقد الأرض المقدسة ؟ انها سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ٠٠ ولنطو القلب على ما به من جراح ونواصل الحديث ٠



● **ثانيا ـ الترغيب بما أعد للمؤمنين فى الآخرة :**

قال تعالى : « **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تكلف نفسا الا وسعها اولئك أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون ٠ ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار ، وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة**

اورثتموها بما كنتم تعملون · ونادى أصحاب الجنة اصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، قالوا نعم ، فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين · الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون · وبينهما حجاب ، وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، ونادوا اصحاب الجنة ان سلام عليكم ، لم يدخلوها وهم يطمعون · واذا صرفت أبصارهم تلقاء اصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين · ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما اغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون · أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ، ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا انتم تحزنون · ونادى اصحاب النار اصحاب الجنة أن افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله ، قالوا ان الله حرمهما على الكافرين · الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا ، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون » (١) ·

هذه آيات من سورة الأعراف ، وهى سورة مكية · والدعوة فى مكة لم تكن تملك من عوامل الجذب اليها سوى ما فى آيات الذكر الحكيم من تأثير فى النفوس وقدرة قادرة على استمالتها · فبه كان رسول الله ﷺ يدعو منذرا ومبشرا ، والصراع يحتدم بين قرآن ينفذ سحر بيانه الى القلوب ، وطغاة يصدون عن سبيل الله ، ويغالبون فطرتهم التى تذعن له طائعة لولا استعلاء القوم وعنادهم ·

وهذه الآيات جاءت عقب آيات تصور مصير الكافرين فى الآخرة ، وأن « **لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ، وكذلك نجزى الظالمين** » (٢) ·

ثم تأتى هذه الآيات لترسم صورة أخرى لما أعد للمؤمنين فى الآخرة من الكرامة والفضل · وهى هنا صورة زاخرة بالحركة والمشاهد والحوار والايحاء وتصوير المشاعر · فهى تصور مشهد أصحاب الجنة وقد اطمأن بهم المقام فيها ثم تتبعه بمشهد آخر لأصحاب النار ، ثم ترسم بين المشهدين مشهدا ثالثا لأصحاب الأعراف الذين قصرت بهم أعمالهم فلم يدخلوا الجنة ، وتقدمت بهم عن أن يكونوا من أهل النار · ثم تحكى ما بين الثلاثة من حوار موح ، وتصور خلجات نفوسهم ومشاعرهم · وتعرض ذلك كله فيما يناسبه من صور البيان وفنون البلاغة ·

---

(١) الاعراف : ٤٢ ـ ٥١ (٢) الاعراف : ٤١

« **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعهـا أولئك أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون** » •

هؤلاء هم الفريق الأول • الـذين آمنوا بكل ما يجب الايمـان به ، وعملوا الصالحات التى شرعها الله وبينتها آياته ، فصلة الموصول تجمع هذين الوصفين اللذين يؤهلان لما سيأتى من الفضل والكرامة ، هؤلاء هم أصحاب الجنة انها جنتهم وهم أصحابها ، وعبر بـ « **أولئك** » وما فيها من معنى البعـد للاشارة الى بعـد منزلتهم فى الفضـل والشرف • وأنهم استحقوا ذلك بسبب ما تقدم من اتصافهم بالايمان والعمل الصالح •

« **لا نكلف نفسا إلا وسعها** » انها جملة معترضة بين المبتدأ وخبـره وضعت حيث هى لتؤدى دورا فى المعنى ، وهو الترغيب فى اكتساب مايؤدى الى هذا النعيم المقيم ببيان انه سهل يسير ، وأنه لا يخرج عن طاقة من يرغب فى هذا الجزاء العظيم ، ثم ان فى توسطها بين المبتدأ وخبره ما يشد الانتباه الى مضمونها • فالمخاطب يتطلع الى الخبر عندما يذكر له المبتدأ ، فاذا ما خوطب بغيره أحدث ذلك لديه اهتماما بذلك الذى لم يتوقعه •

« **هم فيهـا خالدون** » اضافة جديدة تعطي الجزاء بعـدا جـديدا انـه نعيم دائم لا ينغصه خوف انقضائه وفواته ، انه الخلود الذى يوحي بأعمق مشاعر السكينة والسلام ويغمـر بهمـا القلوب • ويلاحظ استعمال ـ فى ـ الدالة على الظرفية ، والتى تصور حالتهم وانغماسهم فى نعيم الجنة مبالغة فى الترغيب •

« **ونزعنا ما فى صدورهم من غل** » سـمة أخـرى لأهل الجنة • لقـد طهرت قلوبهم مما كان بها من « غل » وخلت حياتهم فى الجنة من كل مـا يكدر الحياة من مشاعر البغضاء والحقد وغيرها ، فهم فى الجنة متحابون متصافون متوادون • ثم لنتأمل التعبير عن تطهير القلوب من الغل بقوله : « **ونزعنا ما فى صـدورهم من غـل** » فلفظ « **نزعنا** » **يجسم** المعنى ويجعـل الغل كأنه شىء مادى ينزع • كما أنه يوحى بتمكن الغل من النفوس حتى أنه ليحتاج الى أن ينتزع انتزاعا لتخلص القلوب منه • كما أن التعبيـر بصيغة الماضى بدل المضارع للايذان بتحققه كأنه قد وقع ، وكذلك التعبير بالصدور عن القلوب ، على سبيل المجاز المرسل ، يوحى بغاية المطهر من الغل ، كأن صدورهم كلها ـ لا قلوبهم فقط قد نزع منها الغل ، وملئت حبـا

ووُدا . وكل هذه الخصائص التى تضمنها التعبير وأوحى بها مما يقتضيه مقام الترغيب الذى سيقت له الآية الكريمة .

« **تجرى من تحتهم الأنهار** » لمسة جديدة تضاف للصورة لتوحى بما هم فيه من نعيم حسى بجانب ما سبق من نعيم روحى ، تجرى من تحتهم الأنهار فتملأ الجو كله نسيما وألحانا وعبيرا ، هذا النعيم الروحى والحسى هو الذى أنطقهم قائلين « **الحمد لله** » ، انه التأثر العميق الذى يترجم عنه اللسان ..

« **وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق** » .

« **وقالوا** » بصيغة الماضى استمرار لتصوير الأمر كأنه قد حدث وتحقق ـ تأكيدا لتحققه . « **الحمد لله** » هتاف يعبر عن العرفان والشكر لله وحده ، فهو المتفضل بكل ما هم فيه من سعادة . « **الذى هدانا لهذا** » أى أرشدنا ووفقنا لما جزاؤه هذا الذى نحن فيه ، فهذا ايجاز بالحذف ، والأصل « الحمد لله الذى هدانا للايمان الذى جزاؤه هذا النعيم » ولكن التعبير الكريم آثر الحذف تصويرا لحالهم . فهم فى بهجتهم بالنعيم وانبهارهم به شغلوا عن تذكر ما كان سببا فيه . كأن الله قد هداهم الى النعيم فحمدوا الله عليه . « **وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله** » اللام فى « **لنهتدى** » لتأكيد النفى . أى أنهم يرجعون هدايتهم الى الله وحده ويؤكدون نفيها عمن سواه . وفى الجملة حذف فى ثلاثة مواضع ، الأول متعلق « **نهتدى** » ، والثانى متعلق « **هدانا** » وسر الحذف هو ظهور المراد به أو لارادة التعميم أى ما كنا لنهتدى لما جزاؤه هذا لولا أن هدانا الله إلى هذا المطلب الأعلى أو المطلب من المطالب الذى هذا من جملتها . والثالث جواب « لولا » ، وحذف لدلالة ما قبله عليه .

« **لقد جاءت رسل ربنا بالحق** » اللام داخلة على جواب قسم مقدر تأكيدا للثقة فى قلوبهم ، وأى ثقة أعظم من أن شاهدوا بأنفسهم وتحقق لهم ما وعدوا به ؟ انه أيضا تعبير عن الفرحة بما هم فيه ، وتصوير لاحساسهم بما نالوه ، واغتباطهم به .

« **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** » .

ونودوا بالبناء للمجهول لأن معرفة المنادى مما لا يتعلق به غرض فى المقام وانما الاهتمام موجه الى المنادى به ، و « **تلكم** » بلام البعد رفعة لشأنها وتنزيل بعد مكانتها منزلة البعد الحسى ، أو للاشعار بانها تلك الجنة التى وعدوها فى الدنيا · « **أورثتموها** » وحقيقة الارث انتقال الملك من سابق بعد موته الى لاحق ، وهو غير متحقق هنا فهو استعارة لمعنى ملكهم لها وتصرفهم فيها تصرفا كاملا كتصرف الوارث فى الموروث ، ولا يخفى ما فيها من تاكيد للمعنى حيث جعلها ميراثا لا ينازعهم أحد فيه · « **بما كنتم تعملون** » أى تفضل الله بها عليكم بواسع رحمته ، جزاء لأعمالكم فى الدنيا ، وفى مجال الدعوة فان فى هذا النداء ما يشد من عزيمة كل متردد كى يدع تردده وينطلق الى العمل الذى يورثه هذا الخير كله ، والذى لا يعجزه ولا يخرج عن طاقته ·

وفى النص على أن الجنة هى جزاء الايمان والعمل الصالح ابراز لهدف الآيات وهو الدعوة للتوحيد والعمل بمقتضاه وترغيب اى ترغيب فيه ·· وكأن القرآن الكريم يقول لمن يدعوهم – بعد أن عرض المشهد وما يوحى به من ألوان النعيم الحسى والروحى – يقول :ان كنتم حقا حريصين على ادراك هذا الفضل فاعملوا ، انه ثمرة لما تقدمونه من الايمان والعمل الصالح ·

تلك هى اللمسة الأخيرة فى هذا المشهد الذى يصور المؤمنين وقد انتهى بهم المطاف الى هذا النعيم المقيم ، وتمضى الآيات لتضيف اليه مشهدا جديدا يتكامل معه ويدعم هدفه فى الترغيب ·

« ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، قالوا نعم ، فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين · الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون » ·

« **ونادى أصحاب الجنة اصحاب النار** » فاصحاب النار هناك على مرأى ومسمع من أصحاب الجنة ، يرى كل منهما الآخر ويسمعه ، أما أصحاب الجنة فهذه فرصتهم التى تتيح لهم أن يسخروا ممن طالما سخروا منهم « **ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون · واذا مروا بهم يتغامزون** » (١) هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فهو القصاص العادل

---

(١) المطففين : ٢٩ ، ٣٠

« **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون** » (١) · هكذا يكون عدل الله الذى يشفى صدور المؤمنين · والتعبير هنا بـ « **أصحاب النار** » كما عبر هناك بـ « **اصحاب الجنة** » للاشارة الى ارتباطهم بها ولزومهم لها ، كما يرتبط المالك بملكه ، وفى هذا تحسير لهم ، وزيادة فى غمهم ·

« **ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، قالوا نعم** » انها السخرية المرة ، فالمؤمنون على ثقة من تحقيق وعيد الله للكافرين كما حقق وعده لهم ، ولكنهم يسألون اظهارا لما هم فيه من نعيم وتحسيرا لأصحاب النار على ما فاتهم · ونلاحظ أن مفعول « وعد » الثانية محذوف ، اسقاطا لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد · ويأتى جواب الكافرين « **نعم** » انه اقرار الذليل الذى لم يعد يملك القدرة على التبجح والعناد ··

« **فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين · الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون** » ·

بعد هذا الحوار المصور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، يستمع الفريقان لصوت يعلن : « **أن لعنة الله على الظالمين** » ، تماما كما اختتم المشهد الأول بقوله تعالى : « **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها** » · انها الحقيقة القاطعة تساق فى موضعها لتؤدى دورها فى حسم الأمور وتقريرها « **لعنة الله على الظالمين** » · فما هم فيه هو جزاء ما قدموا من ظلم ، وأعظم الظلم هو الشرك · « **ان الشرك لظلم عظيم** » (٢) ·

ثم يتبع ذلك بثلاثة أوصاف لهم : فهم « **يصدون عن سبيل الله** » لم يكتفوا بعدم انقيادهم للدعوة بل يصدون غيرهم عنها ، ويحاولون تشويهها ويصفونها بالميل عن الحق ، كأنها معوجة مائلة ، ولا يؤمنون بالبعث واليوم الآخر ·

ولنتأمل التعبير بلفظ « **يصدون** » ، « **عوجا** » وقدرة اللفظين على التخييل والتجسيم · وكذلك ما فى قوله « **وهم بالآخرة هم كافرون** » من تأكيد باسمية الجملة ، وضمير الفصل ، وتقديم الجار والمجرور « **بالآخرة** » · للاهتمام به نظرا لأنهم يعانون ما فيها ، وقد كانوا يكفرون بها ·

---

(١) المطففين : ٣٤ (٢) لقمان : ١٣

« **وبينهما حجاب ، وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم ، لم يدخلوها وهم يطمعون** » ·

انه المشهد الثالث تصوره الآيات ، « **بينهما حجاب** » بين الجنة والنار منطقة عازلة تفصل بينهما ، وفى أعالى المنطقة على أعرافها أى عواليها يوجد فريق من الناس هم أيضا بين هؤلاء وهؤلاء فى أعمالهم وما ترتب عليها من مصير بالنسبة لهم · وهم أيضا بين هؤلاء وهؤلاء فى مشاعرهم النفسية ، فأعمال أصحاب الجنة تقدمت بهم الى حيث استقروا فى الجنة ونعيمها وأعمال أصحاب النار قعدت بهم حيث ألقوا فى جهنم وعذابها ، وأصحاب الجنة قد امتلأت نفوسهم أمنا وأمانا ، وأصحاب النار قد استحكم يأسهم وتقطعت أسباب آمالهم · أما من على الأعراف فقد قصرت بهم أعمالهم عن الوصول الى الجنة ، وتقدمت بهم بحيث جاوزوا النار ، كما أن مشاعرهم بين الرجاء والخوف · ذلك كله يصوره القرآن فى قوله تعالى « **لم يدخلوها وهم يطمعون** » ونلاحظ أن القرآن لم يعبر عن هؤلاء بأنهم أصحاب الأعراف كما عبر عن أصحاب الجنة وأصحاب النار ، لأنها مقر مؤقت سرعان ما يتحولون عنه عندما يشملهم الله بواسع فضله ويأذن لهم بدخول الجنة ، كما نلمس الجمال فى التعبير عن أعالى الحجاب بالأعراف استعارة من عرف الفرس · انها لمسة جمال تثير خيال العربى ·

ثم تتوالى اللمسات لتكمل الصورة وتزيد الملامح النفسية لكل فريق وضوحا وجلاء ، فأهل الأعراف من موقعهم ينظرون الى أصحاب الجنة ، ويرون ما هم فيه مما يغبطونهم عليه ، فأنظارهم معلقة بهم ، تتحرق شوقا لنيل هذا الفضل ينادون أصحاب الجنة « **سلام عليكم** » تحية لهم ودعاء ·

« **واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** » ان أبصارهم معلقة بالجنة وأصحابها يتحامون الالتفات الى النار وأصحابها ، فاذا « **صرفت أبصارهم** » أى صرفا دون ارادة منهم الى أهل النار فزعوا واستعاذوا بالله أن يكون مصيرهم مصير هؤلاء ، وقالوا : « **ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** » · وهذا يوحى بعظم الهول والعذاب الذى يعانيه أصحاب النار ·

وتتوالى اللمسات ···

« **ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون** » بعد تلك الاستعاذة التى انطق بها

المشهد المفزع أصحاب الأعراف ، نراهم ينادون رجالا من أهـل النار تعرفوا عليهم بسيماهم الدالة على سوء حالهم قائلين : ما أغنى عنكم جمعكم من الأتبـاع والأشـياع ؟ وماذا افادكم تطاولكم واستكباركم ؟ والاستفهام هنـا يحمل من التقريع والتوبيـخ ما يستحقه أصحاب النار ٠

« **أهؤلاء الذين اقسمتم لا ينالهم الله برحمة** » أليس هؤلاء هم الذين أكدتم أن رحمة الله لن تجد طريقها اليهم ؟ فانظروا ما هم فيـه اليوم لقد قيـل لهم :

« **ادخلوا الجنة لا خوف عليكم** » بعد ذلك ، فان لكم النعيم الـدائم والسعادة الغامرة التى لا يشوبها حزن ولا يكدرها هم ٠ انه التأنيب الموجع والتبكيت العنيف الذى يضيف الى لهب النار يشوى جلودهم لهبـا آخر يقطر قلوبهم ويذيب نفوسهم حسرات على ما فرطوا فى حق أنفسهم ٠ ويلاحظ التنكير فى ــ خوف ــ وهو واقع فى سياق النفى فيفيد العموم ٠ اشـارة الى نفى أى خوف عنهم زيادة فى الترغيب ٠

« **ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من المـاء أو مما رزقكم الله** » هكذا ينتهى الحـال بأصـحاب النار الى هذا الانكسـار الذليـل ، ويتحطم كل ما كان لديهم من الصـلف والاسـتعلاء ، فاذا بهم يستجدون أهل الجنـة ضارعين أن يمنوا عليهم بشربة ماء ، « **أفيضـوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله** » لقد أصبحت شربة الماء منتهى رجائهم ٠ يالله مـن بـلاء ذلك الذى أذل هـذه النفـوس المتطـاولة وأرغم الأنوف الشامخة ٠٠

ولكن أهل الجنة من مكانهم الرفيـع ــ كما توحى كلمة « **أفيضوا** » يردون قائلين « **ان الله حرمهما على الكافرين ٠ الذين اتخـذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا** » لا سبيل لكم الى ذلك ، فالله جل جلاله قضى بتحريمهما على الكافرين قضاء مبرما ، مؤكدين كلامهم بـ « ان » ، وباسناد التحريم الى الله الذى لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ٠ ثم يعقبون عـلى ذلك بتذكيرهم بجرائمهم التى جرت عليهم كل هـذا الشر ، انهم كـافرون اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وشغلتهم زخارف الحيـاة الدنيـا وزينتها فنسوا ما ينتظرهم من بعث وحساب ٠

وتأتى كلمة الفصل من رب العزة « **فاليوم ننساهم كما نسوا لقـاء يومهم هـــذا** » ٠ انه القصاص العـادل ، لقد نسوا لقـــاء الله فاستحقوا الا يلتفت الله الى اســـتجدائهم وضراعتهم ٠ وواضــح أن « **ننســـاهم** »

مستعارة لمعنى الاهمال والترك ، أى نفعل بهم ما يفعل بالمنسى الذى لا يلتفت اليه · والاستعارة ابلغ فى اداء المعنى وادل على تحقيرهم واذلالهم ·

« وما كانوا باياتنا يجحدون » حيثية أخرى لاستحقاقهم ما هم فيه وأى جرم اشنع من أن يعرف الانسان الحق ثم ينكره ؟

وبعد : فهذا تصوير القرآن للمعانى · يعرضها ـ كما قلنا فى أول النص فى مشاهد زاخرة بالحركة والحوار الموحى بما فى نفوس الشخصيات من انفعالات ومشاعر ، كى يصل بهذا الأسلوب المؤثر الى النفس البشرية ، ويزيل عن بصيرتها ما يحجب نور الحقيقة عنها ، ويدفعها دفعا بهذا التشويق والترغيب الذى يجعلها بتصويره للمعانى تكاد تستروح نسماته ، وتذوق حلاوته ، وتتملى جماله ، وتمرح فى نعيمه · انه القرآن كلام الله مبدع النفوس والعليم بما يقودها الى الحق ·



● اسلوب الجدل :

سبق ان أوضحنا أن النفس البشرية متعددة الجوانب من وجدان وعقل وارادة ، وأن التعامل معها لابد أن يتجه الى كل منافذ التأثير فيها لنصل من خلالها الى تغيير ما بها ، ليحل مكانه الايمان الراسخ بالدعوة ومبادئها ·

والقرآن الكريم فى دعوته يلاحظ الطبيعة البشرية ولا يترك بابا يمكن أن ينفذ منه ليحقق هدفه · ومن هنا نراه قد اتجه الى العقل والمنطق ، يفند الشبهة ويسوق الدليل ، ويقطع على المنكرين والمعاندين طريق الاعتذار العقيم ·

وقضية الوحدانية الخالصة المبرأة من كل شوائب الشرك كما دعا اليه الاسلام ، قد واجهت انكارا شديدا من جميع أصحاب الديانات فى المجتمع العربى آنذاك · يستوى فى ذلك المشركون وأهل الكتاب من النصارى واليهود الذين اشتروا بايات الله ثمنا قليلا ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، وقد جادل القرآن الكريم كل هؤلاء فلنعرض نماذج من الجدل القرآنى للمعارضين على اختلاف نزعاتهم ·

★★★

● ابطـال عبـادة الأصـنام :

قـال الله تعـالى :

« ولقد اتينا ابراهيم رشده من قبـل وكنا به عالمين · اذ قال لأبيـه وقومه ما هذه التماثيل التى انتم لها عاكفون · قالوا وجدنا آباءنا لهـا عابدين · قال لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضـلال مبين · قالوا اجئتنا بالحق أم انت من اللاعبين · قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين · وتالله لأكيـدن اصنامكم بعد أن تولوا مدبرين · فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعـلهم اليه يرجعون · قالوا من فعـل هـذا بآلهتنـا يا ابراهيم · قـال بل فعـله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كـانوا قالوا فاتـوا به على اعين الناس لعـلهم يشهدون · قالوا أأنت فعـلت هذا ينطقون · فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون · ثم نكسـوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون · قال افتعبـدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم · اف لكم ولمـا تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون · قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين · قلنا يا نار كونى بـردا وسلاما على ابراهيم · وارادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين · ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيهـا للعالمين · ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صـالحين » (١) ·

هذه آيات كريمة من سورة الأنبيـاء ، وهى من السور المكية التى تركز ـ كما سبق ـ على اهداف الدعوة الاسلامية الأساسية وفى طليعتهـا قضية التوحيد · ولهذه الآيات وضع خاص بالنسبة للمجتمع المكى انذاك ، فقد كانوا يعتزون بأنهم ابناء ابراهيم عليه السلام ـ ويزعمون أنهم عـلى دين أبيهم وأنهم ورثة شريعة وحمـاتهـا · فعنـدما تقص الآيات عليهم ما كان منه تجـاه الأصـنام ، وكيف تصـدى لقومه مجادلا لهم سـاخرا منهم ، بل متحديا لهم ، محطما لمـا يزعمونه آلهة ، اقـول : عندما تقص الآيـات عليهم ذلك فكأنها تقـول لمشركى مكة : ها هو ذا موقف أبيـكم ابراهيم عليه السلام الذى تعتزون بنسبه وتظنون أنكم على دينـه تجـاه الأصنام التى تعبدونها ، وها هى تلك حجته على قومه التى لم يجـدوا لها

---

(١) الانبياء : ٥١ ـ ٧٢

دفعا ، فلجأوا الى بطشهم وطغيانهم ، شأن كل ظالم فأى عذر لكم بعد أن تبين لكم الحق ؟ وكيف تزعمون بعد اليوم أنكم على دين أبيكم ابراهيم وقد رأيتم ما فعله بالأصنام ؟

والآيات تسوق الدليل على وحدانية الله فى أسلوب تصويرى يعرض علينا مشاهد متتابعة تعتمد على حكاية الحوار بين ابراهيم وقومه ، وهو حوار ينتهى بأن الاشراك بالله الغاء للمنطق واهدار للعقل وجرى وراء تقليد أعمى يطمس البصائر ويحجر التفكير ٠

« **ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين** » ٠

« **ولقد آتينا ابراهيم رشده** » هكذا بالتأكيد المستفاد من اللام و « قد » والموحى بأهمية الأمر ٠ والرشد هو الاهتداء لوجوه الصلاح ، واضافة الرشد اليه يعنى أنه رشد خاص يليق به وبأمثاله من الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ٠ وفائدة ذلك تعظيم ما أوتيه ابراهيم عليه السلام من الهداية الى الحق ، وأن دعوته الى التوحيد ــ وهى المعنية بالرشد ــ هى أمر له شأن ، وهى عطاء الله لأنبيائه وهديه لهم ٠ أما قوله تعالى « **من قبل** » فالمراد به أن ذلك كان قبل موسى وهارون عليهما السلام وقد ذكرت قصتهما فى الآيات السابقة على قصة ابراهيم ٠ « **وكنا به عالمين** » اننا لم نصطفه لهذا الأمر الجليل الا لعلمنا انه أهل له وأنه جدير به ٠ فالله أعلم حيث يجعل رسالته فهو تعبير يوحى بكل ما يخطر على الذهن من صفات كريمة ترشح لهذا المنصب الجليل ٠

« **اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى انتم لها عاكفون** » ان أباه هو أول من يخاصمه فى القضية ، فالحق أعز على الداعية من جميع الأواصر التى تربطه بالناس ، ولو كانت رابطة الأبوة والدم « **ما هذه التماثيل** » لم يقل ــ الآلهة ــ بل سماها باسمها : تماثيل ، ليعلن من أول لحظة أنه لا يقرهم على ما يزعمونه من أنها الهة ، ثم انه يعلم أنها حجارة أو أخشاب اتخذوها الهة ومع ذلك يتجاهل ويسأل عنها ــ بما ــ التى يطلب بها بيان الحقيقة وشرح الاسم وذلك للقصد الى تحقيرها وتصغير شأنها والتعريض والاستخفاف بها ، مع علمه بتعظيمهم واجلالهم لها ٠ فأى ثبات هذا الذى يجعله يواجههم وحده بهذه القوة التى لا تعرف المداراة أو الملاينة ؟ انه خليل الله ، وصدق الله العظيم : « **ان ابراهيم كان امة** » (١) والمراد بالعكوف العبادة وحقيقته اللزوم والاستمرار على

---

(١) النحل : ١٢٠

الشيء لغرض من الأغراض . و « عاكفون » أقوى فى تصوير حالهم لأنها تجعلهم منكبين أبدا عليها ، ويلاحظ أنه لم يذكر مفعولا ـ لعاكفين ـ واستعمله استعمال اللازم كأنه قال : تفعلون العكوف . ثم ذكر أن العكوف لها أى لأجلها ، ليشير الى معنى العبادة المراد من العكوف . وهكذا استخدم العكوف بدل العبادة لما فيه من تأكيد للمعنى ثم أضاف ما يعين المراد منه وهو العبادة .

« قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين » لم يجدوا حجة يبررون بها مسلكهم وعبادتهم لهذه الأصنام ، لأن مآل سؤاله عليه السلام هو الاستفسار عن سبب عبادتهم لها . وهكذا بضربة واحدة جعلهم وجها لوجه أمام ما فى موقفهم من تهافت وأنهم ليسوا على شيء ، وأن عقيدتهم لا تستند الى دليل ولا تقوم على برهان ، فهم يعبدونها تقليدا لآبائهم فحسب . وهل يكفى التقليد للآباء دليلا لعقيدة يقف الانسان حياته عليها ، ويربط مصيره بها ، ويخاصم من أجلها ؟ وهنا تكون الفرصة المواتية ليواصل ابراهيم عليه السلام هجومه ، ويجابههم بالحق المؤيد بالبرهان بعد أن أعجزهم عن اقامة أى برهان .

« قال لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضلال مبين » انها المجابهة بالحق التى لا تعرف المواربة أو المداراة ، انهم وآباءهم فى ضلال واضح لكل من به مسكة من عقل أو اثارة من فكر . كيف لا ، وهم عاجزون عن ابداء أى دليل على استحقاق هذه التماثيل للعبادة ، فلم يجدوا ما يقولونه سوى انهم يقلدون آباءهم . وهل عبادة آبائهم لهذه الأصنام تعطيها قيمة ذاتية تؤهلها لأن تكون أربابا تعبد ؟ ان المستحق للعبادة والتأليه لابد أن يكون له فى ذاته من الصفات ما يوجب ألوهيته ، والتقليد وحده لا يثبت للأصنام شيئا .

ونلاحظ ما فى النظم من الخصائص المناسبة للمقام ، وأول ذلك : التأكيد بالقسم الذى دخلت اللام على جوابه ، ثم « قد » ، وتأكيد الضمير فى « كنتم » بـ « أنتم » وان كان تأكيدا لا يصلح الكلام بدونه « لأن العطف على ضمير هو فى حكم بعض الفعل ممتنع » (١) ثم تنكير « ضلال » للمبالغة فى أنه ضلال عجيب لا يقادر قدره ، ثم وصف الضلال بأنه مبين واضح لا يخفى على أحد ثم اختيار صيغة ـ مبين ـ اسم فاعل بدل ـ بين ـ كأنه يكشف عن نفسه ويظهر انحرافه لمن ينظره . ثم اختيار حرف

---

(١) انظر الكشاف ، جـ ٢ ص ٥٧٥

« فى » ليفيد انهم منغمسون فى الضلال وأنه يحيطهم من كل جانب ، انه النظم القـرآنى المعجـز ٠

« **قالوا اجئتنا بالحـق أم أنت مـن اللاعبين** » ان اجابتهم تكشف عما فى نفوسهم من شك فيما هم عليـه ، وعـدم ثقتهم فيه ، فهم مزعزعو العقيدة لم يردوا على تاكيده عليه السلام بانهم فى ضـلال بتاكيد يناسبه بانهم على الهدى ، بل تساءلوا أهو جـاد فيمـا يقول أم هازل ؟ وان كان تعبيرهم بالجملة الاسمية « **أم انت من اللاعبين** » الـدالة على الثبـات ايذانا برجحان هـذا الاحتمال لديهم وانه لا يعنى الحق بل هو مداعب لهم ٠

« **قال بـل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين** » أضرب عليه السلام عن كونه لاعبـا ٠ واتجه الى اقـامة الدليـل على دعـواه ، ومحصله ان المستحق للربوبية والعبادة هو خالق السماوات والأرض وما فيهن ، وان ما لا يكون بهذه الصفة فهو بمعزل عن هذا المقام ٠ وانتم تقرون بان خالق السماوات والأرض هو الله ثم تعبدون غيره ٠ فأى تناقض هذا الذى انتم عليه ؟ « **وانا على ذلكم من الشـاهدين** » اى العـالمين به على سبيل الحقيقة المؤيدة بالدليل ٠ فلست مثلكم لا تملكون حجة على عقيدتكم ٠ ونلاحظ ما فى النظم من اختيار لفظ الرب وما يوحى به من تفضل ورعاية تستوجب العبادة والطاعة ، ثم اثبات انه خالق السماوات والأرض وما فيها للاشارة الى أنهم وما يعبدون جزء من خلقه ، فكيف يعبد المخلوق ويترك الخالق ٠ تقريعا لهم واظهارا لتضليلهم والزاما لهم بالحجة ٠ كما أن فى التعبير بالشهادة ما يناسب مقام تثبيت دعواه لديهم فهو يعـلن ما يثق فيه ثقة من شاهد الشىء وتحقق منه وشهد عليه لاثبـات الدعوى ، وليس مثلهم عاريا عن البينة والدليل ٠

« **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** » تعبير عمـا ينوى فعله بهـذه الأصـنام ، ولعلهم لم يحمـلوا تهـديده هـذا محمل الجد ، فلم يردوا عليه او يحتاطوا فى منعه ٠ أو لعله قال ذلك سرا ، أو لم يسمعه الا شخص واحد ، كما تفيد بعض الروايات ٠

اقسم عليه السلام ليكيدن أصـنامهم واسـتعمل التاء فى القسم ٠ واختيار التاء يفيد معنى زائدا على ما يعطيـه القسم بالبـاء ، ذلك هو

التعجب ، كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يديه وتأتيه ، لأن ذلك الأمر كان ميئوسا منه لصعوبته وتعذره(١) واستعمل الكيد فى كسر الأصنام ، لأن فيه ايذانا بصعوبته وتوقفه على انتهاز الفرصة واستعمال الحيلة والتدبير فى ذلك ، فقد كانوا ملازمين للأوثان ومن العسير توفر فرصة لتنفيذ ما اعتزمه ، كما أن التعبير بالكيد دون الكسر قد ترك ما اعتزمه سرا غير محدد ، حتى لا يحتاطوا ولا يمكنوه من تنفيذ ما اعتزمه ·

« **فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون** » هنا فاصل فى سياق الأحداث يفهم من المقام ، لأنه لم يحطمها فى حضورهم ، بل انهم تركوه وغادروا مكان الأصنام ، وبقى وحده فحطمها · وهذا ايجاز بحذف مالا يتطلبه المعنى · وهو من البلاغة بمكان ·

وتركه عليه السلام للصنم الكبير هو جزء من تدبيره المقصود ، فهو يعلم أنه لن يذهب بفعلته ، بل انهم لابد عائدون ، ولابد أن يكون له موقف معهم عندها ، فترك الكبير على صورته تلك ليكون حاله نفسه دليلا على جهلهم وسخف تفكيرهم ، فان الشأن فيمن يعبد ويؤله أن يرجع اليه فى حل كل مشكل ، فاذا رجعوا تبين لهم انه عاجز لا ينفع ولا يضر وأنهم فى عبادته على جهل عظيم · والقرآن الكريم بعرضه للأصنام مكسرة عاجزة على هذه الصورة المهينة انما يلمس وجدان مشركى العرب الذين يعظمون الأصنام ، ويهزهم هزا عنيفا ليثوبوا الى رشدهم ، ويعملوا عقولهم ، ويتخلصوا من ربقة التقليد التى جعلت قوم ابراهيم سخرية الساخرين ، وفكاهة المتفكهين ·

« **قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين** » وهنا أيضا أحداث مطوية سكت عنها القرآن لعدم تأثيرها فى المعنى ، ولفهمها من السياق ، وليترك للخيال فرصة كى يعمل ويملأ الفجوات فى سياق الأحداث · أى أن ابراهيم بعد أن حطم الأصنام انصرف من المكان وعاد القوم فأبصروا ما حل بآلهتهم فقالوا ـ وقد هالهم الخطب منكرين لما حدث ـ « **من فعل هذا بآلهتنا** » ؟ على سبيل الاستفهام الانكارى اشارة الى شناعة هذا العمل وتوعدا لمن فعله · ويلاحظ أنهم قالوا « **بآلهتنا** » ، ولم يشيروا اليها

---

(١) انظر الكشاف · جـ ٢ ص ٥٧٦

بهؤلاء مثلا ، وهى أمام ابصارهم مبالغة فى التشنيع وتعظيما للجرم لأنه وقع على آلهة ، وهى حقيقة بالاعظام والتبجيل فالجرأة عليها أشنع ٠

« **انه لمن الظالمين** » استئناف مؤكد لمعنى الانكار السابق وهـذا سر الفصل فيه ٠ ويلاحظ ما فى صـياغة الجمـلة من التأكيـدات المعبرة عن اعتقادهم الراسخ فى ظلم من تجرأ على الهتهم بهـذا العمل الشنيع ٠

عند ذلك تذكر الذين سـمعوا ابراهيم عليه السـلام يتوعد آلهتهم فقالوا اجابة على هـذا التساؤل :

« **قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم** » ٠ لعل ابراهيم عليه السلام كان شابا صغير السن فيكون قولهم « فتى » اطلاقا حقيقيا ٠ وان كانت بعض الروايات توحى بأنه كان قد بعث ، وعلى ذلك فيكون قولهم « **فتى** » استصـغارا منهم لشأنه وتحقيرا له ، كما يبدو هـذا أيضـا فى قولهم « **يقال له ابراهيم** » عامدين الى بيان أنه شخص مجهول لا يؤبه به ٠

« **قالوا فأتوا به على أعين النـاس لعلهم يشـهدون** » ٠ أرادوا أن يشاهد الناس محاكمته وما سينزل به من عقاب تشهيرا به وزجرا لغيره ، ولكنهم فى الواقع كانوا يحققون بعملهم هـذا أعز ما يتمناه ابراهيم وهو أن يجتمع الناس كلهم ليبين لهم بالبرهان القـاطع والتجـربة العمـلية المشاهدة ما هم عليه من جهل فى عبادتهم لهـذه الأصنام التى لا تدفع عن نفسها ضرا ٠ فكيف يطلب منها أن تدفعه عنهم ؟

ويلاحظ أن التعبير القرآنى يصور مدى حرصهم على اجتماع الناس ورؤيتهم لابراهيم ليشفوا صدورهم منه ، فيقول « **على أعين الناس** » فهى كناية والمراد بها : فأتوا به واجعلوه بحيث يشاهده الناس ويرونه ٠ ولكن معنى الاسـتعلاء المفهوم من « على » يصـور المعنى أى « يثبت اتيانه فى الأعين ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه »(١) وهو تصوير يوحى بما فى نفوسهم من حنق وغيظ يبدو فيما يقولون ٠ ثم نفذوا ما قالوا

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥٧٧

« **فأتوا به** » وجمعوا الناس وسألوه أمامهم ، والقرآن كعادته سكت عن ذلك لفهمه من السياق ، وذكره لا يضيف جديدا يتطلبه المقام ·

« **قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم** » ·

« **أأنت فعلت هذا** » بتقديم « **أنت** » على الفعل لأن المقرر به والمطلوب هو بيان الفاعل أما الفعل فهو ماثل أمامهم متحقق لا يسئل عنه · فالهمزة للتقرير بالفاعل مع تضمنها التوبيخ ، ولذلك قدم الاسم · ثم أية حماقة تلك أن يطلقوا على هذه التماثيل التى صارت جذاذا انها ــ الهتهم ــ ولكنه التحجر الفكرى الذى أصابهم به تقليدهم الأعمى ·

« **قال بل فعله كبيرهم هــذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون** » انها ذروة المواجهة ، واللحظة الحاسمة التى يسدد فيها ابراهيم ضربته القاتلة اليهم فالأصنام جذاذ ، والفأس معلقة برقبة كبيرهم شاهدا على عجزه ، والساحة تموج بملأ من الناس ما كان ابراهيم أن يجمعه ليبلغه الدعوة مهما بذل والنفوس متطلعة ، والعيون شاخصة والآذان مرهفــة · فليتقــدم ابراهيم اذن ليجابههم بما يبهتهم ويزلزل كيانهم ويعيد اليهم صوابهم ، وها هو ذا يقول « **بل فعله كبيــرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون** » انه هجــوم مباشر على الهدف · فليست القضية قضية من الفاعل ؟ ولكنها عند ابراهيم الدرس الذى يمليه الموقف ويجب أن يسمعه الجميع ·

جاء فى الكشاف « هذا من معاريض الكلام ، ولطائف هـــذا النــوع لا يتغلغل فيها الا أذهان الراضة(١) من علماء المعانى ، والقول فيه أن قول ابراهيم صلوات الله عليه لم يكن القصد منه أن ينسب الفعل الصادر منه الى الصنم وانما قصده تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضــه من الزامهم الحجــة وتبكيتهم · وهــذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق ، وأنت شهير بحسن الخط : أأنت كتبت هــذا ؟ وصــاحبك أمى لا يحسن الخط ولا يقـــدر الا على خرمشــة فاسدة فقلت له : بل كتبته أنت · كان قصدك بهـذا الجواب تقريره لك ومع الاستهزاء به ، لا نفيه عنك واثباته للأمى أو المخرمش ، لأن اثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به واثبــات للقادر » ثم يذكـر توجيها آخر فيقول : « ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها

---

(١) يقال : راض المهر ذلله وطــوعه · فهو رائض والجمع راضـــة ورواض · والمراد المتمرسون بالأساليب المتمكنون من فنونها · انظر المنجد ص ٢٨٧

محطمة مرتبة ، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له ، فأسند الفعل اليه لأنه هو الذى تسبب فى استهانته بها ، وحطمه لها ٠ والفعل كما يسند الى مباشره يسند الى الحامل عليه » (١) يعنى المجاز العقلى وذكر آراء أخرى كما فعل غيره ، وكلها تدور حول تلمس وجوه تنفى الكذب عن سيدنا ابراهيم عليه السلام باعتباره معصوما ٠

والذى نرتضيه هو ما ذهب اليه صاحب الكشاف من أنه أسلوب تعريضى على النحو الذى بينه ، وأن ما افترضه العلماء من دلالة الكلام على الكذب انما هو افتراض وهمى ، وأن كل ما دار حوله من آراء ومناقشات لا تقوم على أساس ٠ فاللغة العربية ـ وذروتها فى البلاغة القرآن الكريم ـ زاخرة بالمعانى المجازية بما لا يدع مجالا لتكلف مثل هذه التخريجات المفتعلة ٠

فابراهيم عليه السلام استطاع بأسلوبه هذا أن يجبه مجادليه ويحملهم حملا على اعادة النظر فى القضية ومراجعة عقولهم نتيجة للتناقض الذى وجدوا أنفسهم فيه ، وهم يغضبون من أجل أحجار محطمة لم تستطع دفعا لمن حطمها بل ولا أن تدل عليه ٠ ولقد أخبر القرآن عن ذلك حيث يقول :

« **فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون** » رجعوا الى أنفسهم انه التصوير القرآنى ، كأن نفوسهم كانت هناك بعيدة عنهم ، لا يستخدمون ما فيها من ادراك ومواهب ، بل تركوا نفوسهم ومداركها وساروا خلف ما ورثوه من خرافات وأباطيل انحدرت بهم الى هذا الدرك من المهانة ، حيث يعبدون حجارة يستطيع أحدهم أن يحطمها فلا تبدى حراكا ٠ وعندما جبههم ابراهيم بهذه الحقيقة التى كانت غائبة عنهم ، كانت كالصدمة أيقظتهم فرجعوا الى أنفسهم وعقولهم يحتكمون اليها ٠ وعندما رأوا الحقيقة ماثلة للعيان لا تحتاج الى بحث أو تنقيب ، فحكموا على أنفسهم « **انكم انتم الظالمون** » بصيغة الواثق المتأكد ٠ أنتم الظالمون وحدكم لا ابراهيم الذى نسبتم اليه زورا أنه ظالم ٠ والتوكيد فى الجملة واضح لا يحتاج الى بيان ٠

وكان المأمول أن تنتهى المعركة بهذا النصر الذى حققه ابراهيم عليه السلام ، وأن يحمدوا هذا الفضل ، اذ أرشدهم الى الحق ، وكشف عن أبصارهم الغشاوة ٠ ولكن غلبت عليهم شقوتهم ٠

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٥٧٧

« **ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** » لقد كان رجوعهم الى انفسهم ومضة لم تلبث ان تلاشت وسط الظلمات . فبعد ان استقاموا برجوعهم الى الحق ، انتكسوا بعودتهم الى الباطل . وواضح ما فى التعبير من استعارة تبعية بنيت على تشبيه عودتهم الى الباطل بعد ان عرفوا الحق **بالنكس وهو صيرورة اسفل الشىء اعلاه** . وكم توحى صورتهم منكسين على رؤوسهم بالنفور والاشمئزاز والسخرية . وتلك وظيفة التصوير وتأثيره فى المشاعر ولقدنكسوا فعلا فى كل شىء ، وهل هناك اشد انتكاسا من ان تنقلب حجتهم حجة عليهم . لقد طاش صوابهم من فرط ما بهتهم به ابراهيم عليه السلام فقالوا : « **لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** » وهى نفس حجة ابراهيم عليهم وهل بقى شىء لدى ابراهيم عليه السلام يقوله لهم ، وينكرهم به بعد ان وصلوا الى هذا الحد من المكابرة والعناد والتحجر الذى يملأ القلوب غيظا وغضبا ؟

« **قال افتعبدون من دون الله مالا ينفعكم ولا يضركم ، اف لكم ولما تعبدون من دون الله ، افلا تعقلون** » .

انها نفثة المغيظ المحنق « **أف لكم ولما تعبدون من دون الله** » ابعد ان علمتم حقيقتهم وانهم لا ينفعون ولا يضرون تصرون على عبادتهم وتتركون مستحق العبادة ربكم رب السماوات والأرض ، أفلا تعقلون فتدركوا قبح صنعكم ؟

« **قالوا حرقوه وانصروا الهتكم ان كنتم فاعلين** » بعد ان القمهم ابراهيم عليه السلام حجرا ، وافحمهم بحججه المسكتة ، لم يبق امامهم الا ان يلجأوا الى العدوان والبطش ، شأن كل ظالم غاشم ، وتلك ذروة الهزيمة فى مقارعة الحجة بالحجة ، تركتهم ونفوسهم تتلظى بالمرارة والحقد الذى تجلى فى **اختيارهم ابشع الوان العقاب** وهو النار علها تشفى صدورهم وتنفس عنها بعض ما تجد . « **قالوا حرقوه وانصروا الهتكم** » وأى آلهة هذه التى ينصرها اتباعها وهى مطروحة هناك جذاذا تطؤها الأقدام ؟ ولكنه الانتكاس على الرؤوس الذى يقلب كل المقاييس . واختيار المضعف « **حرقوه** » للمبالغة فى الاحراق ينبىء عما فى نفوسهم من غيظ وحنق .

ويأبى الله تعالى أن يبلغ **هؤلاء** الظلمة ما يريدون ، فيرد كيدهم فى نحورهم ، وينقلب تدبيرهم حجة جديدة عليهم ، تسلبهم كل شىء وتتركهم كآلهتهم جامدين عاجزين .

« **قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم • وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** » هكذا يصور القرآن نفاذ قدرة الله فى مخلوقاته ، واستجابتها لأمره ـ كما مر فى قوله تعالى : « **ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** »(١) فهو تعبير عن نفاذ أمر الله وتحقق ما يريد • ويلاحظ ما فى التعبير الكريم من مبالغة حيث جعل النار المسخرة لقدرته مأمورة مطيعة • واقامة « كونى ذات برد » مقام « ابردى » وحذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه كأنها هى البرد نفسه كما يلاحظ أيضا أنه لم يأمرها بأن تكون بردا فقط . والا لهلك منه ابراهيم ، وانما عطف عليه « **سلاما** » أى بردا غير ضار • وفى قوله تعالى « **سلاما** » ما فى قوله « **بردا** » من مبالغة كأنها فى ذاتها برد وسلام وتنكير « **كيدا** » للتعظيم ، وهو يوحى بما فى نفوسهم من غيظ وحنق •

وهكذا انقلب عليهم تدبيرهم « **وأرادوا به كيدا** » أى اضرارا فجعلناهم أخسر من كل خاسر ـ كما تدل على ذلك صيغة التفضيل فى « **الأخسرين** » وكذلك بتعريفها بلام الجنس ـ حيث عاد سعيهم فى القضاء عليه والاجهاز على دعوته برهانا قاطعا على أنه عليه السلام على الحق ، مؤيد من الاله الحق الذى لا يعجزه شىء ، يقول للشىء كن فيكون •

وتمضى الآيات مبينة ما تفضل الله به على هذا النبى الذى وقف وحيدا أمام أمة كاملة لا يلين ولا يتزعزع واثقا من دعوته معتمدا على ربه •

« **ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين** » والمراد بها الشام ، وهى اشارة ربانية الى ما اختصت به هذه الأرض من فضل الله . فهى مصدر البركة تفيض منها على العالمين ، فهى مهبط الرسالات ، منها ينبعث نور السماء وعليها تنزل شرائع الله التى هى مناط الخير فى الدنيا والآخرة •

« **ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين • وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين** » •

لقد استجاب الله لابراهيم فوهبه اسحاق ثم زاده يعقوب نافلة وزيادة على ما سأل تكرما منه وفضلا ، ووفقهم جميعا ابراهيم ولوطا واسحاق ويعقوب الى الصلاح فى الدين والدنيا • وجعلهم أئمة ، أى يقتدى

---

(١) فصلت : ١١

بسلوكهم الملتزم بأمر الله . وهـذا يؤكد ما يجب أن يكون عليه الداعية من التزام بما يدعو اليه وأنه يكون قدوة بسلوكه وسيرته . وأوحى الله اليهم فعل الخيرات ، أى أن يفعلوا كل ما هو خير . ثم يخص بعض هـذه الخيرات من باب ذكر الخاص بعد العام تنبيها على فضلها ورفعة شأنها « **واقام الصلاة وايتاء الزكاة** » ثم تختتم الآيات بتأكيد معنى التوحيد الخـالص « **وكانوا لنا عابدين** » بتقـديم الجار والمجرور ليفيد قصر العبـادة عليه سبحانه لا تتعداه لغيره كائنا من كان بشرا أو صنما أو هوى أو غير ذلك مما يعبده المشركون . وهكذا يؤكد عجـز الآيات ما دعا اليه صـدرها . ويبقى النص الكريم حجة قائمة ما بقيت السماوات والأرض ، تهدى كل ضال ، وتوقظ كل غافل ، وتفحم كل معـانـد .

واذا كان لنا ما نضيفه الى ما سبق فهو الاشـارة الى ما فى النص الكريم من عوامل التأثير ، حيث اختار أسلوب القصة مستغلا ما تمتاز به من التشويق والإستحواذ على المشاعر ، ثم أسلوب الحوار الذى يقارع الحجة بالحجة ويترك الفرصة للمخـاطبين أن يوازنوا ويعمـلوا عقولهم ليصلوا الى الحق بأنفسهم الى جانب قدرته على تصوير المشاهد تصـويرا حيا نابضا بالحركة ، ثم ما فى الآيات من فواصل مطمئنة فى مواضعها ، تدعم المعـانى ، وتشـد الانتبـاه ، وتوقظ الحس ، كى يكون المخاطب مع النص بفكره ومشاعره وكل حاسة فيه . فأين ذلك الأسـلوب الحـكيم من سخافات أرباب المنطق والكلام الذين لا يصدر عنهم الا أحجيات لا يدركها الا الخاصة ، تبعث الملل ، ولا تحسم الحق .

★★★

● **مجادلة أهل الكتاب :**

قال تعالى : « **لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسـيح ابن مريم ، وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام ، انظـر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون .. قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا ، والله هو السميع العليم . قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل واضلوا كثيرا وضـلوا عن سـواء السبيل** »(١) .

---

(١) المائدة : ٧٢ ـ ٧٧ .

التوحيد الخالص هو دين الله ودعوته للناس التى جاء بها كل رسول ولكن هـذا التوحيد الخالص ادخلت عليه التحريفات نتيجة لدخول كثير من الوثنيين فى النصرانيـة ، فقد أولوا فيها حتى انتهى بهم الأمر الى أن اعتقدوا بالتثليث · ويعنى أن أصـول العـالم ثلاثة هى : الأب ، والابن وروح القدس · ثم اختلفوا فى بيان هـذه الأصول الثلاثة الى فرق عـدة أشهرها تلك التى تشير اليها الآيات الكريمة والتى تدعى أن الله هو المسيح ابن مريم وهم اليعقوبيون ، فقـد قالوا : ان اقنوم العلم ـ يعنون الكلمـة قد اتحد بعيسى ، فالمسيح طبيعة واحدة امتزج فيها عنصر اللاهوت بعنصر الناسوت ، فالعنصر الالهى والعنصر الانسانى قد اتحدا اتحادا كليا فى عيسى ، فانت ترى الاله والانسـان فى وقت واحـد · والعجيب أن تاريخ المسيحية يسجل أن هـذه الخلافات كانت مسـتعرة بين الفرق مما كان يستدعى عقد مؤتمرات لاهوتية لتفصـل فيها · وكان العقيـدة موضـوع سياسى يناقش ثم يؤخذ فيه برأى الأغلبيـة أو بما تمليه ارادة الحـاكم المتسلط · ومن أهم المؤتمرات ، التى تسجل هـذا التطـور فى العقيـدة المسيحية ، مجمع نيقيا (١) عام ٣٢٥ ميلادية الذى انتهى بالقول بألوهيـة المسيح ، ومجمع القسطنطينية الأول عام ٣٨١ ميلادية الذى قرر الوهية روح القدس · وبذلك أصبحت العقيدة المسيحية تقول بثلاثة آلهة ، فالأب اله ، والابن اله ، وروح القدس اله وهـذا ما حكم الاسلام بكفر القائلين به (٢) ·

وردا على كل هـذا الخـليط العجيب من التحريفـات تأتى الآيات الكـريمة لتجلـو وجه الحق ، وتجادل هـؤلاء وتدحض مزاعمهم بأدلتهـا المفحمة ، وبلاغتها المعجـزة ··

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم » حكم قاطع على أصحاب هـذا القول بالكفر ، مؤكدا بالقسم الذى دخلت اللام على جوابه وبـ « قد » · والتعبير باسم الموصول كى ينص فى صلته على موجب هـذا

---

(١) نيقيا : مدينة فى الأناضول عقد فيها مجمعان مسكونيان الاول سنة ٣٢٥ م والثانى سنة ٧٨٧ م واسمها الآن : ازنيق ·

انظر المنجد ص ٥٤٥ · قسم أعلام الشرق والغرب ·

(٢) انظر فى هذا محاضرات فى النصرانية لفضيلة الشيخ محمـد ابو زهرة من ص ١٢٢ ـ ١٤٠ والفلسفة الاسلامية وصلاتها بالفلسفة اليونانية للدكتـور محمـد السيد نعيم والدكتور عوض الله جاد حجازى ص ١٢٠ ـ ١٢٣ وفى ظلال القرآن لسيد قطب ص ٨٦٢ وما بعدها ج ١ ·

الحكم عليهم • والمقام يقتضى هذا التأكيد لحسم الأمر ، ورفع كل التباس ، واغلاق الباب أمام كل تأويل •

« **وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم** » الجملة حال من الضمير فى ـ قالوا ـ تسجل عليهم انهم فى قولهم هذا مخالفون لما دعاهم اليه المسيح عليه السلام ، وانه تحريف منهم ، وان المسيحية كغيرها من الأديان قائمةعلى التوحيد الخالص •

ويلاحظ ما فى التعبير القرانى من خصائص : فقد ناداهم ببنى اسرائيل تذكيرا لهم بصلتهم بنبى الله يعقوب عليه السلام التى تستوجب الانقياد والطاعة أداء لحق هذه الصلة التى يعتزون بها • ثم يصف الله تعالى بأنه « **ربى وربكم** » وأنتم مربوبون له والربوبية تقتضى العبادة والخضوع •

« **انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار** » لم يكتف المسيح عليه السلام ببيان العقيدة الصحيحة ، بل أتبع البيان بالترهيب وبيان مصير من لا يستجيب لدعوة التوحيد • ويأتى النظم الكريم ليسوق القضية فى صورة قانون عام لا استثناء فيه ، « **من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة** » • ثم يضيف الى الحرمان من النعيم الابتلاء بالعذاب « **ومأواه النار** » • ولنتأمل التعبير بالظاهر بدل الضمير فى قوله تعالى « **من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة** » لتربية المهابة وتهويل الأمر حثا لهم على الامتثال والطاعة • ونلاحظ ماتضمنته الجملة من تأكيدات ظاهرة ، وكذلك توالى العقوبات وتعددها كأنها ضربات متلاحقة لا تتركهم حتى تقضى على عنادهم •

« **وما للظالمين من أنصار** » هذا تذييل مقرر لما قبله ، وقطع لكل أمل كاذب فى الافلات من عذاب الله وانتقامه • فليس هناك من يدفعه عنهم أو ينصرهم بانقاذهم منه لا بطريق المغالبة ولا بالشفاعة يدل على ذلك وقوع النكرة فى سياق النفى « أنصار » وزيادة ـ من ـ للتأكيد • ويلاحظ ما فى النظم القرانى من التعبير بلفظ ـ الظالمين ـ بدلا من الضمير العائد اليهم ـ أى ـ وما لكم ـ ليسجل عليهم بأنهم **ظلموا بالاشراك ، وعدلوا** عن طريق الحق ، فاللام فى « الظالمين » للعهد • وهذا التذييل اما من تمام كلام عيسى عليه السلام أو من جهته تعالى تأكيدا لقول عيسى لهم وتقريرا له •

واذا كان دافع النصارى الى تأليه عيسى هو تعظيمهم له ؛ فان حكاية الله تعالى دعوة عيسى لهم الى توحيد الله وترهيبهم من الاشراك به بهذا

الأسلوب الجازم ــ مع أنهم يبغون تعظيمه ــ اشــارة الى أن الأنبياء عليهم السلام ليس لحظ النفس عندهم مكان ، فالحق وحــده هو غايتهم • وتلك لمحة على الداعية أن يملأ بها وجدانه ، ويستضيء بها فى طريقه •

« **لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة** » حكم بالكفر على طائفـــة أخرى منهم تقول هــذا القول • ومعنى أن الله ثالث ثلاثة ، أنه واحـــد من ثلاثة كل منهم هو اله • فقد سبق أن نقلنا انهم اعتبروا الألـــوهية مشتركة بين الله ــ الأب ــ وعيسى ــ الابن ــ وروح القدس • فكل واحد من هؤلاء هو فى رأيهم اله • فحكم القرآن عليهم بالكفــر لهــذا حكما مؤكدا كالسابق بالقسم ، لأنهم بدلوا شريعة الله وهى التوحيد الخاص •

« **وما من اله الا اله واحد** » المعنى أنه ليس فى الوجــود اله قط الا اله موصوف بالوحـــدانية لا ثانى له ، وهو الله وحـــده لا شريك له • و « من » تفيد الاستغراق • وأسلوب القصر بطريق النفى والاستثناء لقصر صفة الألوهية على الله الواحد ، ونفيها عما عداه مطلقا • تأكيدا للمعنى يستوجبه مقام الرد على من يدعون التعـــدد •

« **وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم** » هــذا تهديد منه ســبحانه ، وتحذير من عاقبة كفرهم بســبب ما يقولون ويعتقدون من أن الله ثالث ثلاثة • ويلاحظ ما فى التعبير من تأكيد بالقسم الذى تنبىء عند اللام وبنون التوكيد الثقيلة ثم وصف العذاب بالأليم كأنه نوع خاص أعد لهم يتناسب مع عظيم جرمهم • و «من» للبيان أو للتبعيض • كما يلاحظ التعبير باسم الموصول بدلا من الضمير ليسجل عليهم فى الصلة الكفر مرة أخرى فالمعنى ــ ليمسنهم ــ ثم التعبير بالفعل « كفروا » المنبىء بالحدوث تنبيه على أن الاستمرار على الكفر بعد هــذا البيان الموجب للاقلاع عنه هو كفر جديد وغلو زائد على ما كانوا عليه من أصل الكفر • وذلك مبالغة فى تحـــذيرهم •

« **أفلا يتوبون الى الله ويســتغفرونه ، والله غفور رحيم** » • وهــذه الآية تفتح أمامهم الأمل بالتوبة والرجوع عن قولهم وتذكرهم بأن الله واسع المغفرة والرحمة ، يقبل توبتهم اذا رجعوا عما هم عليه وهــذا من واسع فضله تعالى ورحمته لخلقه • والاستفهام فى الآية مســتعمل فى الانكــار لكفــرهم ، وفيه تعجب من اصرارهم وعنادهم وحث على التوبة • والفاء للعطف على مقـــدر يقتضيه المقـــام • أى « الا ينتهــون عن تلك العقــائد

الفاسدة فلا يتوبون الى الله ويستغفرونه بالتوحيد وتنزيهه عما نسبوه اليه » فمدار الانكار والتعجب هو عدم الانتهاء وعدم التوبة ·

ثم تنتقل الآيات الكريمة الى بيان منزلة المسيح وأمه عليهما السلام وتسوق الدليل عليه :

« **ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة . كانا يأكلان الطعام** » انه يواجههم بالمنطق الواقعى المقنع علهم يكفون عن كفرهم · فيثبت أولا أشرف ما امتاز به عيسى عليه السلام وأمه · فعيسى عليه السلام ما هو الا رسول ، أى مقصور على الرسالة لا يتخطاها الى غيرها مما تزعمون من الألوهية · « **قد خلت من قبله الرسل** » صفة لرسول تنبيء عن اتصافه بما ينافى الألوهية ، فمادام مقصورا على الرسالة فهو كغيره من الأنبياء الذين خلوا ومضوا ، فقد مضى هو أيضا ومضيه يقتضى استحالة ألوهيته ، واذا كان الله تعالى قد خصه ببعض الآيات فقد خص غيره بمثلها أو بأعجب منها ، فاذا كان قد خلق من غير أب فقد خلق الله آدم من غير أب ولا أم وهو أعجب « **ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** » (١) فآدم على هذا أحق منه فى ادعاء الألوهية · واذا كان الله قد جعل معجزته احياء الموتى ، فقد أحيا الله العصا فى يد موسى وجعلها حية تسعى ، وهو أعجب من اعادة الحياة لميت · فما هو الا رسول كاخوانه من الرسل السابقين · « **وأمه صديقة** » وما أمه عليها السلام الا صديقة كغيرها من النساء اللآتى يؤمن ويبالغن فى التصديق ويلازمنه فليست على صفة تجعلها مستحقة للالوهية · هكذا بين القرآن الكريم منزلة عيسى وأمه وأثبت لهما أشرف ما لهما من نعوت ، وهى لا تؤهلهم للالوهية · ثم بين القرآن الوصف المشترك بينهما وبين جميع أفراد البشر بل أفراد الحيوان فيقول : « **كانا يأكلان الطعام** » وأكل الطعام حقيقة واقعة فى حياة المسيح وأمه عليهما السلام لا يمكن انكارها ، وهى من خصائص الأحياء الحادثين ، ودليل على بشرية المسيح وأمه ، فلا يكون الها من يحتاج الى الطعام ليعيش ، فالله حى بذاته لا يحتاج الى شيء يحفظ عليه حياته · ثم لننظر الى الأدب الرفيع فى التعبير القرآنى ، ان من يحتاج الى الطعام يحتاج قطعا الى الهضم والاخراج وغيره من الخصائص البشرية وقد كنى القرآن عن كل هذه المعانى بقوله الكريم « **كانا يأكلان الطعام** » ·

---

(١) آل عمران : ٥٩ ·

وبهـذا الدليل الملموس اجهز القرآن على كل ما يدعونه وأبطله · وقد حاول المسيحيون الخروج من هـذا المـأزق دون جدوى ، فمرة يقولون ان للمسيح طبيعتين ، ومرة يقولون ان له طبيعة واحدة · وكل فرقة تلعن الأخرى وتكفرها ، ويبقى الدليل القرآنى فى وضوحه واشراقه حجة دامغة ونورا هاديا ·

« **انظـر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر انى يؤفكون** » انه تعجب مـن حال هؤلاء الذين لا يكفون عن ادعائهم ألوهية المسـيح · انظر كيف سـقنا لهم الدليل والآيات الواضحة وضوحا ينادى ببطلان ما يدعون ثم انظر كيف ينصرفون عن التأمل فيها · فأى عجب يستوجبه حال هؤلاء ؟ وتكرير الأمر بالنظر للمبالغة فى التعجب · و « ثم » هنا مستعملة فى التفاوت بين العجبين وما بينهما من البعد · « يعنى أنه بين لهم الآيات بيانا عجيبا وأن اعراضهم عنها أعجب منه »(١) ويستمر القرآن فى جدالهم :

« **قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعـا ، والله هو السميع العليم** » · أى حمق وغباء ذلك الذى يجعلكم تعبدون مالا يملك لكم شيئا من ضر أو نفع ؟ والاستفهام هنا مستعمل فى الانكار والتوبيخ والمراد ـ بما ـ الموصولة عيسى عليه السلام · وايثارها على « من » الخـاصة بالعقلاء مقصود به بيان ادراجه عليه السلام فى سلك الأشياء التى لا قدرة لها على شىء أصلا مبالغة فى نفى الألوهية عنه وتقديم الضر على النفع لأن التحرز عن الضر أهم من تحرى النفع · ولأن أدنى درجات التأثير دفـع الشر ثم جلب الخير(٢) · وقوله تعالى « **والله هو السميع العليم** » تأكيد للانكار والتوبيخ ومقرر للالزام والتبكيت · والمعنى : أتشركون بالله تعالى مالا يقدر على شىء والحـال أن الله هو المختص بالاحـاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات ؟ ومن ثم يضر وينفع · ويلاحظ التنكير فى « **ضرا** » و « **نفعا** » ليشمل أى ضر أو نفع ولو كان يسـيرا تافها ، وذلك زيادة فى نفى القـدرة عنهم ·

« **قل يا أهل الكتاب لا تغـلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل** » ·

---

(١) انظر الكشاف ج ١ ص ٦٣٥ ·
(٢) انظر تفسير أبى السعود ج ٢ ص ٥١ ·

« **يا أهل الكتاب** » تلوين للخطاب جذبا للانتباه وتذكيرا لهم بأن كتابهم الانجيل الذى يزعمون أنهم يؤمنون به ينهاهم عما ينهاهم عنه القرآن من الغلو فى تعظيم عيسى عليه السلام ورفعه الى مرتبة الالوهية واستحقاق العبادة . والغلو مجاوزة الحد ، فهم لا ينهون عن تعظيم عيسى واحترامه كنبى بل ينهون عن الغلو فى ذلك . ولعل فيه اشارة أخرى الى اليهود - وهم أهل كتاب أيضا - اذ ارتكبوا نوعا آخر من الغلو وذلك بوضعهم له عليه السلام عن رتبته العلية بقولهم على مريم بهتانا واثما مبينا . فالغلو فى التعظيم والغلو فى الوضع كلاهما ينهى عنه القرآن ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ثم ان تقييد الغلو فى الدين المنهى عنه بأنه الغلو بغير الحق اشارة الى أن الغلو بالحق ، وهو البحث عن حقائقه والاجتهاد فى تحصيل حججه ، غير منهى عنه . أما الغلو بالباطل بتجاوز الحق واتباع الشبه فهو المنهى عنه .

« **ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل** » ان ما تزعمونه انما هو تحريف وضعه من سبقوكم ، متبعين فيه أهواءهم ضالين عن الحق فلا تتبعوهم . « **وأضلوا كثيرا** » ممن استجابوا لهم واتبعوا باطلهم وشايعوهم على التثليث وتأليه عيسى عليه السلام . « **وضلوا عن سواء السبيل** » وذلك بتكذيبهم للنبى ﷺ لما بعث وعدم استجابتهم له . ولنتأمل ما فى التعبير الكريم من ألفاظ مصورة . « **ضلوا** » فهى تصورهم تائهين لا يهتدون الى طريقهم المنجية لهم . و « **سواء السبيل** » يصور الشريعة بالطريق السوى الذى لا عوج فيه ولا التواء .

وهكذا يسوق القرآن الكريم الدليل المقنع فى فيض من اللمسات الوجدانية التى توقظ المشاعر وتنبه الأذهان ، فمن انكار لما هم عليه الى تعجب مما هم فيه ومن تقريع لهم على غفلتهم الى ترهيب لهم من عاقبة غيهم ، وترغيب فى التوبة والعودة الى الحق . بجانب ما تضمنه النظم الكريم من خصائص بلاغية سبقت الاشارة الى دلالاتها ودواعيها . وفوق ذلك كله وضوح الدليل واشراق التعبير الذى يجد فيه الخاصة اقناعا ملزما لعقولهم ، ويجد فيه العامة بيانا شافيا للحق ، وكشفا لكل شبه الباطل . وهكذا القرآن فى كل أغراضه وأساليبه . ومن أصدق من الله قيلا .

ولننتقل الآن الى نص آخر نتنسم أريج بلاغته وننعم بهدايته .

* * *

● مجـادلة أهل المنطق والفلسـفة :

قال تعالى : « وله من فى السموات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون • يسبحون الليل والنهار لا يفترون • أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون • لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون • لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون • أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هـذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل اكثرهم لا يعلمون الحق ، فهم معرضون »(١) •

كما سبق أن أوضحنا فان الدعوة الاسلامية تخـاطب كل من يمكن تصورهم من أنواع البشر فى أى عصر ، والآيات الكريمة فى هـذا النص تتجه الى أولئك الذين اتخذوا من العقل وحده مقياسا للحق والباطل ، على الرغم مما فى منهجهم هـذا من خطأ وتجاوز فى تقدير طاقة العقل البشرى ومدى قدرته • فهى تسوق لهم الدليل العقلى اليقينى الذى لا يمكن دفعه • والقرآن الكريم فى عرضه لهذا الدليل يصوغه فى أسلوب معجز ، اذ يجمع فى تعبيره بين الاحكام الدقيق الذى يلزم الخاصة ، والوضوح البين الذى يدركه العامة ، مضيفا الى ذلك لمساته الوجـدانية التى تهز المشاعر وتسيطر على الوجـدان ، لينفذ الى العقـول وقد تهيأت لقبوله واستشرفت لادراكه •

وهذه الآيات الكريمة جاءت عقب آيات تتحـدث عن خلق السـموات والأرض وأنه لحكمة بالغة مستتبعة لغايات جليلة ، وذلك بأن تكون مبـدأ لوجود الانسان وسببا لمعاشه ، ودليلا يقوده الى معرفة الخـالق وليست عبثا ولهـوا •

« وله من فى السموات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون • يسبحون الليل والنهـار لا يفترون » الآية الكريمة تأكيد لمـا تضمنته الآيات السابقة من خلقه سبحانه لجميع المخلوقات على حكمة بالغة ، فهى تبين أن له وحده جميع المخلوقات ، وليس لغيره دخل فى شىء منها لا خلقا ولا تدبيرا ، فكلها خاضعة له تسير وفق مشيئته • ولنتـأمل النظم الكريم : فقد قدم الظـرف « لــه » ليفيد القصر عليه سبحانه فى كل ما يتعلق بالمخلوقات فالمقام مقام اثبات وحدانيته سبحانه ، وعبر بقوله « **من فى السموات والأرض** » ليفيد عموم المخلوقات فى الكون كله فلا شىء

---

(١) الانبياء : ١٩ ـ ٢٤ •

منها خارج عن ملكه . أما التعبير بـ « من » الخاصة بالعقلاء فمن باب التغليب . وقوله تعالى : « **ومن عنده** » كناية عن المقربين اليه من خلقه ، والمتبادر الى الذهن أنهم الملائكة المكرمون ، والمراد بالقرب منه ليس قربا مكانيا وانما هو قرب معنوى تنزيلا لكرامتهم عليه سبحانه منزلة المقربين لدى الملوك بطريق التمثيل ، وسر التمثيل أنه أبرز المعنوى فى صورة المادى تثبيتا له فى النفس . وانما خصهم بالذكر مع أنهم داخلون فيمن فى السموات والأرض من باب ذكر الخاص بعد العام لكرامتهم عنده ، واشارة الى علو شأنهم بين المخلوقات ، فهم « **لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون** » أى لا يتعالون على عبادته سبحانه ولا يفترون عنها . بل هم دائمون لا يستحسرون ولا يكلون . ونلاحظ التعبير بصيغة ـ الاستفعال ـ الدالة على المبالغة فى الحسور ، وذلك للاشارة الى أن العبادة مع ثقلها وأتعابها جديرة بأن يكل منها ويستحسر . ومع ذلك فهم دائمون عليها .وليس المراد نفى المبالغة فى الحسور مع ثبوت أصله فى الجملة ونظير هذا قوله تعالى : « **وما أنا بظلام للعبيد** »(١) اذ المراد افادة كثرة الظلم المفروض تعلقه بالعبيد لا افادة نفى المبالغة فى الظلم مع ثبوت أصل الظلم فى الجملة .

« **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** » هذه الجملة جواب عما يثيره الكلام السابق من سؤال كأنه قيل : ماذا يصنعون فى عبادتهم ؟ فقيل يسبحون الليل والنهار لا يفترون ـ وهذا سر الفصل فيها والمعنى أن الملائكة المكرمين دائمو التسبيح والتمجيد لله سبحانه لا يتخلل عبادتهم فترات ينقطعون فيها عن العبادة . وفى جو هذه الصورة التى ترسمها الآيات للكون كله منقادا لله تعالى ، والملائكة مسبحة ممجدة لعظمته ، والتى تلقى المهابة فى القلوب تنتقل الآيات الى سوق الدليل العقلى على وحدانيته سبحانه منتزعة اياه من مشاهد هذا الكون ، وما فيه من تدبير واحكام يمنعان فساده .

« **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** » « أم » منقطعة بمعنى بل ، والهمزة فيها مؤذنة بالاضراب عما قبلها والانكار لما بعدها ، فالاستفهام بها هو استفهام استنكار ، لاتخاذهم آلهة وتعجب وتوبيخ عليه وقوله تعالى : « **من الأرض** » متعلق بمحذوف هو صفة للآلهة والمراد به تحقير تلك الأشياء التى اتخذوها آلهة ،والاشارة الى دناءة أصلها زيادة فى توبيخهم ، وتسفيه مسلكهم أو هو متعلق بـ «**ينشرون**» أى ينشرون من الأرض أى يبعثون منها الموتى . وفيه تهكم بتلك الآلهة .

---

(١) سورة ق : ٢٩

فمن صفات الاله الحق أن يكون قادرا على مقدور ومنها بعث الموتى · فهل آلهتهم قادرة على ذلك ؟ من الواضح أنها غير قادرة وهم لا يدعون لها ذلك ، فكيف يتخذونها آلهة ؟ « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** » · لفظ « الا » بمعنى غير ، صفة للآلهة ، ولا يصح أن يكون للاستثناء ، لافضائه الى فساد المعنى ، لأنه يؤدى حينئذ الى أن يكون الفساد لكونها فيهما بدونه تعالى · وهذه الجملة ابطال لتعدد الآلهة باقامتها الدليل على استحالته · ذلك : أن المعنى لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا · ولكنهما لم يفسدا ، اذن فليس هناك آلهة الا الله · وهذا الدليل يسميه المناطقة قياس الخلف · وهو اثبات المطلوب بإبطال نقيضه أى أن المبطل للنقيض مثبت للحق ضرورة أن النقيضين لا يجتمعان ، ولا يخلو المحل من أحدهما ويسمى دليل التمانع · أى امتنع تعدد الآلهة لامتناع الفساد فثبتت الوحدانية · أما وجه التلازم بين الفساد وتعدد الآلهة فذلك « لأن وجود الهين متساويين فى كل الصفات مستحيل ، لأن بلوغ الكمال المطلق فى صفة من الصفات يمنع بلوغ كمال مطلق آخر فى تلك الصفة ، وأن الاثنينية لا تتحقق فى موجودين كلاهما بلا بداية ولا نهاية ولا حدود ولا فروق ، وكلاهما يريد ما يريده الآخر ، ويقدر ما يقدره ، ويعمل ما يعمله فى كل حال وفى كل صغير وكبير ، فهذان وجود واحد ، وليسا وجودين · فاذا كانا اثنين لم يكونا الا متمايزين متغايرين »(١) واذا كان الأمر كذلك فمن الممكن عقلا أن يختلفا فيريد أحدهما شيئا لا يريده الآخر · فاذا اختلفا بأن أراد أحدهما خلق شىء وأراد الآخر عدم خلقه ، فان تحققت ارادتهما معا لزم أن ذلك الشىء موجود معدوم ، وان تحققت ارادة أحدهما دون الآخر ففى هذه الحالة يكون الاله الذى تحققت ارادته هو الاله وحده حقيقة ، فى حين يكون الآخر عاجزا فلا يجدر به أن يسمى الها · وقد أورد بعضهم شبهة على هذا الدليل بأنه يجوز أن يكون اثنان وتتفق ارادتهما(٢) · ومع أن الاثنينية يستحيل معها التوافق الكامل بين الارادتين ، فقد رد بعض العلماء بأنهما اذا اتفقا فاما أن يكون اتفاقهما ضروريا فيلزم عجزهما واضطرارهما ، أو اختياريا ويمكن تقدير الخلاف بينهما ، فيتحقق الالزام ·

هذا مجمل ما يورده علماء الكلام عن الموضوع ، والواقع أننا لسنا فى حاجة الى كل هذه الفروض والتأويلات ، والدليل القرآنى فى اشراقه ووضوحه غنى عن كل هذا وانما هو مبنى على أمر بدهى تدركه الفطرة

---

(١) كتاب الله ص ٢٠٧ للاستاذ عباس العقاد ·

(٢) كتاب الفيلسوف المفترى عليه ـ ابن رشد ـ ص ٩١ ـ ٩٢ دكتور محمود قاسم ·

السليمة » فالكون قائم على النـاموس الواحـد الذى يربط بين أجـزائه جميعا ، وينسق بين أجزائه جميعا ، وبين حركات هـذه الأجزاء وحـركة المجموع المنظم · هـذا الناموس الواحد من صنع ارادة واحدة لاله واحد · فلو تعددت الذوات لتعددت الارادات ولتعددت النواميس تبعا لها ، فالارادة مظهر الذات المريدة ، والناموس مظهر الارادة النافذة · ولانعدمت الوحدة التى تنسق الجهاز الكونى كله ، وتوحد منهجه واتجاهه وسلوكه ، ولوقع الاضطراب والفساد تبعا لفقـدان التناسق ، هذا التناسق الملحـوظ الـذى لا ينكره أشد الملحدين لأنه واقع محس · وان الفطرة السليمة التى تتـلقى ايقـاع الناموس الواحـد للوجـود كله لتشـهد شهادة فطرية بوحدة هذا الناموس ووحدة الارادة التى أوجدته ، ووحدة الخالق لهذا الكون المنظم المنسق الذى لا فساد فى تكوينه ، ولا خلل فى سيره »(١) ·

« **فسبحان الله رب العرش عما يصفون** » تنزه الله تعالى عما لا يليق به من ادعـاء الشريك ، وعبر بلفظ الجلالة فى موضع الاضـمار لتربيـة المهابة ولأن الالوهية هى مناط تنزيهه تعالى عمـا لا يليق به سـبحانه · واختار من صفاته سـبحانه « **رب العرش** » لأن العرش رمز الاسـتعلاء والملك ، والمقام مقام التنزيه والتمجيد لله بعد قيام الدليل عـلى وحدانيته سبحانه وسيطرته على الكون كله ، وتسبيح الكون كله بحمده ·

« **لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون** » بيان وتأكيد لـما يستوجبه مقـام الألوهية لله سبحانه من عظمة وجلال ، وعـزة وسلطان ، فلا سبيل الى أن يسأله أحد عما يفعل لأن الكل مخلوق والمخلوق لا يسأل الخالق · ونلاحظ ما فى قوله تعالى : « **وهم يسئلون** » من تعريض بتهديد الكفار ووعيدهم ·

« **أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هـذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق ، فهم معرضون** » الآية الكريمة تنتقل الى لون آخر من الاستدلال على الوحدانية ومجادلة المشركين وهو ما يسمى بمطالبة الخصم بتصحيح دعواه واقامة الدليل عليهـا ، حتى اذا عجز كان ذلك اثباتا لكذبه ، وتأكيدا لدعوى مطالبه · فقد أقام القرآن الكريم الدليل اليقينى على الوحدانية فى الآية السابقة ، ثم طالبهم بالدليل على دعوى الشرك · فانه لا صحة لقول لا دليل عليه وبخاصة اذا كان الأمر يتعلق بالعقيدة الدينية ·

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ١٧ ص ٢٠ ـ ٢١ ·

ولنتأمل النظم الكريم : فقد صدرت الآية بالاستفهام الانكارى لاتخاذ الشركاء ، مع وضوح الدليل على بطلانه · ثم التعبير بـ « **برهانكم** » فسماه برهانا وأضافه الى ضميرهم تهكما بهم ، وسخرية منهم ، فهم لا يملكون شيئا من ذلك · وفيه اثارة لهم مبالغة فى اثبات عجزهم وقوله تعالى :

« **هـذا ذكر من معي وذكر من قبلي** » فيه زيادة اثارة لهم على اقامة البرهان ان كان لديهم ما يقولونه ، اظهارا لكمال عجزهم وانقطاع حجتهم فقد أخبرهم أن الوحدانية التى نزل بها القرآن نزلت بها كل الكتب السابقة ، وهى دين الله للبشرية كلها · فهذا دليل نقلى على صحة دعواى يؤيده الدليل العقلى الذى سقته لكم فلم تستطيعوا له دفعا · فما حجتكم أنتم ؟ ·

« **بل أكثرهم لا يعلمون الحق ، فهم معرضون** » لا فائدة من محاجة هؤلاء فأكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون عنه مستمرون فى اشراكهم مهما كررت عليهم الحجج والأدلة ·

وهكذا ساق القرآن الكريم دليل الوحدانية فى أسلوب جمع بين اقناع أكثر العقول اقتدارا وتفلسفا ، وارضاء أقربها التصاقا بالفطرة والبديهة فكان دليل الخاصة والعامة ، وهذا اعجاز لا يتطاول اليه بشر ·

ثم ساق ذلك كله فى كلمات معدودة هى فى ايجازها آية الآيات ، وفى وضوح معانيها وسلامة نظمها قمة القمم لا ترى بينها لفظة غائمة ، ولا تحس أثرا للتعقيدات المنطقية · ثم عرض ذلك كله فى أسلوب أخاذ مستخدما الاثارة الوجدانية وتحريك العواطف حتى يصل الى النفس من جميع منافذ التأثير فيها · فأين هذا من تلك الأحاجى والألغاز التى يرددها المناطقة فيضل فيها الخواص ؟

والآن ، لننتقل الى نص كريم آخر ·

★ ★ ★

● **الاقناع بضرب الأمثـال :**

قال تعالى : « **ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون · فلا تضربوا لله الأمثال ، ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون · ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا ، هل يستوون ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون · وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو**

كل على مولاه أينما يوجهه لا يات بخير ، هل يستوى هو ومن يامر بالعدل وهو على صراط مستقيم »(١) ٠

هـذه الآيات الكريمة تأتى عقب آيات تذكر المشركين بنعم الله عليهم وتعددها لهم ، لتبين أن واهب هـذه النعم هـو الجدير بالعبادة لا غيره ممن لا يملك لهم شيئا ٠ ثم تأتى الآيات لتبين قبح صنيعهم حيث عبدوا من لا يستحق العبادة ٠ وتنهاهم عن الشرك ٠ ثم تمضى فتسوق لهم مثلين يشهدان بفساد تفكيرهم ووضوح ضلالهم وبعدهم عما تقتضيه العقول والأفهام وخلاصة المثلين أن العقول تأبى التسوية بين القادر والعاجز ، ولو كانا من جنس واحد ونوع واحد ٠ وهـذا أمر بدهى لا يحتـاج الى اثبات ٠ فكيف يسوى هؤلاء بين ما يتخذونه آلهة من المخلوقات ، وقـادر هو الذى خلقها وأبدعها ؟ وأى سـفه هـذا الذى يسـوى بين الخـالق والمخلوق ٠٠ فليس هناك وجه للتنـاسب والموازنة فضـلا عن التسـوية والعبادة ٠ ولنتأمل ما فى الآيات من بلاغة ٠

« **ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السـموات والأرض شيئا ولا يستطيعون** » انكار لحـالهم وتوبيخ لهم على عبـادتهم غير الله وكفرهم لنعمه ٠ وبيان لخطـأ مسلكهم ، فالمنعم هو الجـدير بأن يعبد ، أما هؤلاء فهم لا يملكون لهم شـيئا من الرزق لا مـن السموات ولا مـن الأرض ، بل هم لا يستطيعون أن يملكوا شيئا من ذلك لأنهم موات لاحراك بهم ٠ فكيف يستحقون العبادة ؟

« **فلا تضربوا لله الأمثال** » المراد : لا تشركوا به شـيئا ٠ وعبر عنـه بضرب المثل للقصد الى النهى عن الاشراك بالله تعالى فى شأن من الشئون فان ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة ، أى : لا تشبهوا بشـأنه تعالى شأنا من الشئون ٠ وهـذا يلزمه النهى عن الاشراك ، فعبر باللزوم وأراد اللازم على سبيل الكناية ، والكناية أبلغ فى اثبـات المعنى لأنها كالدعوى بدليلها ويلاحظ ما فيه من التفات للاشارة الى الاهتمام بشأن المنهى عنه ٠

« **ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون** » فيه وعيد لهم على سـوء صـنيعهم باشراكهم بالله ٠٠ والمعنى : ان الله يعلم ما تصنعون ، وانه ليستحق العقوبة ، وأنتم لا تعلمون ذلك ، والا لما اجترأتم عليه ٠

---

(١) النحل : ٧٣ : ٧٦ ٠

« **ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء** » المراد « بضرب » : ذكر وأورد ، والتعبير بالضرب أقوى لما فيه من معنى الاقامة والوضوح ٠ والمثل فى الأصل بمعنى النظير والشبيه ، ثم أطلق على القول السائر الذى يمثل مضربه بمورده ، وحيث لم يكن ذلك الا قولا بديعا فيه غرابة جعلته جديرا بالتسيير فى البلاد استعير لكل حال أو قصة أو صفة عجيبة ، من غير أن يلاحظ بينها وبين شيء آخر تشبيه ٠ والمراد بالمثل هنا المعنى الاستعارى أى أن الله قد ذكر فى كتابه تلك المقارنة التى يستدل بها على تباين الحال بين جنابه تعالى وما أشركوا به ٠ بحيث تدل دلالة واضحة على فساد ما ارتكبوه ٠

« **عبدا مملوكا لا يقدر على شيء** » هذا هو الطرف الأول من المقارنة ، وهو تفسير لقوله تعالى « مثلا » وفى الابهام ثم التوضيح اثارة لتطلع النفس الى معرفة المراد وتشوقها له ، فاذا ذكر التفسير استقر فى النفس وتمكن منها ٠ وهو من البلاغة بمكان ٠

والمراد بهذه الصفات تمييز حال هذا الطرف الذى جعلته مثلا ، فذكر أنه عبد ، ثم وصفه بأنه مملوك لتمييزه عن الحر ، فان لفظ العبد يطلق عليهما باعتبارهما عبدين لله تعالى ٠ ثم وصفه بعدم القدرة على شيء لأن بعض العبيد قد يأذن له سيده فى التصرف فى بعض الأمور . فنص على أن المضروب به المثل هو على الأصل المعهود فى المماليك من العجز التام وعدم القدرة على التصرف فى شيء ما ٠ وفى وقوع النكرة فى سياق النفى « **لا يقدر على شيء** » ما يفيد العموم وذلك لتأكيد عجزهم الكامل عن أى شيء لتكتمل لهذا الطرف كل صفات العجز ٠

« **ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا** » هذا هو الطرف الثانى فى المقارنة ، انسان حر رزقه الله رزقا حلالا طيبا ، ووفقه الى حسن التصرف فيما رزقه فهو ينفقه فى مرضاة الله ٠ وتلاحظ ما فى النظم الشريف ٠ وأول ذلك الالتفات الى التكلم للاشعار باختلاف حالى الطرفين والايماء الى ما بينهما من تفاوت ، ثم نسبة الرزق الى الله ، وتأكيد ذلك بقوله « منا » بنون العظمة ، تنويها بشأن الرزق ابرازا لما فيه من فضل ووصف الرزق بالحسن دون بيان متعلقه ليشمل كل ما يكون به الحسن من الكثرة والحل وغيرها ٠ ثم ان هذا الانفاق يكون ــ سرا وجهرا ــ والمراد المبالغة فى مدحه وبيان كثرة انفاقه وشموله ٠ ويلاحظ تقديم السر على الجهر للاشارة الى فضله عليه ٠ كما يلاحظ التعبير ، بالفعل للدلالة على تجدد الانفاق وهكذا يؤكد النص الكريم أن هذا

الطرف الثانى قد استجمع كل معانى الخير ، كما استجمع الأول كل معانى العجز « **هل يستوون** » استفهام بمعنى النفى ، أى : لا يستوون ، فذلك مما لا تنكره العقول وضمير الجمع للاشارة الى أن المقصود هو المقارنة بين الجنسين المذكورين لا بين فردين معينين منهما • والمعنى : هل يستوى هذا العبد المملوك الذى لا نفع فيه مع الحر الموصوف بما ذكر من الصفات ؟ واذا كانت العقول تأبى التسوية بين هذين ، وكلاهما انسان ، أيجوز أن تتخذ الحجارة آلهة وأن يسوى بينها وبين الخالق ؟ سبحانه عما يقولون فله وحده الربوبية والعبادة ••

« **الحمد لله ، بل اكثرهم لا يعلمون** » له الحمد كله فمنه النعم كلها ولا يستحقه أحد سواه ، ولكن أكثرهم لا يعلمون هذا ، فيشركوا به •

« **وضرب الله مثلا رجلين ، أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير** » •

هذا هو الطرف الأول من المثل الثانى رجل أبكم ولد هكذا لا يدرك ما يلقى اليه ، ولا يمكنه الافصاح عما فى نفسه ، وهو فوق ذلك عبء على من يعوله ويلى أمره ، وفوق هذا وذاك لا يرجى منه خير أو نفع أينما يوجهه مولاه لا يأت بخير •

ونلاحظ فى النظم الابهام فى قوله « **مثلا** » ثم البيان بذكر التفسير ثم اختيار لفظ « **أبكم** » وهو الذى لاينطق لا على علة طارئة بل منذ ولادته • وقد ثبت أن البكم مسبب عن الصمم ، فلا يحاكى الطفل الكلام لأنه لا يسمعه • وهذا الوصف يجعله فى أدنى درجات الادراك وسوء الفهم ثم وصفه بعد ذلك بصفات تؤكد انحطاط منزلته فهو لا يقدر على شىء فلا يستطيع القيام بشئونه ولا شئون غيره •

« **هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** » هل يتساوى هذا ـ مع ما فيه من النقائص المذكورة ـ مع رجل آخر على النقيض منه فى صفاته • فهو ذو رأى وكفاية ، ينفع الناس ويحثهم على العدل وفوق ذلك ملتزم بالطريق السوى لا يحيد عنه ولا يميل الى غيره ؟ فالرجلان قد تساويا فى الانسانية ولكنهما تفاوتا فقط فى الصفات ومع ذلك فلا يمكن لعاقل أن يسوى بينهما • فكيف يصح لعاقل أن يشرك مع الله أصناما أو أوثانا ؟ وليس هناك وجه للتناسب فضلا عن التسوية بينهما ، انه لجهل عظيم •• وهكذا يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون •



● الاقناع باسلوب الاستفهام :

قال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون · فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ، فانى تصرفون · كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون · قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فانى تؤفكون · قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدى · فما لكم كيف تحكمون · وما يتبع أكثرهم الا ظنا ، ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، ان الله عليم بما يفعلون »(١) ·

تأتى هذه الآيات الكريمة عقب آيات تصور موقف المشركين يوم القيامة وكيف يتبرأ منهم من اتخذوهم آلهة من دون الله · وكيف يواجهون مصيرهم حيث لا يغنى هؤلاء عنهم شيئا · وبعد هذا الترهيب الذى يحملهم على مراجعة موقفهم قبل فوات الأوان ، تأتى هذه الآيات لترشدهم الى طريق النجاة ، والى الحق الذى يجنبهم كل هذا الويل الذى يترصدهم · ولكنها لا تسوق لهم ذلك بالطريق الاخبارى ، بل تسوقه فى أسلوب الاستفهام التقريرى ، الذى يتضمن ـ من الخصائص الزائدة على المعنى المراد الاخبار به ـ ما يجعله أشد اثارة للاهتمام وتأثيرا فى النفوس · متضمنا فى نفس الوقت الالزام بالحجة التى لا تدفع ·

ومرجع ذلك الى ان الاستفهام فى أصل وضعه يتطلب جوابا يحتاج الى تفكير يقع به هذا الجواب فى موقعه ، وهذا يحمل المخاطب الى توجيه كل اهتمامه لما يلقى اليه ليتمكن من فهمه ثم الاجابة عنه · فاذا كان الاستفهام تقريريا فمعنى ذلك أنه يحمل المخاطب على الاعتراف وينتزع منه الاجابة بعد التدبر والأناة التى يقتضيها أسلوب الاستفهام ، وهذا الاعتراف هو ما يريده المستفهم لأنه يؤكد حجته ويبطل حجة خصمه · ولا شك أن هذا ابلغ من الأسلوب الاخبارى لما يتضمنه من هذه الخصائص ·

« **قل من يرزقكم من السماء والأرض** » استفهام تقرير · فقد كانوا يعتقدون أن الله هو الذى يرزقهم وكانوا لا ينسبون الرزق الى الشركاء

---

(١) يونس : ٣١ ـ ٣٦ ·

فلا يمكن الا أن تكون اجابتهم : الله · ويلاحظ ما فى التعبير من الاشارة الى عظيم نعم الله عليهم حيث أوضح أن الرزق يأتيهم من السماء والأرض وذلك لفتا لأنظارهم الى حق هذا المنعم عليهم ·

« **أمن يملك السمع والأبصـــار** » · « أم » فى « أمن » منقطعة وهى تتضمن الاستفهام والاضراب عما قبلها ، وليس معنى الاضراب هنا هـى ابطال الاستفهام الأول ، بل هو على وجه الانتقـال عنه الى استفهام آخر للاشارة الى أنه كاف فى اثبات المقصود دون حاجة الى ما سبقه · والمراد بالملك هنا هو القدرة على خلقهما وتسويتهما وحفظهما من الآفات · والتعبير بالملك أبلغ لأنه يدل على كل هذه المعانى بصورة أكبر وأكمل شأن المالك فيما يملك · واختيار السمع والبصر فى التقرير بمالكهما فى هاتين الحاستين من بديع صنع الله وعظيم فضله الذى يتزايد ادراك عظمتـه كلمـا ازداد الانسان علما بأسرار الخلق ، فاذا كان العرب الذين خاطبهم القرآن يدركون ما فى السمع والابصار من النعمة الجزيلة والقدرة الباهرة ادراكا مجملا · فان انسان اليوم ليعلم أن هذه الحواس هى عالم بذاته وأن ما اكتشفه علم التشريح مثلا من أن شبكية العين تضم ملايين الأعصاب ، كل منها يؤدى وظيفة لا غنى عنها لتتم عملية الرؤية · أقول : ان ذلك ليدفع الانسان دفعا الى الاقرار بأن الله وحده هو القادر على كل هذا الابداع المعجز ، وتبقى دعوة القرآن للناس قائمة ملزمة بالاعتراف والاقرار له وحده بالربوبية . بل ان دلالتها والزامها تتضاعف كلما مضى الزمن وتقدم الانسان ·

« **ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى** » · تقرير كسابقه لا يملك بشر الا أن يجيب عليه بالاقرار بأنه الله وحده ، فمعجزة الحيـاة وسرها كانت وستظل بعيدا عن كل قدرة الا قدرة المولى جل وعلا ·

« **ومن يدبر الأمر** » · أى ومن يدبر أمر العالم كله بسماواته وأراضيه وما فيهما من مخلوقات وعوالم ، ويضع كـل شىء فى موضعه ويهيىء له ما يضمن بقاءه وعدم تعارضه مع غيره ؟ وهذا تعميم جامع بعد أن خصص بعض الأشياء بالذكر قبله ، وذلك لتأكيد شـمول قدرته لكل شىء ، ويلاحظ ما فيه من ايجاز قصر استدعاه مقام الجدل الذى يقتضى التركيز على اثبات الحجة ·

« **فسيقولون الله** » انه الجواب المتعين ، الذى لا يمكن الاجابة بغيره ، ويلاحظ ما فى التعبير من ايجاز بحذف الخبر والتقدير : الله يفعل ما ذكر من

الأمور لا غيره . وسر الحذف هنا هو ما يضيفه من جمال على التعبير يبدى عندما نقارن بينه وبين الكلام مع عدم الحذف . كما يلاحظ التعبير - بالسين - دون « سوف » وما يوحى به من سرعة ردهم وعدم احتياجهم الى وقت للتفكير لوضوح الأمر .

« **فقل أفلا تتقون** » . ياله من تناقض صارخ فى موقف هؤلاء المشركين.. كيف يقرون بأن ذلك كله لله ، ثم يتجرأون على فعل ما يعرضهم لعقابه وانتقامه بالاشراك به ؟ انه لما تنكره العقول ولا ترضاه ، الا يقى هؤلاء أنفسهم انتقام هذا الاله الذى يقرون بأنه مالك كل ذلك ومدبره فالاستفهام هنا لانكار عدم الاتقاء بمعنى انكار الواقع ، لا بمعنى انكار الوقوع . والفاء للعطف على مقدر يدل عليه النظم الكريم أى : أتعلمون ذلك فلا تقون أنفسكم عذابه الذى ذكر لكم ؟ (١) .

« **فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ، فأنى تصرفون** »

فذلكم الذى اعترفتم بأنه وحده المتصف بالصفات السابقة والمستحق لها : هو الله ، ربكم الحق ، لأن هذه هى صفات الالوهية واذا كان هذا هو الاله الحق فما يكون سواه ممن تزعمون أنهم شركاء له ؟ ليس بعد الحق الا الضلال والباطل ، فاشراككم به ضلال وباطل .

ويلاحظ ما فى التعبير بلام البعد فى اسم الاشارة من دلالة على عظمة المشار اليه جل وعلا ، وما فيه أيضا من طباق بين الحق والضلال . واذا كان الغرض هنا هو ابراز التناقض بين اقرارهم بالله خالقا ومدبرا ، وبين اشراكهم به ، فان أسلوب الطباق هو ما يقتضيه المقام لابراز المعنى وتأكيده وليس مجرد حلية لفظية لا يقتضيها المعنى . وقوله تعالى : « **بعد الحق** » المراد به - غير الحق - فاستعار « بعد » للتعبير بها عن المعنى لما فيها من دلالة على التباعد والانفصال الكامل بين الحق والباطل وما توحى به من تصوير المعنى وابرازه . واظهار - الحق - بدلا من ضميره لزيادة التقرير ومراعاة كمال المقابلة بينه وبين الضلال . أما الاستفهام بـ « ماذا » فهو استفهام انكارى ، ولكنه هنا انكار للوقوع ونفى له . أى : ليس غير الحق كما يلاحظ ما فى التعبير بالمصدر فى قوله « **الضلال** » من قصد المبالغة كأنه نفس الضلال والضياع .

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٣٢٤ .

« **فانى تصرفون** » · « **أنى** » بمعنى كيف · أى : كيف يصرفون عن عبادة الاله الحق الى الضلال وعبادة الأصنام ؟ والاستفهام أيضا انكارى ويتضمن التعجب من حالهم واختيارهم ، ويلاحظ ما فيه من توجيه الانكار الى الكيفية لا الى الفعل ، لأن فيه من المبالغة ما ليس فى توجيهه الى الفعل « لأن كل موجود لابد أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعا فاذا انتفت جميع الأحوال فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى · كما يلاحظ اختيار صيغة المبنى للمفعول للاشارة الى أن الانصراف من الحق الى الضلال مما لا يصدر عن عاقل بارادته ، وانما يقع عند وقوعه بالقسر من جهة صارف خارجى » (١) ·

« **كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون** » كما حقت الربوبية لله تعالى حقت كلمة ربك على الذين فسقوا · والمراد بـ « **كلمة ربك** » عدم ايمانهم ، فقوله تعالى : « **أنهم لا يؤمنون** » بدل من قوله تعالى : « **كلمة ربك** » ·· ويجوز أن يكون قوله تعالى : « **أنهم لا يؤمنون** » تعليل لحكم الله عليهم بعدم الايمان وأن ذلك بسبب انصرافهم الى الضلال ، والمراد ايعادهم بالعذاب وتهديدهم به · ويلاحظ ما فى التعبير الكريم من اختيار لفظ « **حقت** » لتأكيد أن ذلك أمر واقع لا محالة ، وكلمة « **فسقوا** » وما تصوره من خروجهم الكامل عن حيز الايمان · وتأكيد عدم ايمانهم بالله ·

« **قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فانى تؤفكون** » · تذكر الآيات تقريرات أخرى تؤدى الى اثبات التوحيد وحقيقته ،ولكنها تختلف عن الأولى وان كانت تؤدى الى نفس النتيجة المطلوبة ، فهناك كان المطلوب اقرارهم بأن الله وحده المستحق لصفات الألوهية لنصل الى نفيها عن الشركاء ، وهنا المطلوب الاقرار بنفى صفات الألوهية عن الشركاء لنصل الى استحقاق الله لها وانفراده بالألوهية وذلك تأكيدا للمعنى بعرضه فى صورة مختلفة يقوى بعضها بعضا ·

ويلاحظ هنا أن المطلوب منهم أن يقروا بعدم قدرة الشركاء على بدء الخلق واعادته ، مع أنهم ينكرون الاعادة والبعث · ولكن القرآن الكريم لم يقم لانكارهم هذا وزنا ، لأن فى اعترافهم بالقدرة على البدء دليلا على الاعادة بطريق الأولى ، فانكارهم كلا انكار ، فهو أمر بين لا ينكره الا مكابر

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٢٢٥ ·

متعنت · كما يلاحظ أن الاجابة هنا قد أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بقولها ، فهو يقررها لهم اعتمادا على تسليمهم بالمقدمات والنتائج · وقوله تعالى : « **قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده** » وان لم يكن نفس المطلوب منهم الأانه يتضمنه ، فالمطلوب اجابتهم بـ ـ لا ـ ليس من الشركاء من يفعل ذلك · وما أمر الرسول بقوله يؤدى اليه ، حيث عبر بطريق القصر ، الدال على انفراده به سبحانه · وفى هذا الأسلوب اشارة الى تعين الجواب وتحققه وأنهم لا يستطيعون الاجابة بغير ذلك · كما يلاحظ اعادة الجملة كلها فى الجواب غير محذوفة الخبر لمزيد التأكيد الذى يستدعيه المقام ·

« **فانى تؤفكون** » انكار لتركهم الحق أى كيف تقلبون من الحق الى الباطل وفيه من البلاغة ما سبقت الاشارة اليه فى قوله تعالى : « **فانى تصرفون** » ·

« **قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدى** » · تقرير آخر قصد به الاستدلال على الوحدانية ، والزام لهم بعد الزام ، وافحام بعد افحام ، فكل واحد كاف فى الدلالة ولكنه التأكيد الذى يقتضيه المقام وتستوجبه أهمية القضية ، ولا عجب فهى أساس الأمر كله · ويلاحظ ما فى التعبير من عدم النص على طرق الهداية فكأنه يقول لهم : هل من شركائكم من يستطيع الهداية بوجه من الوجوه ؟ وذلك أقوى فى الالزام والتبكيت · فلو عين طرق الهداية كارسال الرسل والتوفيق والتدبر لكان الاقرار بالعجز عن ذلك لا يستلزم الاقرار بالعجز عن القدرة على الهداية مطلقا · والمطلوب نفيها عنهم بأى وجه من الوجوه ·

كما يلاحظ تعدية الفعل « يهدى » مرة بـ « الى » ومرة باللام حين أسنده الى الله تعالى · وذلك لأن ـ هدى ـ يتعدى بـ « الى » لتضمنه معنى الانتهاء ، كما يتعدى ـ باللام ـ للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية · وهذا سر التعدية باللام فى جانب الله تعالى (١) ·

« **أفمن يهدى الى الحق احق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدى** » ؟ قوله تعالى : « **يهدى** » بالتشديد أصله يهتدى ، فأدغمت التاء فى الدال وكسرت الهاء لالتقاء الساكنين · والمعنى : أيهما أولى بالاتباع والعبادة ؟ ذلك القادر على الهداية أم ذلك العاجز لا عن هداية غيره فحسب بل هو

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٣٢٦ ·

عاجز أيضا أن يهتدى الا أن يهديه غيره ؟· وذلك شامل لكل من يتخذونهم شركاء من غير العقلاء ـ كالأصنام ـ والعقلاء ـ كعيسى عليه السلام والملائكة وعزير وغيرهم ، لأن العاقل محتاج فى هدايته الى هداية الله له · والاستفهام للتقريع والتبكيت والتعجب من غفلتهم وضلالهم ·

واسم التفضيل ـ أحق ـ اما أن يكون على أصله والمفضل عليه محذوف ·· تقديره كما مر أم من لا يهدى أحق ؟ واما بمعنى حقيقى وجدير بالاتباع ولعل الوجه الثانى انسب للمقام ·

« **فما لكم** » ماذا دهاكم وأى شىء لكم فى اتخاذكم شركاء لله تعالى ؟ والاستفهام للانكار والتوبيخ والتعجب اثارة لهم كى يثوبوا الى رشدهم ·

« **كيف تحكمون** » · كيف تحكمون بما يقضى العقل ببطلانه وتقوم كل الحجج القاطعة على نقضه ؟ والاستفهام هنا أيضا للانكار والتشنيع والتعجب والافحام · حثا لهم على الاقرار بوحدانية الله تعالى ·

« **وما يتبع أكثرهم الا ظنا ، ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ، ان الله عليم بما يفعلون** » ·

هذا بيان لحقيقة عقيدتهم فى اتخاذ الشركاء وأنهم لا يقيمونها على يقين وأدلة بل يتبعون ظنونا واهية · والعقائد لابد أن تقوم على العلم اليقينى لا على الظنون · ويلاحظ ما فى التعبير من قصر بـ « ما » و « الا » للتوكيد ، ثم تنكير ـ ظنا ـ وما يوحى به من استهانة به ، وأنه لا يغنى فى مجال العقائد · ثم تخصيص هذا الاتباع بـ « أكثرهم » للاشعار بأن بعضهم قد يتبعون العلم ، فيقفون على حقيقة التوحيد وبطلان الشرك لكن لا يقبلونه مكابرة وعنادا » (١) ثم الطباق بين « الظن » و « الحق » للاشارة الى ما يجب أن يكونوا عليه وما هم فيه فعلا من الأوهام والظنون ، التى لا تغنى شيئا ·

« **ان الله عليم بما يفعلون** » · المراد به التهديد والايعاد على أفعالهم وعدم استجابتهم للحق بعد ما تبين ··

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٣٢٧ ·

هذا هو النص الكريم ، فهل يستطيع أحد أن يقرأه أو يستمع اليه دون أن يجد نفسه مشدوداً اليه مستجمعاً كل شوارد فكره ، مركزاً انتباهه وحواسه ، ليلاحق هذه الاستفهامات المتتابعة والتساؤلات المتلاحقة ليعى مدلولها ، ويتدبر مراميها ، وينطق بالاجابة المتعينة التى لا يمارى فيها مجادل ؟ ان هذا هو سر ذلك الأسلوب وتأثيره ، فاذا أضفنا اليه ذلك التكرار للأدلة والحجج التى يكفى كل منها فى الالزام والافحام وما يؤديه هذا من توكيد للمعنى وتثبيت للفكرة · وبجانب كل ذلك اللمسات التى تضمنها النص الكريم والتى أشرنا اليها فى سياق دراستنا لبلاغته ، كل ذلك جعل منه قمة فى البلاغة والتأثير ، وهو ما تستلزمه الدعوة ويقتضيه الاقناع ·

وبعد ·· فهذا هو أسلوب الجدل القرآنى فى قضية الوحدانية كما لمسناه من دراستنا لبعض النصوص القرآنية التى يزخر الكتاب الكريم بفيض منها ، لم يترك لهم حجة الا نقضها ، ولم يدع شبهة الا أبطلها ولا باباً ينفذ منه شك الا أوصده ، ثم قدم الدليل تلو الدليل ، وأقام الشاهد اثر الشاهد ، بما لا يدع مجالا لمستريب أو حجة لمكابر ، ولون فى طرق عرضه ، فمن قصص مشوق يبث فى ثناياه ما يريد من أدلة وحجج ويعقب عليه بما يكشف عن وجه الحق جليا مشرقا ، الى منطق عقلى ، لا يمارى فيه أحد ، ولا يصد عنه الا من غلبت عليه شقوته فاثر العناد والاستكبار ، الى ضرب للأمثال التى تعرض الحجة فى صورة ملموسة يراها المكابر رأى العين ، الى تقريرهم واستنطاقهم بالحق الذى لا يمكن لهم الا أن يعترفوا به ويعلنوه ·

وكل ذلك فى عرض معجز ، يأخذ بمجامع الوجدان ويتسلل الى النفوس رضيت أم أبت بما يتضمنه من لمسات مؤثرة ، وصور موحية ولفتات عميقة ، حتى أوفى بكل ما يلزم بالحق ، ويكشف الزيف · فلا عذر لمعتذر ولا حجة لمجادل ، وصدق الله العظيم :

« وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، انا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها ، وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا » (١) ·

« وربك الغفور ذو الرحمة ، لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا » (٢) ·



(١) الكهف : ٢٩ ·

(٢) الكهف : ٥٨ ·

● الأسلوب التلقينى :

عند دراستنا للآية الكريمة : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** » (١) أشرنا الى الحكمة فى تعدد أساليب الدعوة ، وأن ذلك راجع الى اختلاف الناس فى استعدادهم لقبول الحق وتفاوت موقفهم منه ٠

ومن الأساليب التى عنى القرآن بها فى توجيه الدعوة ومحاولة الاقناع الأسلوب التلقينى ، وهو يعتمد على سوق القضايا ، وتقرير الحقيقة وبيانها بيانا شافيا ، تطمئن اليه العقول بما يتخلله من شواهد الصدق ، وتهش له القلوب بما تجده فيه من ارضاء لتطلعها الى معرفة الحق وارواء لظمئها الى الحقيقة ٠

وقد كان الناس ومايزالون مختلفين فى موقفهم من الدعوة منذ بدئها تبعا لطبيعة كل منهم واستعداده الفطرى ، وللعوامل الفكرية والاجتماعية التى تؤثر فى اتجاهه ، وتحدد موقفه ، وبالتالى تعين ما يناسبه من أسلوب ٠

لقد كانت هناك مجموعة من الباحثين عن الحق . بعد أن رفضوا الأصنام كفكرة صحيحة للألوهية ، فعاشوا فى قلق دائم وتطلع مستمر الى صوت يكشف لهم وجه الحقيقة ، ويأخذ بأيديهم الى ما يشفى نفوسهم مما تعانيه من حيرة ٠ وكان هناك بعض من أهل الكتاب الذين هالهم ما يجدونه فى كتبهم ــ بعد أن حرفت ــ من تناقض سلبهم أمن اليقين فى دينهم ، وروعهم ما لمسوه من خلافات بين المذاهب والفرق لديهم ، تقوم على أمور تمس جوهر العقيدة ، وهم يرون كل فريق يلعن الآخر ويكفره ٠ فأين الحق وسط كل هذه الآراء المتعارضة ؟

وكان هناك الكثيرون ممن تأثروا بدعوة الاسلام الى التجرد من كل العوامل التى تؤثر فى التفكير وتحول بين الانسان وبين الاستجابة للحق وازالة الأغشية التى تصنعها التقاليد والمصالح والعصبية ، والاتجاه بتجرد واخلاص الى الحق وحده ٠ وهناك الجماهير التى لا تملك من الثقافة ما يمكنها من أن تزن الأمور وتفهم الأدلة ، بل اعتادت أن تسمع لأصحاب الكلمة فى مجتمعاتها ٠

---

(١) النحل : ١٢٥ ٠

كل هؤلاء وغيرهم ، وجه اليهم القرآن الكريم دعوته بأسلوب تلقينى تقرر فيه الحقيقة واضحة جلية ، بريئة من كل تناقض ، مدعومة بشواهد صدقها محاطة بكل ما يؤكدها ويحمل على قبولها متى خلصت النيات ، وصلحت النفوس واتجهت الى الحق ٠

والآن الى بعض النصوص القرآنية التى تمثل هذا الأسلوب :

قال تعالى : « ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله ، فانى تؤفكون ٠ فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم ٠ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ٠ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ٠ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فاخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ٠ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون ٠ بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم ٠ ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل ٠ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (١) ٠

هذه الآيات الكريمة من سورة الأنعام ، احدى السور المكية وهى تعالج فى مجملها القضايا الأساسية فى العقيدة الاسلامية وعلى رأسها قضية التوحيد ، والآيات تعالج هذه القضية بأسلوب متميز ، يعتمد على تقرير بعض الحقائق الكونية الملموسة ، وتسوقها فى أسلوب تلقينى يكشف عن الحقيقة الخالصة ، ليتملاها العقل البشرى ويتدبر دلالتها التى تتجلى من ورائها يد المبدع وتقديره وتدبيره ، ويستقبلها أيضا الوجدان ليستشف وحيها وما تلقيه فى النفس من نور يهدى البصيرة ، ويأخذ بزمام النفس بكل قواها نحو الحق المبين ٠

---

(١) الانعام : ٩٥ ـ ١٠٣ ٠

وستظل هــذه الآيات نورا هــاديا للبشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، بل ان سناها ليزداد اشراقا وتألقا كلما مضى الزمن ، وحقق العــلم مزيدا من الانتصــارات فى مجال الكشف عن نواميس الكون وأسراره التى تتضافر كلها فى تأكيد عقيدة الالوهية والتوحيد ، ولا تدع مجالا لأى تفسير آخر لما فى الكون من تدبير معجــز واحكام خارق ، كما سنشير الى بعضه عند دراستنا للنص الكريم · وبالله التوفيق ومنه العون ·

« **ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى** » هذه حقيقة يصورها النص الكريم ويعرضها سافرة أمام عقــل الانسان ووجدانه ليتدبر أمــرها ويستكشف أسرارها ، وهو على يقين بأن تدبره واستكشافه سيضع يده حتما ـ اذا أخلص للحق وتخلى عن العناد والمكابرة ـ على الحقيقة الناطقة بأن الله وحده دون سواه هو القادر على ذلك ، ومن ثم فهو وحده الحقيق بالالوهية والعبودية ·

« **ان الله فالق الحب والنوى** » وفى كل لحظة تتكرر هذه العملية أمام أبصارنا · تنفلق الحبة الساكنة فتخرج منها نبتة ، والنواة الهامدة فتخرج منها شجرة · ولكن ما سر الحياة الكامنة فى الحبة أو النواة التى نشأت عنها النبتة أو الشجرة ؟ انه السر الالهى الذى لا يشاركه فيه أحد ، ولا يقدر على صنعه أحد · هــذه حقيقة يستوى فى ادراكها والاقــرار بها العــربى البسيط والعالم المتخصص ·

يقول جون زمزمان : « ان هناك قوة داخل البذرة تنبثق فى الظــروف الملائمة فتؤدى الى قيام كثير من التفاعلات المتشــابكة التى تعمــل معا فى توافق عجيب ، والبذرة ـ التى بدأت من اتحاد خليتين مجهريتين تتألف كل منهما من عدد كبير من العناصر والعمليات ـ تكون فردا جديدا يشق طريقه فى الحياة ويكون مشابها للنبات الذى أنتجه » · ثم يتســاءل « فمن الذى أوجــد تلك القوانين العــديدة التى تتحــكم فى وراثة الصفات وفى نمو النبات » ؟ ثم يجيب « يعتبر التســليم بوجود الخالق أمــرا بدهيا تفــرضه علينا عقولنا » (١) ·

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٢٢ ـ ١٢٤ ·

هذه اجابة العلم فى القرن العشرين وهى ذاتها ما تقرره الآية الكريمة « **ذلكم الله ، فانى تؤفكون** » . ولنتأمل النظم الكريم : ـ الفلق ـ هو الشق بابانة ، وهو لفظ يصور بجرسه ومعناه ما يحدث فى الحبة أو النواة عند خروج النبات منها .

« **يخرج الحى من الميت** » اذا اعتبرنا أن المراد من الحى هو النبات وبأن الميت هو الحبة أو النواة كان اطلاق الميت عليهـا من باب الاستعارة لأن بهما فى الحقيقة حياة ، ومبنى الاستعارة هو تشبيههما بالميت نظـرا لما يبدوان عليه من السـكون والخمود والاستعارة أبلغ فى اثبات قدرة الله . فاخراج الحى من ميت أعجب من اخراجه من ساكن خامد ، وقيل المعنى : يخرج ما ينمو كالنبات مما لا ينمو كالحب ، « **ومخرج الميت من الحى** » عكس الأول أى يخرج الحب من الشجرة مثلا .

وتلاحظ ما فى التعبير الكـريم من طباق بين الحى والميت ، يبرز ما بينهما من تضاد كامل ليكون تولد أحدهما من الآخر أبلغ فى اثبات القدرة وتأكيدها كما يلاحظ التعبير بالفعل المضارع فى « **يخرج الحى** » وبالاسم فى « **مخـرج الميت** » وسر هـذا التفاوت فى التعبير عن المعنيين أن اخراج الحى من الميت أدل على القدرة من اخراج الميت من الحى ، ثم هو أيضا أول الحالين والنظر أول ما يبدأ فيه ، فكان أولى بالعناية به ولهـذا عبر عنه بالمضارع قصدا الى استحضار صورته فى ذهن السامع . وهـذا التصوير والاستحضار انما يتمكن فى أدائهما الفعل المضـارع دون اسم الفاعل أو الماضى ، وسهل عطف الاسم على الفعل وحسـنه أن اسم الفـاعل فى معنى الفعل المضارع فكل واحد منهما يقدر بالآخر فلا مانع من عطفه عليه (١) .

« **ذلكم الله** » اشارة الى القـادر على ذلك سبحانه وفيه تنبيه الى أن استحقاقه الالوهية مبنى على اتصـافه تعـالى بالصفات المذكورة ويلاحظ ما فيه من معنى البعد تنبيها على رفعة شـأنه تعالى ، فالمقام مقام اثبات القدرة وتعظيم صاحبها .

« **فأنى تؤفكون** » أى كيف تصرفون عن عبادته الى غيره . والاستفهام انكارى قصد به التقريع والتعجب . اشـارة لهم وحثا على اتباع ما يوجبه التفكير السليم .

---

(١) انظر هامش تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧ ـ ٣٨ .

« **فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا** » مشهد ثان يعرضه الكتاب الحكيم على العقول والقلوب لتدرك دلالته وايحاءه وتتبين طريقها الى الحق · والاصباح مصدر سمى به الصبح · والمراد فالق ظلمه الاصباح وهى الغبش فى آخر الليل لينبثق عنها نور الفجر واشراقة الصباح ، أو فالق الاصباح الذى هو عمود الفجر عن بياض النهار واسفاره ·

ويلاحظ ما فى التعبير من تصوير لظاهرة انبثاق النور فى الصباح وتلاشى الظلمة شيئا فشيئا · كأنها شىء حسى ينشق فيخرج منه النور · واهنا ضعيفا ثم ينمو وينتشر تثبيتا للمعنى واثارة للخيال ، كما يلاحظ التناسق البديع بين هذه الصورة وصورة انفلاق الحبة عن النبتة الضعيفة لا تلبث أن تقوى فتطول وتنتشر فروعها ·

« **وجعل الليل سكنا** » والسكن هو ما يسكن اليه الانسان ويطمئن استئناسا به واستروحا اليه ، أطلق على الليل لأنه يطمئن اليه المجهد فى النهار فيجد فيه راحته وجمامه ، ويلاحظ هنا أيضا التناسق بين الحى والميت فى الصورة الأولى والنهار والليل فى الصورة الثانية · هذا التناسق الذى يثير الانتباه ·

« **والشمس والقمر حسبانا** » الحسبان مصدر حسب · والمعنى أن الشمس والقمر مجعولان حسبانا أى على حسبان · فحركتهما محسوبة مقدرة وحجمهما محسوب مقدر ، وأبعادهما محسوبة مقدرة ، وكل ما فيهما مقدر محسوب ، ولا يمكن أن تصلح الحياة الا بهذا التقدير والحساب ، فلو كانا على غير ما قدرا عليه لاستحالت الحياة وفسد الكون ·

هذا التقدير وهذا الحساب الدقيق الذى ينشأ عنه تعاقب الليل والنهار وصلاحية الأرض للحياة هو تقدير العزيز القوى القاهر الذى لا يستعصى عليه شىء ، العليم الذى يحيط علمه بكل شىء ·

وهذا المشهد وما فيه من تعاقب الليل والنهار فى انتظام لا يتخلف ولا يختل ، وكون الشمس والقمر بل وكل ما فى الكون بهذا التقدير الدقيق المعجز الدال على العزيز العليم ، يجد فيه العربى البسيط ما يقنع عقله ويملأ قلبه اطمئنانا ويقينا ، كما يجد العالم المتخصص فيه ذلك أيضا مدعما

بالدليل العلمى الذى كشف عن أسرار وأسرار تلزم العقل بالاقرار وتغمر القلب باليقين (١) ٠

ولا يفوتنا أن نشير الى ما فى التعبير بالمصدر « حسبانا » من مبالغة يقتضيها المقام بل يحتمها كما سبق ٠ وأن نشير أيضا الى ما فى « الشمس والقمر » من التناسب الذى يطلقون عليه مراعاة النظير ٠ كما نشير ايضا الى ما فى الفاصلة وهى قوله تعالى : « **العزيز العليم** » من اطمئنان فى موضعها ، وتعلق معناها بمعنى الآية كلها ، حتى لتوحى الآية بها قبل النطق بها ٠

« **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** » مشهد آخر تعرضه الآيات الكريمة وهو شديد الارتباط بالمشهد السابق ومتمم له ، فقد كانوا وما يزالون يهتدون بالنجوم فى متاهات البر والبحر ٠ ولا يعنى جعلها للاهتداء أن ذلك هو غاية خلقها فقط ، بل هو ذكر لبعض منافعها ، التى يقتضيها المقام ، وذلك لظهور هذه الفائدة لهم ٠ فهم يهتدون بها فى أسفارهم المستمرة وسط الصحراء المتشابهة الدروب والمسالك ، وكذلك فى البحر الذى لا يحدد الاتجاه فيه سوى النجوم كمعالم ثابتة للجهات ٠

ويلاحظ ما فى التعبير من استعارة الظلمات للمتاهات والمسالك المتشابهة فى البر والبحر والاستعارة أبلغ حيث حاجة من فى الظلمة الى الضوء أشد ممن اشتبهت عليه السبل ٠ وما فى تقديم الجار والمجرور « لكم » على المفعول الصريح « النجوم » من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ، فان السامع لقوله تعالى : « **جعل لكم** » يستشرف الى معرفة هذا الشىء الذى جعل له فاذا سمعه تمكن فى نفسه ٠ كما نشير الى التناسب بين البر والبحر ٠ وبين الفاصلة والآية ، فان الاهتداء بالنجوم فى ظلمات البر والبحر والاستدلال بها على الصانع الحكيم يحتاج الى قوم يعلمون حقا ٠

---

(١) انظر كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » مقال « نشاة العالم هل هى مصادفة او قصد » لعالم الطبيعة فرانك الن ٠ حيث يفصل ملاءمة الارض للحياة مثبتا ان ما عليه الكون من تقدير وحساب لا تصلح الحياة الا به ، ولو تغير منه شىء ولو يسيرا لانمحت الحياة ص ٥ ــ ١٠ ٠

« **وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون** » بعد هذا التطواف فى ملكوت السموات والأرض تعود بنا الآيات الى مشهد آخر ٠ وهو هنا النفس الانسانية ذاتها ٠ كيف أنشأها الله ، وكيف خلق هذا السيل المتتابع من البشر منها ، وكيف جعل لكل نفس مستقرا فى أصلاب الرجال ومستودعا فى أرحام النساء ، أو مستقرا فوق الأرض ومستودعا تحتها بعد الموت ٠ ولعمرى ان فى كل جزئية من تلك الأمور لأسرارا تحتاج فى تأملها الى أعمار ، وكلها ناطق بالقدرة القادرة ، ودليل جلى على الوحدانية والتفرد بالالوهية ٠ وستبقى الآية الكريمة تدعو الانسانية الى ربها وتهديها اليه ، وكلما ازدادوا علما ازداد يقينهم واستسلامهم ٠

ولنتأمل ما فى اختيار الألفاظ ، ووضع كل فى الموضع الذى لا يغنى فيه غيره وأول ذلك لفظ « **أنشأ** » ودلالته على بدء الخلق على غير مثال وهذا ما يناسب المقام ، و « **مستقر ومستودع** » واطلاق الأول على كون الانسان فى الأصلاب أو فوق الأرض لأنهما مقره الطبعى ، واطلاق المستودع على كونه فى الأرحام أو تحت الأرض بعد الموت لأن كليهما ليس بمقر طبعى بل هى مرحلة سينتقل بعدها الى الولادة والاستقرار على الأرض أو يبعث ويستقر فى دار الخلود ٠ ثم التعبير فى الفاصلة هنا بـ « يفقهون » ، وعقب النجوم هناك بـ « يعلمون » ، ذلك لأن ما هنا من الانشاء من نفس واحدة والانتقال من مرحلة الى مرحلة والتنقل فى أحوال مختلفة فيه من دقة التدبير ولطائف صنع الله تعالى ما يحتاج فى ادراكه الى الفقه خاصة لا الى مجرد العلم ٠ ففى الفقه ـ وهو استعمال الفطنة وتدقيق النظر والتعمق فى استكناه الحقائق ـ ما يجعله هو المناسب للمقام ٠

« **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** » ٠

انتقال الى مشهد جديد يعرضه علينا القرآن الكريم لتأمله وتدبر دلالته على قدرته تعالى وسعة رحمته ، فالمشهد هنا يعرض علينا ألوانا من نعم الله التى خلقها لتدبير أقواتنا وما به قوام حياتنا ٠ فهو الذى أنزل من السماء ماء فجعل منه كل شىء حى وأخرج به أنواع النبات والشجر ، ثم يعرضها علينا فى شتى أطوارها وأشكالها ويدعونا الى النظر اليها نظر تفكير واعتبار ٠

« **وهو الذى انزل من السماء ماء** » وكل انسان يدرك حاجة الحياة الى الماء ، فيه قوامها واستمرارها • وهو الأساس فى حياة جميع الأحياء •

ولكن لماذا وجه نظرنا الى الماء النازل من السماء ؟ » من المعروف أن ماء المحيطات لا يصلح للارواء ولا للانبات ، وهنا يرينا الله قدرته العجيبة وآيته الكبرى •

فينشىء فى طبقات الهواء معملا كونيا معدا للتقطير واستخلاص الماء العذب الزلال فتنطلق أشعة الشمس تبخر الماء من المحيطات ، ثم يرفع الهواء البخار الى طبقات الجو العليا ، ثم تحمله الرياح لتقطع عشرات أو مئات الأميال فيتكاثف السحاب فى طبقات الجو العليا أو يصطدم بقمم الجبال فيسقط أمطارا غزيرة تتكون منها الأنهار والجداول والوديان الحافلة بالماء العذب ، ثم تتدفق الأنهار عائدة الى المحيطات بعد أن ينال الانسان والحيوان والنبات حظه من الارتواء • ولكن المعمل الكونى الجبار يعيد عملية التبخير والامطار • واذا تعطل هذا المعمل الكونى ، فماذا يكون مصير الانسان ؟ (١) •

ثم من ذا الذى يستطيع ذلك ، ومن دبره وقدره هذا التقدير المعجز ؟ انه الله •• بهذا تنطق الفطرة ، ويهتف العقل ، ويعلنه القرآن الكريم ثم لنتأمل ما يلقيه المشهد فى الوجدان من احساس ببر الله تعالى وعنايته وعطفه علينا ، وما يستوجبه هذا من العرفان والتقرب اليه بالعبادة • ولا يخفى ما فى التعبير من استعمال « السماء » بمعنى السحاب على سبيل المجاز المرسل • والتعبير بالسماء أبلغ ، لما يوحى به من الكثرة والعموم ، وذلك هو المناسب لمقام الامتنان بكثرة النعم ، والتذكير بها •

« **فاخرجنا به نبات كل شىء** » نعم هذه حقيقة ، فكل نبات يكون بذرة فى باطن الثمرة ، ثم يتصل بها الماء فتنبت خلاياها وتبدأ فى التكاثر آلاف المرات ، وتأخذ فى التخصيص ، فيمتد بعضها فى صورة جذر الى الأعماق ويتفرع الى شعيرات دقيقة تمتص ما يلزمها من عناصر لتغذيتها تستخلصها من التربة ، ويمتد بعضها فى صورة جذع الى أعلى فيشق أديم الأرض وتظهر الأوراق ويستمر النمو • ونلاحظ أسلوب الالتفات فى قوله تعالى • « **فاخرجنا** » حيث أسنده الى نون العظمة لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله •

---

(١) انظر فلسفة المعرفة فى القرآن الكريم ص ٢٦١ ـ ٢٦٣ •

« **فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا** » شرع فى تفصيل ما أجمله من الاخراج وفى التفصيل بعد الاجمال تشويق للنفس وتأكيد للمعانى • وأول ما أشار اليه تلك الخضرة التى نراها فى كل نبات • وهى لمسة دالة على أهمية تلك الخضرة ودورها • ولقد توصل العلم الى الكشف عن هذا الدور ، وهو دور لا يقتصر على حياة النبات وحده بل يمتد تأثيره لايجاد توازن لا تقوم الحياة كلها الا به • فمن المعروف أن الأوراق تمتص أشعة الشمس فتحولها الى ما سماه القرآن الكريم « خضرا » ويسميه العلماء « الكلوروفل » وبه يمتص النبات « ثانى أوكسيد الكربون » من الجو مادام ضوء الشمس موجودا وهو عنصر هام فى بناء النبات ، ويخرج « الأكسوجين » وهو ضرورى لحياة الانسان وغيره من الأحياء فاذا غابت الشمس عكس الأمر فامتصت الأوراق « الأكسوجين » وأخرجت « ثانى أكسيد الكربون » • وهكذا يحدث التوازن الذى لا تمضى الحياة بدونه • فيالها من لمسة تلفت أنظارنا الى هذا السر العجيب •• وأنى لمحمد عليه الصلاة والسلام فى بيئته الأمية أن يعرف ذلك ؟

ثم يستمر نمو النبات وينتهى أمره بتكوين الأزهار ثم الأثمار ومنها يتخذ الانسان الغذاء والملبس والمأوى •

ويلاحظ ما فى النظم من تقديم الجار والمجرور « منه » على المفعول الصريح « خضرا » للتشويق الى المؤخر • كما يلاحظ وصف الحب بأنه متراكب ، وما فيه من لفت الأنظار الى صورته الجميلة المعجبة •

« **ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه** » تفصيل لأحوال الشجر ، فالطلع يخرج من النخل ومنه يكون القنوان ، جمع قنو وهو عنقود النخلة ، كما يخرج بالماء جنات من أعناب والزيتون والرمان بعضه متشابه وبعضه غير متشابه • ولنتأمل النظم الكريم وما به من لمسات موحية ••

« **قنوان دانية** » المراد قريبة من القاطف سهلة المجتنى ، ويلاحظ اقتصاره عليها لدلالتها على مقابلها ، ولما فيها من يسر فى الانتفاع بقربها من القاطف • وهو المناسب لمقام التذكير بالنعم • « **وجنات من أعناب** » ويلاحظ اختصاص الأعناب دون غيرها من الأجناس الأخرى بذكر جنات

معها دون الاكتفاء بذكر الجنس كما فى الأجناس الأخرى · ولعل ذلك لأن الانتفاع بهذا الجنس لا يتأتى غالبا الا عند اجتماع طائفة من أفراده (١) ·

« **والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه** » ويلاحظ ما فى التعبير من نصبهما على الاختصاص للاشارة الى عزة هذين الصنفين ، كما يلاحظ ما فيه من ايجاز فقد اكتفى بذكر الحال الخاصة بالزيتون عن ذكر الحال الخاصة بالرمان ، لدلالته عليه والمعنى : الزيتون مشتبها وغير متشابه والرمان كذلك ويجوز العكس بجعل الحال المذكورة من الرمان والمحذوف حال الزيتون · أما قوله تعالى : « **مشتبها وغير متشابه** » فهى لمسة تلفت عقولنا الى دلالتها على القدرة المبدعة ، فاننا نرى الشجرتين تتفقان فى الجنس وتسقيان بماء واحد وتنبتان فى أرض واحدة ومع ذلك نجد التفاوت بين ثمرهما فى اللون والحجم والطعم ، فكيف يحدث ذلك ؟ وأى سر فى تلك الشجرة يؤدى الى هذا الاختلاف والتمايز ؟ انها القدرة القادرة والتدبير المعجز ··

« **انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه** » دعوة للتأمل والنظر بعين الاعتبار والاستبصار ، والمراد بالينع هو بلوغ الثمرة نضجها ، وأنها لعبرة لمن يعتبر سواء فى ذلك تدرجها من الصغر واكتمالها شيئا فشيئا حتى تكون صالحة للانتفاع بها · أو مظهرها البديع المعجب الذى يرضى النفس ويلمس الوجدان ·

« **ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** » اشارة الى ما أمر الله بالنظر اليه فان فيه آيات شاهدة على وجود القادر ووحدانيته ، فان حدوثها من أصل واحد وتشعبها الى أجناس متعددة ، وتطورها من حال الى حال لا يمكن أن يتم الا بقدرة صانع حكيم لا يشاركه فى صنعه أحد ، وهذا يعمق الايمان ويؤكد اليقين · ولهذا كانت الفاصلة « **لقوم يؤمنون** » · أى أن هذه الآيات الظاهرة لا ينتفع بها الا أصحاب القلوب المتفتحة المتصلة بالله ، المؤمنة به ، أما أصحاب القلوب المغلقة فانها تمر عليها دون أن تحرك بها ساكناً أو تستجيب لما ترشد اليه · ويلاحظ التأكيد بأن واللام وكذلك تقديم الجار والمجرور فى « ذلكم » وما يوحى به اللام من بعد منزلة الآيات وكل ذلك يوحى بمزيد من الاهتمام والعناية ·

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ١٢٣ ·

« **وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون** » · مع كل هذه الآيات البينات على وحدانية الله تعالى ، أيليق بعاقل أن يتخذ له شريكا ؟ انهم يجعلون لله شركاء ، ومن هم ؟ الجن ، مع أن الله هو خالق الجن ، فهل يمكن أن يكون المخلوق شريكا لخالقه فى الألوهية واستحقاق العبادة ؟ وافتروا أيضا بلا دليل من عقل أو شرع أن له بنين وبنات · ولنتأمل النظم الكريم ·

وأول ذلك تقديم الشركاء على الجن والسر فى هذا كما يقول عبد القاهر: « ان لتقديم الشركاء حسنا وروعة ومأخذا من القلوب · أنت لا تجد شيئا منه ان أنت أخرت فقلت : « وجعلوا الجن شركاء لله » ·· والسبب فى هذا هو أن للتقديم فائدة شريفة لا سبيل اليها مع التأخير ، لأنه اذا كان محصول المعنى انهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم ، فان تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ويفيد معه معنى آخر ، وهو أنه ما كان ينبغى ان يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن ، فاذا أخر فقيل : « وجعلوا الجن شركاء » لم يفد ذلك · ولم يكن فيه أكثر من الاخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى ·· وذلك أن التقدير يكون مع التقديم أن « شركاء » مفعول أول لجعل و « لله » فى موضع المفعول الثانى · ويكون « الجن » على كلام ثان وعلى تقدير أنه كأنما قيل : فمن جعلوا شركاء لله تعالى ؟ فقيل : الجن · واذا كان التقدير فى « شركاء » انه مفعول أول · و « لله » فى موضع المفعول الثانى وقع الانكار على كون شركاء لله تعالى على الاطلاق من غير اختصاص شىء دون شىء ، وحصل من ذلك ان اتخاذ الشركاء من غير الجن قد دخل فى الانكار دخول اتخاذه من الجن ، لأن الصفة اذا ذكرت غير مجراة على شىء كان الذى يعلق بها من النفى عاما فى كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفة (١) ·

« **وخلقهم** » الضمير يعود على الشركاء · والجملة حال منهم أى والحال أن الله قد خلقهم ، فكيف يجعلون مخلوقه شريكا له ؟ · وهكذا يرد عليهم القرآن بلفظة واحدة · وهذا ايجاز معجز ··

« **وخرقوا له بنين وبنات** » خرقوا أى افتعلوا وافتروا ، ولكن التعبير بالخرق فيه جرس خاص يرسم مشهد الطلوع بالقرية التى تخرق وتشق (٢) ·

---

(١) انظر دلائل الاعجاز ص ٢٢١ ـ ١٢٢ ·

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٢ ص ١١٦٢ ·

« **بغير علم** » فهو ادعاء لا سند له ومن ثم لا يصح أن يقوم على أساسه عقيدة · والمقصود بالجن الملائكة سموا به لاجتنانهم · وقيل الشياطين اشارة الى من كانوا يزعمون أن كل خير ، خلقه الله ، وكل شر ، خلقه الشيطان وهو رأى الثنوية (١) · أما البنات والبنون فالمعنى به ادعاء اليهود بأن عزيرا ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله ، وما كانت تزعمه العرب بأن الملائكة بنات الله ·

« **سبحانه وتعالى عما يصفون** » تنزه وبعد عما يصفون به ، تأكيد لوحدانيته تعالى وتنزيه له عما يزعمون ·

« **بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم · ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل · لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** » ·

« **بديع السموات والأرض** » معناه أنه تعالى مبدع السموات والأرض ومخترعهما على غير مثال يحتذيه · فاختيار لفظ « **بديع** » دون ما يؤدى معنى الخلق للدلالة على معنى الاختراع والابتكار دون قياس على شيء · وقيل انه من اضافة الصفة المشبهة الى الفاعل تشبيها لها باسم الفاعل والمعنى : بديع سماواته وأرضه من بدع اذا كان على نمط عجيب وشكل فائق ، وحسن رائق (٢) · والأول أولى لقوته فى الاستدلال على الوحدانية ·

« **أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة** » · لقد كان العرب لا يدعون أن له صاحبة ، وهذا أمر مسلم لديهم · فاعتمد على ما يسلمون به فى نفى أن يكون له ولد فان قانون التناسل أن ينشأ الولد من أب وأم ، وقد يوجد بلا أب ولكن لا يمكن أن يوجد بلا أم ، وأنتم تسلمون بأنه تعالى ليس له صاحبة فكيف يكون له ولد ؟ فالاستفهام هنا انكارى بمعنى « كيف » لتسفيههم وبيان خطلهم ·

« **وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم** » نفى للولد بطريقة أخرى وهى أنه تعالى خلق كل شيء ، ومما خلقه ، ما سموه ولدا ، فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولدا لخالقه · ثم ان الله عليم بكل شيء من شأنه أن يعلم ،

---

(١) الثنوية : ديانة فارسية قديمة صاحبها « زرادشت » تقوم على أساس أن للعالم الهين : اله للخير واله للشر · انظر الفلسفة الاسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانية ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ·

(٢) انظر تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ١٢٤ ·

مما كان أو سيكون أزلا وأبدا ، وأنتم لا علم لكم ، بل انها ظنون وأوهام تلك التى تدعونها ولا يقوم عليها دليل ٠

« وفيما تقدم ابطال للولد من ثلاثة أوجه :

أحدها « أن مبدع السموات والأرض ـ وهى أجسام ـ لا يستقيم أن يوصف بالولادة ٠ لأن الولادة من صفات الأجسام ٠

ومخترع الأجسام لا يكون جسما ٠

والثانى ، أن الولادة لا تكون الا بين زوجين من جنس واحد ، وهو متعال عن المجالس ، فلم يصح ان تكون له صاحبة ٠ فلم تصح الولادة ٠

الثالث ، أنه ما من شيء الا هو خالقه والعالم به ٠ ومن كان بهذه الصفة كان غنيا عن كل شيء والولد انما يطلبه المحتاج » (١) ٠

« **ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه** » ٠

« **ذلكم** » اشارة الى المتصف بما سبق من الصفات ٠ ويلاحظ ما فيه من معنى البعد للتنبيه على علو شأنه سبحانه ٠ ثم يخبر عنه بأخبار أربعة : « **الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شيء** » ٠ وكلها توجب له الوحدانية والتفرد بالعبادة ولهذا رتبها عليها فقال : فاعبده ٠ ولا يخفى ما فى تعدد الاخبار من تأكيد لاستحقاق سبحانه العبادة ، ووجوب تفرده بها ٠

« **وهو على كل شيء وكيل** » أى متولى أمور جميع مخلوقاته وانتم منها من شأنه ذلك يتقرب اليه بالعبادة والطاعة لانجاح المآرب وتحقيق الآمال ويلاحظ ما فيه من ترغيب واستمالة لقلوبهم ٠

« **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** » وصف لله تعالى يؤكد تعاليه سبحانه عما يشركون ، فانه ليس كمثله شيء ـ سبحانه ـ فهو لا تدركه الأبصار ٠ والأبصار جمع بصر وهو حاسة النظر ، وقد يطلق على العين مجازا لأنها محل الحاسة ٠ والحواس البشرية لكل منها طاقة لا تتجاوزها ، وقد زود بها الانسان وقدرت طاقاتها لادراك آثار الوجود الالهى فى الكون ٠ وتدبير حياته بالانتفاع بما فى الكون من أسباب الحياة وادراك العبرة الهادية الى الله ٠ هذا هو مداها ومجالها ٠ أما ذاته تعالى فانها لم تزود بما يمكنها من ادراكها ، فهو ليس كمثله شيء ، فلا تدركه الأبصار ٠ أما هو سبحانه فهو خبير بكل شيء يحيط علمه بكل شيء ،

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٤١ ٠

فادراكه سبحانه للأشياء كناية عن احاطة علمه بها ، بالكيفية التى يعلمها هو سبحانه ٠

« **وهو اللطيف الخبير** » تعليل للحكمين السابقين على طريقة اللف والنشر ٠ والمعنى : لا تحركه الأبصار لأنه اللطيف ٠ وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير ٠ وفى ذلك تأكيد للمعنى بذكر سببه علته ٠ والمقام يقتضى ذلك لغرابة الحكم ، وواضح ما فى التعبير أيضا من تعريف للمسند اليه بلام الجنس المفيد للقصر تأكيدا للصفة وتقريرا لها ٠

وبعد٠٠فهذا هو النص الكريم يطوف بنا فى ملكوت السموات والأرض ، يعرض آياتها وبدائعها وكل شاهدة على وحدانيته سبحانه هادية الى الحق لمن أخلص النية واستجاب لما تمليه الفطرة وتهدى اليه العقول ٠ بالاضافة الى ما فيه من ألوان بلاغية دعا اليها المقام وكست الأسلوب اعجازا وجمالا يستهوى الأفئدة ويأخذ بمجامع القلوب ٠

هذا ٠٠ وقد رأينا تعدد الأساليب القرآنية فى الدعوة الى الوحدانية بما جعل من هذه الأساليب علاجا للانسانية فى مستوياتها المختلفة « واذا كان علماء النفس والاجتماع ومن وكل اليهم توجيه الجماهير يقررون أن الناس مختلفون فى مستوياتهم العقلية والوجدانية والعاطفية ، وأن ذلك يتطلب اختلاف الوسيلة عند مخاطبتهم ، أو محاولة جذبهم الى مبدأ أو فكرة فان الاسلام قد سبقهم فى تقرير ذلك وفى تطبيقه » (١) فمن ترهيب للمتغطرسين الذين يصرون على المكابرة على الرغم من ظهور الدليل ٠ الى ترغيب تستمال به أكثر القلوب التى تريد ثمنا لكل تصرف يحدث منهم ٠ الى جدل يسوق المقدمات وينطق بالنتيجة أو يطالب السامع باستنتاجها ٠ ويزيل الشبهة التى أدت الى اختلاط الأمر ، وهو أسلوب صالح لأرباب الثقافة ومن عندهم قدرة على التمييز والفهم ، الى أسلوب تلقينى يسوق الحق جليا واضحا ، يخاطب به الجماهير التى لا نصيب لها من ثقافة تمكنها من أن تزن الأمور وتفهم الأدلة ٠ وبهذا التعدد فى الأساليب كان القرآن قمة فى رعاية ما يقتضيه حال المدعوين ، بالاضافة الى ما فى صياغة هذه الأساليب وما تضمنته من ألوان بلاغية تمثلت فى اختيار ألفاظها وخصائص نظمها وتفاوت ألوان التعبير فيها بين حقيقية ومجازية مما لمسناه فى عرضنا للنصوص ٠ وبهذا كله كان القرآن الكريم معجزا ببلاغته متفردا فى سحره وتأثيره ٠

★★★

---

(١) انظر الانسان فى القرآن الكريم ص ٢٥٣ ٠

الفصل الثانى

البلاغة فى الدعوة الى العبادات

قضى سيدنا رسول الله ﷺ بمكة المكرمة ثلاثة عشر عاما داعيا الى الله، يتنزل القرآن الكريم على قلبه الطاهر ، فينذر به قوما لدا ، ظل يدعوهم طوال هذه السنوات منذرا ومبشرا ، مجادلا ومعلما ، صابرا على اذاهم ، حريصا على انقاذهم ·

وكان موضوع الدعوة طوال هذه الفترة يدور فى مجمله حول أمور العقيدة الاسلامية باعتبارها الأساس الذى يقوم عليه الالزام بتشريعات الاسلام كلها سواء فى ذلك العبادات أو المعاملات أو القيم الاسلامية للسلوك الفاضل ·

فالخطوة الأولى هى تثبيت دعائم العقيدة ، وتغيير اتجاه القلوب ، وتحويلها الى الله الواحد ، فاذا تم ذلك تهيأ القلب لتلقى هدى الله ، وتفتحت النفس لقبول تشريعه ، والاستجابة لأحكامه · وعلى ذلك فان المدعوين الى أداء العبادات أو الى الالتزام بأحكام المعاملات ، هم مؤمنون مذعنون ليسوا فى حاجة الى اقناع أو جدل · ولكن العبادات والمعاملات مع ذلك تكاليف وواجبات ، تلزمهم بأن يبذلوا ويضحوا ، وتحل لهم وتحرم عليهم · انها فى عبارة جامعة تبدل نمط حياتهم كلها فكرا وسلوكا ومشاعر وعواطف ·

والنفس الانسانية ليست أمرا هينا تؤمر فتطيع ، ولكنها تضم أشتاتا من النوازع والأهواء ، وألوانا من الملكات والمواهب والقوى الكامنة وعديدا من الأشواق الروحية والحاجات المادية · وهذا الحشد الهائل المركوز فى فطرتها لا يسير كله فى اتجاه واحد ، بل ان بعضه ينزع بها نحو التسامى والارتقاء فى مدارج الانسانية الفاضلة ، بينما ينحرف بها بعضها الآخر متدنيا فى مدارك الحيوانية الهابطة · ونجد فيها الشىء ونقيضه جنبا الى جنب يتصارعان فى معركة لا تهدأ ولا تنتهى ، كل يجذبها الى ناحيته ويحقق تأثيره فيها · وقد يتعاوران النصر والهزيمة ، وقد يشتد ساعد أحدهما فيحقق الغلبة على صاحبه ، ويخضعها لسلطانه ، وقد يتجاذبان فلا يستطيع أحدهما

زحزحة الآخر عن موقفه فيتعايشان فى توازن قد يطول استمراره ، وقد ينتهى عندما يحس أحدهما غفلة من صاحبه فينشط فى العمل ويستأثر بالسيطرة حتى يفيق الآخر فيعود التوازن ويتحقق الاعتدال · والنفس الانسانية هى جماع كل هذه المتناقضات ، ومستقر لجميع تلك النزعات ، تجد بها الخوف والرجاء والسماحة والشح ، والشجاعة والجبن ، والحب والكره ، والالتزام والتحرر، والايجابية والسلبية ، والجماعية والأنانية ، وعشرات غيرها من القوى والنوازع المركوزة فى الفطرة الانسانية · « ان الله قد خلق الانسان على هذه الصورة لأنه سبحانه يريده على هذه الصورة · وجعل الخير كل الخير للوجود الانسانى أن يعمل الانسان بكيانه المجتمع المترابط ، لا بأى من عنصريه دون الآخر ، ولا بالعنصرين منفصلين كل يسير فى اتجاه · انما هى فقط مسألة من يحكم هذا المزاج المترابط المكون من الطين والروح » (١) وصدق الله العظيم : « **ونفس وما سواها · فألهمها فجورها وتقواها** » (٢) ·

ومن هنا كان أسلوب القرآن فى الدعوة الى العبادات والمعاملات لا يكتفى ببيان الأحكام وتوضيحها ، على سنن البيان فى القوانين الوضعية والدساتير البشرية ، ولكنه يوجه الجزء الأكبر من عنايته الى النفس البشرية يزكى معانى الفضيلة فيها ، وينمى نوازع الخير التى تدفعها الى الاستجابة والانقياد ، وفى نفس الوقت يتوجه الى جوانب الشر فيحد من سطوتها ، ويغل من حدتها ليجد الخير سبيلا الى قيادة النفس والزامها الصراط المستقيم ·

وسندرس ان شاء الله موضوع الانفاق فى سبيل الله ، كنموذج للعبادات التى يدعو اليها القرآن الكريم ·

● الدعوة الى الانفاق فى سبيل الله :

الانفاق فى سبيل الله كان من الأهداف التى عنى القرآن الكريم بالدعوة اليها سواء فى العهد المكى أو المدنى · ولكن دعوته تلك مرت بمرحلتين اقتضاهما تطور المجتمع الاسلامى · وكانت المرحلة الأولى دعوة عامة الى ما تقتضيه الاخوة الدينية من بذل وتعاون فى الوفاء بحاجات المجتمع ، والمشاركة فيما تفرضه الدعوة من أعباء مالية لا سبيل الى تدبيرها الا بأن

---

(١) دراسات فى النفس الانسانية ص ٣٣٢ ·

(٢) الشمس : ٧ ، ٨ ·

يجود القادرون بما تسمح به نفوسهم · وفى هذا الطور لم يحدد القرآن الكريم مقدارا يلزمهم به ولا أنواعا مالية ينفقون منها ، تاركا ذلك الى أريحيتهم واستجابتهم لما تحدثه الدعوة فى نفوسهم من حب للخير ومسارعة اليه ·

أما المرحلة الثانية فقد دعا اليها انتقال المجتمع الاسلامى الى طور جديد بعد استقرار المسلمين بالمدينة وتأسيس النواة الأولى للدولة الاسلامية وما تبع ذلك من تنظيم يحقق لها موارد ثابتة تكفى لتغطية احتياجاتها للدفاع عنها والتكافل الاجتماعى بين أفرادها ، وسائر ما يتطلبه المجتمع فى وضعه الجديد · وفى هذه المرحلة أعلنت فريضة الزكاة وأصبحت ركنا من أركان الاسلام · وبين القرآن مصارفها وأشار اشارة مجملة الى ما يجب اخراج الزكاة منه · وامتد بيان الرسول ﷺ الى تحديد مقاديرها ، وتفصيل الأنواع التى تجب فيها ·

ولكن هذا التحديد لم يكن بديلا من الدعوة العامة الى الانفاق والبذل بل كان بيانا للحد الأدنى الذى يجب أداؤه ، ولا يجوز التخلف عنه أو بذل ما دونه · وبقى باب الدعوة الى الانفاق مفتوحا يرغب فيه القرآن الكريم ببيانه المعجز وبلاغته الساحرة · وأصبحت كلمة ــ الزكاة ــ علما على هذا القدر الواجب ، واستعملت كلمة ــ الصدقة ــ استعمالا مشتركا تطلق على الزكاة كما تطلق على الانفاق التطوعى المنبعث من رغبة خالصة فى رضوان الله واستجابة للمعانى الكريمة التى غرسها الاسلام فى النفوس ·

والمال فى نفس الانسان منزلة تجعله حريصا عليه ساعيا الى الاستكثار منه وحيازته وليس هناك حد تشعر النفس معه بالشبع والاستغناء، اذا تركت دون تزكية وتهذيب ، بل المشاهد انه كلما كثر المال لدى الانسان ازداد نهمه اليه وحرصه عليه · وصدق رسول الله ﷺ فى تصويره لذلك بقوله « لو كان لابن آدم جبل من ذهب لتمنى الثانى » وقديما شبه الحكماء الدنيا بالماء المالح كلما ازداد الانسان منه شربا ازداد ظمأ · ذلك لأن المال يشبع فى النفس غرائز هى جزء من طبيعتها كحب التملك والسيطرة والاستيلاء ، ويحقق للانسان اشباع حاجاته ويؤمن مستقبله ويطمئنه على مصير ذريته · وكل هذه الأمور مشاعر طبيعة جعلها الله جزءا من الكيان البشرى لتدفعه الى العمل والكسب وعمارة الأرض واستمرار الحياة وتطويرها ، ولكن الخطر يكمن فى أن تستأثر هذه الغرائز بتوجيه الانسان ، وتقوده الى ما يشبعها دون أن تترك فرصة لجوانب أخرى فى النفس لتحدث التوازن وتقف الانسان عند حد الاعتدال ، وايتاء كل ذى حق حقه·ففى النفس بجانب تلك الغرائز الداعية

الى الشح والحرص مشاعر أخرى تحقق له أيضا اشباعا روحيا لا غنى له عنه ، كالشعور بالمجتمع وحقه عليه والرغبة فى اكتساب الحمد وحب الآخرين ، والحرص على الذكر الطيب والسمعة المرضية وما يحققه البذل من شعور بالرضا والارتياح • وفوق ذلك كله ما يدفع اليه الشعور الدينى من ارضاء الله ، والطمع فيما عنده من ثواب هو خير وأبقى للذين آمنوا ، وما يشيعه هذا الشعور من توكل على الله ، ووفاء بحق النعمة عليه ، واطمئنان الى رعايته له ولذريته • هذه المعانى وتلك تتصارع فى النفس ، ويتسم السلوك الانسانى فيما يتعلق بالتصرف المالى بنتيجة هذا الصراع ولمن تكون الغلبة فيه •

وهنا يأتى دور الدعوة القرآنية وسلاحها هو البلاغة فى تزكية معانى الخير فى نفس الانسان ودعمها ، وعلاج أدواء النفس ، وتخليصها من المعوقات التى تحجبها عن الخير وتحبط عملها من شح وطمع ومن واستعلاء وتفاخر وغيرها ، ولا تكتفى بأن تسوق الأوامر وتبين الأحكام ، فما كان ذلك وحده كافيا فى تحقيق الاستجابة والانقياد ، بل نرى القرآن الكريم يوجه عنايته الكبرى لطب النفوس وعلاج القلوب • فهو يدعو منذرا ومرغبا ، كاشفا عن الدوافع النفسية وراء السلوك مزينا لحب الخير ، منفرا من الشر •

ولعل مصداق ذلك ما سنلمسه فيما ستدرسه من نصوص ، وأن بيان الأحكام لم يستغرق سوى آيات معدودة منها وبجانبها الكثرة الوافرة من النصوص التى تتجه الى النفوس فتروضها على الطاعة وتدفعها الى العطاء • ولنبدأ فى دراسة النصوص •

● **أسلوب تزكية النفس :**

قال تعالى : « **مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم • الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون • قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها اذى ، والله غنى حليم • يا ايها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين • ومثل الذين ينفقون**

أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير • أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون • يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غني حميد • الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم • يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر الا أولوا الألباب • وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه ، وما للظالمين من أنصار • ان تبدوا الصدقات فنعما هى ، وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير • ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون • للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا ، وما تنفقوا من خير فان الله به عليم • الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١)

تبدأ هذه الآيات بالدعوة الى الانفاق فى سبيل الله ، ولكنها لا تعمد فى دعوتها الى أسلوب الأمر والالزام بل الى أسلوب الترغيب واستجاشة المشاعر بتصوير المعنى فى صورة شاخصة تستهوى الوجدان وتستميل القلوب • ثم تمضى الآيات تنقب فى خفايا النفس الانسانية عن الأدواء التى تحبط الصدقة وتحرم من الأجر ، بل تجعل الامتناع عنها أصلا ، والاكتفاء برد السائل ردا جميلا • أسلم عاقبة من ايتائها مع اتباعها بما يحبطها من المن والأذى • ثم تمضى الآيات فى تأكيد هذه المعانى معقبة عليها بالدعوة الى توخى الطيب فى الانفاق والتذكير بفضل الله ، محذرة من تخذيل الشيطان وما يلقيه فى النفس من معان تصد عن الخير مخافة الفقر والحاجة ، وأخيرا تتحدث عن بعض مصارف الصدقة وترسم صورة لطائفة هم أولى من يوجه اليهم البر،ويستحق

---

(١) البقرة : ٢٦١ ـ ٢٧٤ ••

العون ، ثم ياتى ختامها مؤكدا لبدئها مذكرا بما أعده الله من أجر للمنفقين فى سبيله « **فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » .

ولنستعرض الآيات لنرى كيف عبرت عن هذه المعانى بأسلوب بليغ ..

« **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة** » .

المعنى الذهنى ان الله تعالى يعد بأن يضاعف الأجر للمنفقين فى سبيله الى سبعمائة ضعف ، ولكن التعبير القرآنى يعرض هذا المعنى فى صورة حية كأنها ماثلة أمام عينى الناظر يتملاها بخياله فيرى الحبة تلقى فى التربة الصالحة فلا تلبث أن تكون زرعا نضيرا سرعان ما يثمر سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، ان هذا المشهد الذى تصوره الكلمات يستثير فى النفس كل حواسها ويلقى فيها بايحاءاته المبهجة التى تشرح الصدر وتهيىء النفس للاستجابة وتدفعها للانقياد والرضا . وواضح ما فى التعبير من تشبيه تمثيلى طرفاه الهيئة المنتزعة من نفقة المنفق وما يترتب عليها من الأجر الجزيل ، والهيئة الحاصلة من بذرة الحب تستنبت فى التربة الصالحة فتنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . ويلاحظ ما فى النظم من ايجاز بالحذف والتقدير مثل نفقتهم كمثل حبة وذلك استغناء بدلالة المقام عليه كما يلاحظ ما فيه من مجاز عقلى فى اسناد الانبات الى الحبة والمنبت هو الله ولكنه أسند الانبات للسبب اشارة الى أهمية السبب فى وجود الفعل وذلك لأن الحبة تقابل الصدقة فاذا أسند اليها الانبات كان ذلك ايماء الى أهمية الصدقة باعتبارها سبب الأجر فى تحققه للمتصدق . وكذلك التعبير بـ « **سبيل الله** » عن كل ما فيه رضا الله سبحانه على سبيل الكناية ، فكل جهة الانفاق عليها يرضى الله تعالى فهى فى سبيله . والكناية أبلغ لتصويرها للمعنى وابرازه وتأكيده بالاضافة الى ما فيها من ايجاز اذا قورنت بالتعبير الحقيقى عن المعنى .

« **والله يضاعف لمن يشاء** » المعنى : ان الله يضاعف الأجر هذه المضاعفة أو يزيد لمن يشاء على حسب ما يعلمه سبحانه من اخلاصه فى الانفاق . وفيه زيادة ترغيب فى الانفاق وتنبيه الى أسباب مضاعفة الأجر حثا على اخلاص النية والتوجه بالصدقة خالصة لوجه الله تعالى أملا فى فضله الواسع .

« والله واسع عليم » . تأكيد للمعانى السابقة ، فالله واسع لا يضيق فضله عن مضاعفة الأجر ولا ينفد ما عنده من الخير وهو عليم بنية المنفق مطلع على خفايا النفوس فيجزى كل انسان حسب علمه بحاله . وللتأكيد دوره الكبير هنا اذ يزيد اطمئنان القلوب الى تحقق الوعد فتستجيب وتنقاد .

« الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم » .

ان هذه المضاعفة فى الأجر ليست لكل منفق ، بل هى خاصة بمن كان انفاقه خالصا لوجه الله ، لم يدفع اليه رياء أو حب للتسامع والفخر أو غيره من الدوافع التى تبطل الصدقة وتذهب ثوابها ، ولم يتبعها بالمن بها على آخذها أو ايذائه بها . والمن هو التذكير بالنعمة وأن له فضلا على آخذها .

والأذى كل مايؤذى الآخذ بأن يتطاول عليه بسبب نعمته عليه مثلا . هؤلاء الذين انفقوا بهذه النية الخالصة ولم يتبعوها بمن ولا أذى لهم أجرهم الذى وعدوا به فى الآية السابقة .

ويلاحظ ما فى التعبير بـ « ثم » للتنبيه على التفاوت بين الصدقة التى يترتب عليها المضاعفة فى الثواب ، وتلك التى يتبعها المن والأذى ، فهى للتراخى المعنوى . كما يلاحظ تكرار الاسناد فى قوله تعالى « لهم أجرهم » وتقييد الأجر بقوله « عند ربهم » وما فيه من تأكيد وتعظيم وتشريف . واختيار لفظ ـ الرب ـ واضافته الى ضمير المنفقين يلقى فى النفس اطمئنانا وثقة فى رعاية الله وتحقيق وعده . وذلك كله مما يستدعيه مقام استمالة القلوب وحثها على الطاعة .

« ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . اكمال لبيان ما يترتب على الانفاق من ثمرات طيبة . مبالغة فى استمالة القلوب ، فليست مضاعفة الأجر كل ما يناله المنفق . بل له بجانب ذلك أن يأمن فلا يخاف ويرضى فلا يحزن .

والمعنى : أنهم لا يعتريهم ما يوجب الخوف أو الحزن . ولكن كيف يؤدى الانفاق الى ذلك ؟ وما سر النص على نفى الخوف والحزن عن المنفق ؟

يتضح هذا عندما نتذكر الحكمة فى تشريع الانفاق فى سبيل الله ، سواء فى ذلك فريضة الزكاة أو الصدقات التطوعية الزائدة عليها . ان تشريع الانفاق قصد به اصلاح المجتمع والربط بين أفراده برباط من التراحم والمودة ، وقيام حياته على التكافل والتعاون ، وتزكية نفس المعطى والآخذ فى نفس

الوقت وتطهيرها من المشاعر التى تورث الأحقاد ، وتنبت التمزق والصراعات بين الفقراء والأغنياء انها تطهر نفس المعطى من الشح والأثرة وتستجيش فيها المعانى الانسانية التى تربطه بأخيه ، وتذكره بنعمة الله عليه ، وأن ما ينفقه هو من مال الله الذى استخلفه فيه لينفقه فيما شرعه الله من أبواب البر والخير سواء كان الانفاق على نفسه أو غيره ٠ وهذه التزكية وتلك المعانى تملأ القلب رضا ، وتشرح صدر المعطى وتجعله يحيا يغمره شعور بتوفيق الله له ، ورضاه عنه ٠

أما الآخذ فان الصدقة التى تقدم اليه ــ دون من أو أذى ــ تسد حاجاته وتملأ نفسه رضا عن أخيه ، وتطهرها من أدواء الحقد والحسد ، وتوثق صلة الاخاء التى تربطه بأخيه ، وتستوجب التعاون والتراحم ، فلا يضمر له شرا ولا يدبر له أذى ، وبذلك يأمن الغنى ، فقد حرس ما فى يده من نعمة بتأليفه القلوب ، واكتساب ودها ، ووضع نفسه حيثما كان بين اخوة يرى فى نظراتهم دلائل الحب ، وفى تصرفاتهم ما ينبىء عن الثقة والاطمئنان فهو آمن بينهم سعيد بهم راض عنهم راضون عنه ٠ وهكذا يؤتى الانفاق ثماره الطيبة فى الدنيا والآخرة ، ويعالج الاسلام الداء العضال الذى عجزت كل النظم والفلسفات عن أن تجد له طبا ، وانتهى بها الأمر الى ما نراه فى عالم اليوم من صراع بين الطبقات يفجر الثورات التى تأكل الأخضر واليابس وتقضى على كل القيم الانسانية وتغرس الخوف فى القلوب وتملأ النفوس أسى وحزنا ٠

« **قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى** » تأكيد للمعنى السابق للاهتمام به اذ هو الفيصل فى قبول الصدقة عند الله أو ابطالها ، وتقرير لوجوب خلو الصدقة من المن والأذى ليترتب عليها الوعد الكريم ٠ والمعنى : ان الرد الجميل ــ بالكلمة الطيبة دون اعطاء ، والصفح لما يكون قد بدر من السائل ــ خير من الصدقة التى يتبعها الأذى ٠ والأولى أن تكون الخيرية هنا بالنسبة للسائل ٠ ليتحقق ما تدل عليه الصيغة من التفاوت فى الخير ٠ فالصدقة التى يتبعها الأذى فيها فائدة للآخذ لأنها تسد حاجته ، ولكن الرد الجميل خير منها فى نفس السائل ، لأنه يطيب نفسه ، ولا يجرح مشاعره ، وفى هذا تنبيه على ان المهمة المرجوة من الانفاق هى أثرها النفسى قبل فائدتها المادية ، وهذا يؤكد ما أشرنا اليه من دوره فى اصلاح المجتمع وترابط أفراده ٠

« **والله غنى حليم** » ٠ هذا تذييل يوحى بسخط الله تعالى ووعيده لمن يمن بصدقته ويؤذى آخذها وذلك تنفيرا من هذا الفعل السىء فالمعنى : ان الله غنى عن صدقة المنان المؤذى وقادر على اغناء السائل ورزقه دون حاجة الى صدقة

المتصدق ، وانه حليم لا يعجل بالعقوبة لأصحاب المن والأذى ، وان كانوا يستحقونها لعدم تأدبهم بأدب الاسلام ، ونسيانهم ان ما يبذلونه هو مال الله ولا فضل لهم فى امتلاكه ·

« **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا** » ·

« **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى** » ها هى ذى الآيات الكريمة تعاود تأكيد ما قررته الآيات السابقة من أن الانفاق الموجب للأجر هو الخالى من المن والأذى ، زيادة فى العناية بالمعنى وتثبيتا له فى النفس ، وهى هنا تتخذ أسلوبا أبلغ فى التأثير وأقوى فى الدلالة ، فهى أولا تتوجه بالخطاب الى المؤمنين بعد تقرير المعنى سابقا بضمير الغائب ، وفى ذلك مبالغة فى ايجاب العمل بمقتضى النهى بتذكيرهم بالايمان الذى يقتضى الطاعة والاستسلام وهى ثانيا تنص صراحة على أن المن والأذى يبطلان ثواب الصدقة ويمحوان أثره ·

ولا تقف الآيات عند هذا الحد بل تتبعه بتشبيه أثر المن والأذى فى هذا الابطال بأثر الرياء وعدم الايمان بالله واليوم الآخر فى عدم قبول العمل أصلا لقيامه على غير أساس ، وذلك بقوله تعالى :

« **كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر** » أى لا تبطلوا صدقاتكم ابطالا كابطال من ينفق ماله رياء الناس ، ولا يدفعه الى ذلك ايمان بالله واليوم الآخر فيرجو ثوابه ، أو يخشى عقابه · وليس بعد هذا تأكيد للمعنى ولا تحذير من خطورة المن والأذى ، ولا تنفير منه · وحمل على تجنبه والبعد عنه ·

ولكن القرآن الكريم لا يكتفى بهذا بل يتبعه مرة أخرى بما يزيد تقريره ووضوحه وتأكيده · فيورد مشهدين متعاقبين يصور الأول انفاق المرائى ونتيجته ويبرز الثانى انفاق المخلص وثمرته · والمشهدان بما تضمناه من تصوير مؤثر وايماءات عميقة لا يدعان مجالا للتردد فى الاختيار ، ويدفعان النفوس دفعا الى الاستجابة لأمر الله والتزام حدوده · ونستعرض المشهدين ·

المشهد الأول يصور حال المنفق رياء « **فمثله كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا** » تشبيه تمثيلى يشبه حال المنفق رياء فى عدم حصوله على جزاء لانفاقه ، بحالة حجر أملس لا ينبت ، فوقه طبقة رقيقة من تراب نزل عليه مطر غزير فأزال ما عليه من التراب وتركه أملس صلبا ، لم ينبت به شيء • ولننظر ما فى التعبير من لمحات موحية فالتعبير بـ « **صفوان** » وهو الحجر الأملس وما يوحى به من قساوة وجدب يناسب قلب المرائى وخلوه من معانى الانسانية والرحمة ، وأنه لا ينتظر منه أن يصدر عنه ما ينفع أو يفيد • وقوله تعالى « **عليه تراب** » اشارة الى ما يغطى به المرائى حقيقته بما يبديه من رياء بالانفاق ، ولكن هـذا كالغشاء الزائف الذى يستر به حقيقته لا يجديه نفعا فسرعان ما ينكشف ويتبدد ولا يجنى من ورائه خيرا •

« **لا يقدرون على شيء مما كسبوا** » أى لا يحصلون على ثمرة انفاقهم ولا يجدون له ثوابا عند الله • ولما كان الغرض المسوق له الكلام أصلا هو تشبيه أثر المن والأذى فى ابطال الصدقة بأثر الرياء ، فان هذا المثل المبين لحـال المرائى وأنه لا يجد ثوابا لصدقته ، ينطبق على من يمن بصدقته ويؤذى فانه لن يجد أيضا ثوابا لانفاقه وصدقته • وهكذا ينهى القرآن أبلغ نهى وآكده عن المن والأذى •

« **والله لا يهدى القوم الكافرين** » • « تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومؤكد له ، وفيه تعريض بأن كلا من الرياء والمن والأذى من خصائص الكفار ولابد للمؤمنين أن يجتنبوهما » (١) •

وذلك مبالغة فى النهى عن هذه الجريمة التى يترتب عليها كل هـذا الشر •

أما المشهد الثانى المقابل للأول فهو يصور حال من ينفق ابتغاء وجـه الله • حتى تكون الموازنة واضحة •

« **ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل** »

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ـ جـ ١ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ •

انه تشبيه لحـال المنفقين ابتغاء وجه الله وما يترتب على انفاقهم من مضاعفة الجزاء بحال جنة بربوة عالية نزل عليها المطـر العظيـم فازدهرت وأخرجت ثمرها مضاعفا · فان لم يصبها المطر الكثير فان القليل منه كاف فى اثمارها لطيب تربتها وكرم منبتها · وهكذا يؤدى التمثيل دوره فى ايضاح المعنى وتصويره فى صورة مؤثرة قوية · بما تشمله من قيود فى المشبه به تزيد الصورة تأثيرا وايحاء يستميل النفس ويستهوى الوجدان ·

ولنتأمل قوله تعالى « ابتغاء مرضاة الله » وما يشير اليه من أن الدافع هنا طلب رضاه وأن ذلك هو سبب مضـاعفة الأجر ، ويقابل ما هناك من أن الدافع هو الرياء وهو سبب ابطال الصدقة وضياع الأجر · ثم ان قوله تعالى « وتثبيتا من أنفسهم » ومعناه تثبيتا للايمان فى نفوسهم يشير الى أن حكمـة الانفاق للمنفق هى تزكية النفس وتطهيرها من البخل وحب المال ، ولثبـات أن داعى الايمان لديها أقوى من كل الدواعى الأخرى من الأهواء والشهوات ·

والتعبير ـ بالجنة ـ وما يلقيه فى النفس من شـعور بالبهجة والسرور الذى يحدثه ما فيها من جمال ونماء وخير ، وتقييد الجنة بأنها « بربوة » زيادة فى استكمال جوانب الحسن فيها فان أشجار الربى تكون أكثر ثمرا وأبهى منظرا « والجنة » هنا تقابل « الصفوان » هناك · حيث الجدب والقساوة الحقيمة ثم تنويع المطر بين الوابل والطل ، وما يشير اليه من أن النفقة جلت أو قلت تؤتى ثمرها مضاعفة فى الأجر بصدورها عن نية طيبة ، كما يضاعف المطر الكثير أو القليل ثمر الجنة لطيب منبتها وكرم أصلها ·

« والله بما تعملون بصير » · لا يخفى عليه شىء من أعمالكم وسيجزيكم بما يعلمه من حقيقة دوافعكم الى الانفاق ، وهى فاصلة تلخص مغزى المثلين بما تتضمنه من ترغيب فى الاخلاص وتحذير من كل ما يحبط الانفاق من رياء أو من أو أذى ·

« أيود احدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيـه نـار فاحترقت » ·

هذا مثل آخر يصور عاقبة المن والأذى فى احباط الأجر ، وابطال الصدقة يعرضه القرآن الكريم كعادته فى تصوير المعانى فى صورة تجمع كل عناصر التأثير والاستهواء · والمعنى مجردا دون تصوير يمكن التعبير عنه بأن يقال :

ان الذى يتبع صدقته بالمن والأذى ، سيفاجأ يوم القيامة ــ وهو يومئذ أحــوج ما يكون الى ثوابها الجزيل ــ بأنه قد أبطل ثوابه بما قدمه من المن والأذى ، ولن يملك هناك سوى الحسرات والندم يوم لا يغنى ذلك عنه شيئا • فلننظر كيف صور القرآن هذا المعنى المجرد •

« **أيود أحدكم** » انه يبدأ بهذا السؤال المثير للاهتمام ثم يصور الصدقة بــ « **جنة** » وهى تعنى الحديقة ذات الأشجار الملتفة المتكاثفة ، وهى أغلى ما يملكه الانسان وأحبه الى النفس ، وأكثره اثارة لنشوتها وبشرها ، ثم يقيد الجنة بأنها « **من نخيل وأعناب** » ــ لأن هذين الجنسين الشريفين الجامعين لألوان المنافع هما الأصل بين أشجارها ، ثم يزيدها قدرا وجمالا بأنها « **تجرى من تحتها الأنهار** » ليجتمع لها كل شرائط الحســـن والابداع ، ثم يضيف الى قدرها ونفاستها بأن « **له فيها من كل الثمرات** » هذه هى الصدقة فى نمائها وما توجبه من أجر صورت بهذه الصورة المبهرة • وبعد ذلك يصور شـــدة حاجة صاحبها اليها وتطلعه الى ما توفره له من عطاء ، فيقول « **وأصـــابه الكبر** » فلا يمكنه انشاء غيرها ، ولا تحصيل رزقه من طريق آخر لضـــعف قوته ثم يضيف ما يؤكد حاجته « **وله ذرية ضعفاء** » لا يقدرون على الكسب أيضا وهو القائم بأمرهم • وكذلك صاحب الصدقة هو فى حاجة الى ثـواب صدقته حاجة هذا الشيخ الفانى المثقل بالأعباء • وفجأة يفقد صاحب الجنة كل شىء وهو فى أشد حاجته اليه « **فاصابها اعصار فيه نار فاحترقت** » اعصار لا يبقى شيئا وتلتهم ناره كل شىء • أى حسرة وأسى يتجرعها هذا المسكين ؟ وأى ألم يعصف بكيانه ؟ فكذلك حال من يبطل صـــدقته سيتجرع غصـــص الحسرة يوم يجد ثواب صدقته قد ذهب به منه وأذاه ، يوم لا ينفع مـال ولا بنون الا من أتى بقلب سليم • هذا ولفظا « اعصار » و « نار » وما فيهما من جرس قوى يوحى بالعنف والقوة المدمرة • ثم تنكيرهما الذى يطلق خيال الســامع فى تخيل ما يوحى به ذلك التنكير من عنف وشـــدة وابادة • ثم الجمع بين الاعصار و « النار » وكل منهما كاف فى ذاته لتدمير الجنـة • كل هذه الخصائص توحى بما يلائم الموقف من ترهيب وتخويف • ثم التعبير بالفاء فى « فاحترقت » الذى يوحى أيضا بسرعة الاحتراق •

« **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** » مثل هذا البيــان الواضح كأنه مشاهد محس يبينه الله لكم لعلكم تعملون عقولكم وتتفكرون فى عواقب أعمالكم فتنتهوا عما يبطلها ويمحق أجرها ، قبل أن يفوت الأوان • وهــل هناك عاقل يريد أن يورد نفسه هذا المورد المهلك ؟

والصورة كما نرى غنية عن كل تعليق يشير الى حسنها أو يبين رقتها وتناسقها وما فيها من ايحاء يستهوى النفوس وتتفتح له القلوب مبتهجة راغبة فى التصديق ، ثم هلعة مفزعة من ضياع كل هذا الخير ٠

وهكذا يعالج القرآن الكريم المعانى حتى تخالط القلوب وتستقر فى الوجدان فيكر عليها مبينا أولا ثمرة الانفاق مصورا قدره ومضاعفته ثم يجعل استحقاقه مشروطا بخلو الانفاق من المن والأذى وبأن يكون خالصا لوجه الله ، ثم ينهى عن ابطال الأجر بالمن والأذى ثم يشبه أثرهما فى ذلك بالرياء ثم يرسم صورة لما يصنعه الرياء بالعمل الذى شبه به المن والأذى ويعقب على ذلك بصورة أخرى لمن ينفق ابتغاء وجه الله ، واستجابة لداعى الايمان ، ثم يختم ذلك كله بهذا المشهد الذى يوقظ الغافل ويحذر المتهاون وينبه على الخطر ٠ وهذا كله يورده القرآن عن معنى يمكن التعبير عنه فى كلمات معدودة ، ولكن الموضوع ليس أمرا أو نهيا بل هو تزكية للنفوس ، واصلاح للسرائر ، وطب لأدواء القلوب ،

وينتقل النص الكريم بعد هذا الى غرض جديد :

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد » ٠

الآية الكريمة تتحدث عن أمرين :

أولهما : بيان ما تجب فيه الزكاة أو الصدقة وقد أجملته فيما يكسبه الانسان من الأموال وما يخرج من الأرض من الزروع والثمار والمعادن وغيرها ، ولم تعن الآية بتفصيل ذلك فلم تذكر أنواع الكسب أو الزروع وغيرها ولم تحدد المقدار الواجب فى كل منها ، وتكفلت السنة المطهرة بذلك كله ، لأن هذه مهمة يسيرة فلا يتصور أن يحتاج مسلم اقناع بمقدار ما يخرج أو يجادل فيما يجب فيه الاخراج ٠ وهذا هو شأن القرآن الكريم فى كل ما يتصل بالتشريع والتقنين ٠

وثانيهما : علاج داء آخر من أدواء القلوب ٠ وأدواء القلوب لا يكفى فى طبها أمر أو نهى ، بل لابد معها من التعامل مع القلب بما يؤثر فيه ويستل جذور الداء منه ويهيئه للقبول والاستسلام ٠ وهذا هو السر فيما نراه من اختلاف فى أسلوب معالجة كلا الجانبين ٠ والدواء هنا هو البخل

الذى يحمل بعض المسلمين على أن يخرج صدقته من خبيث ما يملك ، ويؤثر نفسه بالطيب بخلا به على الفقير ·

واذا كانت الآية الكريمة قد أجملت بيان الأول ، فانها قد فصلت الحديث عن الثانى ثم تبعتها آيات تعززها فى تتبع جذور الداء لتقتلعها جميعها ولنتأمل النص الكريم ·

« يا أيها الذين آمنوا » نداء يهيىء النفوس ويشد انتباهها الى ما سيلقى عليها ، ثم تذكير بصفة الايمان ، التى تقتضى الاستجابة والطاعة · « انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض » · بيان لما تجب فيه النفقة وانه يشمل كل ما يكسبه المسلم وما يخرج من الأرض ، وتوضيح لوجوب أن يكون الانفاق من الطيب من ذلك دون الخبيث · ويلاحظ ما فى النظم الكريم من ايجاز بالحذف فان المعنى : ومن طيب ما أخرجنا لكم من الأرض ، والحذف هنا لدلالة الأول عليه وما فيه أيضا من ايجاز القصر حيث استوعب كل ما يكسبه المسلم من شتى أبواب الكسب وكل ما يخرج من الأرض من أنواع الزروع والثمار والمعادن فى هذه الكلمات القليلة ما كان معهودا منها على عهده ﷺ وما يستجد . فالنص شامل جامع لا يفلت منه أى مستحدث فى أى زمان ، وكله عما يوجب النص الزكاة فيه (١) ·

« ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » تأكيد لأن تكون الصدقة من الطيب بالنهى عن الانفاق من الخبيث تثبيتا للمعنى فى النفوس ، ويلاحظ ما فى التعبير بـ « تيمموا » من تصوير حيث يخيل الطيب والخبيث ماثلين والمنفق يقصد الى أحدهما ويترك الآخر ثم تقديم ـ منه ـ على ـ تنفقون ـ وهو متعلق به وحقه أن يتأخر عنه · والتقديم للتخصيص ، أى لا تقصدوا الخبيث قاصرين الانفاق عليه ، والتخصيص هنا لتوبيخهم بما كانوا يتعاطونه من انفاق الخبيث خاصة لا لتسويغ انفاقه مع الطيب » (٢) ·

« ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه » بيان لعلة النهى عن الانفاق من الخبيث بمطالبتهم بالاحتكام الى أنفسهم ، والتفكير فيما يكون عليه الأمر اذا كان المنفق فى مكان الشخص الآخر ، وليس هناك أسلوب أحكم من

---

(١) انظر فى ظلال القرآن جـ ١ ص ٣١١ ·

(٢) انظر تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٩٨ ·

هذا فعن طريقه يكون احترام الانسان لشعور الآخرين ، ومعاملتهم بما يجب أن يعامل به منهم ، فلا يفعل ما لا يرضاه لنفسه • ان التعبير ينبههم الى هذا المعنى الذى يقتضيه الشعور المهذب والطبع المستقيم ، والمعنى : انكم لا تقبلون الخبيث فى معاملاتكم الا بأن تتسامحوا فى أخذه ، وتغضوا النظر عما به من نقص ، فكيف تعاملون غيركم بما لا ترضونه لأنفسكم ؟

ونلاحظ ما فى التعبير من كناية عن التسامح والتساهل بقوله : « تغمضوا فيه » وهى أبلغ لما فيها من تصوير المعنى وتأكيده •

« **واعلموا أن الله غنى حميد** » تعقيب على المعنى نفسه ، بما يحمل على الاستجابة للانفاق من الطيب ، وذلك بتذكيرهم بأن الله غنى عما يبذلون وانهم حين يعطون فانما يقدمون لأنفسهم ، فليقدموا اذن الطيب وهو سبحانه حميد يحمد لكم عطاءكم الطيب ، ويجزيكم عليه ، وهو فى الحقيقة الرازق والوهاب فأى ترغيب بعد هذا الذى يوحى به التعقيب بهاتين الصفتين الجليلتين ؟

وهكذا تأتى الفاصلة لتدعم المعنى وتثبته فى القلوب ••

« **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا** » عرض للموضوع على نحو جديد مبالغة فى تقريره وتأكيده • انه يتجه الى الكشف عن الدافع الكامن وراء انفاقهم من الخبيث ، ببيان انه من وسوسة الشيطان واغرائه وتزيينه للسوء • ان الشيطان يخوفكم من الفقر اذا أنفقتم أموالكم ويغريكم بالبخل ومنع الصدقات ، وأنتم تستجيبون لما يلقيه فى نفوسكم من هذه المعانى ، فتتجهون الى الانفاق من الخبيث ضنا بالطيب وايثارا لأنفسكم به • والله سبحانه يعدكم أن يجزيكم على انفاقكم مغفرة لذنوبكم وزيادة فى اموالكم ومضاعفة لها • فأى الأمرين أحق بالاستجابة له ؟ وسوسة الشيطان وتزيينه ، أم وعد الله الصادق الأكيد ؟ وهكذا يحصرهم القرآن الكريم ويضعهم امام هذا الاختيار الذى لا يملكون منه فكاكا • لابد أن يحددوا موقفهم ويختاروا بين السلوك الذى تمليه وسوسة الشيطان ، وذلك الذى يقتضيه وعد الله • والأمر بعد ذلك بين واضح • ولنتأمل النظم الكريم :

« **الشيطان يعدكم الفقر** » وحقيقة الوعد هو الاخبار بما سيكون من جهة المخبر مترتبا على شىء ما • والشيطان لم يضف مجىء الفقر على جهته • ولم يقل انه سيفقرهم اذا أنفقوا وانما ألقى فى نفوسهم أن عاقبة

انفاقهم ونتيجته هى الفقر ليخوفهم ويحملهم على البخل · وقد عبر القرآن عن ذلك بالوعد ، اما للمشاكلة لوقوعه فى مقابلة وعـده تعالى · أو عـلى سبيل الاستعارة تصويرا لمبالغته فى الاخبار بتحقق وقوعه فى صورة الوعد ، كأنه نزله فى تقرير وقـوعه منزلة أفعاله الواقعـة حسب ارادته (١) ·

« **ويأمركم بالفحشـاء** » أى يغـريكم ويزين لكم الفحشـاء كالبخل ومنع الصدقات ، والانفاق من الخبيث وعبر عن هذا بالأمـر · تصـويرا له فى تزيينه واغرائه ، بصورة الآمر للمأمور بفعـل المأمورية · وفيه مبالغـة فى بيان سطوة الشيطان وتأثيره فى نفوسهم ·

« **والله يعدكم مغفرة منه وفضلا** » الوعد هنا على حقيقته · والتنكير فى المغفـرة للتفخيم وبيان علو شأنها ، ويؤكد هذا اتبـاعها بقوله : « **منه** » فالجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة للمغفرة أى كائنة منه جل وعلا · وهذا تأكيد لفخامتها · ويلاحظ ما فى التعبير أيضا من ايجاز بحذف الصفة لدلالة المذكور عليها والتقدير : وفضلا كائنا منه ·

« **والله واسع عليم** » وتأتى الفاصلة أيضا لتقرر مضمون الآية الكريمة وتلقى بايحائها القوى فى النفس لتقـوى من دواعى استجابتها ورضـاها فالله واسع الفضل والقدرة ، يحقق ما يعد به من المغفرة واخلاف ما ينفقون ومضـاعفته ، عليم بما ينفقـون وبدوافعهم الى الانفـاق فيجازيهم بعلمه ولا يضيع أجرهم · وقد نلمح فيها أيضا تحذيرا ممـا يبطل الانفاق أو يقلل من أجره ·

« **يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقـد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر الا أولوا الألباب** » ·

حث على الاستجابة لما تدعو اليه الآيات السـابقة من بيان لأحـكام الصدقة وآدابها · ودعوة الى الاستجابة لما تمليه الحكمة وهى تعنى تقدير الأمور تقديرا صحيحا ، والادراك السـليم لعـللها وغاياتها ، والالتزام فى السلوك بما يهدى اليه ذلك من صائب الأعمال وصالح النيات ·

فاذا كانت الآية السابقة قد بينت أن الدافـع وراء الامساك عن الصدقة أو عمل ما يبطلها هو وسوسة الشيطان واغـراؤه ودعوته للفحشاء ، وان الله يعد بالمغفرة والفضل أجرا للصدقة ، فان المسلم عليه ان يستجيب لداعى

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٩٨ ·

الحكمـة ، التى تقتضى اختيار ما تكون عاقبته خيرا له فى الدنيا والآخـرة ومحاربة ما يهجس به الشيطان فى النفس من معان تصد عن الخير ، وتورد الهلاك ولنتأمل النظم الكريم :

« **يؤتى الحكمـة من يشاء** » الحكمة هى عطاء الله ، يمن به على مـن يشاء من عباده ، والقرآن الكريم يبين فى كثير من آياته سنة الله فى عطائه وتوفيقه مثل قوله تعالى : « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمـع المحسنين** » (١) • ومعنى ايتائها تبيينها والتوفيق للعمل بها • ويلاحظ ما فى التعبير من تقديم « الحكمة » وهى المفعول الثـانى على « من » وهى المفعـول الأول للعناية به • والجملة تقرير لمضمون ما قبلها •

« **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** » • تكرار لفظ « الحكمة » بدلا من الضمير • للعناية بهـا والاشـارة الى عـلة الحكم ، والتنكير فى « خيرا » للتعظيم كأنه قيـل : فقـد أوتى خيرا أى خير • ووصف الخير بالكثرة زيادة تأكيد لقـدرها ومكانتها • والغـرض البلاغى وراء كل هـذا الاهتمام هو لفت أنظارهم الى ما فيها من خير حثا لهم على العمل بمـا تضمنته الآيات السابقة من الحكم البالغـة التى تدور عليها مصلحتهم فى الدنيا والآخرة •

« **وما يذكر الا اولوا الألباب** » تذييل للترغيب فى المحافظة على إتباع الآداب الواردة فى شأن الانفاق ، والمعنى : وما يتعظ بما أوتى من الحـكمة الا أصحاب العقول التى خلصت من شوائب الجهل والركون الى الأهواء : وفيه حث لهم ليكونوا منهم •

« **وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمـه ، وما للظالمين من أنصار** » •

لقد دعت الآيات التى درسناها الى الانفاق بطريق الترغيب بمضاعفة الصدقة ، ثم حذرت من ابطال ثوابها بالمن والأذى وانتقلت الى عـلاج ما فى النفوس من شح يدفع الى تيمم الخبيث للانفاق منه ضنا بالطيب • وتأتى الآية التى معنا لتعقب على ذلك كله ببيان أنه ما من نفقة تنفقونها فان الله مطلع عليها يعلم قدرها وطريقة تقديمها وهل هى من الطيب أو الخبيث كما

---

(١) العنكبوت : ٦٩ •

يعلم حقيقة الباعث عليها اخلاصا لله أو مراءاة للناس • وسيكون جـزاؤه وفقا لعلمه سبحانه ، الذى لا تخفى عليه خافيـة ، ان خيرا فخير وان شرا فشر ، فالآية ترغيب فى الالتزام بما سبق بيانه من آداب الانفاق وتحذير من مخالفته • ثم تؤكد هـذا التحـذير الذى تضمنته الآية بقـوله تعـالى : « وما للظالمين من أنصار » والظالمون هنا هم من لم يلتزموا بآداب الانفاق فأنفقوا فى المعاصى مثلا أو أبطلوا صدقتهم بالمن والأذى الى غير ذلك مما نبهت عليه الآيات فهـؤلاء سيقع بهم العقاب حتمـا وليس هناك من يدفعـه عنهم • ولما كان النذر هو نوع من الانفاق يوجبه الانسان على نفسه ، ويمكن أن يتجه به الانسـان الى طاعة الله أو الى معصيته أضيف الى النفقـة فى الحكم بأن جزاءه تابع لما يعلمـه الله عن فاعله ونيته وهـدفه • فالآية كما نرى تؤكد الدعوة الى آداب الانفاق بأسـلوب الترغيب والترهيب ، ولنتأمل ما فيها من بلاغة •

« وما أنفقتم من نفقة » ان تنـكير لفظ ـ النفقة ـ ووقوعها فى سـياق النفى لتدل على عموم النفقات قليلة أو كثيرة فى حق أو باطل خالصـة لله أو رياء • سلمت من المن والأذى أم لا • وكذلك الشـأن فى قـوله تعـالى : « أو نذرتم من نذر » • « فان الله يعلمه » يلاحظ ما فيها من تصـديرها بان المؤكدة • لتأكيد مضمونها ، وهو علم الله بحقيقة نفقاتهم وذلك للاشارة الى تحقيق ما يترتب عليه من الجزاء • أى أن الله تعالى سيجازيهم حتما وفقـا لعلمه سبحانه • وعلى ذلك فليطمئن المخلصون ، وليحذر المتجاوزون لحدود الله التى بينها فى آداب الصدقة • وقد جمعت بذلك بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد •

كما يلاحظ افراد الضمير فى قوله تعالى « يعلمه » مع أنه يعود عـلى كل من النفقة والنذر • ويمكن أن يحمـل ذلك على حـذف الأول ثقة بدلالة الثانى عليه ويكون فى الآية ايجاز بالحذف • أو على أن الافراد فيها لاتحاد المرجع بناء على كون العطف بـ « أو » كقولنا زيد أو عمرو أكرمته • ولا يقال أكرمتهما •

كما يلاحظ ما فى التعبير من ايحاء قوى ، لان المؤمن عندما يستشعر أن الله مطلع عليه عالم بخطرات نفسه فان ذلك يكسبه يقظة ضمير ، وتحرجا من أن يهجس فى نفسه خاطر رياء أو تظاهـر ، ويقيم من نفسه على نفسه رقيبا حارسا يسدد خطواته ويصلح أعماله •

« وما للظالمين من أنصار » تقرير وتأكيد لما تضمنته الجملة السـابقة من الترهيب • والتعبير عمن تجاوز آداب الانفاق بـ « الظالمين » لأن حقيقة

الظلم هى تعدى الحدود ووضع الشىء فى غير موضعه الذى يجب أن يوضع فيه ، ولا شك فى أن المتجاوز لحدود الصدقة هو ظالم متعد . بالاضافة الى ما يوحى به التعبير من التنفير من شفاعة ما يفعله الظالمون لتحصيل الأعوان ورعاية الاصدقاء ، غير ملتزمين بحدود الشرع وآدابه .

« ان تبدوا الصدقات فنعما هى ، وان تخفوها وتؤتوها الفقــراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير » .

الآية الكريمة تفصــل بعض ما ســبق اجمــاله فى قــوله تعــالى : « **وما أنفقتم من نفقة** » وتبين حكمه ، وهذا هو سر الفصل فيها . والصدقة اما أن تكون واجبة وهى الزكاة المفروضة ، واظهارها أفضل من سترها ، لما فيها من دفع التهمة والبعد عن الشبهة ، وليتأسى به غيره بشرط الا يصاحب اظهارها رياء واما أن تكون تطوعية وسترها أفضل ليكون الاخــلاص فيهــا كاملا .

ونلاحظ ما فى النظم الكريم من ذكر « **وتؤتوها الفقراء** » بعد قوله « **وان تخفوها** » مع أن اعطاءها للمستحق واجب أيضا مع الاظهــار . وذلك لأن الاخفاء مظنة الالتباس ، فقد يدعى الغنى أنه فقير ويقبل الصدقة سرا ويمتنع عن قبولها جهرا . ولهذا جاء هذا التقييد للتنبيه على تحرى حال من تعطى له الصدقة سرا . « **فهو خير لكم** » أى الاخفاء خير من الاظهار فى صــدقة المتطوع . « **ويكفر عنكم من سيئاتكم** » أى الله يكفر عنكم من سيئاتكم ، أو أن الاخفاء هو الذى يكفر السيئات باسناد الفعل للسبب . اشارة الى أهمية السبب وهو الاخفاء فى تحقق تكفير السيئات حثا عليه وترغيبا فيه .

« **والله بما تعملون خبير** » يعلم ما تسرون وما تعلنون ، وفيه ترغيب فى الاسرار .

وهكذا يلون القرآن الكريم أســاليبه ، ويطيل الوقوف عند التعــرض لعلاج هذه الأدواء النفسية لأن الأمر فيها كما بينا لا يغنى فيه أن يأمرهم بالانفاق دون ان ينظر الى ما فى الطبيعة البشرية من أهواء وشهوات والى حاجتها المستمرة الى ما يحرث فيها معانى الخير لتستعلى على ما بها من حرص وشح وترتفع الى المستوى الكريم الذى يؤهلها لفضل الله واكرامه ، فكان لابد من هذه التربية المتأنية ، وهذا الجهد الكبير .

« ليس عليك هداهم ولكن الله يهــدى من يشاء ، وما تنفقوا مــن خير فلأنفسكم ، وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون ».

روى ابن ابى حاتم عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم « انه كان يأمر بالا يتصدق الا على أهل الاسلام حتى نزلت هذه الآية : « ليس عليك هداهم ... » الى آخرها فأمر بالصدقة بعدها على كل من سأله من كل دين » (١) .

وعلى هذا فالآية الكريمة تعالج هذا الغرض وتدعو المسلمين الى أن يمتد برهم الى كل محتاج ، دون نظر الى عقيدته ، ويطمئنهم أن صدقتهم الى هؤلاء محفوظة الاجر عند الله لا يضيعها عليهم . وبهذا التوجيه الكريم يرتفع الاسلام بقلوب اتباعه الى مرتبة من السمو لم تعهد فى علاقات الناس ، ولم يرتفع اليها أعظم فلاسفة الأخلاق ودعاة الاصلاح .

« ليس عليك هداهم » توجه بالخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ورد أنه « لما كثر فقراء المسلمين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن التصدق على المشركين كى تحملهم الحاجة على الدخول فى الاسلام فنزلت » (٢) والمعنى أنه ليست هداية مخالفيك واجبة عليك حتى تمنعهم الصدقة لأجل دخولهم فى الاسلام .

« ولكن الله يهدى من يشاء » ان الله وحده هو الذى يتفضل على من يشاء بالهداية ، ممن يعلم سبحانه انه يستحق الهدى ويتجه اليه .

« وما تنفقوا من خير فلأنفسكم » ان ما تنفقونه من خير فهو لأنفسكم ، ونفعه الدينى لكم لا لغيركم من الفقراء حتى تمنعوه عمن لا ينتفع به من حيث الدين كفقراء المشركين (٣) . فالجملة تعليل لأمرهم بالنفقة على المحتاجين من المشركين ويلاحظ ما فى التعبير من تنكير « خير » ليشمل كل ما يتصدق به من جنس الخير وأن جزاءه ثابت لهم . أيا كان المتصدق عليه مادام محتاجا مستحقا للصدقة .

« وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله » . بيان لما يجب أن يكون عليه شأن المسلم فى انفاقه ، وأنه لا يبتغى به الا وجه الله تعالى . فليس له أن ينظر فى صدقته الا الى هذا المعنى فقط ، ولا يمنع الصدقة عن محتاج لانه مخالف فى الدين . فالجملة مقررة للمعنى السابق . ويلاحظ ما فى التعبير من قصر يجعل ابتغاء وجه الله بالصدقة مقصورا عليه ، ومستثنى من أعم العلل

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٢٢ .

(٢) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٢٠٠ .

(٣) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٢٠٠ .

الداعية الى الانفاق . أى ليست نفقتكم لشىء من الأشـــياء ولا لسبب من الأسباب الا لابتغاء وجـــه الله . تأكيدا لضرورة الاخلاص .

« **وما تنفقوا من خير يوف اليكم** » تأكيـد وبيـان لقـوله تعـالى : « **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم** » للاهتمام بالمعنى وتثبيته فى النفـوس . والمعنى : أن أجر ما تنفقونه يوف اليكم كاملا .

« **وأنتم لا تظلمون** » أى لا تنقصون شـــيئا مما وعـدتم من الثواب المضـــاعف والبركة فى الرزق . فلا تمتنعوا عن الانفـاق على محتـاجى المشركين . وقد نص الفقهاء على جواز صدقة التطوع لغير المسـلم . أما الصـــدقة الواجبة فقد جوز أبو حنيفة صرف صـــدقة الفطر الى أهل الذمة وأباه غيره (١) . وهكذا يؤكد القـرآن هـذا المعنى تأكيدا يهيىء النفوس للانقياد له والعمل بمقتضاه ويفى بحق البلاغة فى الدعوة .

« **للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا ، وما تنفقوا من خير فان الله به عليم** » .

يوجه القرآن الكريم انتباه المسلمين الى صنف ممن يستحقون الانفاق وحاجتهم اليه قد تخفى على كثيرين ممن لم يؤتوا عمق النظرة ، وصـــدق الفراسة ، انهم جماعة من المسلمين كرام النفوس وقفوا حياتهم على الجهاد فى سـبيل الدعوة ولم تتح لهم ظـــروفهم أن يسعوا فى طلب الـرزق فهم محتاجون فقـراء ، ولكنهم لعـزة نفوسهم يتعففون عن المسـألة ويسترون حاجتهم بالتجمل والصبر ويتكلفون ستر فقرهم عن الناس . ولكنهم مع ذلك يبدو عليهم ما يلمحه الذكى من دلائل الحاجة وشواهد الفقر . هؤلاء يوصى بهم القرآن ويحث على اعطائهم ولنتأمل التعبير الكريم .

« **للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض** » لقد أحاطت بهم واجباتهم فى خدمة الدعوة ، فلم تترك لهم سبيلا الى السعى انه تصـــوير للمعنى يبرزه ويجسمه ، ويجعـله أقوى دلالة على انشغالهم الكامل بأمور الدعوة والدفاع عنها . ثم ما فيه من ايجاز بحـذف متعـلق

---

(١) تفسير الكشاف . ج ١ ص ٣٩٨ .

الجار والمجرور « للفقراء » والتقـدير اجعلوا ما تنفقونه للفقراء لفهمه من المقام • وفى النص على أنهم فقراء ، وأن سبب فقرهم استغراقهم فى العمل فى سبيل الله ما يعطف القلوب عليهم ، ويدفعها الى البر بهم •

وقيل انهم أهل الصفة كانوا رضى الله عنهم نحـوا من أربعمـائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم فى التعلم والجهاد **« يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسـألون الناس الحافا »** تصوير معجز لهذا النموذج البشرى الكريم الذى يوصى به القرآن الكريم ، انهم فقراء أحاطت بهم ظروف قاهـرة تمنعهم من الكسب ، ولكنهم يسترون حاجتهم وتمنعهم كرامتم على أنفسهم أن يسألوا الناس ما يدفعون به فقرهم ، تعففا عن المسألة ، واذا سألوا فانهم لا يلحون فى السؤال ولكن سؤالهم على استحياء ، ولكن ذا الحس المرهف يدرك حالهم بما يبدو عليهم ـ على الرغم من تجملهم ـ من دلائل الحاجة •

والنص وان كان واردا فى جماعة خاصة من المسـلمين كما أشرنا ، الا أنه ينطبق على سواهم ممن يتحقق فيهم وصفهم ، وهم موجودون فى كل مجتمع وفى كل زمان • وواجب المسلم أن يؤثرهم بالفضل ، ويقـدمهم فى العطاء والقرآن الكريم بهذا الدرس الرفيع يرتفع بالمسـلم الى أعلى الآفاق ويذكى فيه أنبل المشاعر •

وقديما عبر أحد هؤلاء عن احسـاسه العميق بالامتنان نحو صـديق نبيل لماح قدم اليه ما يسد خلته على الرغم من مبالغته فى اخفائها •

ذلك هو عمرو بن كميل يمدح عمـرو بن زكوان ، وكان قد ذهب اليه لزيارته لما بينهما من صداقة ، ولبس جبة ضم ازارها على قميص ممـزق حتى لا تبدو منه الحاجة ، ولكن ابن زكوان لمح ذلك فأسرع الى نجدة صديقه وكشف غمته • يقول عمرو بن كميل فى ذلك :

سأشـكر عمـرا ان تراخت منيتى ... أيـادى لم تمنن وان هى جـلت
فتى غير محجوب الغنى عن صـديقه ... ولا مظهـر الشـكوى اذا النعل زلت
رأى خلتى (١) من حيث يخفى مكانها ... فكانت قذى عينيـه حتى تجـلت

---

(١) الخلة : بفتح الخاء : الحاجة •

« **وما تنفقوا من خير فان الله به عليم** » هذا التعقيب على الدعوة الى ايثار هؤلاء بالتصدق يوحى بجانب ما فيه من ترغيب بأن الصدقة الى هؤلاء يجمل أن تكون سرا ، وذلك ما يوحى به اختيار صفة العلم هنا ، ايماء الى انه يستوى فى علمه السر والجهر بالصدقة ، فلتراع مشاعر هذا النوع من المستحقين وتقدم اليهم سرا • تجنبا لما يجرح كرامتهم ويؤذى حسهم • وهكذا تتجلى بلاغة القرآن ودقته فى اختيار اللفظ « **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » •

ويأتى هذا الختام ليؤكد المعانى السابقة وكأنه خلاصة الدرس كله مجملا فى كلمات ، فيبين أن الذين ينفقون أموالهم : اى كل أنواع المال ، فليست الصدقة مطلوبة فى بعض الأموال دون بعض • « **بالليل والنهار سرا وعلانية** » • فى أى وقت وبأية كيفية • « **فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » ويلاحظ تقديم الليل على النهار والسر على العلانية ايماء الى مزية الاخفاء كما يلاحظ دخول الفاء فى « **فلهم** » لافادة سببية ما قبلها لما بعدها •

وهكذا يدعو القرآن للانفاق فلا يفرضه فرضا ملزما رضيت به النفوس أو أبت بل يعمد كما رأينا الى النفوس يداوى أدواءها ويستجيش قواها ، ويزكى معانى الخير فيها ، وينفى عنها خبثها ، ويدلها على أقوم طريق وأهدى سبيل انه كلام الله رب الناس •• عارضا كل ذلك فى أبهى حلل البلاغة ، وأسمى ألوان البيان •

* * *

● **أسلوب ذكر موجبات الساعة والترغيب فيها :**

قال تعالى : « **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير • وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين • هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور ، وان الله بكم لرؤوف رحيم • وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض ، لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير • من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم • يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم • يوم يقول**

المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب · ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور · فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار ، هي مولاكم ، وبئس المصير · ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون · اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون · ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم » (١) ·

هذه آيات من سورة الحديد وهي من السور المدنية تعالج الى جانب الدعوة العامة بعض الظواهر التي طرأت على المجتمع الاسلامي بعد الهجرة فقد كان السابقون الى الاسلام رضوان الله عليهم في اقبالهم على الاسلام نموذجا للاخلاص للعقيدة التي آمنوا بها ، لم يدفعهم اليها رغبة في مغنم ، ولا أجبرتهم عليها قوة مكرهة ، ولكنهم آمنوا يوم لم يكن هناك سوى التضحية والبذل ، وتحمل الأذى والمكاره في سبيل الحق · ولكن الأمر بعد الهجرة وبعد أن ظهر الاسلام وقويت شوكته ، خاصة بعد الفتح جدت فيه عوامل جعلت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، ولم يعانوا التجربة التي عاناها السابقون فصقلت معدنهم وأعلت قدرهم ، ولذلك لم يصل بعض هؤلاء اللاحقين الى المستوى الايماني الرفيع الذي يعيش به المؤمن وله ، ويترجمه في حياته سلوكا فاضلا ينبيء عما في نفسه من تجرد واخلاص· وهؤلاء هم الذين كان يصعب عليهم البذل في سبيل الله ، والى جانب هؤلاء وجد المنافقون الذين اضطروا للتخفي تحت رداء الاسلام طمعا في المغنم واتقاء للمخاطر · والآيات تواجه هذا الواقع فتدعو الى تزكية الايمان في النفوس وتحقيق ما يقتضيه من بذل وانفاق ، كما تبين مصير المنافقين وتسوق اليهم القوارع علهم يثوبون الى رشدهم ويتداركون أنفسهم ·

« **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » دعوة الى الايمان بالله ورسوله والانفاق في سبيله · والمدعوون الى الايمان مؤمنون ، وهذا ما يسميه العلماء أسلوب التهييج والالهاب ، والمراد بالأمر هنا الثبات على الايمان والزيادة منه بتحقيق ما يقتضيه من طاعة لله واستجابة لأوامره، فالايمان يزيد وينقص ، وهو بضع وسبعون شعبة كلما حقق الانسان شعبة

---

(١) الحديد : ٧ ـ ١٨ ·

من شعبه نما ايمانه وزكا يقينه · وهذا الأسلوب أبلغ من الأمر بالثبات على الايمان وزيادته لأنه يفيد مع هذا اثارة الوجدان وتهيئة النفس لتكون أحسن تلقيا ، وأكثر تمسكا بما لديها (١) ·

وذكر رسول الله ﷺ فى حيز الأمر بالايمان ، للاشارة الى أن الايمان به عليه السلام جزء من الايمان ، لا يتحقق الا به ، وللاهتمام أيضا لان الايمان به عليه السلام يقتضى الايمان بما نزل عليه وهو جامع لكل أركان الاسلام وما به يتحقق ويزكو ·

« **وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » المعنى : أنفقوا من مال الله الذى جعلكم خلفاء فى التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة ، أو من المال الذى جعلكم خلفاء فيه ممن قبلكم بتوريثه اياكم · وعلى أى المعنيين حملناه ، فان هذا التعقيب على الدعوة الى الانفاق فوق انه بيان لحقيقة الأمر ، فيه ترغيب فى الانفاق وحمل عليه ، فان من علم انه ليس مالكا لما فى يديه من الأموال وانه بمنزلة الوكيل استشعر دائما انه ملزم بالتصرف فيه وفق ما عينه الموكل من مصارف ، وان مخالفته لأوامره خروج على حدود مهمته وتعد منه · وكذلك الأمر على المعنى الثانى ، لان من يتذكر انه قد آل اليه المال ممن سبقه وعلم انه سينتقل منه الى من بعده ، كان فى ذلك عبرة له تدفعه الى البذل منه رجاء الخير لنفسه قبل أن ينتقل الى غيره ·

« **فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير** » لمسة أخرى لوجدانهم ترغيبهم فيما دعوا اليه باخبارهم بما أعد لهم من الأجر · ويلاحظ ما فى الجملة من تأكيدات ، مبالغة فى تحقيق الوعد وبعثا للثقة فيه لتتحقق استجابتهم لما يدعون اليه ، وذلك حيث جعل الجملة اسمية ، وأعاد ذكر الايمان والانفاق صلة للوصول لتأكيد أن الأجر مترتب على تحقيق الصلة · وتفخيم الأجر بالتنكير ، ووصفه بالكبير · وذلك ما يقتضيه مقام الترغيب والحث ·

« **ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم ان كنتم مؤمنين · هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور ، وان الله بكم لرؤوف رحيم** » المعنى : أى عذر لكم فى عدم الايمان ، وكل دواعيه متوفرة لكم وموجباته متحققة لديكم ؟ ، فالرسول عليه السلام بينكم يدعوكم اليه ، والله تعالى قد أخذ عليكم الميثاق

---

(١) انظر فى مثل هذا المعنى : كتاب من أسرار التعبير القرآنى ص ٨ · د · محمد أبو موسى ·

بما أقامه سبحانه من أدلة قاطعة وبتمكينكم من النظر والاستدلال بها • وفوق هذا وذاك فان الآيات البينات تتنزل على رسول الله ﷺ تهديكم الى الحق ، وتخرجكم من ظلمات الحيرة الى نور الهدى رحمة بكم ورأفة • فلو كنتم مستجيبين حقا لموجبات الايمان فان لديكم منها مالا موجب وراءه • ولنتأمل النظم الكريم •

« **ومالكم لا تؤمنون** بالله » استفهام عن سبب امتناعهم عن الايمان والمراد به انكار أن يكون لهم عذر فى ذلك ، وتوبيخهم عليه مع عدم ما يوجبه والتعجب من حالهم • وهو أسلوب له وقعه فى النفوس بما يتضمنه من تنبيه الى أن ما هم عليه بعيد عما تقتضيه دواعى الايمان ، وانه لا مبرر لهم فى امتناعهم عنه •

« **والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم** » • هذا من أكبر موجبات الايمان فوجود الرسول بينهم ، ودعوته اياهم ، ومشاهدتهم لأحواله عليه السلام كل ذلك يعين على الاستجابة ويحمل على الايمان •

ولقد صور الرسول ﷺ هذه الحقيقة ، فيما روى عنه عليه السلام • انه قال لأصحابه : « أى المؤمنين أعجب اليكم ايمانا ؟ قالوا الملائكة • قال : وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم قالوا : فالأنبياء • قال : وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم • قالوا : فنحن • قال : ومالكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم • ولكن أعجب المؤمنين ايمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها » (١) •

والقرآن الكريم حين يذكر لهم ذلك فالمراد توبيخهم على عدم تحقيق الايمان فى نفوسهم مع وجود ما يوجبه ويدعو للتسابق اليه • بعد أن وبخهم على عدم الايمان مع انقطاع أى عذر لهم فيه • كما نلاحظ ما فى التعبير بلفظ « الرب » واضافته الى ضميرهم حثا لهم على الاستجابة وتذكيرا بفضله عليهم ورعايته لهم •

« **وقد أخذ ميثاقكم** » سبب آخر يدعو للايمان ويوجبه • وأخذ الميثاق اما أن يحمل على الحقيقة ويفسر بما جاء فى قوله تعالى « **واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا** » (٢) • وعلى هذا يكون الايمان مركوزا فى فطرة الانسان وجزءا من

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٠٥ •　　　(٢) الأعراف : ١٧٢ •

طبيعته ، فحين يؤمن فهو يستجيب لما فى فطرته من دوافع للايمان وحين يكفر يكون معاندا لما فى فطرته مقاوما لها · واما أن يحمل على المجاز من بـاب التمثيل · فقد شبه نصب الأدلة وتمكين العقول من الاستدلال بها عـلى الله بأخذ الميثاق عليه أن يؤمن ، بجامع تحقق الالزام فى كل · وتكون بـلاغة التمثيل فى الآية الكريمة مستمدة من تصـويره للمعنى فى صـورة آكـد فى الالزام · فان من يعطى من نفسه العهد والميثاق اكثر التزاما بما عـاهد عليه ممن سبق اليه الدليل فلم يعمل بمقتضاه · وأيـا كان المحمل فهو من داوعى الايمان القوية التى لا يصح تجاهلها ·

« **ان كنتم مؤمنين** » اى ان كنتم مستجيبين لدواعى الايمان فليس هناك ما هو اقوى من هذه الدواعى ·

« **هو الذى ينزل على عبـده آيات بينات ليخـرجكم من الظلمات الى النـور** » ترغيب ايضا فى الايمان بذكر ما يوجبـه ، مـن الآيات والدلائل الواضحة التى ينزلها الله على رسوله ليخرجهم بها من ظلمات الكفر الى نور الايمان · ويلاحظ فى الاسلوب من جمع الآيات ، اشارة الى تعددها وكثرتها قطعا لكل حجة ووصفها بأنها « بينـات » لا يخفى الاستدلال بها على أحد ، ولا عذر لمن ينتفـع بها · كما يلاحظ ما فى التعبير بـ « يخرجكم » مـن تصوير للمعنى ، كأنه ينتقل بهم من مكان الى مكان · واستعارة الظلمـات للكفر ، وما تؤديه الاستعارة من تنفير منه بتصوير الكفر بصـورة الظلام الذى يحيط بالكافر فيتركه ضالا متخبطا قلق النفس ، بالاضافة الى ما يلقيه لفظ « الظلمات » فى النفس من ايحاء بالانقباض والرهبة ، ثم جمع الظلمات مبالغة فى التنفير ، وكذلك استعارة النور للايمان وما تؤديه الاستعارة من ترغيب فيه بتصوير الايمان بالنـور الذى يوحى بشعور بالبهجة والاطمئنان ويحمى من رزقه مـن مزالق الطـريق ويقوده الى الصراط المستقيم · ثم ما فى المطابقة بين « الظلمات » و « النور » من ابـراز للبـون الشاسع بين الايمان والكفر زيادة فى الترغيب فى الأول والتنفير من الثانى ·

« **وان الله بكم لرؤوف رحيم** » فاصلة يستدعيها المعنى فالله تعـالى حين ارسل اليهم الرسول وانزل عليه الآيـات البينـات ، ونصب لهم الادلة ومكنهم من الاستدلال بالعقول انما كان ذلك رأفـة بهم ورحمة منـه · ويلاحظ ما فى الجملة من تأكيد بـان واللام واسـمية الجملة وذلك يقتضيه مقـام الترغيب وتقديم الظرف « بكم » للاهتمام والتشويق الى ما بعده ·

« وما لكم الا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض » ··

انكار لامتناعهم عن الانفاق فى سبيل الله دون سبب يدعوهم الى ذلك ، والمراد توبيخهم كما سبق فى توبيخهم على ترك الايمان · ثم بيان لموجب الانفاق بعد بيان موجبات الايمان · فهو يتساءل منكرا اى عذر لكم فى ترك الانفاق فى سبيل الله ؟ · ويلاحظ ما فى التعبير من تعيين جهة الانفاق بأنها سبيل الله ، زيادة فى التوبيخ اذ كيف يمتنعون عن الانفاق فى سبيل المالك الحقيقى للمال ، وهم وكلاؤه فى التصرف فيه ملزمون بالتقيد بما يعينه لهم من جهات الانفاق ؟

« **ولله ميراث السموات والأرض** » بيان لداع جديد من دواعى الانفاق · وهو ان كل ما فى السموات والأرض باق لله تعالى فى نهاية الأمر ، دون ان يبقى منهم احد · فكيف لا ينفقون فى سبيله ما هو باق له ؟ وهذا اقوى فى ايجاب الانفاق مما سبق فى قوله تعالى « **مما جعلكم مستخلفين فيه** » كما هو ظاهر · والغرض من ذكر هذا الموجب للانفاق زيادة توبيخهم ، فان الامتناع عن الانفاق مع عدم وجود داع للامتناع قبيح منكر ، والامتناع مع وجود الداعى للانفاق اشد قبحا وادخل فى الانكار (١) · وواضح ان فى التعبير بـ « ميراث » استعارة لبقاء ما فى ايديهم بعد موتهم ، لله تعالى والاستعارة ابلغ لتصويرها المعنى وتذكيرهم بالموت وما يعقبه مما يحمل على الاستجابة وتقديم « لله » لافادة القصر تأكيدا للمعنى ·

« لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » ·

بيان لتفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت الظروف المحيطة بالانفاق · فهؤلاء الذين انفقوا قبل الفتح وقاتلوا فعلوا ذلك والعقيدة مطاردة ، والأنصار قليلون ، وليس فى الافق بارقة أمل فى مغنم قريب او سلطان منتظر فكان الدافع لهم هو الاخلاص الذى لا يشوبه شائبة ، اما الآخرون فانهم انفقوا وقاتلوا بعد ان قويت شوكة الدعوة وكثر انصارها ، وبدت بوادر النصر والغلبة وهذا يجعل الانفاق أيسر على النفس نظرا للظروف المعينة عليه · فلا يستقيم فى منطق العدل ان يتساوى الطرفان فى اجر الانفاق مع

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ ٥ ص ١٣٧ ·

تفاوت احوالهم فيه . ويلاحظ ما فى التعبير من ايجاز بحذف قسيم « من انفق » لدلالة ما بعده عليه ، وكذلك عطف القتال على الانفاق للاشارة الى انه من اهم ابواب الانفاق .

« **وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير** » هؤلاء واولئك وعدهم الله المثوبة الحسنى ، فكلهم محسن ، ولكن التفاوت بينهم فى الجزاء مرده الى علم الله تعالى واطلاعه على احوالهم وخبرته ببواطنهم ، فيجازى كلا بما يعلمه عنه . وهكذا تلتئم الفاصلة بالمعنى وتكمله . ويلاحظ ما فيها ايضا من حث على الاخلاص وتزكية البواطن التى عليها مدار الجزاء .

« **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم** » انتقال الى الترغيب فى الانفاق بعد الأمر به والتوبيخ على تركه وبيان دواعيه .

وابتدأت الآيات ذلك بهذا الندب البليغ من الله تعالى « **من ذا الذى يقرض الله** » انها دعوة مؤثرة بتصوير المنفق فى سبيل الله بصورة المقرض له مع أن المنفق وما ينفقه ملك لله تعالى ، وأى أسلوب أبلغ فى استمالة القلوب من ان يقول صاحب المال لخليفته فيه : اقرضنى . ثم يعده على هذا القرض الحسن الخالص له بأن يضاعفه له أضعافا مضاعفة ، وله فوق ذلك أجر كريم فى الآخرة . ومن الواضح أن استعارة الاقراض للانفاق أبلغ فى تأدية المعنى واقوى فى الحث على الانفاق حيث تؤكد ان جزاء الانفاق واقع لا محالة شأن المقترض يرد القرض الى صاحبه .

ويلاحظ ما فى وصف القرض بأنه « حسن » من تأكيد لمعنى الاخلاص فيه وملاحظة آداب الانفاق التى سبق ان بينتها الآيات السابقة من تحرى الطيب وأفضل الجهات لتوجيهه اليها ، ثم ما فى وصف الأجر بأنه « كريم » حيث وصفه بصفة صاحبه والمتفضل به ، مبالغة فى تعظيمه زيادة فى الترغيب كأنه قيل : ان هذا الأجر كريم فى نفسه من غير أن يضاف اليه الاضعاف فكيف اذا اضيفت اليه .

« **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانكم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم** » .

والآيات هنا تعرض مشهدا من مشاهد هذا اليوم الذى يكون فيـه الاجر الكريم . انه مشهد حى ، ابطاله المؤمنون والمؤمنات والمنافقون والمنافقـات والملائكة الكرام · وزمـانه يـوم الفصل حيث يواجه كل انسان ما قـدمت يداه ومكانه موقف الحساب ممتـدا الى حيث يحـل المؤمنـون والمؤمنات دار المقامة تحفهم الأنوار وتتلقاهم الملائكة . مخلفين وراءهم المنافقين يتخبطون فى ظلمات اعمالهم حتى ينتهوا الى مستقرهم فى النار · ويأتى الحوار بين هؤلاء وأولئـك ليبرز المشـهد حيـا متحـركا كأننا نـرى الصورة ونسـمع الحـوار ·

« يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمـانهم » ها هـو ذا الموكب المهيب الجـليل ، موكب المؤمنين والمؤمنـات يمضى الى دار الكرامة نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم · والنور الذى يؤتاه المؤمنون هو امتـداد لمـا أثـروه فى الدنيـا من الايمـان والهدى الذى ينير القـلوب ويهدى البصـائر ، يدركهم هنـاك يسـعى بين ايديهم ، وهو أيضا صحفهم الوضيئة يتلقونها بأيمانهم فتشع نورا وضياء ، ويلاحظ ما فى قوله تعـالى « تـرى » من ايثـار صيغة المضارع لابراز المشهد كأنه ماثل أمـام العـين تقـوية لأثـــره فى النفس ثم ذكـر « المؤمنات » عقب المؤمنين اشـارة الى تساويهما فى التكليف والجزاء وهى لمسة قصد بها تكريم المرأة والمبـالغة فى حثها · ثم قـوله « يسـعى » وما يضـيفه الى المشهد من الحركة والحيـاة بما فيه من تصوير يشخص المعانى وكذلك ما فى قـوله تعالى « بين أيديهم وبأيمانهم » من كناية عـن كثرته وكـونه لارشادهم فى مسيرتهم المبـاركة ووقايتهم من مزالق الطريق وعقباته · زيادة فى الترغيب الذى يقتضيه المقام·

« بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » لمسة جديدة تضيف الى المشهد جـلالا فوق جـلاله ، انهم الملائكة يكرمون الموكب الكريم ويبشرون أصحابه ، يقولون : بشراكم التى نسوقها اليكم اليوم دخـول جنات تجرى من تحتها الأنهـار · لتمتلىء قلوبهم غبطـة ورضا · ويلاحظ ما فى التعبير بـ « جنات » بالجمع وما يوحى به من واسـع الجزاء ووافر النعم ، ثم وصف الجنات أيضا بأنها « تجرى من تحتها الأنهار » ايماء الى تناهيها فى الحسن والجمال ثم اضافة انهم خالدون فيها ولن يتحولوا عنها ، فليست كمتع الدنيا الزائلة ، التى تعقب الحسرة والألم · بل هى النعيم الدائم والأمن الدائم · وتلك لمسات يقتضيها مقام الترغيب ·

« ذلك هو الفوز العظيم » حقا انه الفوز العظيم ، الذى لا غاية وراءه كما يدل على ذلك تعريف المسند اليه بلام الجنس ، ووصفه بالعظيم · ويمضى الموكب الكريم الى غايته على هدى الأنوار مكرما عزيزا ··

« **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا** » ·

انه الجانب الآخر من المشهد يكمله ويضيف اليه ايحاءات جديدة ولمسات جديدة ، تدعم تأثيره فى القلوب ، ونهنهته للوجدان ··

ان هناك أيضا المنافقين والمنافقات · يتخبطون فى الظلمات وتلفهم حجبه الكثيفة · يتطلعون الى بصيص من نور أو بارقة من ضياء ، يتبينون بها معالم الطريق ويسكنون بها بعض ما فى نفوسهم من هلع · انهم يتعلقون بأذيال المؤمنين ضارعين « **انظرونا نقتبس من نوركم** » انهم يضرعون اليهم أن ينتظروهم ويتمهلوا فى اسراعهم الى الجنة ، ليهتدوا بنورهم · أو يطلبون منهم أن ينظروا اليهم فانهم اذا نظروا اليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بالنور الذى بين أيديهم · يا له من تصوير ·· ولنتأمل قوله تعالى : « **نقتبس** » فان أصله اتخاذ القبس ـ والمراد به هنا ـ نستضىء · واستعماله بهذا المعنى فيه هو تصوير يخيل حركة اتخاذ القبس ، تقوية له وتثبيتا فى النفس ·

« **قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا** » رد عليهم بما يستحقون من تهكم وتوبيخ وتيئيس · « **ارجعوا وراءكم** » عودوا الى الموقف فالتمسوا هناك ما تريدون من نور · أو عودوا الى الدنيا فاعملوا ما يمنحكم النور · وقد علموا أنه لا نور فى الموقف ولا رجعة الى الدنيا · وانما قالوه تهكما وتيئيسا · او ارادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة على سبيل الاستعارة التهكمية · التى تملأ قلوب المنافقين حسرة ، وتزيد المؤمنين غبطة وفرحا ·

« **فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** » ·

وعندما يصل الموكب المبارك الى مستقره فى الجنة يحال بين الفريقين ويفصل بسور له باب ، فى جانبه الذى يلى الجنة الرحمة ، وفى جانبه الآخر الذى يلى النار من جهته العذاب · ويلاحظ ما فى التعبير بالفاء فى «فضرب» التى تدل على سرعة وصول الركب المبارك الى الجنة واقامة السور بين الفريقين · وكذلك اطلاق الرحمة على الجنة ، والعذاب على النار · للتلازم بين كل منهما وما اطلق عليه والمجاز هنا ابلغ حيث اطلق الرحمة على الجنة والعذاب على النار تأكيدا لتحقق كليهما · وأخيرا تبهرنا تلك المقابلة الرائعة فى قوله تعالى « **باطنه فيه الرحمة** » وقوله « **وظاهره من قبله**

العذاب » وهى مقابلة تبرز البون الشاسع بين حال الفريقين ، استثارة لدوافع الخير ، وكبحا لنوازع الحرص والشح ٠

« **ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور** » ٠

فى غمرة اليأس وهول الموقف ينسى المنافقون أو يتجاهلون الحقائق فهاهم يسألون المؤمنين : « **ألم نكن معكم** » ؟ يريدون موافقتهم للمؤمنين فى الظاهر حيث أعلنوا أنهم مسلمون ٠ فيرد عليهم المؤمنون : **بلى** ٠ الأمر كذلك ٠ ولكنكم « **فتنتم أنفسكم** » أى اهلكتموها بتعريضها لهذه المحنة بنفاقكم ، وتربصتم بنا الدوائر « **وارتبتم** » فى الدين فلم يكن اسلامكم عن ايمان ويقين بل تقية وخداعا « **وغرتكم الأمانى** » أى غركم أملكم فى انتكاس أمر الاسلام وهزيمة اصحابه « **حتى جاء أمر الله** » وانتهى الأمر « **وغركم بالله الغرور** » وخدعكم الشيطان الذى كان يعدكم ويمنيكم ، وانه لرد مفحم يسوق اليهم حيثيات الحكم عليهم بما هم فيه من سوء ، تيئيسا لهم ، وقطعا لكل أمل لديهم ٠

« **فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار ، هى مولاكم ، وبئس المصير** » ٠

تقرير حاسم ، يقطع كل أمل وينهى كل حوار ، **اليوم لا يغنى عنكم** من الله شىء فلا سبيل الى التخلص من العذاب ، **فلا تؤخذ منكم فدية** تقدمونها بل النار هى مقركم وهى أولى بكم وبئس المصير ما أنتم فيه ٠

ويلاحظ ما فى التعبير الكريم « **فاليوم لا يؤخذ منكم فدية** » من تهكم بهم انهم لا يملكون ما يفتدون به انفسهم ولكنه التهكم والتذكير بأساليبهم فى الدنيا التى لا تغنى هناك شيئا ، ثم ان مساواتهم فى الحكم بالذين كفروا انذار للمنافقين أن نفاقهم وتظاهرهم بالاسلام ـ وان تستروا خلفه فى الدنيا طمعا فى المغانم واتقاء للأخطار ـ فانه فى الآخرة لن يغنى عنهم شيئا ، فهم والكافرون سواء فى سوء المصير ٠

ثم ان التعبير بقوله « **هى مولاكم** » أى ناصركم على سبيل التهكم فان المقصود هو نفى النصير جملة ٠

وينتهى المشهد المهيب الذى يجعل أقسى القلوب تسرع الى البذل وتتسابق فى العطاء ٠ فأى قلب لا يهفو الى ذلك النور ، ولا يستجيب لهتاف الانفاق والبذل تحت ايقاع تلك الموجبات العميقة التأثير ؟

« **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون** » ٠

المعنى : ألم يأت الوقت لأن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ·
والتعبير بما تضمنه من تساؤل يحمل معنى استبطاء استجابتهم لما ندبوا اليه من تحقيق الايمان فى قلوبهم وبذل الأموال فى سبيل الله ، فقد بدأ بهذا التساؤل الذى يحمل رنة العتاب ونغمة الاستبطاء ثم عبر بالموصول لينص فى صلته على الايمان الذى يستوجب المسارعة الى الطاعة ، ثم بين ما أصابهم من فتور حرارة الايمان فى قلوبهم ، وهو بكل هذه اللمسات التى يقتضيها المقام يستجيش نفوسهم الى الشعور بجلال الله والخشوع لذكره ، ولما نزل من الحق ·

ثم يذكرهم بما أصاب أهل الكتاب من قسوة فى القلوب وفسق فى الأعمال حين طال عليهم الأمد دون أن يزكوا فى قلوبهم معانى الخير ، ويزيلوا ماغشيها من صدأ ، ويحذرهم أن ينتهى الحال بهم الى ان يكونوا مثلهم ·

روى أن المؤمنين كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة وفتروا عما كانوا عليه فنزلت · وعن ابن مسعود رضى الله عنه « ما كان بين اسلامنا وبين ان عوتبنا بهذه الآية الا اربع سنين » (١) ·

والآية الكريمة بيان لطبيعة النفس وحاجتها الدائمة الى المجاهدة والتذكير فالذكرى تنفع المؤمنين ، وهذا درس للداعية ، واعلاء لرسالته السامية فى ايقاظ المشاعر وتعهد القلوب بالموعظة التى تنفى خبثها وتمدها بالزاد الروحى الذى يعينها على الطاعة ويدعم فيها مقاومتها لاغراء الشهوات ووسوسة الشيطان ·

« **اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها** » لمسة جديدة من لمسات القرآن الموحية ، ان الآية الكريمة تطمع المخاطبين فى عون الله لهم اذا اتجهوا الى احياء قلوبهم وتزكية الايمان فيها ترغيبا لهم فى ذلك · فان الذى يحيى الأرض بعد موتها ، بما ينزله عليها من غيث ، يحيى القلوب القاسية بالذكر وتلاوة القرآن والعمل به ·

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٤ ·

ويلاحظ ما فى التعبير الكريم من اطلاق ـ الحياة ـ على تزيين الأرض بالنبات واخراجه منها و ـ الموت ـ على خلوها منه ويبسها ، والاستعارة ابلغ من الحقيقة لما فيها من تقوية للمعنى وتصويره بالاضافة الى ما بها من طباق يبرز عظم قدرة الله تعالى واتساع مداها ·

« **قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون** » تعقيب على تمثيل القلوب فى احيائها بالذكر والقرآن بالأرض فى احيائها بالغيث بعد موتها ، للاشارة الى أن فيما ذكر آية دالة على الهدى لمن أراده ، قد سقناها لكم لعلكم تعقلون مغزاها وتنتفعون بها ·

« **ان المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم** » تأكيد للمعنى بتكريره ، والتكرير كما سبق من أقوى عوامل تثبيت المعانى فى النفوس وحملها على الاستجابة لها والعمل بمقتضاها ·

ويلاحظ ما فى التعبير من التأكيد ـ بأن ـ وذكر ـ المصدقات ـ مع امكان دخولهم فى المصدقين تغليبا ، وتنبيها على شدة حاجة المصدقات خاصة الى الصدقة كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « يا معشر النساء تصدقن فانى رأيتكن أكثر أهل النار » ، ثم النص على أن تكون الصدقة خالصة لله ، وقرضا له ، لا ينظر فيها المصدق الى أخذها ، ثم ما فى تصويرها بالقرض من تأكيد لتحقيق الأجر المترتب عليها ، والنص على مضاعفتها ، وضم الأجر الكريم الى المضاعفة كل ذلك استمالة للقلوب وترغيب فى الطاعة ·

وبعد : ففى لغة القوانين وأسلوب الأمر والنهى كان يكفى أن يقال : آمنوا ، وأنفقوا · ولكن القرآن الكريم فى دعوته حريص على أن يهيىء لأوامره قلوبا منقادة الى الطاعة ، ونفوسا مملوءة بفيض من الدوافع والمشاعر والأشواق ، تجعلها تتقبل ما يلقى اليها هاشة له مطمئنة اليه ، مسرعة الى امتثاله ، يملؤها الرضا وتغمرها النشوة بالتوفيق الى طاعة ربها وقربها من حماه ·

وهذه هى ضمانة النجاح فى التطبيق ، وتلك مهمة الدعاة ومعترك الدعوة ، والبلاغة هى السلاح الذى لا يفل لمواجهة كل ذلك كما رأينا ·

★ ★ ★

● أسلوب التحذير من الامتناع عن الانفاق :

أولا ـ الترهيب بالعقوبة فى الدنيا :

قال تعالى : « ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ، ان الله لا يحب الفرحين • وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين • قال انما أوتيته على علم عندى ، أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون • فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم • وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها الا الصابرون • فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين • وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون • تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين • من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون (١) •

تحكى الآيات الكريمة قصة أحد المفسدين فى الأرض ، الذين غفلوا عن حكمة الله فى بسط الرزق لمن يشاء وقبضه عمن يشاء ، ذلك هو قارون الذى كان من قوم موسى عليه السلام ، فقد آتاه الله مالا كثيرا ، وبدلا من أن يقوم بحق الله فيه تطاول به وبغى على الناس وصم أذنيه عن كل صوت يحاول أن يرده عن فساده ويلزمه الصراط السوى • فكانت عاقبته فى الدنيا أن خسف الله به وبداره الأرض ، ولم يجد من ينصره ويدفع عنه • وفى ثنايا سرد الأحداث تسوق الآيات الكريمة لمحات تهدى الى منهج الاسلام وسياسته فى الأموال ، كما تكشف عن الطبيعة البشرية فى افتتانها بالمال افتتانا ينسيها حكمة الله فى العطاء ولا يسلم من هذا سوى من كان صوت الايمان فى قلوبهم أقوى من كل اغراء ثم تختتم الآيات بتقرير ما سيقت القصة من أجله وتلخيص الدرس المستفاد منها بأن الآخرة أعدها الله للذين

---

(١) القصص : ٧٦ ـ ٨٤ •

لا يريدون فى الأرض علوا ولا فسادا وأن العاقبة للمتقين الملتزمين بحدوده الشاكرين لأنعمه ٠

« **ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم** » تكتفى الآيات فى التعريف ببطل القصة بأن اسمه قارون وأنه كان من قوم موسى فبغى عليهم ، ولا تتعرض لذكر مكان القصة أو زمانها ، وذلك لأن الكتاب الكريم يسوق القصة لهدف محدد فلا يذكر الا ما يتعلق بهذا الهدف ويقتصر على ما يحقق الغرض من القصة ٠ والبغى هو الظلم ٠ والآيات تشير الى سبب البغى وهو ما كان يتمتع به من ثراء ، ولكنها لا تذكر فيم كان البغى ، ليشمل كل ما يمكن أن يرتكبه من مظالم مستعينا بثرائه وامواله ، او بعدم ادائه حقوق المال للمحتاجين ٠ وليذهب الخيال فى ذلك كل مذهب ٠

« **وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة** » لقد آتاه الله كنوزا طائلة صور القرآن الكريم كثرتها بأن مفاتح خزائنها يثقل حملها الجماعة كثيرة العدد البالغة القوة ٠

ويلاحظ ما فى التعبير ـ بالكنوز ـ ليفيد ان هذه الأموال كانت مدخرة فائضه عن حاجته فلا عذر له فى البخل بها ، وذلك اشارة الى ان بخله صادر عن مرض فى نفسه لا عن حاجة الى المال تعظيما لجريمته ٠ كما يلاحظ المبالغة فى التعبير عن كثرة هذه الأموال بذكر الكنوز بصيغة الجمع ، والمفاتح ، والنوء ، والعصبة ، وأولى القوة (١) ٠

وكذلك التأكيد بأن واللام ٠ وذلك قطعا لكل عذر فى البخل وتعظيما للجريمة ٠

« **اذ قال له قومه لا تفرح ، ان الله لا يحب الفرحين ٠ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما احسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين** » ٠

لقد وجد من قومه ـ على الرغم من بغيه ـ من يقدم له النصيحة ويحاول ان يرده عن بغيه ٠ وهذه النصيحة التى يحكيها القرآن الكريم على لسان ناصحيه تتضمن منهج القرآن السوى الذى يجب ان يلتزم به ذوو اليسار من المؤمنين ٠

---

(١) انظر تفسير الكشاف ٠ جـ ٢ ص ١٩٠ ٠

« **لا تفرح** » فالفرح بالمال اذا استولى على القلب أنساه شكر المنعم به وملأه تعلقا بالكنوز واحتفاء بها ، ودفعه الى البغى على الناس ، والتطاول عليهم ، ثم ان الفرح بالمال هو نتيجة حبه ، والغفلة عن ذهابه وعن انه عارية مستردة ، لا يبقى منها الا ما ادخر للآخرة ، ولو تذكر الغنى ذلك لشعر بتبعة النعمة ، وانها فتنة له ، وعمل على أداء حقها لينجو من تبعاتها وهذا الشعور يحول بين قلب المؤمن والاستسلام للفرح المبطر بالمال ٠

« **ان الله لا يحب الفرحين** » بيان لعلة نهيه عن الفرح لأنه يحول بينه وبين محبة الله له ٠ لما يترتب عليه من المعانى التى أشرنا اليها ، ويلاحظ ما فى التعبير من تأكيد اقتضاه حرص الناصحين له على هدايته ٠ « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا** » وهذه النصيحة هى جماع المنهج الاسلامى فى الصرف فى المال ، بأن يكون رائده فى تصرفه محققا لمصالحه الآجلة والعاجلة ، فلا تطغى واحدة على الأخرى ، واذا كانت الدار الآخرة هى الحيوان ، فما أحراها بأن تستأثر بالأولوية والعمل على ما يرجى به الخير فيها ، ولهذا عبر فى جانبها بقوله «**وابتغ**» أى ليكن هدفك وبغيتك ، وعبر فى جانب الدنيا بقوله « **ولا تنس** » أى لا تترك ترك المنسى ٠ فمن حقك أن تستمتع بما فيها ، فالدين لا يمنعه من أن يستمتع بطيبات الرزق فى الدنيا فيأخذ منها بنصيب ، وهكذا يتحقق للانسان التعادل الذى يمكنه من الارتقاء الروحى دون اهدار لمطالب الحياة الفطرية ، أو حرمان لا تستقيم به الحياة ٠ وواضح ما تضيفه المقابلة بين الآخرة والدنيا من ابراز لهذه المعانى المتقابلة تمكينا لها فى النفس ٠

« **وأحسن كما أحسن الله اليك** » تذكير لقارون بأن ما بين يديه من أموال نعمة من الله أحسن بها اليك ٠ فعليك أن تقابل الاحسان بمثله بأن تؤدى شكر النعمة بانفاقه فيما يرضى الله تعالى الذى أحسن به اليك ويلاحظ ما فيه من ايجاز يجعله من جوامع الكلم ٠

« **ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين** » نهى له عن الافساد بالمال بانفاقه فى غير وجهه ، أو التطاول به على الناس ، أو امساكه والشح به عن المحتاجين ٠ فكل ذلك وغيره فساد بالمال ، والله لا يحب المفسدين ٠ فهل استجاب للنصيحة المخلصة ؟ « **قال انما أوتيته على علم عندى** » انها اجابة تنم عن الطغيان والغرور الذى ينسى صاحبه كل شىء سوى ذاته ، ويعميه عن مصدر نعمته ، انما أوتيته وحصلت عليه بكفايتى وعلمى

وخبرتى • وهو يعبر عن ذلك بأسلوب الواثق المتغطرس فيستعمل أسـلوب القصر الذى يصور ما فى بصيرته من عمى يحجب عنه رؤية الحقيقة التى ساقها اليه ناصحوه ، وهو أن ما يملكه من أموال رزق من الله ساقه اليه دون أن يكون له فضل فيه • ومن هنا عاجله القرآن بالرد وساق اليه التهديد ، قبل أن يستكمل سرد أحداث القصة •

« أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة واكثر جمعا ، ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون » •

انه يدعى العلم ويعتز به ، ويزعم أنه قد جمع ما جمع بفضل هـــذا العلم • أو ليس فيمـا علمه أن الله قد أهلك أممــا قبله لاغترارهم بالمال وبغيهم ؟

فلماذا لم يستفد بهذا ويجنب نفسه مصيرهم ؟ وهو استفهام يـوحى بالتهكم منه والتوبيخ له ، وتهديده بما سيناله من هلاك اذا لم يكف عن بغيه وافساده ثم يؤكد القرآن تهديده ببيان أن عقاب الله للمجرمين سنة ماضـية ليست مقصورة على من مضى من القرون بل انه تعالى مطلع على جرائمهم يعاقبهم عليها حتما ، وهم أهون عليه من أن يسألهم عنها بل يباغتهم بالعقوبة•

وفى التعبير بـ « **من القرون** » ووصفها بانها « **اشـد منه قوة واكثر جمعا** » قطع لأى أمل له فى الافلات من العقاب • فهى سنة الله الماضـية فى كل من حاد عن طريقه ، ولا تغنى قوة أو مال فى أن تجنب هؤلاء المجرمين ما يريده الله بهم من اهلاك •

وهكذا أصر قارون على بغيه واستخف بالنصيحة ، ومضى يفتن فى مظاهر التطاول والبغى • ويكون هـذا المشــهد الذى يصور موقف النفس البشرية أمام المال واغرائه •

« فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم • وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها الا الصابرون » •

ها هـو ذا قارون يخـرج عـلى قومه فى مظـاهرة لاستعراض القوة والتباهى بالغنى ، جمع لها كل ما يبهر ويروع ، قيل « خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان ، ومعه أربعة آلاف على زيه ، وقيل عليهم وعلى خيـولهم الديباج الأحمر ، وعن يمينه ثلاثمائة غلام ، وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض

عليهم الحلى والديباج (١) والقرآن يعبر عن ذلك بكلمة واحدة « زينته » وهى كلمة توحى بالزوال والانقضاء ، شأن الزينة فهى أمر عارض لا يدوم • وهذه لمحة عميقة الايحاء بالاستهانة بما أبداه من مظاهر القوة تبجحا وتطاولا ، فهى زينة وعرض زائل عند من يستطيعون النفاذ ببصيرتهم الى جوهر الأشياء وحقيقتها • فلا تبهرهم المظاهر الخادعة •

فماذا كان موقف القوم وقد شاهدوا تلك المظاهرة ؟ « **قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم** » • هذا موقف فريق من القوم ، للدنيا فى نفوسهم المرتبة الأولى ، هذه هى علتهم التى جعلتهم يفقدون توازنهم أمام بريق الزينة فيبهرون بها ويتمنون الحصول عليها • وذلك هو السلوك الطبعى لمن خبث فى قلبه جذوة الايمان ، وضمرت القيم التى يغرسها فى النفوس ، فتحمل صاحبها الى التطلع نحو افاق أسمى من الدنيا ومتاعها ، والاستعلاء على كل اغراء ، والصبر على كل مكروه •

والتعبير باسم الموصول للتنبيه على أن مسلكهم نتيجة لما تضمنته الصلة من وصفهم بأنهم « **يريدون الحياة الدنيا** » وارشادا لما يجب أن يحتاط منه المؤمن ، فلا يجعل الدنيا أكبر همه ، ومبلغ علمه • والتعبير بـ « ليت » يصور استعظامهم لما أوتيه قارون كأن الحصول على مثله مستحيل أو متعذر الوقوع •

وقوله تعالى حكاية لقولهم « **انه لذو حظ عظيم** » تأكيد لاحساسهم هذا وتعليل لتمنيه • ويلاحظ ما فيه من تأكيد بأن واللام واسمية الجملة والوصف بأنه عظيم وذلك تعبير عن امتلاء قلوبهم بحب المال وانبهارهم به •

« **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها الا الصابرون** » •

وهذا موقف الفريق الآخر ، الذين أوتوا العلم الصحيح الذى يقوم الأشياء تقويما حقيقيا ، فيضع كل شىء موضعه • ان نفوس هؤلاء العلماء أعلى قدرا من أن تتهاوى أمام زينة الدنيا ، انها هناك تتطلع الى ما هو خير وأبقى ، لا تلتفت الى سواه ولا يبهرها بريقه مهما كان خاطفا للأبصار •

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ ٤ ص ١٦٣ •

ها هم أولاء يعبرون عن استنكارهم لموقف الفريق الأول فيتوجهون اليهم بالزجر والتأنيب « **ويلكم** » ثم يرشدونهم الى الصواب « **ثواب الله خير** » ان ما عند الله خير مما عند قارون · وما عند الله معد « **لمن آمن وعمل صالحا** » فلا تتمنوا ما هو أدنى ، واجتهدوا فى طلب ما هو خير منه بالعمل له · ولتتذكروا أن تلك المنزلة لا ينالها الا الصابرون على مشقة الطاعة ومشقة التعالى على الشهوات وعدم الانقياد لها ·

ونقف عند ما توحى به الآية الكريمة فى تسجيلها لموقف الذين أوتوا العلم ، فهم لم يكتفوا بمقاومة اغراء الزينة لهم واستعلائهم عليها ، بل ألزموا أنفسهم بما هو فوق ذلك بتصديهم للآخرين وارشادهم الى الحق · وذلك تنبيها على واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو سمة من سمات المجتمع المؤمن المتناصح المتواصى · ولفظ « **ويلكم** » المستعمل فى الزجر والتأنيب يوحى بما فى نفوس العلماء من استعظام واستنكار لموقف الذين يريدون الحياة الدنيا ، وغيرتهم على الحق ، وحرصهم على هداية اخوانهم · واضافة الثواب الى الله ووصفه بأنه « **خير** » ترغيب لحملهم على الاستجابة ، وقوله تعالى « **ولا يلقاها الا الصابرون** » وما فيه من قصر لافادة انه الطريق الوحيد لنيل ما عند الله من ثواب ، فالصبر وضبط النفس وعدم الاستجابة لشهواتها والزامها بحدود الله هو جماع الخير كله ·

« **فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** » ·

هكذا عجل الله بنهاية هذا المفسد ، الذى فتن الناس ، وزلزل القيم فى نفوس ضعافهم ، بأن خسف به وبداره الأرض ، فهوى فى بطنها ذليلا عاجزا ، لا ينصره أحد ، ولا يغنى عنه من الله شيئا · ولنتأمل النظم الكريم :

« **فخسفنا به وبداره الأرض** » انها النهاية السريعة الخاطفة التى يوحى بسرعتها استعمال « الفاء » فى قوله تعالى « فخسفنا » ولفظ « خسفنا » يصور بجرسه ومعناه حركة ابتلاع الأرض له وتغييبه فيها ، واسناده الى نون العظمة اشارة لقدرة الله تعالى التى لا يستعصى عليها شىء ، وعطف « بداره » على ضميره لافادة أن الخسف قد جمع بينه وبين وما كان يستعلى به ويبغى من الأموال والزينة والأولاد والأعوان للاشارة الى هوان كل ذلك على الله ·

« **فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** » · انه نفى لأسباب انتصاره وافلاته من قدرة الله بأبلغ وجه ، حيث نكر « فئة »

وهى واقعة فى سياق النفى فتفيد العموم ، ثم زاد « من » التى تفيد تأكيد نفى أى فئة تنصره ، ثم عرف « المنتصرين » بلام الجنس الدالة على الاستغراق وسلط النفى عليها ليفيد اخراجه من جنس المنتصرين بوجه من الوجوه ·

« وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون » ·

لقد كشف ما حاق بقارون الغفلة عن قلوب الذين تمنوا منذ وقت قريب أن يكون لهم مثل ما أوتى قارون ، وذلك عندما اختلت المقاييس فى نفوسهم فحسبوا انه ذو حظ عظيم · فها هم أولاء – بعد أن زالت غفلتهم – يعبرون عن ندمهم ، بعد أن تنبهوا الى خطئهم ، ويقررون ما أدركوه بعد الكارثة من أن أمر سعة الرزق وضيقه راجع الى مشيئة الله ، ابتلاء منه بالغنى والفقر ، ويحمدون الله على عدم استجابته لما تمنوه ، والا لهلكوا كما هلك قارون ويدركون الحقيقة وهى انه « **لا يفلح الكافرون** » ·

ولفظ « الأمس » استعير هنا بمعنى الوقت الماضى القريب ، وحقيقته اليوم السابق على اليوم الذى نحن فيه ، والجامع بين المعنيين المضى فى كل · والاستعارة تحقق الايجاز والايماء الى قرب وقت تمنيهم كأنه كان بالأمس · والتعبير بصيغة المضارع « يقولون » لاستحضار الصورة فى الذهن كأن المشهد يرى ويسمع ما يدور فيه من حوار مبالغة فى التأثير · ولفظ « وى كأن » مركب من « وى » الدالة على التعجب و « كأن » المقيدة للتشبيه – على رأى البصريين ، والمعنى «ما أشبه الأمر أن الله يبسط» · أو مركب من « ويك » بمعنى ويلك ، و « أن » والمعنى : اعلم أن الله ، على رأى الكوفيين · وعلى كل فهى تستعمل عند التنبيه على خطأ والتندم عليه (١) فهى اذن صيحة معبرة عن شعور بالندم عندما يجد الانسان نفسه وقد وقع فيما لا يحب أن يقع فيه ، مصورة للمفاجأة التى تنبه على الخطأ وترد الى الصواب ·

كما يلاحظ التعبير بلفظ « الكافرون » ايماء الى تعظيم جريمة قارون وتشنيعها ، فقد أدخلته فى عداد الكافرين · مع انه لم يجاهر بكفر ·

---

(١)انظر تفسير أبى السعود ·

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين • من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون » •

لقد آن الوقت لتقرير الحق وتثبيته فى القلوب بعد أن انقشعت عنها غشاوة الباطل وتهيأت للتلقى والقبول • والآيات تسوق ذلك فى أنسب وقت وأفضل مناسبة • ولنتأمل النظم الكريم •

« **تلك الدار الآخرة** » اشارة تعظيم وتفخيم بما تضمنته من معنى البعد وبادخال ـ الـ ـ العهدية ـ كأنه قيل : تلك الدار عالية القدر التى بلغت شأنها ، « **نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا** » والتعبير باسم الموصول للنص فى الصلة على أسباب الاستحقاق لما فى الآخرة من خير وقوله تعالى : « **لا يريدون** » للاشارة الى أنه لا يكفى أن يمتنع الانسان عن الفساد والاستعلاء فى الأرض ، بل أن يمتنع أيضا عن مجرد ارادتهما • فلا يخطر فى نفسه هاجس شر أو خاطر استعلاء •

« **والعاقبة للمتقين** » المراد بالعاقبة ما أعد فى الآخرة من ثواب عظيم وتعريف الطرفين لافادة القصر أى انها العاقبة الحسنة للمتقين دون سواهم •

« **من جاء بالحسنة فله خير منها** » فضلا منه سبحانه وزيادة فى الترغيب •

« **ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون** » عدلا وانصافا • ويلاحظ التعبير بالموصول ، و بـ « السيئات » بدل ضميرها زيادة فى تقبيح صنيعهم بتكرار اسناد السيئة اليهم •

ويختتم النص بهذا التقرير الذى يلخص مغزى القصة بعد أن ساق أحداثها فى سرد محكم وحوار حى ، ومشاهد شاخصة ، وضمن كل ذلك فيضا من اللمحات الدالة والايحاءات العميقة التى تصور مشاعر النفس وتبرز خواطرها وتكشف عن أسرارها •



ثانيا ـ الترهيب بالعذاب فى الآخرة :

قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم • يوم يحمى عليها فى نار**

جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم،هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » (١)

وردت هاتان الآيتان الكريمتان فى سياق آيات تحرض المؤمنين على قتال الذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب · وهم اليهود والنصارى ، وذلك بادعاء اليهود أن عزيرا : ابن الله وادعاء النصارى أن المسيح : ابن الله ، وباتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا من دون الله يشرعون لهم فيتبعونهم ثم تأتى الآيتان فتبينان حال هؤلاء الأحبار والرهبان الذين يتخذونهم آلهة وتفضح أمرهم ، وأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ثم تتجهان بالترهيب والوعيد لكل من يكنز الأموال ولا ينفقها فى سبيل الله·وتسوقان هذا الترهيب فى صورة مفزعة تقشعر لهولها الأبدان، وتفزع القلوب · تحذيرا منه سبحانه لعباده علهم يجنبون أنفسهم هذا المصير باستجابتهم لأمر الله وبذل الأموال فى سبيله ·

« يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » ·

بيان لحال الأحبار والرهبان ، بأن كثيرا منهم يأكلون أموال الناس بالباطل فقد كانوا يأخذون الأموال بطريق الرشوة من الملوك وأصحاب المنافع ليبدلوا أحكام الله ويشرعوا ما يوافق أهواء من يرشونهم·كما يتقاضون أجرا ممن يتقدم لهم للاعتراف بذنبه رجاء غفرانهم له · فقد أعطوا أنفسهم سلطة مغفرة الذنوب زورا وافتراء حتى أصبح ذلك موردا يجنون من ورائه المال الوفير ، وقد جاء عليهم زمان كانوا أكثر ثراء من الملوك والأباطرة · وهذا واقع تاريخى لا ينكر ·

وهم أيضا الى جانب أكل أموال الناس بالباطل يصدون عن سبيل الله بمحاربتهم للاسلام ، أو بصرف أتباعهم عما قررته شرائعهم قبل تحريفها على أيديهم · أو يصدون عن سبيل الله بسلوكهم المعيب ، واقتداء الناس بهم لمكانتهم فيهم · والنظم الكريم يتضمن الى ما سبق لمحات دالة يجب الوقوف عندها ·

---

(١) التوبة : ٣٤ ، ٣٥ ·

فقوله تعالى «ان كثيرا» دليل على ما يتوخاه القرآن من العدالة والدقة، فلا تكون كراهيتهم سببا فى تجاوز الحق ، ومساواة المذنب بالبرىء فى الحكم ، وهذا وحده درس كامل فى السلوك الفاضل أوحى به هذا اللفظ للفرد · والتعبير عن أخذ الأموال بقوله « يأكلون » اما على سبيل الاستعارة فقد استعار ـ الأكل ـ للأخذ ـ ثم اشتق منه يأكلون بمعنى يأخذون على سبيل الاستعارة التبعية · والقرينة ايقاع الأكل على الأموال والاستعارة أقوى فى تقبيح مسلكهم والاشارة الى جشعهم وشراهتهم · واما على سبيل المجاز المرسل · باعتبار الأموال ثمنا للأكل فعبر بها عما يشترى بها ويؤكل والمجاز أيضا فيه مبالغة فى ذمهم ، واشارة الى شرههم كأنهم يأكلون الأموال نفسها لا ما يشترى بها · وقوله تعالى « بالباطل » زيادة فى تأكيد ذمهم والتنفير منهم ·

وقوله تعالى : « **ويصدون عن سبيل الله** » بحذف المفعول ، والتعميم فى قوله « **سبيل الله** » يراد به أنهم قد بلغوا فى ذلك الغاية فهو يصدق على صدهم اتباعهم عن الاسلام ومنعهم عن اعتناقه ، كما يصدق على صد أتباعهم أيضا عن الدين الحق فى كتبهم ، بتحريفها ، وهو يصدق على ما يبذلونه من جهود لصرف المسلمين أنفسهم عن دينهم بما يثيرونه من شبه وفتن ، وما تقوم به جماعات التبشير ماثل رأى العين ، وهذا الايحاء للتعبير الكريم يفتح عيون الدعاة على الخطر الماثل فى هؤلاء على الدعوة وأصحابها ··· هذا ولا يخفى ما فى الجملة من تأكيدات متتالية بالنداء و ـ أى ـ و ـ أن ـ واللام · لتقرير حقيقة هؤلاء فى النفوس وتثبيت المعنى فى القلوب ·

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ·

قيل ان المراد باسم الموصول هم الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، فيكون مبالغة فى ذمهم بوصفهم بالشح والضن بالمال بعد وصفهم بالجشع فى تحصيله ·

ولكن سياق الآية الكريمة يوحى بأن المراد به هم المسلمون الكانزون للأموال الذين لا ينفقونها فى سبيل الله · فالأحبار والرهبان عذابهم أليم أنفقوا أو بخلوا · فليس بعد الكفر ذنب ، أما المسلمون فهم المدعوون الى البذل فى سبيل الله المتوجه اليهم بالترهيب والتحذير من الامتناع عنه · ونستأنس لهذا بما روى من أنه لما نزلت كبر ذلك على المسلمين ، فذكر عمر رضى الله عنه لرسول الله ﷺ ذلك ، فقال : « ان الله تعالى لم يفرض الزكاة

الا ليطيب ما بقى من أموالكم » (١) فالمسلمون علموا انهم المقصودون بهـا ولكنهم فقط فهموا أن المراد بـ « يكنزون » كل ما ادخر من مال ، فشق عليهم ذلك ، فبين لهم المرسول ان الكنز هو ما لم تؤد زكاته ، ولنتأمل النظم الكريم :

« **والذين يكنزون الذهب والفضة** » على ما رجحناه من أن المراد باسم الموصول هم المسلمون غير المنفقين يكون قرنهم بالأحبار والرهبان الآكلين أموال الناس بالباطل « تغليظا ودلالة على ان من يأخذ منهم السحت ومـن لا يعطى منكم طيب ماله ، ــ هما ــ سواء فى استحقاق البشارة بالعـذاب الأليم » (٢) • والتغليظ والمبالغة فى الزجر هما ما يقتضيه مقام الترهيب والاكتفاء بذكر « **الذهب والفضة** » دون بقية أنواع المال لأنها أثمان الأشياء وأصل التمويل ، ومن كثرا عنده حتى يكنزهما لم يعدم سائر اجناس المال فذكرهما دليل على ماسواهما •

« **ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** » المراد بالانفـاق هنا هو : اخراج الزكاة ، فانها الحـد الأدنى الذى يجب اخـراجه من المال • على سبيل الفرض والالزام كما سبق • واكثر العلماء يرون ان القيام بواجب الزكاة يطهر المال ، ويخرج ما بقى منه عن كونه كنزا يعاقب عليـه بما فى الآية من عذاب • وان كان ذلك لا يعنى التقليل من شأن صدقة التطوع فبها تنال الدرجات وتستمطر الرحمات • وفى قوله « فبشرهم » استعارة تهكمية تبعية • فقـــد استعمل ــ التبشير ــ وحقيقته الاخبـــار بما يسر ــ فى ــ الانذار ــ بقـــرينة ــ العـــذاب ــ ثم اشتق « بشرهم » بمعنى « أنذرهم » والاستعارة أبلغ فى مقـام الترهيب بما تتضمنه من تهكم واستخفاف بهم ، « **بعـذاب اليم** » تنكير العذاب وما يوحى به من تعظيم لشدته وهوله ، ووصفه بـ « اليم » زيادة فى الترهيب والتحـذير •

« **يـوم يحمى عليهـا فى نار جهنم فتـكوى بهـا جبـاههم وجنـوبهم وظهورهم** » تفصيل لمـا اجمل فى قوله « عذاب أليم » وفى التفصيل بعـد الاجمال زيادة ايضاح بذكر ما استشرفت النفوس لمعرفته ، وللتفصيل هنـا غرض آخر ، وهو اطالة مشهد العذاب أمام خيال المخاطب قصدا الى تعميق ايحائه فى النفس ، ليكون أقوى على اثارة الرهبة ، وبعث مشاعر الخوف فيها تحقيقا للغـاية المرجوة والاستجابة لأمـر الله بالانفاق فى سبيله •

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥١ •

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٨٧ •

« **يوم يحمى عليها فى نار جهنم** » الضمير يعود على الذهب والفضة باعتبار المعنى • لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة ، ويلاحظ ما فى التعبير بقوله « **يوم يحمى عليها** » والأصل « يوم تحمى » وذلك للمبالغة على شدة الحرارة ، فان المعنى : « ان النار تحمى عليها : أى توقد ذات حمى وحر شديد ، من قوله : نار حامية » ولو قيل : يوم تحمى ، لم تعط هذا المعنى (١) ، وانما ذكر الفعل مع انه مسند فى الأصل للنار ، فلما حذفت النار أسند الى الجار والمجرور « عليها » فذكر لذلك • وقوله « نار جهنم » زيادة أيضا فى الدلالة على شدة حرارتها وقوة ايلام الكى بها ، مبالغة فى الترهيب •

« **فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** » اما أن يكون التعبير بالأعضاء الثلاثة كناية عن شمول العذاب لكل الجسم لأنهم تستغرق جهاته كلها • والتعبير بالكناية أبلغ لتصويرها المعنى وابرازه هنا ليفزع من تخيله المسكون على الانفاق بالاضافة الى أنه يحقق ما سبق أن أشرنا اليه من اطالة عرض مشهد العذاب • او يكون التعبير بهذه الاعضاء لان لها زيادة ارتباط بالتمتع بالمال المكنوز « لأنهم لم يطلبوا بأموالهم ــ حيث لم ينفقوها فى سبيل الله ــ الا الاغراض الدنيوية من وجاهة عند الناس وتقدم ، وان يكون ماء وجوههم مصونا عندهم يتلقون بالجميل ويحيون بالاكرام ••• ومن أكل الطيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم ، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم (٢) • فكان اختصاص هذه الأعضاء بالذكر لافادة ان عاقبة الامساك عن الانفاق تأتى على النقيض مما يريدون وان ما يصيبها من عذاب فى الآخرة شيء رهيب لا يصح أن يعرضها الانسان له فى سبيل متعة عابرة فى الدنيا •

ثم التعبير بـ « تكوى » وما يوحى به من ألم ، وكون الكى بعين الكنز « بها » ما يحمل على التخلص مما سيكون أداة لتعذيبه بانفاقه فى أبواب الخير • والتعبير بصيغة المضارع « تكوى » لاستحضار الصورة كأنها ماثلة زيادة فى الترهيب بما تثيره من فزع وهلع فى القلوب •

« **هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** » الاشارة هنا الى ماتقدم من تفصيل العذاب ، وهو على ارادة القول : أى يقال لهم : « هذا ••»

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٨٧ ــ ١٨٨ •

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٨٨ •

وفى هذا التعقيب على مشهد العذاب توبيخ وتحسير لهم ، ليضيف الى الألم المادى للعذاب الألم المعنوى الذى يذيب القلوب حسرات ·

ويلاحظ ما فى التعبير بـ « هذا » للاشارة الدالة على القرب ، لتخييل أن العذاب كأنه قريب حاضر يشـــار اليه ، وما فى قوله « لأنفسكم » من توبيخ فما كنزوه لمنفعة أنفسهم ينقلب أذى لها وعذابا ، ويجدون فيه نقيض ما أرادوا وفى التعبير بـ « ذوقـوا » اسـتعارة فالعـذاب لا يذاق ولكنـه استعارة التعبير عن الاحساس بالعذاب ، والاستعارة أقوى لأنها تصـــور المعنى وتجعله شيئا ملموسا مذاقا ، وهو أبلغ فى الترهيب · وما فى التعبير من ايجاز بالحذف فالتقدير ، جزاء ماكنزتم اى فذوقوا جزاء ما كنتم تكنزون والحذف أبلغ لأنه يجعل المذاق هو ماكنزوه نفسه لا جزاؤه وذلك يحمل على انفاقه حتى لا يتحول عذابا يذاق ·

وينتهى المشهد المفزع بهذا التعقيب المحسر ، الذى يهـز النفس مـن اعماقها ويحطم كل مقاومة لديها فى الامتناع عن البذل والانفاق · وهـذا دور اسلوب الترهيب فى تقويم النفس وتزكيتها ·

وبعد ·· فهذه اساليب القرآن الكريم فى الدعوة الى الانفاق ، وهى كما رأينا لا تكتفى فيها بالامر والنهى بل تسوق ذلك محاطا بما يبرىء النفس ويحذرها من الشر ويرهبها من الاقدام عليه ، متخذا البلاغة سلاحا يصل به الى ما يريد فيبلغ الغـاية ويصيب الهدف ·

فالى مجال آخر من مجالات الدعوة القرآنية ·

* * *

الفصل الثالث .

البلاغة فى الدعوة الى المعاملات

المعاملات هى جانب من الشريعة الاسلامية خاص بتنظيم العلاقات بين الفرد المسلم وغيره من الناس · وقد استوعب هذا الجانب كل علاقات المسلم بالآخرين ، فنظمها ووضع لها القواعد والاحكام التى تحقق الخير للافراد وللمجتمع الاسلامى وللجماعة الانسانية كلها ·

فقد شرع للاسرة باعتبارها اللبنة الأولى فى المجتمع ، مفصلا اسلوب تكوينها وحقوق كل فرد فيها وواجباته ، وشرع للمجتمع مستوعبا كل مظاهر النشاط الانسانى فيه من اقتصاد وحكم وسلم وحرب وحفظ للحقوق وحدود للجرائم ، ولم يترك شيئا مما تحتاجه الحياة الا رسم حدوده واقام معالمه ·

ولسنا فى مقام بيان ان التشريع الالهى يمثل الهداية الكاملة والحق المطلق فى كل ما تعرض له من مسائل ، فذلك يجب ان يكون جزءا من ايماننا الذى لا يتزعزع · ومن اقدر على التشريع للحياة من خالق الحياة ؟

ولكننا نشير فقط الى بعض خصائص هذا التشريع القرآنى لانها تلقى ضوءا على أسلوب عرضه والدعوة اليه ·

أولا : نزل القرآن فى بيئة لها اعرافها وتقاليدها التى تحتكم اليها فى شئون الحياة ، شأن كل مجتمع يضم مجموعات من الناس تربط بينهم المصالح المشتركة وتحكمهم نظم وتقاليد تنظم حياتهم ·

ولم يعمد الاسلام الى هدم كل ما وجده سائدا من نظم وأحكام واقامة نظام مبتكر على انقاضه ، بل كان منهجه فى ذلك هو الحق وحده ، فما وافقه ابقى عليه ، وما خالفه نقضه من اساسه واقام بدلا منه ما يحقق الخير ويضمن العدل وما اختلط فيه الحق بالباطل ابقى على ما به من خير ونفى عنه

الباطل الخبيث · ولم تكن تلك بالمهمة السهلة ، فللعـــادة سلطانها عـلى النفوس وتمكنها من القلوب · ولهذا نرى القرآن فى بعض تشريعاته قد سلك سبيل التدرج فى الاحكام ، كما فى تحـريم الخمـر · ولجأ فى بعضها الى الاقناع والحجة فى توطئة النفوس لقبول حكمه ، واحاط بعضـها بوســائل التأثير من ترغيب وترهيب وتذكير برقابة الله واطلاعه على السرائر ، واثارة لما يقتضيه الايمان من وجوب الطـاعة الى غير ذلك مما سنتعرض له عنـد دراسة النصوص ·

ثانيا : لمـا كان الاسلام هو خاتم الرسالات وشريعته صالحة لكل زمان ومكان كما سبق أن بينا فى طبيعة الدعوة الاسلامية ــ واستلزم ذلك أن تكون احكامه قابلة لتناول كل ما يجد فى الحياة ، صالحة لمواجهة التطور الطبيعى فى مجال النشاط الانسانى ، فقد جاءت احكامه فى صورة تحقق ذلك عـلى اكمل وجــه ، اذ عمد الى التفصيل والاستيعاب فى المواطن التى لا تختـلف باختلاف الزمان والمكان ــ لابتنائها على اسباب لا تتغير ــ كما نرى ذلك فى احكام الميراث والمحـرمات فى النكاح وغـيرها · اما المواطن التى تتغـير اسبابها فقد عمد الى الاجمال مكتفيا بالمبادىء العامة ، والقواعد الكليـة التى تمثل اطارا شاملا ، ومعالم هادية ، تاركا لاهل الاجتهاد والفقه استنباط الاحكام الجزئية التى تعرض حوادثها ، مستلهمين روح الشريعة ومقاصدها ، متقيدين بالمبــادىء التى شرعها · نــرى ذلك فى تشريعه للحكم والاقتصــاد وغيرها مما يعتريه التغير (١) ·

ثالثا : انفراد القرآن الكريم فى بيان احكامه بظاهرة لم يشــاركه فيها غيره ذلك انه لم يذكر الاحكام المتعلقة بشىء واحد فى مكان واحد ، وانما فرق آيات الأحكام وبثها فى ثنايا أحاديثه عن أغراض أخرى · وقد لفتت هــذه الظــاهرة البــاحثين فى بلاغة القــرآن الكريم ، فــرأوا فيها آية من آيــات الاعجاز ، ووسيلة من وسائل الهداية والتأثير التى نزل القرآن لتحقيقها ·

« فلو نزل القرآن الكريم بأساليب الكتب المعهودة وترتيبها لفقد أعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الاول ·· يعلم ذلك مما نبينه من فوائد نظمــه وأسلوبه ··· وهو مزج تلك المقاصد كلها بعضها ببعض وتفريقها فى السور الكثيرة ··· وتكرارها بالعبارات البليغة المؤثرة فى القلوب المحركة للشعور النافية للسـأم والملل من المواظبة على ترتيلها بنغمات نظمــه الخاص به ،

---

(١) انظر الاسلام عقيدة وشريعة ص ٢١٢ وما بعدها ·

وفواصله المتعددة القابلة لانواع من النغم والنظم الذى يحرك فى القلب وجدان الخشوع وخشية الاجلال للرب المعبود ، والعرفان بقدسه وكماله ، والملاحظة لجماله وجلاله ، والتعرض لتجلى اسمائه وصفاته ٠ والتفكير فى آيات مصنوعاته ، والرجاء فى رضوانه والخوف من غضبه وعقوبته » (١) ٠

ويقول الشيخ شلتوت : « ولهذه الطريقة ـ فيما نرى ـ ايحاء خاص ، وهو ان جميع ما فى القرآن ـ وان اختلفت اماكنه وتعددت سوره واحكامه ـ فهو وحدة عامة ، لا يصح تفريقه فى العمل ، ولا الاخذ ببعضه دون بعض ، وكأنه وقد سلك هذا المسلك يقول للمكلف وهو يحدثه عن شئون الاسرة واحكامها مثلا لا تلهك اسرتك وشئونها عن مراقبة الله فيما يجب له من صلاة وخشوع ٠ ولا ريب ان لمثل هذا الايحاء تأثيرا فى المراقبة العامة وعدم الانشغال بشأن عن شأن ، فيكمل للروح تهذيبها ، وللنفس صلاحها ، وللعقل ادراكه ، وللمجتمع صلاحه » (٢) ٠

والآن الى دراسة جانب من التشريع الاسلامى لنرى بلاغة الاسلوب القرآنى فى عرضه والدعوة اليه ٠

وقد اخترنا بعض تشريعات الاسرة لتكون نموذجا للمعاملات الاسلامية٠

● تعدد الزوجات :

قال تعالى : « **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا ٠ وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم الى اموالكم ، انه كان حوبا كبيرا ٠ وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى الا**

---

(١) بتصرف من كتاب : الوحى المحمدى ص ١٢٤ ٠

(٢) الاسلام عقيدة وشريعة ٠ ص ٤١٧ ٠٠

تعولوا . وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » (١) .

وقال تعالى : « **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيمـا » (٢) .**

هذه آيات من سـورة النسـاء ، وهى سـورة تضـمنت كثيرا مـن التشريعات الاسلامية التى تنظم المجتمع وتضع الحدود والضوابط لانـواع من المعاملات المختلفة وامر التشريع لا يغنى فيه بيان الاحكام وضبط القواعد ما لم يكن مصحوبا بما يضمن احترامه والانقياد له . وقد اثبت الواقع ان الرقابة الظاهرية وسن العقوبات لا تؤدى الى احترام القانون ما لم تـكن هناك رقابة اخرى من ضمير المؤمن لتنفيذ التشريعات والتنظيمات .

ولهذا نرى السورة الكريمة قد بدئت بالأمر بالتقوى مصحوبا بما يوجبها ويحمل عليها . وبعد ان دعت الى ذلك واكدته بما يهيىء النفوس للاستجابة ـ اخذت فى ايراد ما تريد مـن احكام حريصة دائمـا على ان يكون التشريع محاطا بما يمكن له فى القلوب ، ويوقظ الضمائر ، ليكون للمؤمن من نفسه رقيب على نفسه ومن تقواه اعظم دافع على الالتزام والطاعة واقوى عاصم من التهاون أو المخالفة وفى هـذا الاطار يأتى تشريع تعـدد الزوجات الذى تضمنته الآيات الكريمة التى نحن بصددها :

« **يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منهـا زوجهـا وبث منهمـا رجـالا كثيرا ونسـاء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » .**

خطاب للناس جميعا يعم حكمه جميع المكلفين وكل من يتصور امتثـاله للاوامر والنواهى حتى يرث الله الارض ومن عليهـا ، يأمرهم فيـه سبحانه بالتقوى وامتثال اوامره واجتناب نواهيه .

وابتداء السورة الكريمة بالدعـوة الى تقـوى الله واستشعار رقابته واطلاعه على السرائر هو اعداد للنفوس لتلقى تشريعاته التى تضمنتها السورة

---

(١) النساء : ١ ـ ٤ .   (٢) النساء : ١٢٩ .

الكريمة وذلك بتزويدها بما يبعث فيها دوافع الاستجابة والطاعة وذلك هو الضمان الأكيد لنجاح أى تشريع فعندها تكون الطاعة عن رضا وشعور عميق بالواجب الذى يؤدى لذاته لا خوفا من طائلة لقانون ·

وقد تضمن النظم الكريم الوانا من وسائل التأثير وانواع الموجبات للتقوى ، ففى قوله تعالى « **ربكم** » من ذكر الربوبية واضافتها الى ضمير المخاطبين اشعار بأن من تطلب تقواه هو المربى والمتفضل بالنعم ، ومثل هذا يجب ان يطاع رغبة فى طلب المزيد من نعمه ووفاء بحق الشكر على ما تفضل به · وفى قوله تعالى : « **الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء** » ما يستوجب له سبحانه القدرة البالغة فخلق آدم عليه السلام أولا ، ثم خلق زوجه منه ، ثم تناسل الجنس البشرى منهما وانتشاره بهذه الكثرة والتعدد واستمرار ذلك الى ما شاء الله ، كل ذلك لا يصدر الا عن قادر قوى · ومن شأنه **هذا يجب أن** يتقى ، ويخاف عقابه ويخشى بأسه · وقوله تعالى « **بث** » وما يوحى منكثرة وانتشار وتنكير « **رجالا** » ووصفها بـ « **كثيرا** » تأكيد للكثرة ايضا وكذلك التنكير فى « **ونساء** » كل ذلك مبالغة فى اظهار قدرته سبحانه ، وانه يجب ان يطاع ·

ويلاحظ ما تضمنته الجملة من تقرير لوحدة المبدأ ، وتذكير بما يربط بين البشر من صلة الانتماء الى اب واحد وام واحدة ، وذلك دون شك من موجبات رعاية ما تستوجبه هذه الصلة من حقوق ·

« واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام » ·

كان العرب اذا اراد احدهم شيئا من صاحبه يقول له : أسألك بالله وبالرحم ان تفعل كذا ، والآية الكريمة تكرر الامر بالتقوى لتأكيده ، وتذكر ما يوجب الامتثال للأمر فان سؤال بعضهم بعضا بالله تعالى بأن يقول : أسألك بالله او انشدك الله على سبيل الاستعطاف ، يقتضى الاتقاء والحذر من مخالفة اوامره ونواهيه ، كما ان تعليق الاتقاء بالاسم الجليل لمزيد التأكيد والمبالغة فى الحمل على الامتثال بتربية المهابة وادخال الروعة ولوقوع التساؤل به لا بغيره من اسمائه تعالى (١) ·

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٣١٢ ·

الفصل الثالث ،

البلاغة فى الدعوة الى المعاملات

المعاملات هى جانب من الشريعة الاسلامية خاص بتنظيم العلاقات بين الفرد المسلم وغيره من الناس · وقد استوعب هذا الجانب كل علاقات المسلم بالآخرين ، فنظمها ووضع لها القواعد والاحكام التى تحقق الخير للافراد وللمجتمع الاسلامى وللجماعة الانسانية كلها ·

فقد شرع للاسرة باعتبارها اللبنة الأولى فى المجتمع ، مفصلا اسلوب تكوينها وحقوق كل فرد فيها وواجباته ، وشرع للمجتمع مستوعبا كل مظاهر النشاط الانسانى فيه من اقتصاد وحكم وسلم وحرب وحفظ للحقوق وحدود للجرائم ، ولم يترك شيئا مما تحتاجه الحياة الا رسم حدوده واقام معالمه ·

ولسنا فى مقام بيان ان التشريع الالهى يمثل الهداية الكاملة والحق المطلق فى كل ما تعرض له من مسائل ، فذلك يجب ان يكون جزءا من ايماننا الذى لا يتزعزع · ومن اقدر على التشريع للحياة من خالق الحياة ؟

ولكننا نشير فقط الى بعض خصائص هذا التشريع القرآنى لانها تلقى ضوءا على أسلوب عرضه والدعوة اليه ·

أولا : نزل القرآن فى بيئة لها اعرافها وتقاليدها التى تحتكم اليها فى شئون الحياة ، شأن كل مجتمع يضم مجموعات من الناس تربط بينهم المصالح المشتركة وتحكمهم نظم وتقاليد تنظم حياتهم ·

ولم يعمد الاسلام الى هدم كل ما وجده سائدا من نظم وأحكام واقامة نظام مبتكر على انقاضه ، بل كان منهجه فى ذلك هو الحق وحده ، فما وافقه ابقى عليه ، وما خالفه نقضه من اساسه واقام بدلا منه ما يحقق الخير ويضمن العدل وما اختلط فيه الحق بالباطل ابقى على ما به من خير ونفى عنه

فاما ان يكون قوله تعالى « **وآتوا** » مستعملا استعمالا مجازيا ، فليس المراد به دفع الاموال الى اليتامى ، بل استعمل مجازا عن تركها سالمة ، والمحافظة عليها وقطع اطماعهم حتى تأتيهم وتصل اليهم سالمة ، وعلى ذلك يبقى لفظ « **اليتامى** » على معناه الحقيقى والسر البلاغى فى التعبير ـ بالايتاء ـ عن المعنى المذكور هو الايذان بأنه ينبغى أن يكون مرادهم بذلك ايصالها اليهم لامجرد عدم التعرض لها (١) ٠ واما أن يكون لفظ « **اليتامى** » استعمل مجازا فى البالغين أى : الذين كانوا يتامى باعتبار ما كان ٠ ويكون ـ الايتاء ـ حقيقة لا مجازا وفى ذلك حث للاولياء على المسارعة الى دفع أموالهم اليهم اول ما بلغوا ٠

« **ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب** » تبدل الشىء بالشىء واستبداله أخذ الأول مكان الثانى ـ فالباء ـ تدخل على المتروك والمراد بالخبيث الحرام او مال اليتيم الذى يأخذه الولى ، والمراد بالطيب الحلال او مال الولى الذى يتركه ويأخذ من مال اليتيم ٠ وقيل كان الاولياء يأخذون الجيد من مال اليتيم ويعطونه بدلا منه الردىء من أموالهم فنهوا عن ذلك ٠ وأيا ما كان المعنى فان التعبير عنهما بالخبيث والطيب فيه تنفير مما اخذوه ، وترغيب فيما أعطوه وتصوير لمعاملتهم بصورة مَن لا يصدر عن العاقل (٢) وواضح ما فى الطباق بين « الخبيث » و « الطيب » من ابراز للتفاوت الواضح بينهما ترغيبا فى الاستجابة للتوجيه القرآنى ٠

« **ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم** » ٠ المراد بالأكل مطلق الانتفاع وعبر عنه بالأكل لأنه أغلب أحواله ٠ وهذا نهى عن منكر آخر كان شائعا بينهم ٠ فقد كانوا يضمون أموال الفقراء الى أموالهم وينفقونها فنهوا عن ذلك ٠ والمعنى : لا تسووا بين أموالهم وأموالكم فى الانفاق منهما ٠ وهذا ظاهر فى النهى عن الأكل من مال اليتيم مطلقا ثم استثنى من ذلك مقدار أجر المثل اذا كان الولى فقيرا لقوله تعالى « **ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف** » (٣) ٠

وورود النهى على هذه الصورة فيه تقبيح لفعلهم وتشنيع عليهم حيث يأكلون من أموال اليتامى مع الغنى عنها ٠

---

(١) انظر تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٣١٢ ـ ٣١٣ ٠

(٢) انظر تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٣١٣ ٠

(٣) النساء : ٦ ٠

« **انه كان حوبا كبيرا** » · « الحوب » هو الاثم والذنب والجملة ترهيب من الاجتراء على هذه المعصية وقد تضمن نظمها ما يطابق مقام الترهيب والمبالغة فيه من تأكيد بأن واسمية الجملة ومن تنكير « حوبا » وما يفيده من معنى التنظيم والتكثير ، ثم وصفه بأنه « كبيرا » تأكيد لعظمه الذى أفاده التنكير · وهكذا تتضافر هذه الخصائص التى تضمنها النظم الكريم فى تأكيد ما فى هذا السلوك من قبح وما يترتب عليه من مؤاخذة بالغة ، وذلك مبالغة فى الترهيب كما ذكرنا ·

« **وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع** » ·

المراد بـ « خفتم » علمتم · عبر عنه بالخوف ايذانا بكون المعلوم مخوفا محذورا · وانما فسر الخوف بالعلم « لأن الذى علق عليه الجواب هو العلم بوقوع الجور المخوف لا الخوف منه · والا لم يكن الأمر شاملا لمن يصر على الجور ولا يخاف » (١) ·

ومعنى « **ألا تقسطوا** » : ألا تعدلوا · والكلمات الثلاث : « **مثنى وثلاث ورباع** » ، تدل كل واحدة منها على المكرر من نوعها · فمثنى تدل على اثنين اثنين ، وثلاث تدل على ثلاثة ثلاثة ، وهكذا · والمراد الاذن لكل من يريد الجمع أن ينكح ما شاء من العدد المذكور متفقين فيه أو مختلفين ·

وفى تفسير هذه الآية رأيان :

أولهما : ما رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن عروة ابن الزبير سألها عن قوله تعالى : « **وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى** » قالت : يا ابن أخى ، هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ، ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره فنهوا أن ينكحوهن الا أن يقسطوا اليهن ، ويبلغوا بهن على سنتهن فى الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن (٢) ·

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٣١٤ ·

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٠ ·

فالمعنى على هذه الرواية : ان علمتم عدم العدل فى نكاح اليتامى اللاتى تلونهن فانكحوا ما مالت اليه نفوسكم من النساء غيرهن . فالمقصود فى الحقيقة النهى عن نكاح اليتامى عند خوف عدم العدل . الا أنه أوثر التعبير عنه بالأمر بنكاح الأجنبيات لسر بلاغى هو كراهة النهى الصريح عن نكاح اليتيمات لما فيه من تلطف واستدراج للمخاطبين فى صرفهم عن نكاح اليتامى حال العلم بعدم العدل . فان النفس مجبولة على الحرص على ما منعت . فكأنه قيل لهم : فان خفتم ألا تقسطوا فى نكاح اليتامى فلا تنكحوهن ولكم فى سواهن متسع فانكحوا ما طاب لكم .

ويلاحظ أيضا ما فى قوله « **ما طاب لكم من النساء** » والمراد من استطابتها نفوسكم ورغبت فيها . وذلك مبالغة فى الاستمالة اليهن ، وصولا الى استجابتهم للنهى عن نكاح اليتيمات عند خوف العدل . والتعبير بـ «ما» بدل « من » للذهاب الى الوصف وبيان أنه هو المقصود .

كما يلاحظ أيضا ما فى قوله « **مثنى وثلاث ورباع** » من دقة واحكام لا يؤدى المعنى بدونها . فالمراد كما مر : الاذن لكل من يريد الجمع أن ينكح ما يشاء من العدد المذكور ، متفقين فيه أو مختلفين ، أى : من شاء اثنتين ومن شاء ثلاثا ، ولو أفردت فقيل : اثنتين وثلاث وأربع لفهم منه تجويز الجمع بين هذه الأعداد دون التوزيع ولو عطفت بـ ـ أو ـ لبطل تجويز الاختلاف فى العدد (١) .

هناك تفسير آخر للآية وهو ما قيل من أنه لما نزلت آية « **وآتوا اليتامى** أموالهم » أخذ الأولياء يتحرجون من ولايتهم خوفا من لحوق الحوب بترك الاقساط مع أنهم كانوا لا يتحرجون من ترك العدل بين النساء حيث كان تحت الرجل منهم عشر نسوة فقيل لهم : ان خفتم ترك العدل فى حقوق اليتامى فتحرجتم منها فخافوا أيضا ترك العدل بين النساء فقللوا عدد المنكوحات لأن من تحرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرج ولا تائب عنه (٢) . ولا يخفى أثر هذا الأسلوب فى نفوس المخاطبين وحملهم على الطاعة والقبول . وعلى هذا تكون الآية قد وردت لتحديد عدد من يجوز

---

(١) انظر تفسير آيات الاحكام ص ٢٤ مقرر السنة الثانية بكلية الشريعة .

(٢) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٣١٥ .

الجمع بينهن ، وللنهى عما كان سائدا من الجمع الى غير ما حد ، لما يترتب عليه من عدم العدل ·

« فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم » ·

المـراد بالعدل هنا هو العدل بين الزوجات المتعددات كأنه لما أباح لهم الجمع الى أربع نبههم الى ما قد ينشأ عنه من خوف عـدم العـــدل بينهن · والواجب عندئذ الاقتصار على واحــدة أو التمتع بطـريق التسرى بما ملكت أيمانهم من الاماء دون التقيد بعدد · وكلمة « **فواحدة** » منصوبة بفعل محذوف تقـــديره : فالزموا أو فاختاروا · والمراد باختيار الاماء ان يكون بطــريق التسرى لأنه لا يجـــوز للمالك أن يتزوج أمته · ويلاحظ عـــرض المعنى فى صورة الشرط ، مع أن خوف عـدم العـــدل ليس مانعا فى صحة العقد على ما فوق الواحدة · وسر ذلك هو تأكيد حرص الاسلام على العدل وتنبيه على ضرورته وأهميته ·

« ذلك ادنى ألا تعولوا » ·

الاشارة بـــ « ذلك » الى ما سبق من اختيار واحدة والتسرى ، ومعنى « تعولوا » تميلوا ، من عال الميزان اذا مال · وهو فى الأصـــل للميل المحس ثم نقل الى الميل المعنوى · يقال : عال الحاكم اذا جار · والمراد أن ما ذكر من اختيار واحدة والتسرى أقرب مما عداهما من الا تميلوا وهـــذا واضح فى حالة الاقتصـــار على واحـــدة ، لانه قد انتفى الميل أصـــلا · أما فى حالة التسرى بالاماء فالأمر معهن أيسر من الحرائر لعـــدم وجوب القسم بينهن · فقد انتفى خطر الميل معهن · وقيل : ان معنى « **ألا تعولوا** » الا يكثر عيالكم . من : عال الرجل عياله يعـــولهم ، أى : مأنهم ، وقام بنفقتهم فعبر عن كثرة العيال بكثرة المئونه ووجه هذا التفسير أن قلة العيال مع الواحدة ظاهر · وأما مع التسرى فذلك لجواز العزل دون اذنهن · والجملة تعليل لما قبلهـــا ترغيبا فى الحكم والالتزام به ، وهو ما يقتضيه المقام ·

« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » ·

هذه الآية تعالج واقعا ســـيئا فى المجتمع الجاهلى · فقد اعتادوا أن يهضموا المرأة حقها فى الصداق وذلك بأن يستولى الولى عليه لنفسه « وكانوا يقولون لمن يولد له بنت هنيئا لك النافجة ، يعنون : تأخـــذ مهرها · فتنفج به

مالك أى تعظمه » (١) كما تعارفوا أيضا على نوع من النكاح فيه اهــدار لكرامة المرأة وتعد على حقوقها هو نكاح الشغار وهو أن يزوج الولى المرأة التى فى ولايته فى مقابل أن يزوجه من يأخذها امرأة هى فى ولاية هذا الآخر، واحــدة بواحدة كأنهما سـلعتان يتبادلانهما دون اعتبار لانســانية المرأة وحقوقها · فجاءت الآية الكريمة لتجعل الصــداق حقا للمرأة ليس للولى فيه شىء ، وفى نفس الوقت تلاحظ طبيعة الأواصر التى تربط بين الزوجين وضرورة قيامها على الرضا وطيب النفس فتبيح للزوج أن يقبل ما ترده اليه زوجته من المهر بشرط أن يكون ذلك منها عن طيب نفس بعيدا عن شبهة الاكراه المـادى أو المعنوى · والآية بجانب هذا وذاك تتضــمن من الألفاظ الموحية والنظم العجيب ما يضيف خصائص الى المعنى يتطلبها المقام ·

« **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة** » الخطاب للأزواج ، وقيل للأولياء فهم كانوا يأخذون مهور بناتهم · والمراد بالصدقات المهور جمع صدقة بضم الدال والمراد بـ « نحلة » اما شريعة وملة وديانة أى : أعطوهن مهورهن فريضــة من الله تعالى · ويلاحظ ما فى هذا المعنى من تأكيد حق المرأة فى المهر وأنه فريضة لا يجوز تخطيها أو تجاهلها · فاذا أضفنا الى ذلك ما فى قوله تعالى «**وآتوا النساء صدقاتهن**» من جعل الايتاء للنساء لأوليائهن واضافة الصدقات الى ضميرهن للاشارة الى أنه حقهن ، أدركنا ما فى الآية الكريمة من تأكيد لهذا الحق ، وحرص على بيان أنه للنساء فلا يجوز اغتصابه والاعتداء عليه ·

وقيل ان معنى « نحلة » أى : عطية من جهة الأزواج ، من نحله كذا اذا أعطاه اياه عن طيبة من نفسه ويلاحظ ما فى هذا المعنى من تعبير عن ايتــاء المهور بالنحلة مع كونها واجبة على الأزواج لافادة معنى الايتاء عن كمــال الرضا وطيب الخاطر (٢) · وذلك مراعاة للأواصر التى تقوم عليهــا الحياة الزوجية وانها مبنية على الرضا وارتياح الخاطر ·

« **فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا** »

بعد أن أكدت الآية حق المرأة فى صداقها وأوحت بنظمها بما يجب أن يكون عليه أداء هذا الحق من سماحة النفس ورضاها أباحت للزوج أن يقبل ما تهبه زوجته له من هذا المهر مشترطة أن يكون ذلك منها أيضا صادرا عن طيب نفس لا عن اكراه من سوء المعاشرة وشراسة الخلق ·

---

(١) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٣١٦ ·

(٢) تفسير أبى السعود ج ١ ص ٣١٦ ·

ويلاحظ ما فى الآية الكريمة من العدول عن لفظ الهبة مثلا الى التعبير بقوله تعالى « **فان طبن لكم عن شىء منه نفسا** » ايذانا بأن العمدة فى الأمر هو طيب النفس وتجافيها عن الموهوب بالمرة (١) ٠

وبهذا تؤكد الآية مرة أخرى حق المرأة فى الصداق فلا يجوز الاستيلاء على شىء منه دون رضاها ٠ كما يلاحظ ما فى قوله « منه » من ايحاء بتقليل الموهوب وانه بعض المهر لا كله ٠

« **فكلوه هنيئا مريئا** » المراد بـ « كلوه » تصرفوا فيه أو أنفقوه وعبر بالأكل لأنه أهم أبواب انفاق المال ، بجانب ما يوحى به لفظ « كلوه » من اباحته وخلوه من كل شبهة تحريم ٠ وقوله تعالى « **هنيئا مريئا** » كناية عن تحليل أخذ ما تهبه الزوجة وذلك مبالغة فى اباحة الأخذ وازالة التبعة وهكذا تجمع الآية الكريمة بين تأكيد حق المرأة فى المهر ، ومراعاة الروابط الزوجية التى تقتضى السماحة النابعة من القلب ، والود الذى يرفع الحرج عن الشريكين ، ويجمع بينهما فى وحدة لا تنفصم ٠

والآن الى النص الثانى المكمل لتشريع تعدد الزوجات ٠٠

قال تعالى : « **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما** » (٢) ٠

الآية الكريمة بيان للمراد من العدل الذى سبقت الاشارة اليه فى قوله تعالى : « **فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم** » فان العدل بمعناه المطلق وهو المساواة فى كل شىء ، لا يمكن تحقيقه لأنه فوق طاقة البشر ٠ فالله سبحانه وهو خالق الانسان يعلم أن فى فطرته ميولا لا يملك التحكم فيها ، ومن هذه الميول أن يحب احدى زوجاته أكثر من الأخرى وهذا أمر لا حيلة له فيه وقد اقتضى عدل الله أن يكون تشريعه فى حدود الطاقة فلا يكلف نفسا الا وسعها ٠

ومن هنا جاءت الآية الكريمة لتبين المراد بالعدل الذى يجب تحقيقه فى معاملة الزوجات ، وانه فى حدود ما يملكه الانسان ٠ فاذا كان الانسان عاجزا

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٣١٦ ٠

(٢) النساء : ١٢٩ ٠

عن التحكم فى ميوله النفسية وعواطفه نحو زوجاته فانه يملك التحكم فى معاملاته المادية لهن ، فيستطيع العدل فى القسمة بينهن والنفقة عليهن وفى سائر الحقوق الزوجية التى تدخل فى نطاق استطاعته • ولنتأمل النظم الكريم •

« **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** » بيان لكون العدل بمعناه المطلق فوق طاقة البشر ويلاحظ اختيار « لن » فى التعبير لافادة النفى المؤبد وهو المناسب هنا • فهو أمر لا يمكن تحقيقه لأن الفطرة الانسانية عاجزة عنه وقوله تعالى « **ولو حرصتم** » تأكيد لنفى القدرة على العدل المطلق • وسر هذا التأكيد رفع الحرج الذى شعر به المسلمون عندما نزل تشريع تعدد الزوجات • وطولبوا بالعدل بينهن ، فقد فهموا أن المراد هو العدل الكامل فتحرجوا بذلك وتساءلوا عما تحرجوا منه ، فنزلت الآية لترفع عنهم هذا الحرج •

« **فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة** » هذا هو العدل المستطاع الا يميل الانسان عن المرغوب عنها كل الميل ويدعها كالمعلقة لا هى بذات بعل ولا هى مطلقة ، فعليه أن يعدل فيما يملك مادام غير قادر على العدل الكامل •

ويلاحظ ما فى التعبير من ألفاظ مصورة ، فقوله « تميلوا » يصور ايثار احدى الزوجات على الأخرى بالميل اليها والتباعد عن صاحبتها ، وهذا أقوى فى توضيح المعنى وابرازه • وكذلك قوله تعالى : « **فتذروها كالمعلقة** » يبرز المرغوب عنها كأنها قد علقت فى الفضاء ، وتركت هناك تعانى ما هى فيه ، لا تجد وضعا تطمئن اليه ، وهذا يوحى بالتوبيخ للأزواج والتنفير من عدم العدل ، ويبرز ما تتعرض له الزوجة المظلومة من متاعب وآلام • وبهذه الخصائص التى تضمنها النظم الكريم جاء جامعا للحكم ومبرزا له فى صورة تعين على قبوله وتنفر من مخالفته وتلك هى البلاغة التى يصل بها المتكلم الى ما يريد من نفس المخاطب •

« **وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما** » • المراد : ان تصلحوا ما كنتم تفسدون من أمورهن فيما مضى بميلكم الى احداهن وتتداركوه بالتوبة وتتقوا الجور فى المستقبل ، فان الله يغفر لكم ما مضى من الجور ويتجاوز بفضله عما تقعون فيه من عدم العدل فيما لا تملكون •

وهذا التعقيب الكريم موجه للنفس الانسانية ترغيبا لها فى الاستجابة لأمر الله بما يعدها به من مغفرة لما فرط منها • وتجاوز عما ليس فى طاقتها •

ويلاحظ ما فى التعبير من تناسق بديع يكسب النص الكريم بلاغة فوق بلاغته حيث جاءت الفاصلة مرتبة على ما قبلها ، فقوله تعالى « غفور » يقابل « تصلحوا » أى : ان تصلحوا ما سبق بالتوبة فالله غفور للذنوب · وقوله « رحيم » فى مقابل « وتتقوا » أى : ان تتجنبوا الجور فى حدود طاقتكم فالله رحيم يتجاوز عما تقصرون فيه مما لا يقع فى امكانكم ·

وبعد ·· فذلك هو تشريع تعدد الزوجات ، لم يكتف القرآن الكريم فى بيانه بايراد أحكامه والنص على ما يتعلق به من تفصيلات وانما زاد على ذلك بأن دعا الى الاستجابة له ومهد النفوس لتقبله والالتزام به · ففى النص الأول مهد له بالدعوة الى تقوى الله مذكرا بما يحمل عليها من نعم الله وقدرته ، وبالتذكير بالأواصر الانسانية التى تربط بين الناس جميعا فى انتسابهم لأب واحد وأم واحدة والتذكير بحق الرحم وما يستوجبه من تراحم ومودة · وفى اطار كل هذه المؤثرات ساق تشريع التعدد باعتباره وسيلة لما تقتضيه المعانى السابقة من عدل يؤتى كل ذى حق حقه ويرفع عنه كل ما يؤذيه ، أو ينتقص من حقه ، ثم عقب عليه بما يشير الى ضرورة العدل بين الزوجات ناصحا بالاكتفاء بواحدة عند خوف الجور مستطردا الى تأكيد حق الزوجات فى المهور اعترافا بحق المرأة وتكريما لها ، ورفعا لمكانتها من الهوة التى تردت اليها فى المجتمع العربى بل فى كل المجتمعات قبل أن ينبلج نور الاسلام ··

ثم يأتى النص الثانى موضحا لبعض ما ورد فى النص الأول عن العدل المطلوب رفعا لما شعر به المسلمون من الحرج عندما طولبوا بالعدل فظنوا أن المراد هو العدل الكامل ورأوا أنه فوق طاقتهم ثم يعقب على هذا البيان بما يفتح للمؤمن بابا للأمل فى مغفرة الله ورحمته · بالاضافة الى ما تضمنه من خصائص فى النظم جعلته قمة فى ابراز المعانى والتأثير فى القلوب ، وتلك وظيفة البلاغة فى الدعوة ·



● الاصلاح بين الزوجين :

قال تعالى : « **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ان الله كان عليا كبيرا · وان خفتم شقاق**

بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها ان يريدا اصـــلاحا يوفق الله بينهما ، ان الله كان عليما خبيرا » (١)

حرصا على بقاء الأسرة باعتبارها المؤســـسة التى يتحقق فى اطارها الخير ، لكل افرادها من الزوجين والأولاد ، تأتى الآيات الكريمـة لتحـــدد المسئوليات المنوطة بكل طرف فيها ، وتضع القواعد لحل ما قد يطرأ من مشاكل فى حياتها ٠

فتجعل الرجل قيما على الأسرة ، مبينة أسباب استحقاقه هذه القوامة ، وتنص على واجبات الزوجة ومسئولياتها ، ثم تنتقل الى بيان الوسائل الواجب اتباعها فى علاج المشاكل واصلاح ما قد ينشأ بين الزوجين من نفور أو نشوز، وتضع لذلك خطة حكيمة تتدرج فى مراحل لا ينتقل الى احداها الا بعد التأكد من عدم جدوى ما قبلها ، محيطة كل هذا بألوان من التأثير النفسى ، ضمانا لنجاح التشريع فى الوصول الى القلوب ، وبعث كوامن النفس الى الاستجابة والطاعة عن رضا واطمئنان ٠

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضــهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ٠

بيان لمكانة الرجل فى الأسرة ، وانه القائم على أمرها ، وله الرياســـة فيها ٠ ولم يكن ذلك محاباة للرجل بمنحه ما لا يستحق ، أو هضما للمـرأة بحرمانها مما تستطيعه ، بل انه العدل الذى يضع المسئولية على عاتق أقـدر المرشحين لها ، وأكثرهم تحملا لمســئولياتها ، فالرجل قد أهل لتلك القوامة لأسباب واقعية يعود بعضها الى ما فى طبيعته كرجل من خصائص تعينه على أداء وظيفته تلك ، ويعود بعضها الآخر الى ما يتحمله من أعباء أسرته تعفى منها المرأة ٠

« **الرجال قوامون على النساء** » جعل الله للرجال حق القيام على النساء وبالتالى على الأسرة كلها ٠فهو المكلف بالقيام بتدبير أمورها وحفظها وصيانتها وتأديبها ، وكل ما يتطلبه موقع الرياسة فيها ٠ ويلاحظ ما فى التعبير عن ذلك بالجملة الاسمية واختيار صيغة المبالغة من « **قوامون** » للايذان بعراقتهم فى

---

(١) النساء : ٣٤ ـ ٣٥ ٠

الاتصاف بما أسند اليهم ورسوخهم فيه تاكيدا لحقهم فى هذا الأمر • ونفيا لمنازعتهم فيه • فهو حقهم الثابت الأصيل •

« **بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من اموالهم** » • بيان لأسباب استحقاقهم هذه القوامة ، وتعليل له • والآية الكريمة تجمل ذلك فى شيئين أحدهما وهبى ، وهو ما اختص الله به الرجل من خصائص طبيعية « **بما فضل الله بعضهم على بعض** » ويلاحظ ان الآية لم تصرح بما به التفضيل للاشارة الى أن ذلك واضح غاية الوضوح لا يحتاج للتصريح به • وهذا هو الواقع فعلا ، فالاجماع منعقد بين جميع الباحثين فى مختلف فروع العلم على أن طبيعة الرجل تغاير طبيعة المرأة بما يجعل كلا منهما قادرا على أداء رسالته فى الحياة فهى اذن حكمة الله ، أن تيسر كل موجود لما خلق له ، وتزوده بالطاقات التى تضمن وفاءه بمسئولياته ، وليست المسألة محاباة فريق دون فريق •

فاذا ذكر للرجل اعتباره بالخشونة والصلابة،وبطء الانفعال والاستجابة واستخدام الوعى والتفكير قبل الحركة والاستجابة ، فلأن وظائفه فى الحياة تحتاج الى قدر أكبر من هذه الصفات •

واذا ذكر للمرأة امتيازها بالرقة والعطف وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة بغير وعى ولا سابق تفكير ، فان ذلك أيضا لأن وظائفها فى الحياة من قيامها بتربية النشء وايناس الرجل وابهاج الحياة تحتاج من تلك الخصائص الى قدر كبير •

والسبب الثانى لقوامة الرجل ما تعبر عنه الآية « **وبما أنفقوا من اموالهم** » وهذا أمر كسبى • يقوم به الرجل ، فهو المكلف ــ ولو كان فقيرا ــ بالمهر والنفقة وتدبير كل ما تحتاجه الأسرة من موارد مالية تقضى به مطالبها والمرأة معفاة من ذلك ولو كانت غنية ومن العدل أن تتناسب المغانم مع المغارم• ويلاحظ ما فى التعبير من اجمال اذ لم يعمد الى تفصيل ما يلزم الرجل بانفاقه ، لوضوحه أيضا ، وانه لا يجادل فيه •

« **فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله** » •

بعد بيان منزلة الرجل فى الأسرة وتكليفه بمسئوليات القوامة عليها ، شرع فى بيان حال المرأة وكيفية القوامة عليها ، وقسم النساء قسمين : الصالحات والناشزات •

وبين طبيعة الصالحات بأنهن « قانتات » والقنوت هو الطاعة عن ارادة ورغبة ومحبة ، لا عن الزام وقسر · ومن ثم قال : « قانتات » ولم يقل طائعات · لأن مدلول اللفظ الأول نفسى وظلاله رضية ندية وهذا هو الذى يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين شطرى النفس الواحدة » (١). فالصالحة مطيعة لله ولزوجها طاعة الرضا والطواعية · ثم أضاف الى ذلك أنهن « حافظات للغيب » أى من طبيعتهن انهن يحفظن ما يجب حفظه فى غياب الزوج · ويلاحظ ما فى النظم الكريم من النص على وجوب حفظ ما يجب حفظه فى غياب الزوج ، للاشارة الى أن الحفظ فى حضوره أولى ، وكذلك الاجمال فى قوله « للغيب » ليتناول كل ما يجب حفظه مما أمر الله به من مال وعرض وولد وغيره مما هى أمينة عليه · وبذلك تضمن النص ــ على ايجازه ــ كل حالات الحفظ وكل ما يجب حفظه مما جعله من جوامع الكلم وفى ذروة البلاغة ·

وقوله تعالى « بما حفظ الله » المراد به : بما حفظهن الله وعصمهن ووفقهن الى حفظ الغيب ، أو بما حفظهن حين وعدهن بالثواب العظيم على حفظ الغيب » (٢) · هذا وظاهر الآية انها خبر ، وقيل ان المراد بها الأمر والمعنى : فلتطع المرأة زوجها ولتحفظه ·· ويؤيده قوله تعالى « بما حفظ الله » فان معناه أن عليهن أن يطعن أزواجهن ويحفظنهم فى مقابلة ما حفظه الله لهن من حقوق من مهر ونفقة ومعاشرة بالمعروف ، فهو جار مجرى قولهم : هذا بذاك » (٣) · ويكون سر العدول عن أسلوب الأمر الى الخبر ، هو المبالغة فى التأكيد فكأنه يقول : ان هذا الحفظ هو طبيعة الصالحات ، ومن مقتضى صلاحهن (٤) ، وهذا يزيد من بلاغة الأسلوب وواضح أن هذا القسم من النساء ليس للرجال عليهن شىء من سلطان التأديب بل لهن الاكرام والرعاية ·

« واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فان أطعتكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ان الله كان عليا كبيرا » ·

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢ ص ٦٥٢ ·

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٢٤ ·

(٣) انظر آيات الأحكام ص ٩٨ مقرر السنة الأولى بكلية الشريعة ·

(٤) فى ظلال القرآن جـ ٢ ص ٦٥٢ ·

هذا هو القسم الثانى من النساء ، وهن اللاتى يترفعن على طاعة الزوج، ويتمردن على قوامته عليهن · وهؤلاء يجب ألا يسمح لهن بالتمادى فى التمرد حتى يتفاقم الخطر ، وتتحطم الأسرة · ولذلك رسم الاسلام سياسة حكيمة فى اصلاح هذا الشذوذ·وجعلها مراحل لا ينتقل الى مرحلة منها حتى يثبت فشل الأولى ·

والآية الكريمة تبين المرحلة الأولى ، وأمر الاصلاح فيها موكل الى الزوج بماله من حق القوامة على الأسرة ، فلا ينتظر حتى يستشرى النزاع بل يبدأ فى الاصلاح عندما تلوح اماراته ، وتبدأ مقدماته ، ويخاف تطوره الى نزاع محتدم ، قد لا يفيد فيه عـــلاج · وفى هذه المرحلة للزوج أن يبدأ فى الاصلاح بالعظة الحسـنة والقول الطيب ، فان لم يفلح انتقـل الى وسـيلة أخرى أشد من الأولى ، وهى الهجر فى المضجع ، فان لم تنته المرأة فله أن يلجأ الى وسيلة أقوى ، وهى الضرب غير المبرح · تلك حــــدود الزوج فى التأديب بغية الاصلاح ، ولنتأمل النظم الكريم ·

« **واللاتى تخافون نشوزهن** » هؤلاء من اللاتى يتوجه اليهن بالتأديب بغية الاصلاح · والخطاب موجه للأزواج · فهم المكلفون بهذه المهمة قياما بما تقتضيه قوامتهم · ويلاحظ التعبير عنهن باسم الموصول «اللاتى» بصيغة الجمع، اشارة الى أن النشوز محقق فى جماعتهن » (١) · وتلك لمحة عميقة يقرها الواقع ، فكان التعبير مشيرا اليها · وكذلك التعبير بـ « تخافون » وما يوحى به من وجوب المسارعة الى الاصلاح والعلاج وعدم الانتظار حتى يستشرى ويتفاقم ، فان الخوف هو انزعاج القلب عند توقع حدوث أمر مكروه ، أو عند الظن أو العلم بحدوثه · وقد يراد به أحدهما·وظاهر الآية هنا ترتب العقوبات المذكورة على خوف النشوز ، وان لم يقع بالفعل وهـذا لون من الدقـة فى اختيار الألفاظ وهى من البلاغة بمكان ، وان كان بعض العلماء فسر الخوف بالعلم حتى يستقيم ترتب العقوبات عليه ·

والمراد بـ « نشوزهن » عصيانهن · ولكن لفظ النشوز يعرض هـــذا المعنى الذهنى فى صورة حسية ، فلو من « الوقوف على نشز ، أى مكان بارز ومرتفع عن الأرض ، فالناشز تبرز وتستعلى بالعصيان · وللتصوير أثره فى ابراز المعنى واثارة الخيال وصولا الى تأثيره فى النفس ·

فكأن النص الكريم هنا يريد أن يبرز الخطأ الذى استحقت المرأة العقوبة بسببه ·

---

(١) آيات الأحكام ص ١٤٨ ·

« **فعظوهن واهجروهن فى المضـــاجع واضربوهن** » تلك هى وســـائل الاصلاح · ويلاحظ تدرجها من الضعف الى القوة ، فقد بدأ بالعظة والمراد بها النصيحة بالقول ، بأن يبين لها عاقبة سلوكها ويذكرها بحقه عليها ، وغير ذلك مما يصلح فى اصلاح حالها ·

فان لم تفد هذه الوسيلة فله أن ينتقل الى وسيلة أخرى وهى الهجر فى المضجع « **واهجروهن فى المضاجع** » · وقيل ان الهجر فى المضاجع كناية عن ترك جماعهن والكناية هنا تحقق السمو الذى يتوخيه القرآن فى التعبير بترك التصريح بما لا يجمل ذكره ، وقيل ان المراد تركهن منفــردات فى حجــرهن ومحل مبيتهن ، فيكون فى ذلك ترك جماعهن وترك مكالمتهن · وواضح أن هذه الوسيلة عقوبة نفسية يراد بها كسر غرور المرأة واستعلائها على زوجها · ويلاحظ ما فى تقييد الهجر بقوله « **فى المضاجع** » فان المضجع موضع الاغراء والجاذبية التى تبلغ فيها المرأة الناشز قمة سلطانها ، فاذا استطاع الرجل أن يقهر دوافعه تجاه هذا الاغراء ، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أمضى أسلحتها التى تعتز بها وكانت ــ فى الغالب ــ أميل الى التراجع والملاينة ، أمام هــذا الصمود من رجلها وأمام بروز خاصية قوة الارادة والشخصية فى أحــرج مواضعها » (١)

فان لم تفلح هذه الوسيلة أيضا ، فهناك وسيلة هى ــ على عنفها ــ أهون من أن تترك الأسرة تنهار نتيجة لنشـــوز المرأة تلك الوســـيلة هى الضرب « **واضربوهن** » وهى أقصى ما يملكه الزوج فى تأديب زوجته · وقد جـــاءت الآثار الكثيرة تبين الضرب المباح ، وانه يجب أن يكون غير مبرح ، وأن يتقى الوجه ، وألا يوالى الضرب فى محل واحد ، الى غير ذلك مما يجعل من هــذه العقوبة وسيلة للاصلاح لا للقهر والانتقام ·

وقد اثير الكثير حول هذه العقوبة ، ومنافاتها لطبيعة التحضر القــاضى بتكريم الزوجة واعزازها · وهو قول فيه من النفاق والتملق لطبقة معينة من النساء أكثر مما فيه من الحق ·

فلم يفرض الاسلام على الرجل أن يضرب زوجته ، بل جعل الضرب وسيلة ، له أن يلجأ اليها اذا كانت زوجته من النوع الذى لا يصلح الا بها · ولم يفد معها الوعظ والهجر· ثم ان الاسلام لا يشرع لطبقة خاصة · ولا لجيل

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢ ص ٦٥٤ ·

خاص ، وانما هو لكل البشر ولجميع الأجيال . والواقع الذى نلمسهٔ يعطينا نماذج من البشر فى كل المجتمعات وفى ظل أرقى المدنيات تحتاج فى ردعها لا الى الضرب غير المبرح فقط ، بل الى ما هو أشد منه واقسى ، وكم تحدث علماء النفس عن ألوان من الانحراف النفسى لا يشبعه الا الضرب والايجاع . بل ربما كان من النساء من لا ترى فى الرجل من مؤهلات القوامة التى تخضع لها راضية ـ سوى الخشونة والقوة العضلية التى تنبىء عن رجولة تسعد المرأة بالحياة فى ظلها راضية ، بل معتزة . ان هذه النماذج موجودة مشاهدة ، والتشريع الاسلامى يواجه الواقع بكل نماذجه ويصف له ما يطبه .

هذا ويلاحظ أن الوسائل المذكورة قد ذكرت معطوفة بالواو ، ولهذا فليس فى اللفظ ما يوجب الترتيب ، ويلزم بالبدء بالوعظ ، ثم الانتقال الى ما بعده . ولكن فحوى الآية ينبىء عن الترتيب . ذلك لأن الواو داخلة على جزاءات مختلفة متفاوتة ، واردة على سبيل التدرج من الضعيف الى القوى الى الأقوى ، وذلك جار مجرى التصريح بأنه متى حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به ، ولم يجز الاقدام على ما بعده .

ولعل السر فى العطف ـ بالواو ـ دون ـ الفاء ـ مع ايحاء التعبير بالترتيب هو الجمع بين الاعتبارين . بأن يكون الأصل أن يتبع الزوج ما يوحى به التعبير من ترتيب ، فيبدأ بالوعظ ، وينتقل منه الى ما بعده . فاذا كانتطبيعة المرأة ، أو حدة النشوز لديها ، لا تدع احتمالا لأن تحقق الوسيلة الأخف نجاحا فى التقويم ، فعند ذلك للزوج أن يلجأ الى أى العقوبات يراه مناسبا أو أن يجمع بينها من غير ترتيب ، فلا يكون فى النص ما يحول بينه وبين ذلك وهذا من أسرار الاعجاز القرآنى ، ففيه المرونة التى تحقق هدف التدرج ، ولا تحول بين تحقيق المصلحة فى البدء بالأشد . والله أعلم .

« فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ان الله كان عليا كبيرا »

سيق هذا التعقيب الكريم لبيان أن وسائل التأديب المذكورة شرعت لغرض محدد ، وهو تقويم النشوز ، فاذا حققت غايتها فليس للزوج أن يستمر فى استخدامها دون مبرر ، اذ المعنى : فان انتهين من النشوز وعدن للطاعة بعد هذا التأديب فلا تطلبوا سبيلا الى التعدى عليهن . أو فلا تظلموهن بطريق من طرق التعذيب والتأديب .

والتعبير بـ « ان » دون « اذا » لبيان أن هـذه الوسـائل قد لا تحقق الطاعة ، وأن بعض الزوجات سيبقين على نشوزهن مع استنفاد كل وسـائل التأديب المباحة للزوج ، ومن ثم فهن فى حاجة الى وسيلة أخرى للاصـلاح ، وهو ما ستذكره الآية التالية ، حين تأمر بالتحكيم بين الزوجين ·

والتعبير يوحى للرجل بنسيان ما سبق من نشوز زوجته واعتباره كأن لم يكن وبدء حياة جديدة لا يكدرها ما شابها من خلاف ، وذلك حين نهت الآية نهيا قاطعا عن ظلمهن بأى سبيل بعد أن عدن الى الصواب ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له · ولهذا جاءت الفاصلة مؤكدة لذلك وداعية اليه ·

« **ان الله كان عليا كبيرا** » فقد قيل : ان المقصود منها تهديد الأزواج على ظلم النساء بعد طاعتهن ، فالمعنى : انه تعالى قاهر قادر ينتصف لهن فـلا يجوز أن تغتروا بكونكم أعلى يدا منهن وأكبر درجة ·

وقيل : ان المقصود حث الأزواج على قبـول توبة النسـاء ، ودعوتهم الى التخلق بأخلاق الله والمعنى : انه تعالى ــ مع علوه وكبريائه وقدرته ــ لا يؤاخذ العاصى اذا تاب بل يغفر له ، فأنتم أولى بأن تقبلوا توبة المرأة وتتركوا معاقبتها ·

والملاحظ أن القرآن الكريم كثيرا ما يعقب على أوامره ونواهيه بذكـر بعض أسمائه الحسنى التى تناسب المقام ليعلمنا التخلق بأخلاقه سـبحانه والنسج على منوالها · وتلك وسيلة من وسـائل التأثير لما يلقيه تذكر تلك الأسماء المقدسة ، وتدبر معانيها من هيبة فى القلوب واستهواء للنفوس ·

« **وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ، ان الله كان عليما خبيرا** » ·

هذه هى المرحلة الثانية فى الاصلاح بين الزوجين ، فقد عبرت الآيـة السابقة عن المرحلة الأولى ، وعقبت عليها بقوله تعالى : «**فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا** » وسكتت عن حالة ما اذا لم يطعن ، وسر ذلك هو الايماء الى أن هذا ليس مما ينبغى أن يتحقق أو يفرض ·

وفى هـذه الآية تعـالج الحالة التى سكتت عنها الآية السـابقة ، فهى خاصة بحالة ما اذا فشل الزوج ، واستنفد الوسائل المباحة له فى التأديب ، وهنا لابد أن يتدخل بينهما من يحسم النزاع ، وينصف المظلوم من الظـالم فكان الأمر بالتحكيم بينهما هو الوسيلة المختارة · ولنتأمل التعبير الكريم ·

« وان خفتم شــــقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من اهلهــا» والمعنى ان علمتم تفاقم الخلاف بين الزوجين ، وعجز الزوج عن اصـــلاحه فابعثوا اليهما حكمين : أحدهما من أهل الزوج ، والآخــر من اهــل الزوجة لاصلاح ما بينهما ·

وقد آثر استعمال « ان » التى تدخل على ما يندر وقوعه ، لأن الزوج غالبا ما يتمكن من النجاح فى اصلاح زوجته ، ونادرا ما يستمر الخلاف وهذا نموذج للدقة فى اختيـــار الألفاظ · أو للايحاء بأن هذا ما يجب أن يكون · والمراد بـ « خفتم » علمتم ، لأنه لا مجال لتدخل الغير الا بعد العلم بالخلاف وسر التعبير بخفتم هو الاشـارة الى أن الواجب هو التدخل السريع وعـدم التباطؤ حتى لا تستفحل الأمور · والمراد بالشقاق : الخلاف ، وهو لفظ مصور لمعناه ابرازا له وتثبيتا فى النفس لأن كلا من المختلفين يكون فى شق غير شق الآخر · والأصل « شقاقا بينهما » والاضـافة بينهما للملابســة بين الظرف والمظروف ، فقد نزل الظرف « بين » منزلة الفاعل ، فجعل البين شـــاقا ثم أضيف اليه فقيل « شقاق بينهما » كما فى قوله تعلى «**بل مكر الليل والنهار**»(١) وفائدته تشخيص المعنى كأن ــ البين ــ فاعل مريد ·

هذا والخطاب فى الآية الكريمة موجه للمسلمين عامة ، ولا يتأتى أن يقوم بهذا التكليف جميعهم · ولذلك قيل ان المـراد به الحـكام لأنهم المكلفون شرعا بملاحظة أحوال الناس والعناية بها · وقيل انه خطاب عام كما هو ، يدخل فيه الزوجان وأقاربهما ، فان قاموا به فذاك والا وجب عليهم ابلاغه للحاكم » (٢)

وأيا كان المقصود بالخطاب،فالآية الكريمة تقرر مبدأ هاما ، وهو وجوب الاصلاح بين الزوجين ، وأن ذلك واجب على المســلمين ، وهو حق للزوجين على المجتمع أن يقوم به ، فليقم به المجتمع ولا سيما الأقارب باعتبار الرباط الدينى وصلة الرحم · أو ليقم به الحاكم باعتبار ولايته ·

« **فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها** » · وايثار التعبير بـ «حكما» دون « واحدا » مثلا للتنبيه على وجوب أن يكون المبعوث مؤهلا للحكم صالحا للحكومة من العدالة والخبرة وغيرهما · ووصف الحكمين بأن يكون أحدهما من أهل الزوج ، والآخر من اهل الزوجة لما فيه من مصــــالح لا تتحقق مــع الأجنبى ·

---

(١) ســبا : ٣٣ ·

(٢) الاسلام عقيدة وشريعة ص ١٥٨ ــ ١٥٩ ·

فان الأقارب أعرف بحال الزوجين ، وأحرص على الاصلاح بينهما وأقرب الى أن تسكن اليهم النفس ، فيبوح لهم كل من الزوجين بما لا يحب أن يطلع عليه أجنبى ، بالاضافة الى حرص الاسلام على عدم افشاء أسرار الأسر ويتضح هذا أيضا من الأمر باختيار حكمين اثنين وليس جماعتين ·

« **ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما** » · الأوفق أن يكون الضمير فى قوله « **يريدا** » للحكمين ، وفى قوله « بينهما » للزوجين ، ويكون المعنى : ان قصد الحكمان اصلاح ذات البين ، وكانت نيتهما صالحة ، وقلوبهما خالصة لوجه الله ، يوقع الله بين الزوجين التوافق ، والألفة ، ويصلح بينهما ، وعلى هذا يكون التعبير ترغيبا للحكمين فى الاصلاح ، وتحذيرا من التقصير كيلا ينسب اليهما التسبب فى عدم الصلح بعدم ارادتهما الاصلاح ، فان أسلوب الشرط الذى نظمت عليه الآية يدل على دوران وجود التوفيق على وجود الارادة وتنبىء عن دوران عدمه على عدمها ·

ويجوز أن يكون الضميران للزوجين والمراد : اذا كانت نية الزوجين متجهة للصلح ، وكان فشلهما فى تسوية المشاكل فيما بينهما راجعا الى أسباب شخصية كانفعالهما أو عدم خبرتهما ، فان الله تعالى يوفق بينهما بمجهود الحكمين ·

كما يجوز أن يكون الضميران للحكمين والمراد : اذا خلصت نية الحكمين وفق الله بينهما فتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما ·

« **ان الله كان عليما خبيرا** » وتأتى الفاصلة لتحذر كلا من الزوجين والحكمين من سلوك طريق يخالف الحق ، ويبعد بهما عن المصلحة فالله عليم خبير بظواهر الأمور وبواطنها ، لا تخفى عليه خافية فليراقبوه ويتحروا رضاه ·

ويلاحظ ما فى الجملة من تأكيد بأن واسمية الجملة ، واختيار اسمى « العليم والخبير » من بين اسمائه سبحانه · لما يلقيانه فى النفوس من حرص على مراقبته واستشعار وجوده واطلاعه عليهم · وذلك ما يقتضيه مقام النصح والتحذير ·

وبعد ·· فتلك هى البلاغة فى النص الكريم · فلو كان الأمر بيان الأحكام التى تضمنها لأغنى فى ذلك بيان الحكم فى أسلوب مجرد يثبت حق الزوج فى تدبير أمر الأسرة وتأديب الزوجة عندما تقصر فى واجبها ، ولكن

حق الدعوة وضرورة ابلاغها فى صـــورة تتفتح لها القـــلوب وتستقر فى الوجدان اقتضى كل هذا الحشد من الألوان البلاغية فمن دقة فى اختيـار الألفاظ وايثار الموحى منها بما يناسب المقـام الى تعليـل للحكم بما يطمئن النفوس اليه · ومن ابراز للمعانى بالتصـوير بالألفـاظ أو الوان المجـاز ، الى لمسات وجدانية تثير بواعث الطاعة والانقياد على ما رأينـاه فى تحليل النص ·

★ ★ ★

● **بعض احكام الطلاق :**

قال تعالى : « **والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحـل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخـر ، وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ان أرادوا اصلاحا ، ولهن مثل الذى عليهن بالمعـروف ، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم · الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون** » ·

« **فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون** ·

« **واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسـكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا ، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم** ·

« **واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون** » (١)

الاسلام يشرع للواقع الانسانى ، وكثيرا ما يطرأ فى الحياة الواقعيـة حالات ، يصبح استمرار الحياة الزوجية مع وجودها متعذرا ، ويصـــبح الطلاق ضرورة لازمة ·

---

(١) البقرة : ٢٢٨ ـ ٢٣٢ ·

ولهذا أباح الاسلام الطلاق ، بعد أن تستنفد كل وسائل التقويم ويصبح الطلاق هو الجراحة التى لابد من اجرائها عندما يتعذر الشفاء بدونها . على أن الاسلام عندما أباح الطلاق أحاطه بقيود تكفل تحقيق الصالح العام وصالح الأسرة نفسها .

والنص الكريم يتضمن بعض هذه الأحكام التى تنظم الطلاق ، ولا تجعل منه سلاحا فى يد الرجل ، بل دواء هو ـ على مرارته وقسوته ـ أخف ايلاما من استمرار علاقة لا خير فيها ، واستنفدت جميع الوسائل فى اصلاحها .

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ان ارادوا اصلاحا ، ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم » .

الآية الكريمة تتضمن أحكام فترة محددة تلى الطلاق ، وهى فترة العدة للمرأة المطلقة طلاقا رجعيا . وهذه الاحكام خاصة بالمرأة المدخول بها ذات الأقراء ، أما غيرها ممن لم يدخل بها ، أو اللاتى لا يحضن لصغر السن أو كبره ، فقد وردت احكام عدتهن فى آيات اخرى .

وقد شرعت العدة بعد الطلاق الرجعى لتحقيق هدفين هامين فى وقت واحد . أولهما : التأكد من براءة رحمها من الحمل من مطلقها ، وذلك حتى لا تختلط الأنساب ، ويلحق الولد بغير أبيه ، والثانى : أن الاسلام ـ حرصا منه على الاسرة واستقرارها ـ لم يجعل الطلاق الرجعى حاسما فى حل عقدة النكاح ، بل منح الزوجين فرصة أخيرة لمراجعة النفس ، فقد تكون المشاعر الثائرة التى سببها الخلاف هى التى عجلت بالطلاق ، ودفعت الزوج الى ايقاعه مدفوعا بالغضب الذى يؤدى غالبا الى التسرع فى الحكم . وقد يشعر الزوجان بعد ان تهدأ المشاعر ، ويواجها الواقع الجديد بالندم على هذا التسرع وتصح نية الزوج على استئناف الحياة الزوجية مرة أخرى ، وقد اثبت الواقع ان ذلك كثيرا ما يحدث وعندها للزوج ان يراجع زوجته ويردها الى عصمته .

وتحقيقا لهذين الهدفين فان الآية الكريمة تحيط حكميهما بما يضمن الوصول الى الهدف ، من أحكام فرعية لازمة لهما ، وبألوان من التأثير النفسى ليلمس التشريع القلوب ، ولتستجيب له النفوس .

« **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** » هذا هو الحكم الأول من الاحكام التى تتضمنها الآية ، فعلى المرأة ان تنتظر دون زواج مدة ثلاثة قروء ·

ولفظ « المطلقات » عام يشمل كل مطلقة ، واطلق هنا على المدخول بهن ذوات الأقراء ، من باب اطلاق العام على الخاص · « يتربصن بأنفسهن » المعنى : ينظرن دون زواج ، ولكن النظم الكريم يعبر عن ذلك بـ « يتربصن بأنفسهن » والتربص هو الامتناع عن الشيء مع التحفز للاقدام عليه عند اول بادرة ، مع مغالبة النفس وكبح جماحها عما تشتهى · فالتعبير الكريم يضيف الى المعنى تصويره لحركة النفس وتحفزها ومغالبتها لهواها ، وذلك لان المرأة بطبيعتها راغبة فى الزواج طامحة اليه ، فمنعها عنه يتطلب منها ان تغالب رغبتها اليه ، وان كانت متحفزة له ، تتمنى زوال العوائق التى تحول بينها وبينه وهكذا تتجلى بلاغة القرآن فى اختيار هذا اللفظ الذى أضاف للمعنى تلك الاعتبارات التى لا يؤديها سواه ·

وقوله تعالى « بأنفسهن » فيه تهييج لهن على التربص وزيادة بعث لان فيه ذكر ما يستنكف منه فيحملهن على أن يتربصن ، وذلك أن أنفس النساء طوامح الى الرجال ، فأمرن أن يقمعن أنفسهن ، ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص » (١) ·

ويلاحظ التعبير بالجملة الاسمية وما يفيده من تأكيد يقتضيه مقام العناية والاهتمام بالحكم ، كما أن الجملة خبر فى معنى الأمر ، فأصل المعنى : وليتربص المطلقات ، واخراج الأمر فى صورة الخبر تأكيد للامر ، واشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة الى امتثاله فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص ، فهو يخبر عنه موجودا » (٢) ·

« **ثلاثة قروء** » تحديد لمدة التربص ، أى يتربصن مدة ثلاثة قروء ، ومعنى القرء : الحيض أو الطهر · واختلف فى المراد منه هنا ، ويترتب على الخلاف احكام فصلها الفقهاء فى كتبهم ، ولا يسمح المقام بها ، فليرجع اليها فى كتب الفروع ·

« **ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر** » ·

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٦٥ ·

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٦٥ ·

شرعت العدة لتحقيق أهداف سبق الاشارة اليها ، وحددت مدتها لذوات الأقراء بثلاثة قروء · ومعرفة انتهاء العدة ، واكتمال عدد الأقراء يعود الأمر فيه الى المرأة نفسها ، لان ذلك امر لا يطلع عليه سواها فقبلت شهادتها فيه · ويأتى النص الكريم ليضع المرأة أمام مسئوليتها · ويشعرها بخطورة التلاعب فيها ، ويحثها على الصدق فى الاخبار بحقيقة حالها ، فقد تدفعها الرغبة فى زواج جديد الى ادعاء انتهاء عدتها ، فحرمت عليها الآية ذلك ، لما يترتب عليه من مفاسد ·

« ولا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن » المراد بما خلق الله فى ارحامهن ، الولد ، ودم الحيض · فمن اهداف العدة اثبات براءة الرحم ، ومنح فرصة للتراجع عن الطلاق ، وقد تكون المرأة راغبة فى فراق زوجها ، فتنكر حملها حتى لا ينتظر بطلاقها الى ان تضع ، وقد يشفق على الولد فيترك تستريحها · او تدعى انها قد طهرت من الحيض استعجالا للطلاق ، وفى هذا وذاك مفاسد كثيرة تهدم الحكمة التى شرعت لها العدة فاذا كتمت حملها فان ذلك يؤدى اما الى اختلاط الأنساب أو محاولتها التخلص من الحمل ، واذا كتمت حيضها وادعت طهارتها أدى ذلك الى اسقاط حق الرجل فى الرجعة ·

ويلاحظ ما فى التعبير من ذكر اسم « الله » تعالى اشعارا بالمهابة التى تكفها عن الكذب ، فالله هو الذى خلق ما فى رحمها ، ويعلم صدقها وكذبها ، فعليها ان تخشاه فلا تكتم من ذلك شيئا ·

كما نحب أن نشير هنا الى ما تثبته الآية الكريمة للمرأة من جعل الشهادة على ذلك اليها دون الرجل ، لأنه أمر خاص بالنساء · وفى هذا تقدير لها واثبات لاهليتها ، ورد على اولئك الذين يغمزون الاسلام فى جعله شهادة الرجل فى الأموال تعادل شهادة امرأتين ، مدعين ان الاسلام يطعن بذلك فى عدالتها باعتبارها امرأة ، ويحط من قدرها ، تملقا منهم لها ، واظهارا لحرصهم الكاذب على رفع الغبن عنها ، مفتعلين بذلك صراعا لا يقوم على أساس ·

والآية ترد على هؤلاء ، فالمسألة ترجع قبل كل شىء الى التخصص وصلاحية كل منهما لما يندب له ويسند اليه ، فلا شك فى ان الرجال اقدر من النساء واكثر خبرة ، واعظم اهتماما فيما يتصل بالأموال بحكم طبيعة الرجل ودقته وكثرة مباشرته لأمور المعاملات المالية ، لهذا جعل الشهادة عليه لرجلين والا فرجل وامرأتان · ثم عقب على الحكم بذكر حكمته « أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى » (١) · فالأمر أمر خبرة وطبيعة خاصة ·

---

(١) البقرة : ٢٨٢ ·

لا امر محاباة وتفضيل ، فعندما كان المشهود عليه خاصا بالنساء جعل الشهادة لهن ، واستبعد الرجال عنه تماما ، فهذه بتلك لأن السبب قائم والعلة مطردة ·

« **ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر** » تعظيم لجريمة انكار المرأة لما خلق الله فى رحمها ، يتضمن الوعيد الشديد عليها ، فقد عرض المعنى فى صيغة الشرط ليفيد ان من آمن بالله وبعقابه لا يجترىء على فعل ذلك · وفى التعبير ايجاز بحذف جواب الشرط لدلالة ما قبله عليه دلالة واضحة ، وذكر « اليوم الآخر » له ايحاء خاص هو اشد وقعا فى النفس ترغيبا وترهيبا ، فهو يوم الجزاء ، وهناك العوض عما قد يفوت بالتربص ، وهناك العقاب لو كتمن ما خلق الله فى ارحامهن · وبهذه الخصائص والايحاءات التى تضمنها النص كانت بلاغته وتأثيره ·

« **وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ان أرادوا اصلاحا** » ·

هذا هو الحكم المحقق للهدف الثانى من اهداف تشريع العدة وهو تهيئة الفرصة لفترة معقولة للزوج ، فقد يراجع نفسه بعد ان سكنت مشاعره فيندو عليها باللائمة لأنها عظمت حقيرا ، واندفعت حيث تجب الأناة والتريث ، بل قد يكتشف فى زوجته أمورا ترغبه فيها ، وتحمله على التسامح فيما يكرهه منها ، فله عند ذلك أن يراجع زوجته خلال فترة التربص ويستأنف حياته ، على ان تكون نيته فى ذلك اصلاح ما بينه وبينها ، ولم يرد مضارتها بالرجعة · ولنتأمل النظم الكريم :

« **وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك** » انه تعبير عجيب ، بل تعبير معجز حقا ، لا يصلح للمقام غيره ، ففترة التربص تكون العلاقة الزوجية خلالها بين بين ، وتتزاحم فيها الاعتبارات التى تميل كل منها الى جانب ، فالزوج من ناحية قد طلق زوجته ، والطلاق اعلان للفرقة وبداية لتحلل الزوجين من تبعات الزواج · ومن ناحية اخرى فان هذا الطلاق رجعى لم يحسم العلاقة بينهما ولم يدع كلا منهما يتصرف فى امره كما يحلو له · فما زالت هناك علائق لم تقطع وحقوق لم تؤد ، فالمرأة مشدودة الى علاقتها بالزواج حتى يثبت براءة رحمها من الحمل ، والرجل مكلف بالنفقة عليها حتى تحسم الامور · ويأتى التعبير المعجز ليفى بكل هذه الاعتبارات ، ويضعها فى مكانها من التقدير ·

فهو يسمى المطلقين « بعولتهن » والبعل هو الزوج · اذن فان المطلق لم يزل زوجا ، ثم يعبر عن حق هذا الزوج فى استئناف الحياة الزوجية بقوله

« بردهن » والرد لا يكون الا لشيء قد انفصم ، وهذا يوحى بأنهن غير زوجات· وهذا التناسق العجيب بين الواقع والتعبير عنه هو الاعجاز الذى لا يستطيعه المخلوق ، ثم نلاحظ ايثار صيغة التفضيل فى « أحق » لبيان أن الرجل اذا رغب فى رد امرأته ورغبت المرأة عن ذلك وجب ايثـار قوله على قولها ، وليس المقصود اثبات ان لها حقا فى الرجعـة ·

والاشارة فى قوله « فى ذلك » الى مدة التربص ، فهى الفرصة الاخيرة لمراجعة النفس ، فان فاتت حسم الامر وانتهت الزوجية ·

« **ان أرادوا اصلاحا** » الضمير يعـود على « بعولتهن » والمعنى : ان الواجب عـلى الزوج اذا اراد مراجعـة زوجتـه ان يكون غرضـه اصـلاح ما بينهما ، واحسان معاملتها لا الاضرار بها باسـاءة معاملتها او منعهـا عن الزواج · فليس المراد ان ارادة الاصلاح شرط فى صحة الرجعة ، بـل المقصود الحث عليه ، والزجر عن قصد الاضرار ، لأن نية الزوج لا اطلاع لأحد عليها وانما تبنى الاحكام على الامور التى يمكن معرفتها وضبطها · ولـكن عرض المعنى فى صيغة الشرط يقتضيه مقام الاهتمام الذى يستدعى التأكيد كأن ارادة الاصلاح لأهميتها شرط فى حقهم فى مراجعة مطلقاتهم ·

« **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ، والله عـزيز حـكيم** » ·

هذا من جوامع الكلم ، فالتعبير الكريم على ايجازه الشديد يتضمن كل ما يترتب على عقد الزواج من حقوق وواجبات ، ويبين نظرة الاسلام الى عقد الزواج ، فللمرأة من الحقوق مثل الذى عليها من الواجبات فى كل ما لا يأباه الشرع والعرف الكريم · والزواج ليس عقد استرقاق وتملك للمرأة بل هو عقد مبنى على التكافؤ بين طرفيه ، بحيث يحصل كل طرف على حقـوقه ويؤدى واجبـاته ، وتلك منزلة لم ترتفـع اليها المرأة فى ظل اى حضـارة او تشريع غير الاسـلام ·

هذا ويمكن ان يحمل النص الكريم على انه خاص بحالة العدة التى نحن بصددها ، فهن مكلفات أن يتربصن ويمتنعن عن الزواج ، ولا يكتمن ما خـلق الله فى أرحامهن ، والرجال مكلفون بأن تكون نيتهم فى الرجعة ارادة الاصلاح ومكلفون بالانفاق والاسكان فى مقابل الاحتباس فى العدة ·

« **وللرجال عليهن درجة** » اذا حملنا النص على حالة العدة فالمراد بالدرجة ــ هو حق الرجال فى الرجعة دون النساء ، وذلك وضع طبعى ، فالرجل هو الذى طلق ، فله حق الرجعة ، فهو حق تقتضيه طبيعة الموقف ، واذا حملنا النص على انه عام فى كل ما يتعلق بالحياة الزوجية ، فالمراد ــ بالدرجة ــ ما اختص به الرجل من القوامة على المرأة للاسباب التى سبق بيانها ، ويلاحظ الطباق بين « لهن » و « عليهن » قصدا الى ابراز التقابل بين الطرفين ، وكذلك تقديم الجار والمجرور فى قوله تعالى «**وللرجال عليهن درجة**» لتقوية الحكم وتأكيده والاشارة الى ان هذا الحق ثابت للرجال عليهن ، لا ينازع فيه ، والتعقيب بهذا على ما سبق من اشتراط نية الاصلاح فى الرجعة لبيان ما يكون به الاصلاح وما تستقيم به الحياة الزوجية ·

« **والله عزيز حكيم** » وتأتى الفاصلة ايضا مناسبة للمقام محذرة من التفريط فى حقوق الزواج ، فالله « عزيز » قادر على الانتقام ممن خالف احكامه « حكيم » لا يشرع الا ما فيه الخير ، فالصفتان الكريمتان تجمعات بين الترهيب والترغيب حرصا على الاستمالة وتحذيرا من المخالفة ·

« **الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف أو تسريح باحسان** » ·

فى الآية السابقة ثبت حق الزوج فى رد زوجته المطلقة طلاقا رجعيا ، مادامت فى العدة ، وفى هذه الآية بيان للطلاق الذى فيه الرجعة ·

والمعنى : الطلاق الذى يجوز فيه الرجعة مرتان ، ثم الواجب بعد ذلك اما امساك بمعروف ان رأى المصلحة فى بقاء الزوجية ، واما تسريح باحسان بأن يتركها حتى تنتهى عدتها وتبين منه ·

وقد كان العرب فى الجاهلية ، وكذلك كان المسلمون · قبل نزول هذه الآية ، يطلقون ويراجعون الى غير ما حد ، وكان بعضهم يتخذ من ذلك وسيلة للاضرار بالمرأة فيطلقها ويتركها حتى اذا قاربت عدتها على الانتهاء راجعها ثم طلقها ، وهكذا لتبقى معلقة لا هى بذات زوج ولا تملك الزواج من رجل آخر ·

فجاءت الآية الكريمة لتضع حدا لهذا التلاعب وتمنع الاضرار بالمرأة على هذا النحو · واذا كان الاسلام حريصا على استدامة الاسرة وفى سبيل ذلك

اعطى الزوج فرصة لمراجعة نفسه ـ فانه حريص ايضا على منع اسـتعمال هذا الحق فيما يضر بالمرأة ، فحدد عدد الطلاق الذى يجوز فيه الرجعة بمرتين وهما كافيتان فى تبين ما اذا كان من الخير استدامة الزوجية او انهاؤها · انه العدل الذى يضع كل شىء فى موضعه ، بلا تملق او محاباة ·

والتعبير الكريم غاية لا تدرك فى مطابقته لمعناه ، ولو حاولنا التعـبير عن هذا المعنى بغيره لاعجزنا ذلك · ويلاحظ تعريف « الطلاق » ·· بـ « ال » العهدية للاشارة الى ارتباط الآية بما قبلها ، اذ المقصود الطلاق الرجعى الذى تقدم ذكره ، وكذلك التعبير بـ « مرتان » ليفيد تكرار الطلاق وعدم جمعه فى لفظ واحد ، اذ المعنى مرة بعد مرة · وهذا ما يتفق وحكمة المراجعة فى العدة ويقتضيه المقام ، اذ لو جمع الزوج طلاقه فى لفظ واحد لفاتت حكمة المراجعة التى شرعها الاسلام لتكون فرصة قد يتحقق بها استدامة الزوجية ، وبقـاء الاسرة ·

كما يلاحظ ما فى لفظ « بمعـروف » و « باحسان » من ايجاز جـامع فالمعروف يتضمن كل ما نص عليه الشرع وارتضاه العرف من حقوق للزوجية والاحسان ايضا جامع لكل ما يرفع الضرر عن الزوجة بالتطـليق مـن أداء الحقوق المترتبة عليه وعدم ذكر عيوبها ، او افشاء اسرارها ، الى آخر ما فيه اساءة اليهـا ·

ولفظ « امساك » و « تسريح » فيهما تصوير لمعنيهما ، فالمراد بالامساك مراجعة الزوجة ، والامساك يصور ذلك كأنه أمسك بها ، ومنعها أن تذهب عنه ، والمراد بالتسريح عدم مراجعتها وتركها حتى تنقضى عدتها وتبين منه ، والتسريح يصور ذلك كأنه أطلقها لتذهب حيث شاءت · وتصوير المعانى أقوى وأبلغ فى ابرازها وتثبيتها · كما يلاحظ التقابل بين « امسـاك بمعـروف » و « تسريح باحسان » لابراز ما بين الحالتين من تفاوت والتمييز بين الصورتين تمييزا يزيد المعنى وضوحا وجلاء ·

« ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا ان يخافا الا يقيمـا حدود الله ، فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهمـا فيمـا افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون » ·

ينهى الله تعالى الزوج عن أن يسترد شيئا عند الطلاق مما أعطاه لزوجته من مهر أو غيره · واستثنى من ذلك حالة واحدة ، وهى عندما يخاف الزوجان

ألا يقيما حدود الله ، بألا يقوم كل منهما بواجبات الزوجية ، وما تقتضيه من حسن المعاشرة ، فعند ذلك اباح للزوجة ان تفتدى نفسها ، واباح للزوج ان يأخذ ويطلقها . وهذه الصورة يطلق عليها الفقهاء ـ الخلع ـ .

ثم يعقب على ما سبق من احكام بالتحذير الشديد من مخالفتها ، ببيان انها حدود الله شرعها لتحقيق مصلحتكم ، فلا يجوز تجاوزها واهمالها ، ومن يتعدها فقد ظلم نفسه بتعريضها لانتقام الله وعذابه ، ولنتأمل النظم الكريم :

« **ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا** » المعنى « لا يحل لكم ان تأخذوا من النساء شيئا فى مقابل طلاقهن . والمراد بـ « **مما آتيتموهن** » المهور ، وليس المراد حرمة الاخذ من المهور وجواز الاخذ من غيرها « وانما خصها بالذكر للتنبيه على انه اذا لم يحل لهم ان يأخذوا مما آتوهن بمقابلة البضع عند خروجه عن ملكهم ، فلأن لا يحل أن يأخذوا مما لا تعلق له بالبضع أولى وأحرى » (١) .

ويلاحظ التنكير فى « شيئا » ودلالته على التقليل . اى لا يجوز اخذ شيء يسير فضلا عن الكثرة ، وذلك مبالغة فى حرمة الاخذ مطلقا . وتقديم الجار والمجرور « لكم » لافادة قصر الحرمة على الآخذ ، فقد تجبر المرأة على الدفع فلا اثم عليها .

هذا والخطاب هنا اما للحكام ، واسناد الأخذ والايتاء اليهم باعتبارهم الآمرين بهما ، وقيل للأزواج ، ويضعفه ان ما سيأتى من الضمائر لا يجوز اسناده الا الى الحكام .

« **الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله** » تلك هى الحالة المستثناة من حرمة الاخذ ، والتعبير بالخوف اما على حقيقته او بمعنى الظن ، فان الخوف مسبب عنه . فعبر بالمسبب عن السبب وسر ذلك هو الايماء بأن الظن المبيح للأخذ هو الظن القوى المؤدى الى الخوف لا مجرد الظن . والمراد بقوله « **الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله** » أن يخشى الزوجان ـ اذا استمرا فى الزواج ـ أن يقصرا فى حقوق الزوجية وألا يقوم كل منهما بواجبه نحو الآخر ، ويلاحظ ما فيه من تصوير للمعنى حيث جعل الالتزام بأحكام الله حدودا مادية لا يتجاوزها الزوجان وذلك يبرز المعنى ويثبته .

---

(١) تفسير ابى السعود جـ ١ ص ١٧٣ .

والاصل فى الخلع ان المرأة تفتدى نفسها من زوجها ، اذا كرهت الحياة معه لسبب يرجع الى مشاعرها هى ، دون اضرار منه ، يجب عليه الطلاق بسببه · وقد جعل الله الخلع سبيلا لها للتخلص مما تكره · وانما اسند الخوف اليهما لأنها اذا نشزت بسبب كراهيتها له خيف أن يعاملها الرجل بقسوة ، فلا يقيم حدود الله معها · وعلى هذا فنشوز المرأة كاف فى جواز اخذ الفداء (١) ·

« **فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به** » نص على رفع الحرج عن الزوجين فى الحالة المستثناة · فلا حرج على الزوج فى الاخذ ولا حرج على الزوجة فى الدفع ·

والخطاب فى « **خفتم** » للحكام وفى « **يقيما** » و « **عليهما** » للزوجين ويلاحظ عدم تحديد ما تفتدى به المرأة نفسها ، وان كان سياق الآية يدل على ان الاخذ يكون مما اعطى الرجال النساء ، فكأن المراد « **فلا جناح عليهما فيما افتدت به** » اى مما اتيتموهن · ومن هنا اجاز بعض الفقهاء ان تفتدى بما شاءت سواء أكان بعض المهر أو كله أو أكثر منه · لأنه عقد معاوضة لا يجوز ان يتقيد بمقدار معين ، ورأى آخرون انه يكون فى حدود ما أعطى الرجل من المهر ، التزاما بسياق الآية ولأن فى الزيادة على المهر غبنا للمرأة واجحافا بها ·

والتعبير بـ « **افتدت** » يوحى بما يحمل المرأة على الدفع ، كأنها تخلص نفسها وتفتديها مما هى فيه من حياة لا تطيقها · وهو تصوير للواقع ومن هنا كانت البلاغة فى التعبير به دون سواه ·

« **تلك حدود الله فلا تعتدوها** » الاشارة فى « تلك » لاحكام الطلاق السابقة ، ويلاحظ ما فى الجملة من خصائص مؤثرة ، فلام البعد توحى بتعظيم تلك الاحكام وعلو شأنها ، وذلك يناسب النهى عن تجاوزها تعظيما لها ، ثم اضافة الحدود الى لفظ الجلالة ، وذلك لتربية المهابة ، واثارة الروعة والخوف ثم ما فى التعبير من تصوير يجعل تلك الاحكام حدودا قائمة محسة يجب الوقوف عندها ، وعدم تجاوزها · والنفس انس بما يأتيها عن طريق الحواس ·

---

(١) انظر تفسير أيات الأحكام ص ١٤٦ ــ ١٤٧ ·

« **ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون** » وعيد شديد . وتهديد لمن يجترىء على حدود الله • واتباع النهى بالوعيد للمبالغة فى التهديد والتعبير باسم الموصول « من » للنص فى صلته على سبب استحقاقه للحكم عليه بما يليه • وذكر لفظ الجلالة لتربية المهابة زيادة فى الحمل على الطـاعة ، وتأكيد الجملة باسميتها ، وبضمير الفصل ، وتعريف الخبر بلام الجنس المفيدة لقصر الصفة ، وما فى التعبير من تصوير ، كل ذلك مبالغة فى الزجر والترهيب حملا على الطاعة وتعظيما للمخالفة •

« **فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، فان طلقها فلا جناح عليهمـا أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حـدود الله ، وتلك حـدود الله يبينها لقوم يعلمون** » •

لقد أعطى الزوجان الفرصة تلو الفرصة لاصلاح حياتهما ، وتدارك ما قد يكونان قد تورطا فيه من تسرع فى الطلاق • فاذا طلق الزوج للمرة الثالثة كان ذلك دليلا على فساد أصيل فى تلك العلاقة لا سبيل الى اصلاحه ، ومن الخير لكل منهما أن يبحث عن سعادته بعيدا عن الآخر ، فلا تحل الزوجـة للزوج بعد الطلاق الثالث الا اذا تزوجت رجلا آخر زواجا صحيحا باشرها فيه، ثم بدا له أن يطلقها هو الآخر ، فاذا طلقها جاز لزوجها الأول أن يتزوجها بعقد ومهر جديدين ان ظنا أن يقيما حدود الله •

والآية بعد بيان هذا تعقب عليه بما يدعو الى احترام الحكم والالتزام به وعدم تعديه •

« **فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره** » المعنى : ان طلقها الزوج للمرة الثالثة فلا تحل له بعد ذلك الى أن تتزوج رجـلا آخـر ويلاحظ التعبير بـ « ان » الخاصة بالدخـول على الأمر النادر الوقوع ، ايماء الى أن ذلك ما يجب أن يكون ، خاصة وقد سبق للزوج ان راجعها مرتين والمفروض أن مراجعتها كانت بعد تفكير ، انتهى به الى ترجيح امكان استمرار الحياة معها •

ولفظ « تنكح » يطلق على الزواج أو الوطء ، ولهذا اختلف فى النكاح المحلل هل هو مجرد العقد أو أنه لابد من الوطء • والراجح انه لابد من الوطء لأن اللفظ يحتمله ، وجاءت السنة واشترطت الوطء فيكون ذلك تعيينا للمراد •

« فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله »
المعنى : ان طلقها الزوج الجديد فلا مانع أن يتزوجها الزوج الأول بشرط أن يظنا أنهما سيقيمان حدود الله ويؤديان ما يوجبه الزواج من حقوق ، ويلاحظ التعبير بـ « ان » لما سبق بيانه ، والتعبير بـ « ظنا » دون « علما » لان الظن هو الممكن ، فعلم المستقبل لا اطلاع لأحد عليه الا الله ، ولهـذا كان الظن كافيا · ومما تجب ملاحظته أن النظم الكريم قد تضمن ما يمنع تفسير الظن بالعلم فقد استعمل « ان » وأدخلها على الظن ، و « أن » الناصبة للتوقع المنافى للعلم (١) ·

« **وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون** » مرة أخرى يؤكد أن هذه الأحكام حدود الله ، وذلك تنبيها على ضرورة الالتزام بها ، ويلاحظ التعبير باسم الجلالة بدل الضمير ، كما سبق لاثارة الخشية والخوف من تجاوزها · أما تخصيص الذين يعلمون بالذكر مع عموم الدعوة والتبليغ للجميع فلأنهم هم المستفيدون بالبيان ، المؤهلون للالتزام بها ، والتقيد بما فيها ·

« واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا ، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم » ·

الآية الكريمة تؤكد الأحكام السابقة بتكرير بعض التوجيهات للمطلقين بأن يكون شأنهم مع مطلقاتهم اما الامساك بالمعروف أو التسريح بالاحسان ثم تحشد ألوانا من المؤثرات ، تتوجه بها الى النفوس ، تستثير فيها موجبات الامتثال والطاعة والالتزام بحدود الله ، ليكون تنفيذها صادرا عن شعور صادق وضمير حى ، يراقب الله فى السر والعلن ، وذلك خير ضمان لنجاح أى تشريع ·

« واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » الخطاب للأزواج والمراد بقوله « **فبلغن أجلهن** » شارفن نهاية العدة فقد استعمل بلوغ الأجل فى مقاربة نهايته توسعا فيه · والداعى الى حمله

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٧٣ ·

على هذا المعنى المجازى هو قوله تعالى « **فأمسكوهن بمعروف** » لأنه اذا انتهت عدتها تماما فلا سبيل للزوج عليها ٠

ونلاحظ هنا استعمال « اذا » لأن الخطاب للزوج الذى طلق فعلا فالطلاق محقق فناسبه التعبير بـ « اذا » وتلك دقة فى اختيار اللفظ ليقع فى حاق المعنى ٠

هذا وقد سبق الحديث عن الامساك بمعروف ، والتسريح بمعروف ، ونزيد هنا أن التكرار لهذا التوجيه يدل على مزيد العناية بشأنه ، والمبالغة فى تأكيد وجوبه وضرورة المحافظة عليه ، وأسلوب التكرار من أهم وسائل تقرير المعانى وتثبيتها فى النفس ٠

« **ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا** » مرة أخرى يؤكد الأمر بالامساك بمعروف ، وذلك بالنهى عن ضده ، فقد كان بعضهم يطلق ويترك زوجته حتى اذا شارفت انقضاء الأجل يراجعها لا لرغبة فيها بل ليطيل عدتها اضرارا بها فنهوا عن ذلك ٠

« **ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه** » الاشارة فى « ذلك » لما ذكره فى الامساك المؤدى الى الظلم ، والتعبير الكريم يستجيش فى النفس معانى الخوف من عاقبة التجرؤ على هذا المنكر ، فالمعنى : من يمسك زوجته ضرارا فقد ظلم نفسه بتعريضها لعقاب الله ، على أننا يمكن أن نلمح فى التعبير معنى آخر ، ذلك أن من يرتكب هذا الفعل يظلم زوجته ، والقرآن يقول عنه « **فقد ظلم نفسه** » أليس فى هذا ايحاء بأن هذه الزوجة أختك فى الاسلام وبينكما من الوشائج والصلات ما يجعل ظلمك لها ظلما لنفسك ، وعلى هذا فالتعبير يستثير فى النفس المشاعر النبيلة التى تكفها عن الأذى ٠

ويلاحظ ما فى التعبير من تأكيد باسمية الجملة للاشعار بالاهتمام بالأمر وما فى اسم الاشارة من معنى البعد المدلول عليه باللام ، للاشارة الى بعد ذلك العمل فى الشر والفساد ٠ مبالغة فى التنفير منه ، وتلك كلها لمسات يضيفها النص الى المعنى وفاء بحق المقام ٠

« **ولا تتخذوا آيات الله هزوا** » تأكيد آخر لضرورة التنفيذ العملى لهذه الاحكام ، والتعبير الكريم يستثير فى نفس المؤمن شعور الحياء من الله اذ كيف يتفق الايمان مع الاستهزاء بآيات الله وأحكامه ؟ ٠٠

ويمكن أن يصور الاستهزاء بآيات الله بصورة أولئك الذين يستغلون الرخص التى شرعها الاسلام لحكم خاصة ، بأن يجردوها عند التنفيذ من حكمتها كالذى يستغل جواز الرجعة - خلال العدة التى شرعت لتكون مخرجا لمن يندم على الطلاق ويحس بخطئه فى الاقدام عليه ، ويعقد العزم على مواصلة الحياة مع زوجته بالمعروف يستغل ذلك فى الاضرار بالمرأة ومراجعتها لتطول عدتها ، فذلك أستهزاء بآيات الله ، لأنه لم يأخذ أحكامها مأخذ الجد وعمد الى التلاعب ·

والآية شاملة لكل آيات الله تحذر من عدم الجدية فى تنفيذها وتدخل فيها أحكام الطلاق دخولا أوليا ·

« **واذكروا نعمة الله عليكم** » لمسة وجدانية أخرى يستثير بها دوافع الطاعة فى النفس الانسانية ، فهو يأمرهم بتذكر نعمة الله عليهم ، ونعم الله غامرة متتابعة لا تحصى ، والذى تفضل عليهم بها هو مشرع تلك الأحكام ، ولا يليق بالمنعم عليه أن يخالف المتفضل بها ، فواجب شكر النعمة - وهو عميق فى كل نفس بشرية ولا ينكره سوى المنحرف الحقود - يقتضى طاعة المنعم والالتزام بأوامره ·

ويلاحظ التعبير بـ « اذكروا » فان مجرد التذكر لنعم الله موجب للطاعة ثم اضافة النعمة الى لفظ الجلالة لاستشعار المهابة لجنابه الجليل ، ثم قوله « عليكم » وما فيه من ايحاء يوجب الطاعة ، فكأن التعبير الكريم يقول لهم : انكم أنتم الذين تفضل الله عليهم بالنعمة ، وحين تؤدون الشكر عليها ، فانما تؤدون شكر نعمة خصكم الله بها دون غيركم ، فلا عجب أن تسارعوا الى أداء شكرها بطاعة أحكام الله والالتزام بتشريعه · وهذا أسلوب حكيم فى استمالة القلوب وتوطئتها للقبول ·

« **وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به** » المراد بـ « **ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة** » القرآن الكريم الجامع للوصفين فهو كتاب وهو حكمة · وافراد القرآن الكريم بالذكر مع أنه أعظم النعم التى يأمر بتذكرها اشارة الى سمو منزلته بين النعم ، ومبالغة فى الحث على الالتزام بما تضمنه من الأحكام · كما يلاحظ ما فى التعبير الكريم من البيان بعد الابهام حيث قال « **وما أنزل عليكم** » ثم بينه بقوله « **من الكتاب والحكمة** » وفى الابهام ثم التبيين زيادة تأكيد للمعنى حيث يستشرف السامع لبيان المبهم فاذا بين ثبت وتمكن من النفس ·

وقوله تعالى « **يعظكم به** » بيان لما فى القرآن من نعمة ، فهو لهدايتهم وارشادهم الى أسلم طريق ، فلا يصح مخالفته والنأى عن أحكامه ·

وتتوالى اللمسات المؤثرة :

« **واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم** » انه هنا يستثير شعور الخوف ويحذر ، بعد أن أثار شعور الحياء من الله وشكر نعمته · فيأمر بالتقوى ، وينذر من يجترىء على مخالفة أحكامه بأن الله مطلع عليه وسيلقى جزاء تمرده ·

ويلاحظ ما فى التعبير الكريم من ترابط بين الجملتين ، فالثانية توجب الأولى ، فالذى يعلم أن الله مطلع على عمله يحمله ذلك على تقواه وخوف عقابه ثم تكرار لفظ الجلالة والتعبير به بدل الضمير وما يوقعه فى النفس من خشية ثم التأكيد فى الجملة الثانية بأن واسمية الجملة ، ثم تقديم الجار والمجرور على متعلقه واختيار صيغة تفيد العموم المطلق لكل شيء ظهر أو بطن ، وكل هذه الخصائص تعطى الجملة مزيدا من التأكيد ، وألوانا من الايحاءات المؤثرة فى النفوس ·

وهكذا يحشد القرآن الكريم كل هذه المؤثرات ليصل الى النفس من جميع منافذ التأثير فيها ، ويمهد لتشريعه بما يصل به الى شغاف القلوب وحنايا الأفئدة ·

فاذا تذكرنا أن كل هذا الجهد موجه لقضية معاملة المرأة بالمعروف والاحسان فى حالتى المعاشرة أو الترك ، أدركنا حرص القرآن الكريم على كرامة المرأة واعلاء قدرها ، وصيانتها من كل ما يسىء اليها ، فليقرأ هذا النص الكريم أولئك المتملقون ، الذين يخدعونها ، ويوقعون فى وهمها اهدار الاسلام لحقوقها ، وهم ذئاب يريدونها فريسة ينهشون لحمها ويعودون بها الى عصور الفوضى والانطلاق من كل قيد ·

« **واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون** » ·

بينت الآية السابقة ما يتعلق بالمرأة فى فترة العدة ، قبل انقضائها · وهذه الآية تعالج ما كانت تتعرض له المرأة بعد انتهاء العدة من أضرار فقد كان أولياؤها يمنعونها من الزواج بمن ترغب منه ، وكان مطلقها أيضا يمنعها الزواج بعده عنجهية وتجبرا ، فنهت الآية الكريمة عن ذلك ، ثم اتبعت النهى بالمؤثرات التى تحمل على الاستجابة ·

« واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف » ·

المراد بالعضل : المنع من الزواج ، وأصله الحبس والتضييق ، والمراد بـ « **فبلغن أجلهن** » انتهاء العدة ، فالبلوغ هنا مستعمل فى حقيقته ، والمراد بالأزواج الذين يتقدمون لطلب الزواج منهن ، وعبر عنهم عنهم بالأزواج اما باعتبار ما كان اذا كان الخاطب هو الزوج السابق الذى طلق طلاقا رجعيا ، ولم يرد زوجتــه حتى انتهت العدة ، ثم بدا له أن يتزوجهــا بعقد جديد وسر التعبير عنهم بالأزواج هو الاشارة الى الرابطة الســابقة وفى ذلك ما يحبب الأولياء فى الموافقة على الزواج وعدم العضل · واما باعتبار ما سيكون اذا كان الخاطب غير الزوج الأول وسر التعبير عنهم بالأزواج هو الترغيب أيضا فى الموافقة على الزواج وعدم العضــل فهم يطلبون الزواج وهو حق المرأة فلا يصح حرمانها ·

والمعنى : أن الله تعــالى ينهى عن منع المــرأة عن الزواج اذا انتهت عدتها · وتقدم لها الكفء وتراضت المرأة والخاطب به ·

والخطاب فى الآية اما للأولياء ، لأنهم هم الذين كانوا يعضلون المرأة ويضيقون عليها ، « وأسند الطلاق اليهم لتسببهم فيه ، كما ينبىء عنه تصديهم للعضل » (١) · واما للأزواج حيث كانوا يعضلون مطلقاتهم ولا يدعونهن يتزوجن ظلما وتجبرا وحمية ، ولعل هذه العادة المرذولة مازالت لها بقيــة فيما نسمعه عن ملوك العصر من تحريم الزواج على مطلقاتهم وتلك أثارة من جاهلية يأباها الاسلام ·

واما للناس جميعا ، والمعنى : اذا وقع فيكم طلاق فلا يقع فيكم عضــل « وفيه تهويل لأمر العضل وتحذير منه ، وايذان بأن وقوع ذلك بين ظهرانيهم ـ وهم ساكتون عنه ـ بمنزلة صـــدوره عن الكل فى استتباع اللائمة وسراية الغائلة » (٢) ·

وفى اتساع النص الكريم لكل هذه التأويلات ما يجعله صالحا لمواجهة كل حالات العضل من أى جهة كانت ·

« ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر » ·

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٧٤ ·

(٢) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٧٥ ·

الاشارة فى « ذلك » لما سبق تفصيله من النهى عن عضل المطلقات ٠

والمعنى : ما ذكرته من النهى عن عضل النساء عظة لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ٠

وهــذا التعقيب على الحكم يثير فى النفس بواعث الطاعة ، بايقاظه لضمير المؤمن كى يكون سـلوكه موافقا لما يقتضـيه الايمان بالله وبالجزاء ، فالذى يؤمن بالله يسارع الى طاعته ليقينه بأن الله سبحانه لا يأمره الا بمـا فيه الخير ، وأن أمره واجب التنفيذ ، ليس له أن يعرض عنه ، أو يتردد فى قبوله ، والذى يؤمن باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء ويستشعر دائما أن أعماله محصاة عليه ، وأن عاقبته فى الآخرة تكون من جنس عمله تنبعث فى نفسه عوامل الاستجابة خوفا من العذاب وطمعا فى الرحمة ٠

هذا وكان مقتضى الظاهر أن يقول « ذلكم » لأنه يخاطب جماعة وانما قال « **ذلك يوعظ به** » لكثرة جرى ذلك على السـنة العرب فى كلامها ٠ حتى صارت الكاف كأنها حرف من حروف الكلمة « ويبقى الخطاب لجميع المكلفين اما باعتبـار كل واحـد منهم ، أو بتأويل الفريق والقبيل ، ويجوز أن يكون الخطاب للرسول ﷺ ، للدلالة على أن حقيقة المشار اليه أمر لا يكاد يعرفه كل واحد » (١) ٠

ويلاحظ ما فى الاشارة من معنى البعد المدلول عليه باللام للايماء الى تعظيم المشار اليه ، اهتماما به وبعثا على تنفيذه ٠

« **ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون** » والاشـــارة فى « ذلكم » لما سبق من الاتعاظ بأحكام الله وتنفيذها ٠ والتعبير الكريم يضيف الى ما سبق من بواعث الاستجابة بواعث أخرى ، وذلك ببيان قدر ما يدعون اليه وما فيه من خير لهم ، فهو أزكى وأطهر لكم من أدناس الآثام وأرجـاس الذنوب ، أو هو أفضل وأطيب ٠ ومن الذى لا يختار ما هو خير له وأطهر ؟ ثم يضيف باعثا جديدا بقوله « **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** » فان لمس القلب بأن الذى يختار له هذا الطريق هو الله الذى يعلم مالا يعلمه الناس من شأنه أن يسارع به الى الاستجابة كذلك فى رضا واطمئنان » (٢)

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٧٥ ٠

(٢) فى ظلال القرآن جـ ١ ص ٢٥٣ ٠

ويلاحظ ما فى النظم من معنى البعد فى اسم الاشـــارة ، للدلالة على علو شأنه ، وهو ما يناسب مقام الدعوة الى الطاعة ، وقوله « لكم » للنص على أن ما فى استجابتهم من خير هو لهم لا لغيرهم ، فالواجب الاقدام عليه لتحقيق منفعة أنفسهم ، وكذلك اختيار صيغة التفضيل فى « **أزكى** » و «**أطهر**» للمبالغة فى اثبات الصـــفة الباعثة على الطاعة ، وتأكيد جملة « **الله يعلم** » باختيار التعبير بالاسمية ، ثم بنفى العلم عنهم «**وأنتم لا تعلمون**» قطعا للتردد والزاما بالانقياد ٠

وهكذا تبدو البلاغة فى الدعوة الى هذه الأحكام بما أحيطت به من هذه اللمسات الوجدانية التى تهيىء القلوب لطاعتها ثم بما تضـــمنه النظم من خصائص وألوان بلاغية جاءت غاية فى رعاية حق الدعوة وعرضـــها فى صورة هى المثل الأعلى فى التأثير واستهواء النفوس وامتلاك أزمة القلوب ٠

* * *

الباب الثالث

خصائص الأسلوب القرآنى

- وســـائل التأثير فى أســـلوب الدعوة القرآنى .
- توافق الأســـلوب القرآنى مع موضـــوع الدعوة .

الفصل الأول

وسائل التأثير فى أسلوب الدعوة القرآنى

هدف الداعية الذى ينبغى أن يجعله نصب عينيه دائما : هو تغيير واقع لا يرضاه · وميدانه الذى يلقى فيه بكل أسلحته : هو النفس الانسانية باعتبارها نقطة البدء فى كل تغيير · ولن يصل بالنفس الانسانية الى الايمان بما يدعوها اليه الا اذا تعامل مع ملكاتها المتعددة وجوانبها المختلفة الوجدانية والعقلية والارادية ، فأرضاها كلها وجعل منها وحدة متكاملة فى تقبل الدعوة والايمان بها ·

ومن هنا كان الداعية فى حاجة الى ألوان متعددة من وسائل التأثير ليواجه النفس بما يرضى جوانبها تلك ، والبلاغة هى المورد العذب الذى يغترف منه الداعية ، فينتقى من ألوانها وفنونها ما يبلغ به ما يريد من نفس السامع ، فيصيب منه موضع الاقناع من العقل والوجدان من النفس ، ويستولى على كل جارحة فيه ويحرك همته ويشحذ عزيمته ليمضى نحو الهدف الذى يرجوه ·

والقرآن الكريم وهو المثل الأعلى فى التأثير - باعتباره أسلوب عرض للدعوة - تضمن فيضا من هذه الوسائل المستمدة من الألوان البلاغية بلغت فى نجاحها حدا جعل أعداء الدعوة لاهم لهم سوى أن يحولوا بين هذا القرآن والناس فيتواصوا بعدم سماعه ويحولوا بين المسلمين وتبليغه للناس·

ولا يمكن لباحث أن يدعى احاطته بكل ما تضمنه القرآن من خصائص بلاغية منحته هذه القدرة الفائقة فى التأثير والاستحواذ على النفوس ، فالقرآن معجز من أية ناحية أتيته ، ولكنها محاولة مهما كانت قيمتها وما ستسفر عنه من نتائج فانها ستترك الموضوع وبه من الجوانب الكثيرة ما يحتاج الى معاودة الدرس وبذل الجهد لاستلهام هذه المعجزة أسرارها · ومحاولة الكشف عن عجائبها · وبالله التوفيق ومنه العون ·

● أولا ـ التصوير فى الأسلوب القرآنى :

ـ قيمة الأسلوب التصويرى فى مجال التأثير :

سبق أن تحدثنا عن اثر الصورة الموحية التى تترك فى النفس انطباعا وجدانيا يمثل فيها دور الشرارة الأولى التى لا بد منها فى احداث الحركة والانفعال ٠ ونزيد هنا أن قيمة الأسلوب التصويرى تبدو جلية حينما نعبر عن معنى من المعانى بأسلوب تجريدى ثم نعرضه مرة أخرى فى أسلوب تصويرى « فاننا نجد أن المعنى فى الطريقة الأولى يخاطب الذهن والوعى ، ويصل اليهما مجردا من ظلاله الجميلة ، وفى الطريقة الثانية يخاطب الحس والوجدان ويصل الى النفس من منافذ شتى ، من الحواس بالتخيل ، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء ويكون الذهن منفذا واحدا من منافذه الكثيرة الى النفس لا منفذها الوحيد » (١)

هذا والتصوير القرآنى ألوان وفنون لكل منها أسراره البلاغية التى تستدعى التعبير فلنشر الى أهمها فيما يلى :

● التصوير بالكلمة المفردة :

ألفاظ القرآن الكريم كلها مختارة ومقدرة لتحتل مكانها فى الجملة بحيث لا يغنى فيه سواها ، ولتنهض بدورها فى تأدية المعنى على أكمل وجه وأتم بيان ٠ كاللبنة فى البناء ينتقيها المهندس من بين أخواتها لأنها أنسب لموضعها وأشد امتزاجا بجاراتها ، وأقدر على ابراز جمال البناء وأقوى على تماسكه وصلابته ٠

والقرآن الكريم لم يبتكر ألفاظا كانت مجهولة قبله « بل الجديد فى لغة القرآن انه فى كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له اشرف المواد ، وامسها رحما بالمعنى المراد ، واجمعها للشوارد ، واقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة فى موضعها الذى هو احق بها ، وهى احق به ، بحيث لا يجد المعنى فى لفظة الا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ فى معناه الا وطنه الأمين ، وقراره المكين (٢) ٠

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٩٦ ٠

(٢) النبأ العظيم ص ٩٢ ٠

وقد تشترك كلمتان او اكثر فى الدلالة على اصل المعنى اللغوى ، ولكن تكون احداها اقدر على ابراز المعنى وتوضيحه بما تمتاز به عن اخواتها من قدرة على التصوير واثارة الخيال ، ليشارك الذهن فى الاحساس به ٠ وبما تلقيه فى النفس من ايحاءات بمعناها او صورتها فى الخيال او جرسها الموسيقى ــ وتلك الايحاءات تثير فى النفس مشاعر يعمد البليغ الى اثارتها مستعينا باختياره للكلمات الموحية بها ، ليصل الى غرضه من تمكين المعنى ، والوصول الى النفس من جميع منافذ التأثير فيها ، ودفعها الى الاستجابة لما يدعوها اليه ، والرضا به والتحمس له ٠

ومن هنا تأتى قيمة الالفاظ المصورة ، وتتفاوت الاساليب بما فى الفاظها من قدرة عليه ٠

ويمكننا ان نقسم الالفاظ المصورة فى القرآن الى قسمين :

اولهما : الفاظ مصورة بذاتها ، قادرة على ابراز المعنى فى صورة ماثلة يتملاها الخيال ويدرك ابعادها ، ومن ثم تلقى فى النفس بايحاءاتها الخاصة ٠

وثانيهما : الفاظ تستعار من معناها الاصلى الحسى لتستعمل فى معنى ذهنى فتبرزه فى صورة حسية ليكون ذلك ابلغ فى ابراز المعنى ، وتثبيته فى النفس ٠

وسنقتصر هنا على النوع الأول مرجئين الحديث عن النوع الثانى حتى نأتى للحديث عن التصوير بالاستعارة ٠

قال تعالى : « **فتنادوا مصبحين ٠ ان اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين ٠ فانطلقوا وهم يتخافتون ٠ أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين** » (١) ٠

الآيات الكريمة جزء من قصة اصحاب الجنة التى ذكرها القرآن الكريم بيانا لعاقبة البخل ، ترهيبا منه وحثا على البذل ٠ ونقف عند الكلمات « **تنادوا** » و « **مصبحين** » و « **انطلقوا** » و « **يتخافتون** » فنجدها تصور حركة أصحاب الجنة وهم يتنادون مبكرين قبل ان يستيقظ الفقراء ، ثم وهم ينطلقون

---

(١) القلم : ٢١ ــ ٢٤ ٠

الى جنتهم لا يصرفهم شيء عما اعتزموه ، ثم وهم يبالغون من التكتم زيادة فى الحيطة ويتخافتون ويسرون بالكلام ، وهذا التصوير الذى قامت به الكلمات يثير الخيال ويجعله يتابع حركتهم ، ويستثير فى النفس حبها للاستطلاع ، ويستولى على مشاعر السامع فلا يستطيع التحول عن متابعتهم فيرى نهاية امرهم ، ومن ثم يستقر فى وجدانه الدرس القيم الذى سيقت القصة من اجله ·

وقال تعالى : « **عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا** » (١) ·

والنص الكريم وارد فى سياق الترغيب بذكر ما اعد للابرار المنفقين فى سبيل الله من نعيم الآخرة · ونقف عند الالفاظ « **عينا** » و « **يفجرونها** » و « **تفجيرا** » فهى الفاظ توحى بالوفرة والسعة وسهولة التناول · فهم يشربون من « عين » لا يفيض ماؤها ، ويفجرونها تفجيرا حسبما يرغبون ووقتما يشاءون · وقد اجتمع التصوير والجرس واختيار الصيغة فى هذه الكلمات كى توحى بما أوحت به ، زيادة فى الترغيب بالمبالغة فى المعنى ، اذ أن عيون المياه المتفجرة لها فى خيال العربى وسط هجير الصحراء القاحلة وقع خاص ، فهى اروع ما يبهره ويثير فى نفسه اعمق مشاعر الرضا والانشراح ·

وقال تعالى : « **يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا · ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا · انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا · انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا** » (٢)

والآيات الكريمة تبين سمات الابرار التى اهلتهم لما اعد لهم من نعيم ، وتصور عمق الشعور بخشية الله فى قلوبهم وفزعهم من هول عقابه ·

ونقف عند الكلمات « **مستطيرا** » و « **عبوسا** » و « **قمطريرا** » فقوله تعالى : « **مستطيرا** » يصور المعنى ، اذ يخيل الشر شيئا ماديا ينتشر ويمتد ليصيب كل من يقع فى دائرته · وتدل صيغته ايضا على المبالغة فى الانتشار والفشو وبهذا كان اللفظ ابلغ فى التعبير عن عمق احساسهم بالرهبة من عذاب الله · ويتضح هذا عندما نستبدله بغيره مما يؤدى معناه ·

أما قوله تعالى « **عبوسا** » فان بلاغته تأتى مما فيه من قدرة على التصوير اذ ابرز المعنى الذهنى وهو ما يكون فيه من شدة فى صورة تبعث الخوف وتنذر بالشر بالاضافة الى ما فيه من مبالغة حيث أسند العبوس الى اليوم

---

(١) الانسان : ٦ · (٢) الانسان : ٧ ـ ١٠ ·

على سبيل المجاز العقلى والمراد ان الوجود تعبس فيه لشدته وهوله ، فكأن العبوس قد جاوز الوجوه واصبح سمة لليوم نفسه ·

وقوله تعالى « **قمطريرا** » يصور بصيغته وجرسه مقدار خشية الابرار ورهبتهم من ذلك اليوم · وان خشيتهم تلك المتناهية هى الداعية لهم الى البذل والعطـاء ·

وقال تعالى : « **وما يغنى عنه ماله اذا تردى** » (١)

الآيـة الكريمة تأتى فى سـياق بيـان مصير من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ونقف عند قوله تعالى « **تردى** » فهو يصـور مصير هذا البخـيل ويجسمه ويبرزه شاخصا نكاد نراه فى سقوطه وترديه · بالاضافة الى ما يوحى به من الهوى والسقوط الى أسفل دركات العذاب · وهذا أقدر على التأثير والترهيب فى مقام يستدعى المبالغة فى النهى عن البخـل والتحذير منه ·

وقال تعالى : « **فأنذرتكم نارا تلظى · لا يصلاها الا الأشـقى · الـذى كذب وتولى · وسيجنبها الأتقى · الذى يؤتى ماله يتزكى** » (٢) ·

والآية الكريمة ترهب من البخل · ونقف عند الكلمات « **نارا** » و « **تلظى** » و « **الأشقى** » و « **تولى** » و « **سيجنبها** » ففيها مـن القـدرة على التصـوير ما يجعلها ابلغ فى الترهيب ، فالمنذر به « **نارا** » ومن ذا الذى لا يفزع مـن النار ويعمل ما يقى نفسه شرها · ثم هى نار « **تلظى** » اى تتسعر ويشـتد لهيبهـا ثم اختيار صيغة المضـارع للمبـالغة فى تأثير التصوير باستحضار المشهد كأنه واقع وقت التكلم ، وما يلقيه المشهد فى الحس من الفزع والخوف · ولو عبر بألفاظ أخرى لا تستطيع هذا التصوير مثل « عذابا شديدا » لما كان له مثل هذا الاثر المناسب للمقام ·

وقوله « **الأشقى** » الذى يجعل المستحق لهذا العذاب فى قمة الشقاء وتلك اضافة جديدة تزيد التعبير قدرة على الترهيب · ثم لنتأمل قوله « **تـولى** » الذى يصور المكذب فى عدم استجابته للدعوة وعناده كأنه يذهب بعيدا عـن الدعـوة مبالغة فى وصفه بالكفر الذى استحق به العذاب ·

---

(١) الليل : ١١ ·

(٢) الليل : ١٤ ـ ١٨ ·

أما قوله تعالى « **وسيجنبها الأتقى** » فانه يصور الأتقى قد أبعد عن مصدر الخطر ، فلم يكتف بالوعد بعدم تعذيبه بل أخبر بأنه سيكون بعيدا عن النار زيادة فى الاطمئنان وحثا على البعد عن أسباب الشقاء ٠

وهكذا يبدو اثر التصوير بالكلمات فى تقوية المعانى وزيادة تأثيرها فى النفوس تحقيقا لما يرمى اليه الداعية ترهيبا أو ترغيبا ٠

هذه نماذج للتصوير بالكلمات نكتفى بها .والبحث زاخر بأمثالها فليرجع اليه ٠

● التصوير بالتشبيه :

لا شك فى ان اسلوب التشبيه له قدر كبير فى فن البلاغة ، فان تعقيب المعانى به ــ كما يقول الخطيب القزوينى ــ ولا سيما قسم التمثيل منه ــ يضاعف قواها فى تحريك النفوس الى المقصود بها مدحا كان او ذما او افتخارا او غير ذلك (١) ٠

ويرجع جانب كبير من سر تأثير التشبيه الى ابرازه للمعانى فى صور قوية تقررها فى النفوس ، وتبرزها وتودعها التأثير المخصوص ، فاذا كان التشبيه قد سيق لتشبيه معنى عقلى بحسى فانه ينقل النفس مما تعلمه الى ماهى به اعلم ، اذ تشترك الحواس عندئذ فى ادراكه ، والنفس آنس لما يأتيها من طريق الحواس لانه ينقلها من الخفى الى الجلى ، وما اجمل تعبير عبد القاهر فى تعليقه على مثل هذا التشبيه بقوله « انه قد فتح الى مكان المعقول من قلبك بابا من العين » (٢) ٠

واذا كان التشبيه قد سيق لتشبيه حسى بحسى فانه قد قرن صورة قوية تبعث الحياة والقوة فى صورة اخرى بجوارها ٠

ولنستعرض بعض النماذج لتشبيهات القرآن المصورة :

قال تعالى : « **فما لهم عن التذكرة معرضين ٠ كأنهم حمر مستنفرة ٠ فرت من قسورة** » **(٣)** ٠

---

(١) الايضاح ص ١٥١ ــ ١٥٢ ٠ (٢) أسرار البلاغة ص ١٠٨ ٠

(٣) المدثر : ٤٩ ــ ٥١ ٠

النص الكريم جاء تعقيبا على ما سبقه من آيات تصور مصير المؤمنين والكافرين وقد استقر بكل منهما المقام فالمؤمنون فى جنات يطلون من عليائها على الكافرين فى سـقر ، يسألونهم عمـا جر عليهم كل هذا الهوان وسوء المصـير ٠

ثم يعقب القرآن على ذلك بهذا الاستفهام الانكارى عن سبب اعراضـهم الشديد عن الدعوة مع وجود كل دواعى الاستجابة ليقوا انفسـهم هذا المصير الذى ينتظرهم ٠ ولكن القرآن الكريم لا يعبر عن اعراضهم بهذا الاسـلوب التجريدى الذى لا يثير خيالا ولا يحرك فى النفس ما يربأ بها عن ان تضـع نفسها فى هذا الموضع المثير للسخرية والخجل ٠ فيرسم لهم هذه الصـورة الموحية بشتى المعانى علهم يرتدعون فيعودوا الى الحق قبل فوات الأوان ٠

فهو يصورهم فى نفورهم من الدعوة والاسراع فى ابعاد انفسـهم عنها اسراعا يمضون فيه على غير هدىً ، بالحمر المستنفرة التى تبالغ فى الهرب وتحث نفسـها عليه فرارا من أسد هصور يبغى اللحاق بها لافتراسها ٠ فكم توحى هذه الصورة بالعجب من امرهم والسخرية منهم ، ثم ما اعظم ما ابرزته هذه الصورة من احوالهم فهم فى فرارهم هذا من الدعوة لا يلجأون الى مأمن من الخطر بل يفرون على غير هدى ولا بصيرة ، ثم ابراز ما فى نفوسـهم من كراهيتهم العميقة للدعوة فى تلك الصورة البالغة التى تحملهم على المبالغـة فى البعد عنها وعدم الاستماع اليها فضلا عن تدبرها واذا كنا نركز هنا على اثر التصوير فى ابراز المعـانى فـان ذلك لا يمنعنا من الاشارة الى عوامل اخرى تضمنتها الصورة ضـاعفت ما بهـا من تأثير فاختيار لفظ « الحمر » وما يوحى به من دناءة وخسة مبالغة فى السخرية بهم ثم اختيار لفظ «قسورة» من بين أسماء الأسد لما يوحى به من القسر والعنف مبالغة فى سبب فرارهم وذلك اشارة الى قوة ما فى نفوسهم من مشاعر عدائية تحثهم على الفرار من الدعوة وهكذا يبرز التشبيه المعانى ويثبتها فى النفوس ويوحى بما يحقـق الهدف منه ويتضح هذا بجلاء اذا حاولنا أن نعبر عن هذا المعنى بأسـلوب غير اسلوب التشبيه كأن نقول مثلا : فمالهم يعرضون عن الدعوة كل هـذا الاعراض او هذا الاعراض الشديد ؟ ٠

وقال تعالى : « **ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم مـن الله شيئا ، وأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون ٠ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون** » (١) ٠

---

(١) آل عمران : ١١٦ ـ ١١٧ ٠

المعنى ان الكافرين لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ، ولن تنفعهم نفقة ينفقونها فى الدنيا ، ولن يصل اليهم شىء منها فى الآخرة ، حتى ولو أنفقوها فيما يظنونه خيرا ، لأنها ليست صادرة عن ايمان بالله ، والايمان هو أساس قبول الأعمال ·

ولكن القرآن لا يعبر عن هذا المعنى تعبيرا ذهنيا بل يعرضه فى مشهد حافل بالحركة والحياة · فهو يشبه « ما انفقوا فى ضياعه وذهابه بالكلية من غير ان يعود اليهم نفع ما ، بحرث كفار ضربته ريح باردة فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما بوجه من الوجوه » (١) ·

والصورة كما نرى قد احالت المعنى الى مشهد ترى العين فيه الزرع قد تهيأ للاثمار ثم اذا العاصفة تهب ، وتكاد تسمع الاذن صرير الريح وشدته ، ثم اذا الزرع اثرا بعد عين بعد ان اهلكته تلك العاصفة العاتية ·

فأى انطباع بالضياع وسوء العاقبة تلقيه هذه الصورة فى النفس فيهزها هزا ويحملها على مراجعة نفسها قبل فوات الاوان ·

وقال تعالى : « **وان الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم** » (٢) ·

المراد ان ما ادعوكم اليه من الوحدانية هو الدين الحق · ولكن القرآن يعرض هذا المعنى الذهنى فى اسلوب تصويرى اذ يشبه عقيدة التوحيد بالصراط المستقيم الذى لا يضل سالكه بل يقوده راشدا الى غايته التى يرجوها فقد صور المعنى كما نرى فى صورة حسية ملموسة لزيادة تقريره وتمكينه فى النفس بالاضافة الى ما يلقيه التصوير فى النفس من الثقة والاطمئنان كى يقبل راضيا على الايمان ·

● التصوير بالاستعارة :

الاستعارة وسيلة فنية يلجأ اليها الاديب ليجعل القارىء يحس بالمعنى اكمل احساس واوفاه « فهى تصور المنظر للعين ، وتنقل الصوت الى الاذن ، وتجعل الأمر المعنوى ملموسا محسا » (٣) ·

---

(١) أنظر تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٢٦٤ ·

(٢) مريم : ٣٦ ·   (٣) من بلاغة القرآن ص ٢١٧ ·

ومن هنا كانت قيمتها فى التأثير ، فلا تحسن الاستعارة اذا لم يكن اللفظ المستعار أقوى من اللفظ الحقيقى بايحائه الملامس للوجدان وتصويره للمعنى المثير للخيال · وسواء اكانت الاستعارة لكلمة مفردة ام لهيئة مركبة فانها قادرة على القيام بهذا الدور فى التأثير · وان كان للاستعارة التمثيلية فضل فى ذلك نظرا لطبيعتها التى تهبها هذه القدرة ·

وسنورد نماذج لكلا النوعين مشيرين الى اثر كل فى تمكين المعنى فى نفس السامع وتأثيرها فيه ·

● **الاستعارة للمفرد :**

قال تعالى : « **والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم ، كتاب الله عليكم ، وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة،ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، ان الله كان عليما حكيما · ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات** » (١)·

قوله تعالى « **والمحصنات من النساء** » معطوف على المحرمات فى النكاح فى قوله « **حرمت عليكم أمهاتكم** » فى صدر الآية السابقة ·

والمراد بالمحصنات ذوات الأزواج ، وعبر عنهن بالمحصنات لانهن احصن بالتزوج او بالازواج عن الوقوع فى الحرام · واستعارة المحصنات ابلغ فى تأدية المعنى لانه يصورهن وقد احطن بحصن يحتمين به · وهذا اقوى فى ابراز المعنى وتثبيته فى النفس ، ولانه يوحى ايضا بالحماية والامن · كأن الزواج حصن يحميهن من ارتكاب المحرم ·

وقوله تعالى « **محصنين غير مسافحين** » فالمراد بـ « **محصنين** » اعفاء وبقوله « **مسافحين** » زناة ، والتعبير بالاحصان عن العفة ابلغ لانه يصور المعنى بالاضافة الى ما يوحى به من ترغيب فى الزواج اذ به تتحقق العفة فتكون كالحصن للمتزوج ·

---

(١) النساء : ٢٤ ـ ٢٥ ·

كما ان التعبير عن الزنا بالسفاح ابلغ ايضا لما فيه من تصوير للمعنى لانه مأخوذ من سفح الماء اذا صبه كما يوحى ايضا بالضياع والعبث وفى ذلك تنفير منه ·

أما قوله تعالى « **ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات** » فان المراد بالمحصنات هنا الحرائر بدليل مقابلتهن بالاماء واستعير لفظ المحصنات للحرائر لان الحرية تحصنهن وتحميهن من الامتهان والانحدار الى مالا يليق· فان الحرة لها من حريتها ومن الاعتبارات الادبية التى تتمتع بها ما يحميها من الانزلاق والتردى فى الرذيلة ، والاستعارة ابلغ حيث صور المعنى الذهنى فى صورة محسة وفى ذلك ابراز له وتثبيت فى النفس ثم لما يوحى به هذا التصوير من ترغيب فى التزوج بالحرائر وعدم اللجوء الى التزوج من الاماء الا تحت وطأة الضرورة الملحة · وهذا هو ما ترمى اليه الآية الكريمة · فالتعبير بأسلوب الاستعارة هنا هو ما يقتضيه المقام ·

وقال تعالى : « **وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا** » (١) ·

الآية الكريمة تعدد جرائم اليهود التى استوجبت طردهم من رحمة الله والمراد بقوله تعالى « **قلوبنا غلف** » انهم يدعون ان قلوبهم محجوبة عن قبول ما جاء به الرسول عليه السلام بموانع جبلية كانها غلف أغلف مستعار من الاغلف الذى لم يختتن · والاستعارة ابلغ لتصويرها للمعنى الذهنى وابرازه فى صورة حسية تأكيدا لزعمهم وكأن عدم قبولهم للحق هو نتيجة لكونها فى تلك الأكنة التى يحول بينها وبين وصول الدعوة اليها ·

وقوله تعالى « **بل طبع الله عليها بكفرهم** » رد عليهم والمراد أن عدم وصول الحق الى قلوبهم ليس لكونها غلفا بحسب الجبلة بل الامر بالعكس « حيث خذلها الله ومنعها الالطاف بسبب كفرهم فصارت كالمطبوع عليها » (٢)· مأخوذ من طبع الكتاب فالاستعارة هنا تصور المعنى الذهنى فى صورة حسية ملموسة · ابرازا له وتأكيدا ·

---

(١) النساء : ١٥٥ ·

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥٧٨ ·

● الاستعارة على سبيل التمثيل :

قال تعالى : « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** » (١) ٠

فى الآية الكريمة استعارتان تمثيليتان ، ففى قوله تعالى « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك** » نهى عن البخل بأسلوب الاستعارة « اذ شبه حالة البخيل الممتنع عن الانفاق بحالة المغلول الذى جمعت يده وعنقه فى غل فلا يستطيع ان يمد يده الى شىء » (٢) وواضح ما فى الاستعارة من تصوير للمعنى فى صورة منفردة هى أبلغ فى النهى عن الشح من النهى عنه بالاسلوب التقريرى المباشر ٠

وفى قوله تعالى « **ولا تبسطها كل البسط** » نهى ايضا عن الاسراف والتبذير فقد شبه حالة المسرف الذى ينفق كل ما فى يده بحالة من يبسط يده كل البسط فلا تمسك شيئا ، والاستعارة ابلغ لتصويرها للمعنى وابرازه ولما توحى به من عدم الحكمة وتقدير الامور ٠ فان الذى يبعثر ماله يمينا وشمالا دون مراعاة لما فيه مصلحته مآله الى الندم والحسرة ٠ وفى هذا بجانب النهى عن الاسراف تنفير منه ٠

وقال تعالى : « **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** » (٣) ٠

ففى الآية الكريمة استعارتان ، الاولى فى قوله تعالى « **واعتصموا بحبل الله** » وذلك بتشبيه الحالة الحاصلة من استظهارهم بكتاب الله ووثوقهم بحمايته بالحالة الحاصلة من تمسك المتدلى من مكان عال بحبل وثيق مأمون الانقطاع ، وذلك من غير اعتبار مجاز فى المفردات (٤) والاستعارة أبلغ لابرازها المعنى فى هذه الصورة التى توحى بالامن والثقة ٠

أما الاستعارة الثانية ففى قوله تعالى « **وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** » فالمعنى : لقد كنتم مشرفين على الوقوع فى النار لسوء اعمالكم

---

(١) الاسراء : ٢٩ ٠

(٢) نظرات فى البيان ص ٢١٤ ٠

(٣) آل عمران : ١٠٣ ٠

(٤) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٢٥٨ ٠

اذ لو ادرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها · فقد شبه المشفى على دخول النار لسوء عمله ، بالمشفى على الوقوع فيها لزلة قدمه · وانها لصورة تملأ النفوس هلعا عندما تتصور انسانا يقف على حافة هاوية من نار تكاد قدمه ان تزل فيسقط فيها وتكون نهايته الرهيبة · وتلك وظيفة الاستعارة التى تبوئها مكانتها السامية فى البلاغة ·

● التصوير بالكناية :

لاسلوب الكناية ايضا دوره فى التصوير ، وقدرته على ابراز المعانى وادائها خير أداء بالاضافة الى مافيه من تأكيد لها ، اذ كل كناية تتضمن الحكم مصحوبا بدليله ، وذلك ابلغ فى تأدية المعنى وتثبيته فى النفس ، وهذه بعض الامثلة التى تؤكد ذلك ·

قال تعالى : « **ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له** كن **فيكون** » (١) ·

فالمراد بقوله تعالى « **كن فيكون** » تصوير نفاذ ارادة الله تعالى ومضى حكمه ، فلم يكن هناك قول وانما هو تصوير للمعنى كناية عن يسر نفاذ الارادة ونفى ان يكون هناك ما يعوق تحققها ، وهذا ابلغ من التعبير بالاسلوب الحقيقى لما فيه من تصوير ولما تتضمنه الكناية من الحكم ودليله ·

وقال تعالى : « **قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم اك بغيا** (٢) ·

ففى قوله تعالى « **ولم يمسسنى بشر** » كناية عن النكاح الحلال · فان مريم عليها السلام تتعجب مما اخبرها به الملك من أنه سيهبها غلاما · فتنفى وسائل وجود المولد ، فهى ليست بذات زوج فينكحها ، وليست فاجرة تبتغى الرجال · وواضح ما فى الكناية من تصوير للمعنى بالاضافة الى سموها اللائق بأدب القرآن الكريم فقد كنى عما لا يجب التصريح به ·

وقال تعالى:«**فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان**» (٣)

---

(١) آل عمران : ٥٩ ·

(٢) مريم : ٢٠ ·

(٣) الرحمن : ٥٦ ·

« ففى قصر الطرف تصوير للمظهر المحسن لخلة العفة ، ولو انه استخدم لفظ عفيفات ما كان فى الآية هذا التصوير المؤثر ، ولا رسم اولئك السيدات فى تلك الهيئة الراضية القانعة ، التى لا يطمحن فيها الى غير ازواجهن ولا يفكرن فى غيرهم » (١) ٠

وقال تعالى : « **فكلى واشربى وقرى عينا** » (٢) ٠

فقد كنى عن طيب النفس ورضاها وكشف ما يحزنها بقوله «**قرى عينا**» فاشتقاقه فى الاصل اما من القرار فان العين اذا رأت ما يسر النفس سكنت اليه من النظر الى غيره ٠ أو من القر ، وهو البرد ، فان دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة فاستعمل كناية عن طيب النفس من اطلاق الملزوم وارادة اللازم وواضح ما فيها من تصوير مؤثر فى النفس لانه ابرز المعنى الذهنى فى صورة محسة ملموسة ٠

● التصوير بالمجاز العقلى :

لاسلوب المجاز العقلى قدرة على التصوير بالتخييل الذى يشخص المواد الجامدة والظواهر الطبعية والمعانى فيخلع عليها الحياة الانسانية فاذا بها تحس وتعقل وتتألم وتنفعل ٠ ومن هنا يأخذ هذا الاسلوب اهميته فى التأثير شأن غيره من الاساليب المصورة التى نتحدث عنها ٠

ولنقرأ قوله تعالى : « **ويخافون يوما كان شره مستطيرا** » (٣)

فيعدى الخوف الى اليوم ويخيل لنا اليوم نفسه كأنه شخص مخوف ٠

ولنقرأ قوله تعالى« **ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة** » (٤)

فيختار صيغة اسم الفاعل فى قوله « مبينة » ليشخص الفاحشة كأنها انسان يفصح ويبين مبالغة فى وضوح قبحها فهى تبين عنه وتنادى به ٠

---

(١) من بلاغة القرآن ص ٢٢٧ ٠ (٢) مريم : ٢٦ ٠

(٣) الانسان : ٧ ٠ (٤) النساء : ١٩ ٠

وقال تعالى : « **وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم** » (١) ٠

فقد اسند الاخراج الى القرية على سبيل المجاز العقلى ، لان القرية لا يتأتى منها اخراج ، وانما يتأتى من اهلها ٠ ولكن اسند الاخراج الى القرية لتصويرها بصورة الفاعل وذلك مبالغة فى تصوير شناعة الجرم الذى ارتكبه المشركون فى اخراج الرسول عليه السلام من مكة كأن القرية ذاتها اخرجته ٠ فهى بكل ما فيها ومن فيها مسئولة عن هذه الجريمة مستحقة للعقاب عليها ٠ وذلك آكد للمعنى ، وأنسب للمقام ٠

وامثلة هذا الاسلوب كثيرة فى القرآن الكريم وهى اوضح من ان يشار اليها ٠

● التصوير بضرب المثل :

يطلق المثل ويراد به : « القول السائر الذى يمثل مضربه بمورده ، وحيث لم يكن ذلك الا قولا بديعا فيه غرابة صيرته جديرا بالتسيير فى البلاد وخليقا بالقبول استعير لكل حال او صفة او قصة لها شأن عجيب ، وخطر غريب من غير أن يلاحظ بينها وبين شىء آخر تشبيه » (٢) ٠

ويطلق بالمعنى الاول على الاستعارة التمثيلية التى اشتهرت وصارت مثلا وهى كثيرة فى القرآن الكريم ٠ ومن المعنى الثانى قوله تعالى « **ولله المثل الأعلى** » (٣) أى الوصف الذى له شأن عظيم وخطر جليل ، وقوله : « **مثل الجنة التى وعد المتقون** » (٤) أى قصتها العجيبة الشأن ٠

هذا وأسلوب المثل له خطره بين فنون القول وقدرته على التأثير التى يستمدها من خصائصه المميزة :

---

(١) محمد : ١٣ ٠

(٢) تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٤٠ ٠

(٣) النحل : ٦٠ ٠

(٤) الرعد : ٣٥ ، محمد : ١٥ ٠

وأولها : ما يعبر عنه السيوطى فى الاتقان بقوله : « ضرب الامثال يستفاد منه امور كثيرة ، ومنها تقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس ، فان الامثال تصور المعانى بصورة الاشخاص لانها اثبت فى الاذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلى والغائب بالمشاهد » (١) .

ويقول عنه صاحب الكشاف : « ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفى فى ابراز خبيئات المعانى ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى يريك المتخيل فى صورة المحقق والمتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ، وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبى » (٢) .

وثانيها : ان للامثال قدرة على الاستحواذ على المشاعر ، وايقاظ النفوس ، وتجديد نشاطها ، فالانسان يميل بطبيعته الى الاستشهاد بالامثال لما يرى فيها من جمال حكمتها ورشاقة لفظها ، واصابتها المعنى ، وطرافتها التى تتجدد ولا تبلى ، مما نرى اثره فى وجوه السامعين لها واقبالهم عليها وتسليمهم بحكمها .

وثالثها : ان الامثال وسيلة من وسائل الاقناع فان المورد للمثل انما هو فى الحقيقة يقيس الامر الذى يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبه ومسلم لديه . ومن ثم لزم التسوية بينهما فى الحكم وتحقق الالزام به .

تلك اهم عوامل التأثير فى اسلوب ضرب المثل ، ولنورد بعض النماذج لها .

يريد القرآن الكريم أن يبين للمشركين تفاهة ما يعبدونه من دون الله وعجزهم المزرى فلا يعبر عن ذلك بوصفهم بالعجز والتفاهة بل يصوره فى هذا المثل المؤثر :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » (٣) .

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١٣١ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٩٥ .　　　(٣) الحج : ٧٣ .

وأى عجــز أبلغ من عجــز من يرغمونهم آلهة عن خلق أتفه المخلوقات واحقرها وهو الذباب ولو اجتمعوا وتعاونوا فى ذلك ، بـل من عجـزهم عما هو أيسر من الخلق وهو استنقاذ ما يسلبه منهم ذلك المخلوق الضعيف • ابعد هذا دليل على الجهـل والضلال ؟ وهـكذا يتركهم القرآن الكريم هم وآلهتهم سخرية الساخرين وحديث المتندرين •

ويريد القرآن الكريم أن يبين عاقبة المؤمنين والكافرين ومصير القرين بنعم الله المؤدين لحقها وأولئك الجاحدين لأفضاله المتعالين بما فى أيديهم من أموال فلا يذكر ذلك بأسلوب تجريدى ذهنى بل يصوره فى هذا المثل الرائع :

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا • كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شـــيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا • وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا • ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هـذه أبدا • وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا • قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا • لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا • ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ، ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا • فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا • أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا • وأحيط بثمره فأصـــبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا • ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا • هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا » (١) •

وهكذا يعرض علينا المعانى فى هذا التصوير المعجز المؤثر الذى يؤديه المثل ، فيصل به الى أعماق النفوس ويمزجه بحنايا القلوب ، ويستهوى به الوجدان فيستسلم الانسان لما يتضمنه من ايحاء وما يسوقه من عبر ودروس•

والقرآن الكريم زاخر بأسلوب ضرب المثل لما سبق من قدرته على التأثير وهو عدة الداعية فى الوصول الى القلوب وتغيير النفوس •

---

(١) الكهف : ٣٢ ـ ٤٤ •

● **التصوير برسم المشاهد :**

أفردنا هذا اللون بعنوان خاص وان كان كل ما سبق من الأساليب المصورة داخلا فى اطاره ، لأننا نقصد لونا معينا من ألوان التصوير ، ونعنى به ذلك الذى يعرض المعانى فى مشاهد توحى بها ، بل تعبر عنها ، دون أن يستخدم أسلوبا ما من الأساليب المصورة المعروفة فى البلاغة من تشبيه واستعارة وغيرهما ، بل يعمد الى المعنى المراد الذى يمكن أن يعبر عنه بأسلوب تجريدى ، فيعرضه فى مشهد حى ماثل للخيال ، ويضمنه كل ألوان التأثير من تجسيم تكاد تراه العيون حركات وأصوات وحوار تشترك كل الحواس فى متابعتها · ولنعرض لذلك بعض الأمثلة :

يريد القرآن الكريم أن يحدثنا عن قدرة الله البالغة ويلقى فى قلوبنا مهابة هذا الاله القادر المستحق للعبادة دون غيره ، فلا يعبر عن ذلك بأوصاف تجريدية ذهنية بل يصوره فى مشاهد تتابعها كل وسائل الادراك فى الانسان فيقول جل شأنه :

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون· ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون · وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون · وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون · وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون · وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون · وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون · أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون » (١) ·

ويريد القرآن الكريم أن يتحدث عن علم الله المحيط بكل شىء فلا يعبر عن ذلك بأسلوب عقلى بل يعرضه فى هذا المشهد المبدع ·

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » (٢) ·

---

(١) النحل : ١٠ ـ ١٧ ·　　(٢) الأنعام : ٥٩ ·

فيصور لنا علمه سبحانه المحيط بكل هذه الدقائق ويترك للخيال أن يتتبع هذه الجزئيات التى لا يستقصيها خيال فتمتلىء نفوسنا اكبارا لصفاته سبحانه وتتملكها هيبته وجلاله ٠

وهكذا تبدو قدرة الله البالغة وعلمه المحيط بكل شيء فى هذه المشاهد المتتابعة ، ويظل الخيال يتابعها ، يحلق بين مظاهر الطبيعة ويجوب أقطار الأرض والسموات ، والحواس تتأملها كأنها حاضرة مشاهدة ، فيستقر فى القلب معنى قدرته سبحانه وتمتلىء النفوس مهابة وتستشعر عظمة هذا الخالق العظيم ٠

ولنستمتع بنص آخر يصور نعيم الأبرار فى الآخرة ٠ قال تعالى :

« ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ٠ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ٠ يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ٠ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ٠ انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ٠ انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ٠ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ٠ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ٠ متكئين فيها على الأرائك ، لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ٠ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ٠ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ٠ قواريرا من فضة قدروها تقديرا ٠ ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ٠ عينا فيها تسمى سلسبيلا ٠ ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ٠ واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ٠ عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ٠ ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » (١)

فنشم رائحة الجنة ونستروح نسماتها ونرى مباهجها ٠

وهذا كثير فى القرآن الكريم ، وبالبحث تحليل لنماذج أخرى يمكن الرجوع اليها ٠



---

(١) الانسان : ٥ ــ ٢٢ ٠

الأســلوب القصصى

آثرنا أن يكون حديثنا عن الأســلوب القصصى فى نهاية الحديث عن الأساليب المصورة فى القرآن الكريم ، لا لأنه يأتى فى نهايتها من حيث التأثير ولكنه لأنه يستمد تأثيره المميز من روافد عدة تتجمع فى هذا الأسلوب فتمنحه قدرة على التأثير القادر على استهواء القلوب والامســاك بمقاليد النفس البشرية يقودها فتنقــاد ويوحى اليها فتســتجيب ويلقنها فتتقبل فى رضــا وابتهاج ٠

فهو مؤثر بتصويره للحوادث والمشاهد ، ورسمه للشخصيات وملامحها وأعمق خلجاتها النفسية ، ومؤثر باتكائه على غريزة حب الاســتطلاع فى النفس البشرية ، حين يستحوذ على مشاعر القارىء ، فلا يدعه يلتقط أنفاسه أو يفتر اهتمامه قبل أن يصل به الى نهاية القصة ، ويستوعب الدرس الذى توحى به ، وهو مؤثر بقدرته على الاثارة والتشويق بما يتخلله من مفاجآت تكون كالهزات العنيفة التى تثير الانتباه ، وتذكى الشوق الى متابعة القصة ، وهو مؤثر باستعانته بالخيال حين يترك فجوات فى ســياق الأحداث ، تاركا للخيال أن يستكملها بتصوره ، ليجعل من الأحداث بنية متلاحمة متصلة ، ثم هو مؤثر بما يبثه فى تضاعيف عرضه المصور من عظات وتوجيهات دينيــة بطريقة لا تشعر القارىء بأنها دخيلة على السياق القصصى للقرآن « اذ أنها تحمل الروح التركيبية الرائعة التى تشمل ما قبلها وما بعدها من الآيات» (١)

ولنمض فى تفصيل ذلك مع ذكر شواهد له :

● **التصوير فى الاسلوب القصصى :**

اذا كان التصوير هو الأداة المفضلة فى عرض القرآن الكريم لقضــاياه فى مختلف الأساليب فان التصوير فى الأسلوب القصصى يأتى فى صورة هى أتم وأوفى ، ذلك لأن التناسب بين التصــوير وطبيعة القصة أقوى وأكمل ، فالقصة بطبيعتها أحداث تروى مواقف شارك فى صنعها آدميون عاشـــوا حياتهم الانســانية كاملة بما فيها من خير وشر ، وصراع وتوافق ، فأحبوا وكرهــوا ، وبنــوا وهــدموا وتقــاتلوا وتصــالحوا ، وحــزنوا

---

(١) البيان القرآنى ص ٢٠٦ ٠

وفرحوا وبغوا وعدلوا ، وقسوا ورحموا ، واستعلوا على شهواتهم وانقادوا لها ، كل ذلك يجد في التصوير أداته القادرة على ابرازه في مشاهد ولوحات ، فاذا القصة حادث يقع ، ومشهد يجرى ، وصراع يتملاه الخيال . وتراه العيون ، وتسمعه الأذان ، والنفس تتلقى كل ذلك فيترسب في أعماقها فيض من الانطباعات التى تؤثر في سلوكها وتحدد اختيارها ٠

والقرآن في قصصه لا يعمد الى كل ذلك الحشد من الحوادث والمواقف فيصورد في تتابع ليأتى عليه كله ، بل ان القصص القرآنى مرتبط بالغرض الدينى فهو يسوق القصة فى مقام يقتضيها ، ولهدف محدد يرمى اليه ، ومن ثم يختار من الحوادث والمواقف ما يحتاجه المقام ويصيب به الهدف المقصود٠ ولهذا نرى القصة الواحدة تكرر مرات عديدة فى مقامات مختلفة ، ويختار منها فى كل مقام ما يناسب الغرض المذكورة من أجله ٠ وربما كان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو قصة يوسف عليه السلام ٠ اذ ذكرت تامة كاملة مرة واحدة ٠

ولنأخذ ـ للتصوير القرآنى للمشاهد والمواقف ، وما يلابسها من نزعات وعواطف ـ مثالا من قصة مريم عليها السلام فى السورة المسماة باسمها ٠

والغرض الذى سيقت له القصة هو بيان الحق فى شأن عيسى عليه السلام وولادته من غير أب ، ونفى ما نسجه النصارى حوله من دعاوى زائفة ، رتبوا عليها ادعاء ألوهيته ، أو انه ابن الاله الى آخر ما قالوه ٠ وقد اختار القرآن الكريم فى هذا المقام من المشاهد ما يفى بهذا الغرض . معقبا عليه بتقرير الهدف من القصة فى قوله تعالى :

« ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذى فيه يمترون ٠ ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه ، اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ٠ وان الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم » (١) ٠

أما المشاهد التى اختارها القرآن الكريم فهى مرتبة على النحو التالى : تبدأ بمشهد يمثل مريم بعد أن بلغت مبلغ النساء ، وقد انتحت مكانا بعيدا واتخذت حجابا يسترها عن أعين الناس لشأن من شئونها ، يقتضى ألا يراها أحد ، ويفاجئها الملك وهى فى خلوتها فينتابها الفزع ويدور بينهما حوار ينتهى باستسلامها لأمر الله ويحدث الحمل ٠

---

(١) مريم : ٣٤ ـ ٣٦ ٠

« واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا • فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا • قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا • قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا • قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا • قال كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا » (١) •

المشهد الثانى : يصورها وقد حملت بابنها ، وخافت أن يطلع أهلها على ما بها ، فآثرت البعد عنهم ورحلت الى مكان بعيد ، وهناك تعانى آلاما لا قبل لها بها ، فهى تعلم أنها تؤدى دورا اصطفاها الله له ولكنها تدرك كذلك أن أحدا لن يصدقها فيما ستذكره من تفسير لحملها بهذا الوليد بلا أب ، ثم تجتمع عليها الآلام الجسدية والنفسية عند الوضع فتكاد مقاومتها تنهار ، وتتمنى لو ماتت قبل أن تتعرض لكل ذلك ، ولكن الرحمن يفرج عنها ذلك كله فى لحظة ويبرىء جراحها وترى من الآيات ما يملؤها ثقة به تستهين معها بكل شىء •

« فحملته فانتبذت به مكانا قصيا • فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا • فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا • وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا • فكلى واشربى وقرى عينا ، فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا » (٢) •

المشهد الثالث : يمثلها وقد عادت تحمل ابنها الى قومها ، فيواجهونها بما هو متوقع منهم ، بالتأنيب والسخرية ، ويقفونها موقف المسئول عن جريمة ارتكبتها ، ولكن المعجزة الالهية تنهى الموقف كله ، وينطق الله الوليد ليخبر القوم بالحقيقة •

« فأتت به قومها تحمله ، قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا • يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا • فأشارت اليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا • قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا • وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا • وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا • والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » (٣) •

---

(١) مريم : ١٦ ـ ٢١ •

(٢) مريم : ٢٢ ـ ٢٦ •

(٣) مريم : ٢٧ ـ ٣٣ •

وتنتهى المشاهد عند هذا الحد ، فقد استوفى الغرض المسوقة له القصة ما يحتاجه من بيان ، ولم يبق الا أن يعقب القرآن عليها بما يبلور مغزاها ويقرر ما دلت عليه ٠

والمشاهد كما نرى تنقلنا الى مسرح الأحداث وتعرضها علينا بعد أن منحتها الحياة ، وجعلتها تجرى تحت أبصارنا وبصائرنا ٠

ولنلق نظرة على قدرة النص على تصوير المشاعر التى صاحبت هذه الأحداث ، وجعلتنا نشارك أصحابها انفعالهم ونتجاوب معهم ٠

فها هى ذى مريم ـ تلك الفتاة العذراء الطاهرة ـ تريد الخلوة فتحطاط ألا يراها انسان ، وتتخذ الحجاب ، ولكنها تفاجأ بشاب وسيم أمامها ولنا أن نتخيل ما أصابها من ذعر وفزع ، وماذا تملك وهى فتاة لا حول لها ولا طول وماذا تفعل ؟ فلنستمع الى القرآن يعبر عن فزعها فى قوله « **قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا** » ٠

وعندما يجيبها الملك الكريم موضحا مهمته لا يجدى ذلك فى طمأنتها ونزع الشك من نفسها ، فقد تكون خدعة دبرها ذلك الذى اقتحم عليها خلوتها فنراها لا تستسلم له بل تعمد الى الاستيثاق من الأمر فتسأله : « **أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا** » ؟

وعندما يقضى أمر الله وتحمل استجابة لقضائه وترحل بعيدا عن قومها تنتابها الهواجس ، وتتداعى عليها الهموم ٠ كيف ستواجه قومها ، وهم أهل عبادة وطهر وغيرة على الشرف والعرض ؟ وكيف ستفسر لهم ما حدث ؟ ثم يضاف الى آلامها النفسية آلام جسدية مما يصاحب الوضع فتخور مقاومتها ، وتهن عزيمتها ، ولنستمع الى القرآن يعبر عن ذلك بقوله على لسانها : « **يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا** » ٠

ولكن تطورا مفاجئا يبدل كل شىء ، وينهى أزمتها ، ويبرىء جراحها المادية والمعنوية ، فترى من آيات الله ما يرد اليها يقينها ، ويملؤها ثقة تواجه بها العالم ، وتتحدى الدنيا ، فاذا بها تعود غير مكترثة لشىء تحمل ابنها فى اعتزاز وفخر ، مؤمنة بأن الله الذى رأت فضله وقدرته لن يتخلى عنها مصدقة بوعده ملتزمة بأمره ، وعندما تبدأ محاكمتها أمام قومها بالسخرية اللاذعة ، والتوبيخ المهين ، لا يحرك ذلك ساكنا فيها ، ولا تهتز ثقتها فى الله ولا تزيد عن أن تشير الى ابنها « **فأشارت اليه** » انه الاطمئنان القلبى لنصر الله ورعايته ٠

ولكن قومها معذورون ، فهى تجدثهم بما لم يعهدوه ، فلا تقنعهم اجابتها بل يرون فيها تهكما بهم ، واحتقارا لهم ، فيردون عليها وهم فى ذروة انفعالهم منكرين ذلك عليها « **كيف نكلم من كان فى المهد صبيا** » ٠

تلك قدرة التصوير على ابراز المشاعر والتعبير عن أعمق الانفعالات تجعلنا نشارك أبطال القصة مشاعرهم فنحس نحو مريم بالاشفاق عليها ، والتعاطف معها فى محنتها ، والاعظام لشأنها والاعجاب بقوة يقينها ، ونتمنى لو كنا هناك لندفع عنها الأذى ونرد على لائميها ٠

● التشويق فى الأسلوب القصصى :

التشويق عنصر أساسى من عناصر القصة الناجحة ، بل هو العنصر المميز للأسلوب القصصى من غيره من الأساليب الأدبية ، وهو الذى يمنح القصة تلك القدرة الخارقة على اغراء القارىء والاستحواذ على مشاعره وشده الى موضوع القصة حتى يفرغ منها تماما ٠ ولهذه الميزة اتخذ المصلحون والدعاة والفلاسفة القصة قالبا لعرض أفكارهم والاقناع بنظرياتهم ، مما جعلها أكثر الفنون الأدبية شيوعا فى هذا العصر ٠

ويتحدث النقاد عن شروط التشويق الناجح فى القصة ، وضرورة أن يكون هناك عقدة تتولد عن الاحداث ثم تتجه الأحداث الى حلها الى آخر ما قيل فى الموضوع ، ولكن القرآن الكريم وهو القمة فى البيان « لا يخضع لمقاييس فنية ، تروج حينا ، وتكسد حينا آخر ، بل يسمو عليها بسمو مصدره فاذا وافقها من ناحية فذلك كسب قوى لها ، يزيدها أصالة وقوة ، واذا خالفها فى ناحية فلأنه أعلى من أن يحد بمقياس يخطىء ويصيب » (١)

وعلى هذا نقول : ان عنصر التشويق فى القصص القرآنى هو حقيقة لا سبيل الى انكارها ، وانه يؤدى دوره كاملا ، وانه ينبع من مصادر متعددة ٠

فأحيانا يبتدىء القصص القرآنى بالتشويق،ولنقرأ سورة الفيل فنجدها تبدأ بهذه الآية الكريمة : « **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل** » ؟ (٢) وهو تساؤل يثير الاهتمام ، ويبعث على التنبه لمعرفة حقيقة الأمر ، ويثير فى النفس ما جبلت عليه من التطلع لمعرفة ما تجهل ٠

---

(١) البيان القرآنى ص ٢٠٠ ٠ (٢) الفيل : ١ ٠

كما نجد هذا اللون من التشويق أيضا فى قصة يوسف اذ تبتدأ بقوله تعالى : « **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين** » (١) ·

وأحيانا يأتى التشويق من أن يعمد القرآن الى ذكر موجز القصة فى أولها ، ثم يمضى بعد ذلك فى ذكر تفاصيل هذا الملخص ، والقارىء متطلع الى استكمال الصورة التى سبق أن علم بمجملها · ومثال ذلك قصة أصحاب الكهف فقد بدأت بهذا الملخص :

« **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا · اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا · فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا · ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا** » (٢) ·

وهكذا تلخص القصة ، ثم تأتى التفصيلات بعد ذلك · وهذا من البلاغة فى الصميم فهو ما سماه البلاغيون البيان بعد الابهام ، أو التفصيل بعد الاجمال ، وعدوه من وسائل تثبيت المعانى فى النفس لتطلعها الى ما يثيره الابهام والاجمال من تشوق الى التفصيل والبيان ·

يقول صاحب القرآن والقصة الحديثة « ان هذا اللون من التشويق لم ولن يجد أى مؤلف قصصى فى العالم القدرة أو الجرأة على محاكاته لأن كل مؤلف قصصى يحرص كل الحرص على أن يشد انتباه القارىء ، ويجعله ملهوفا على متابعة وقائع قصته ، ولا شك فى أن المؤلف اذا ذكر فى مقدمة القصة ملخصا لوقائعها أفسد التشويق وجعل القارىء عازفا عن متابعة حوادثها ·

ولكن الله ـ جلت قدرته ـ ابتدأ قصة أصحاب الكهف بملخص لحوادثها فهل أطفأ هذا الملخص الرغبة فى معرفة التفاصيل ؟ كلا · لقد أثارت الآية الكريمة التالية اللهفة العارمة لمعرفة هذه التفاصيل « **نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى** ··· » (٣) ·

---

(١) يوسف : ٣ · (٢) الكهف : ٩ ـ ١٢ ·

(٣) القرآن والقصة الحديثة ص ٣٤ ـ ٣٥ ـ والآية من سورة الكهف : ١٣ ·

وأحيانا يكون التشويق بسبب الترابط القوى بين المناظر المصورة للأحداث كما رأينا فى قصة مريم ، حيث جاءت المناظر متتابعة كأنها استجابة لما يثيره المنظر السابق من تساؤلات ، فيأتى المنظر التالى ليرضى تلك الرغبة ، وليثير طائفة أخرى من التطلع الى المعرفة يلبيها ما بعده ، وهكذا حتى تنتهى المشاهد دون أن يقحم منظرا لا يتطلبه الموقف ، ولا يضيف جديدا للغرض المقصود تاركا للخيال سد الفجوات ، وتخيل ما بين المناظر ، وهذا يحقق للقصة أمرين مهمين : أولهما مواصلة التشويق بتنقيتها من كل ما لا يحتاج اليه مما يعبر عنه بالأجزاء الميتة · وثانيا استنفار الخيال كى يشارك فى تماسك بنائها واثراء تأثيرها ·

وأحيانا يكون هناك سر ما فيظهره النص للقارىء ، ويخفيه عن أبطال القصة ، فيثير الشوق فى نفس القارىء ليتابع الأحداث ، ويرى كيف سيكون موقف الأبطال عندما يفاجأون بالسر ، وذلك كما فى قصة أصحاب الجنة : « **اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين · ولا يستثنون · فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون · فأصبحت كالصريم** » (١) فالقارىء علم مصير الجنة ، ولكن أصحابها غافلون عنه فتراهم فى التصوير القرآنى يتنادون مبكرين لينفذوا ما اعتزموه ، ويتابعهم القارىء ساخرا شامتا عندما يصدمهم هول الكارثة ·

وأحيانا يأتى التشويق من المفاجآت التى تتخلل السرد ، فتجدد النشاط وتزيد حدة الانفعال ·

كل هذه وغيرها جوانب للتشويق فى القصص القرآنى تمده بمصدر من مصادر تأثيره ، وتجعله سلاحا مرهفا فى يد الداعية يصل به الى قلوب المدعوين ·

● **مزج التوجيهات الدينية بسياق القصة :**

اذا كانت القصة وسيلة لابلاغ الدعوة فان تضمينها الأفكار والتوجيهات الدينية يصبح هدفا أساسيا من أهدافها ، ولهذا نرى ذلك فى كل القصص القرآنى ، وقد سبق أن أشرنا الى تعقيب القرآن على قصة مريم بقوله « **ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذى فيه يمترون ···** » (٢) الآيات ·

---

(١) القلم : ١٧ ـ ٢٠ ·   (٢) مريم : ٣٤ ·

وكذلك نقرأ فى غمار قصة يوسف دعوته لصاحبيه فى السجن الى التوحيد « **يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار · ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان . ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » (١) ·

وفى قصة أصحاب الجنة نقرأ قوله تعالى : « **قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون · قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين** » الى قوله تعالى : « **عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون** » ·· (٢) ثم يقرر مغزى القصة بقوله تعالى « **كذلك العذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر ، لوكانوا يعلمون** » (٣) ·

اذن فهى ظاهرة يقتضيها ارتباط القصص القرآنى بالغرض الدينى · والقرآن الكريم يسوق توجيهاته تلك متلطفا فى ذلك بما يجعلها جزءا ملتحما بالسياق مرتبطا به أوثق ارتباط ، فتأتى فى غمرة التأثر بالتصوير المبدع والتشويق المثير ، فيسوقها وقد تهيأت لها القلوب ، وأصبحت النفوس كأنها أوعية مفتوحة يصب فيها ما يريد ، فتتقبله راضية مطمئنة ، فتصيب توجيهاته موطن الداء ، وتتمكن هناك فى قرارها المكين ·

هذه أهم جوانب التأثير فى الأسلوب القصصى فى القرآن الكريم التى جعلت منه خير وسيلة لابلاغ الدعوة والاقناع بها وكلها ترتكز على ما فى التعبير من فنون بلاغية ، تجعل الكلام مطابقا لما يقتضيه المقام ·

وبعد ·· فهذا هو التصوير القرانى بألوانه وفنونه جعل منه القرآن وسيلته الأولى فى التعبير عن كل أهدافه لما رأينا من قدرته على التأثير والافادة التى لا تتأتى لغيره من الوسائل ·

● وسائل فنية تضاعف قدرة التصوير على التأثير :

بقيت كلمة لابد من اضافتها فى نهاية الحديث عن التصوير القرآنى خاصة بالوسائل الفنية التى يستخدمها القرآن لتضاعف من قدرة التصوير على التأثير ، ونوجز هنا أهم هذه الوسائل :

---

(١) يوسف : ٣٩ ، ٤٠ ·　　(٢) القلم : ٢٨ ـ ٣٢ ·

(٣) القلم : ٣٣ ·

● استحضار الصورة :

ويعمد القرآن فى تحقيق هذا الهدف الى ايثار صيغة المضارع التى تجعل المشهد كأنه حاضر مشاهد تراه العين وتسمعه الأذن ·

ولنأخذ مثالا لذلك قوله تعالى : « **ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون** » (١) فيستخدم صيغة المضارع فى قوله « يحشر » و « يوزعون » فنرى أعداء الله أمامنا ، وكأن ما سيقع لهم حاضر مشاهد ·

ولنتأمل قوله تعالى : « **وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض** » (٢) فيستخدم الفعل « نرى » للغرض نفسه ·

وقوله تعالى فى وصف نعيم الجنة « **متكئين فيها على الأرائك ، لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا** » (٣) فيعبر بقوله « لا يرون » ليستحضر المشهد ويبرزه ·

ونسمع وصفه للذين يريدون الحياة الدنيا من قوم قارون وقد خرج عليهم فى زينته فأخذوا بما رأوا ، ثم بعد أن خسف الله به وبداره الأرض فعادوا الى رشدهم « **وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون** » (٤) فيأتى بصيغة المضارع فى قوله « يقولون » ·

وأمثلة هذا كثيرة فى القرآن الكريم ، وقد تضمن البحث عددا كبيرا منها فليرجع اليه تجنبا للتكرار · وهذا لون بلاغى يقوم على أسلوب الاستعارة فى الفعل باعتبار زمنه فيستعار الفعل المضارع للماضى لابراز الصورة ·

● اطالة المشهد :

المشاهد التى يصورها القرآن الكريم تلقى فى النفس بانطباعات مناسبة لما يريد القرآن أن يوحى به ، ويريد القرآن أن يعمق هذه الانطباعات فى النفوس لتكون أقوى فى التأثير ، فيعمد الى اطالة المشهد ، لتتعرض له النفس

---

(١) فصلت : ١٩ ·　　　(٢) الانعام : ٧٥

(٣) الانسان : ١٣　　　(٤) القصص : ٨٢ ·

زمنا أطول ، وتعيش فى جوه مدة أكبر ، فيكون لذلك أثره فى استقرار هـذه الانطباعات وتمكنها فى النفوس ، ومن ثم تأخذ النفس من أقطارها ، وتملأ كل جوانبها ، وتقودها الى الاستجابة لما توحى به ٠

ولنقرأ قوله تعالى فى مقام تصوير حال المؤمنين وما تفيض به جوانحهم من الخشوع لله والضراعة اليه والأمل فى فضـله وما أعد لهم من الجـزاء استجابة لدعائهم ورضـا عنهم ليكون فى ذلك ما يدعو الى الاقتداء بهم ٠ **« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب٠ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ٠ ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار ٠ ربنا اننا سمعنا مناديا ينـادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ٠ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، انك لا تخلف الميعاد ٠ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله . والله عنده حسن الثواب » (١) ٠**

« فمن ذا الذى لا تحدثه نفسه فى أثناء هـذا المشـهد الطويل الفائض بالخشوع والخضوع ، الحافل بالتأثر العميق ، وفى أثناء هذا السرد العظيم المفصل لتضحيات المؤمنين ، وللجزاء الذى ينتظرهم يوم الدين ٠٠ من ذا الذى لا تحدثه نفسه أن يسلك مع « **أولى الألباب** » هؤلاء ، يدعو دعاءهم ، ويخشع خشوعهم ويستجيب له ربه معهم ، فينال مثل ما نالهم ؟ » (٢)

وهذا من البلاغة وفنونها اذ هو اطناب يقتضيه المقام ليحقق غاية يرمى اليها النص الكريم ٠

---

(١) آل عمران : من ١٩٠ ـ ١٩٥ ٠

(٢) التصوير الفنى فى القرآن ص ١١٧ ٠

● الحوار :

يستخدم القرآن الكريم عنصر الحوار فى رسم المشاهد ، ليزيده تأثيرا بما يمنحه من حركة ، ويضفى عليه من حيوية تزيد فى تمثله ووضوحه ٠

وأمثلة ذلك كثيرة فيما سبق أن درسناه من نصوص ولكننا نعرض هنا نموذجا لهذا الحوار الذى يضاعف قدرة التصوير على التأثير ، ويجعل المستمع يحس أنه حاضر بين القوم يرى حالهم ويتابع حركتهم ويسمع حوارهم ٠ قال تعالى :

« وما تجزون الا ما كنتم تعملون ٠ الا عباد الله المخلصين ٠ أولئك لهم رزق معلوم ٠ فواكه ، وهم مكرمون ٠ فى جنات النعيم ٠ على سرر متقابلين ٠ يطاف عليهم بكأس من معين ٠ بيضاء لذة للشاربين ٠ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ٠ وعندهم قاصرات الطرف عين ٠ كأنهن بيض مكنون ٠ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ٠ قال قائل منهم انى كان لى قرين ٠ يقول أئنك لمن المصدقين٠أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون٠قال هل أنتم مطلعون٠ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ٠ قال تالله ان كدت لتردين ٠ ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ٠ أفما نحن بميتين ٠ الا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين » (١)

وهكذا تتم للتصوير كل عوامل التخييل فالعين ترى والأذن تسمع والخيال يتابع والنفس تنفعل وتستجيب لما يوحى به المشهد الحى الماثل ٠

هذا وهناك وسائل فنية أخرى كاختيار الألفاظ ذات الايحاء الخاص أو الجرس الخاص ، والاستعانة بالتناسق بين أجزاء المنظر ، وبالنغم الصوتى المناسب وغيرها ، ولكننا سنرجىء الحديث عن هذه الوسائل لأننا سنعالجها فى مواطن أخرى نراها ألصق بها ، والله المستعان ٠

* * *

● ثانيا ـ التوكيد والتكرير :

تحدثنا فى فصل الدعوة والداعية عن التوكيد والتكرير وأثرهما فى تثبيت المعنى حتى يصبح عقيدة راسخة فى نفوس المخاطبين ، وأشرنا الى أنه من أهم وسائل التأثير فى المخاطبين أفرادا كانوا أم جماعات ٠

---

(١) الصافات : ٣٩ ـ ٥٩ ٠

والقرآن الكريم ـ باعتباره كتاب دعوة فى المقام الأول ـ يركز على استخدام هذا الأسلوب المؤثر لتثبيت معانيه فى نفوس قارئيه وتقرير قضاياه فى أفئدتهم · لينبثق عنها السلوك الفاضل الصادر عن ايمان مكين واقتناع راسخ ·

ويتوسع القرآن الكريم فى استخدام هذا الأسلوب توسعا يتجاوز به أساليبه المصطلح عليها ، فيؤكد معانيه بطرق متعددة ، مما يجعلنا نحن أيضا نتوسع فى مفهوم التوكيد ، فنجعل منه كل أسلوب نلحظ فيه تقوية للمعنى وتأكيدا للغرض الذى سيق التعبير لتأكيده ودعمه ·

ولا يقتصر استخدام هذا الأسلوب فى القرآن الكريم على غرض دون غرض ، بل ان القرآن الكريم يكاد يستخدمه فى التعبير عن قضاياه كلها ، فهو يؤكد صفاته تعالى ، ويؤكد حين يعد أو يوعد ، ويؤكد حين يدعو للعقائد ، وحين يدعو للعبادات ، وحين يدعو للمعاملات ، ويؤكد كلما كان الخبر محل انكار أو شك ، وكلما توغل الخبر فى الشك زادت ألوان التأكيد لانتزاع الشك من جذوره · وهذا كله تأكيد يلاحظ فيه حال المخاطب ·

وهناك لون من التأكيد القرآنى يلاحظ فيه حال المتكلم وهو اللون الذى قال عنه عبد القاهر فى ـ ان : انها قد تدخل للدلالة على أن الظن قد كان منك، أيها المتكلم فى الذى كان أنه لا يكون ، فتجعلك كأنك ترد على نفسك ظنك الذى ظننت ، وتبين الخطأ الذى توهمت . وعلى ذلك ـ والله أعلم ـ قوله تعالى حكاية عن أم مريم : « **قالت رب انى وضعتها انثى والله أعلم بما وضعت** » (١)

وقريب من هذا النوع قوله تعالى على لسان أصحاب الجنة ، وقد فوجئوا بها محترقة كالصريم فذهلوا عن أنفسهم ، ولم يصدقوا أنها جنتهم ، فعبروا عن ذلك بقولهم : « **انا لضالون** » (٢) معبرين عن ضلالهم تعبير الواثق مما يقول ، وهذا يشير الى شدة ذهولهم ومبلغ وقع المفاجأة على نفوسهم ·

كما يراد به تصوير ثقة المتكلم فيما يقول مثل قوله تعـالى « **انما أوتيته على علم عندى** » (٣) فقارون يعبر بهذا عن ثقته فيما يقول وانه لا يرى سببا لحصوله على تلك الأموال سوى جدارته وعلمه ، فليس لأحد فضل عليه ·

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٥٢ ـ والآية من سورة آل عمران : ٣٦ ·

(٢) القلم : ٢٦ ·　　　　(٣) القصص : ٧٨ ·

كما يستخدم التوكيد فيما لا شك فيه ولا انكار،مما يطلق عليه فى البلاغة اخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، كما فى تأكيده سبحانه لوقوع الموت فى قوله : « **ثم انكم بعد ذلك لميتون** » (١) مع أن الموت مما لا ينكر ، ولكنه نزل المخاطبين منزلة من يبالغ فى انكاره ، فأكد لهم الخبر بمؤكدين ، لتماديهم فى الغفلة والاعراض عن العمل لما بعده ، حتى لكأنهم ينكرون وقوعه ٠

● ألوان التوكيد ووسائله :

يستخدم القرآن الكريم كل وسائل التوكيد الاصطلاحية ، وجميع ألوانه وصوره ٠ ولنقرأ قوله تعالى مؤكدا وعده للمؤمنين :

« **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** » (٢) ٠

المقام هنا مقام تأكيد ، فالآية ترغب فى الايمان والعمل الصالح وتعد من يستجيب لداعى الايمان بهذا الوعد الكريم ، فكان لزاما أن يؤكد هذا الوعد لتتمكن الثقة به فى النفوس ، وتتجه الى ما يحقق لها كل هذا الخير ٠

ونلاحظ أن وسائل التأكيد فى النص متعددة تضم ما يأتى :

— القسم المحذوف الذى دخلت اللام على جوابه ٠

— اللام الداخلة على جواب القسم ٠

— نون التوكيد الثقيلة فى « **ليستخلفنهم** » و « **وليمكنن** » و « **ليبدلنهم** »٠

---

(١) المؤمنون : ١٥ ٠ (٢) النـور : ٥٥ ٠

— اسمية الجملة فى قوله « **فأولئك هم الفاسقون** » ·

— ضمير الفصل « **هم** » ·

وتلك من وسائل التأكيد الاصطلاحية ولكننا نلحظ فى الآية مصادر أخرى للتأكيد تضمنها النظم واقتضاها المقام وكلها من ألوان البلاغة التى عبر بها لغرض التأكيد ، نشير الى بعضها : ·

— اسناد الوعد الى الله « **وعد الله** » للاشارة الى تحقق وقوعه ·

— التعبير عمن يتعلق بهم الوعد - باسم الموصول « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات** » ليفيد أنه شامل لكل من تتحقق فيه الصفات التى تنص عليها الصلة ، وهذا يجعل هذا الوعد سنة مطردة فى كل زمان ومكان وذلك يعطى الوعد تأكيدا وامتدادا يوحى للنفوس بالثقة والاطمئنان اليه والعمل بما يوجبه ·

— التنظير الذى تبرزه الآية : « **ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم** » هذا التنظير يؤكد الوعد لأنه تحقق لمن قبلهم من المؤمنين ·

— ما فى التعبير من استعارة التمكين لمعنى التثبيت فالمراد : ليجعلن دينهم ثابتا ، والتعبير بالتمكين آكد وأقوى فى الدلالة على ثبات الدين وسلامته من التغيير لأنه يخيل أنه شىء مستقر على الأرض ، وأن ثباته مستمد من ثباتها واستقرارها ·

— التشويق الذى يحدثه تقديم « لهم » على المفعول الصريح « **دينهم** » ففى المسارعة الى بيان أن الموعود به من منافعهم يحدث تشويقا اليه وترغيبا لهم فى قبوله عند وروده ، وذلك يمهد للمعنى فى النفس ويثبته ·

— اضافة الدين لهم فى قوله « **دينهم** » وهو دين الاسلام فيه اثارة للاعتزاز به ، وتأليف لقلوبهم ·

— وصف الدين بارتضائه لهم ، فيه أيضا مزيد ترغيب فيه وفضل تثبيت عليه ·

هذا نموذج من استخدام القرآن الكريم لمختلف أساليب التأكيد الاصطلاحية ، واضافته اليها وسائل أخرى تمنح المعنى قوة وثباتا ، وهى

وسائل لا يمكن حصرها · ولكننا سنخص بعضها بالذكر لأهميتها فى مجال التأثير ، وشيوع استخدامها ، كأنها أصبحت سمة من سمات التعبير القرآنى ·

● أسلوب القسم :

لأسلوب القسم خصائص تمنحه القدرة على التأثير وتجعل المتكلم يختاره ليستعين بهذه الخصائص اذا كان المقام يقتضيها ·

وأول خصائص أسلوب القسم أنه يقوم بدور التهيئة النفسية للمخاطب باثارة انتباهه لما سيخبر به · فيستقبله مستجمعا حواسه مركزا فكره وانتباهه اليه · وذلك لأن الانسان اذا حلف على شيء كان ذلك دالا على أهميته وأنه مما تجب العناية به والاقبال عليه · ولعل مما يكشف عن التأثير النفسى للقسم ما روى عن بعض الأعراب أنه : لما سمع قوله تعالى « **وفى السماء رزقكم وما توعدون · فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون** » (١) صرخ وقال : من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف ؟ » (٢) ·

ثانيا : ان القصد من الحلف هو توكيد الاخبار به ، وللتوكيد تأثيره فى تمكين المعانى فى النفس ·

ثالثا ــ ان القسم يكون بشيء عظيم ، وذكر المقسم به يلقى فى النفس مهابة ، ويوحى اليها بمعان تجعلها أكثر استعدادا للتصديق والقبول ·

ونذكر هنا بعض ما أقسم القرآن به لقيمته فى مجال التأثير الذى هو هدفنا فى هذا الفصل ·

يقسم سبحانه بذاته ، فيقسم بالرب ، ويضيفه أحيانا الى بعض مخلوقاته مثل قوله تعالى « **فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون** » ·· لما فيه من الاشارة الى خضوع السماء والأرض لأمره ، وفى **هذا تعظيم** لشأنه،

---

(١) الذاريات : ٢٢ ، ٢٣ ·

(٢) الاتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١٣٣ ·

وايحاء بأن من كان هذا أمره لا يزج باسمه الا فيما لا مرية فيه (١) ·

وقد يضيفه الى الرسول مثل : « **فوربك لنحشرنهم والشياطين** » (٢) · كأنه يوحى بذلك بأن أرباب المشركين ليست جديرة بالحلف بها (٣) ·

كما يقسم بمخلوقات الله لما فيه من روعة تدفع الى التفكير فى خالقها مثل قوله تعالى : « **والشمس وضحاها · والقمر اذا تلاها · والنهار اذا جلاها · والليل اذا يغشاها · والسماء وما بناها · والأرض وما طحاها · ونفس وما سواها · فألهمها فجورها وتقواها · قد أفلح من زكاها · وقد خاب من دساها** » (٤)

وواضح ما فى كل واحد من المقسم به من عظمة تثير أقوى أحاسيس الاعجاب بخالقه ، وما فى تتابعها من تأكيد يوحى بالثقة واليقين ·

هذا ونشير الى ما لاحظه صاحب الكشاف من أن أحسن القسم ما لوحظت فيه العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، فى مثل قوله تعالى : « **حم · والكتاب المبين · انا جعلناه قرآنا عربيا** » (٥) ، « فقد أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن وجعل قوله : « **انا جعلناه قرآنا عربيا** » جوابا له ، وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه وكونهما من واد واحد » (٦) ·

● أسلوب التكرير :

لقد احتفى القرآن الكريم بأسلوب التكرير احتفاء عظيما ، وأكثر من استخدامه حتى صار سمة من سماته ، وقد سبق أن تحدثنا عن الأثر النفسى للتكرير فى تثبيت المعنى وتقريره حتى يصبح عقيدة راسخة ، وان ذلك شىء هديت اليه الفطرة الانسانية ، فلجأ الى تأكيد كلامه للسامع بتكرار ما يريد نقله اليه لما رأى من أثر ذلك فى تثبيت المعانى وتأكيد الأفكار لديه ·

---

(١) من بلاغة القرآن ص ١٧٠ ·　　(٢) مريم : ٦٨ ·

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة ·　　(٤) الشمس : ١ ـ ١٠ ·

(٥) الزخرف : ١ ـ ٣ ·

(٦) انظر الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٠ . وكتاب البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ص ٣١٥ ·

ونستأنس هنا بما ذكره صاحب الكشاف فى تعليقه على **هذا الأسلوب** وبيان أثره فى النفس ، فقد قال عند شرحه لقوله تعالى : « **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم** » (١)

« قوله تعالى « **مثانى** » بيان لكونه متشابها ، لأن القصص المكررة لا تكون الا متشابهة ، والمثانى جمع مثنى ، بمعنى مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وانبائه واحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه ثم قال : فان قلت : ما فائدة التثنية والتكرير ؟ قلت : النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة فما لم يكرر عليها عودا على بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ومن ثم كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعا ليركزه فى قلوبهم ويغرسه فى صدورهم » (٢) ·

وللتكرار صور كثيرة فى القرآن الكريم نذكر منها :

— قد يكون المكرر كلمة مثل قوله تعالى « **ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم** » (٣) · فقد كررت « ان » لطول الفصل بين « ان » الأولى وخبرها فاقتضت البلاغة تكريرها ، ومثل ذلك تكرير لفظ « ربك » ·

— قد تكرر آية بجملتها وأوضح ما يكون ذلك فى كل من سورة الرحمن والقمر . والمرسلات ، ففى الأولى تكرر قوله تعالى : « **فبأى آلاء ربكما تكذبان** » (٤) وفى الثانية تكرر قوله تعالى : « **فكيف كان عذابى ونذر** » (٥) ، وفى الثالثة تكرر قوله تعالى : « **ويل يومئذ للمكذبين** » (٦) ·

— وقد يكرر ذكر القصة فى مواضع متعددة ، وتلك سمة عامة فى القصص القرآنى كما سبق أن اشرنا ، ولم يستثن منها سوى قصة يوسف ·

هذا واذا كان التأكيد اللفظى يعنى تكرار اللفظ بعينه او تقويته بموافقة فى المعنى (٧) فان لنا أن نستأنس بهذا ، ونعد من التكرير الأساليب الآتية :

---

(١) الزمر : ٢٣ · (٢) انظر تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٢٩٥
(٣) النحل : ١١٠ ·
(٤) الرحمن : ١٣ وتكررت فى ٢٩ آية منها ·
(٥) القمر : ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٣٠ ·
(٦) المرسلات : ١٥ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩
(٧) انظر حاشية الصبان على شرح الاشمونى جـ ٣ ص ٨٠ طبعة عيسى البابى الحلبى ·

ـــ تكرير المعنى بالأمر به أولا ثم النهى عن ضده :

مثل قوله تعالى : « **واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا** » (١) فقد أمر بالامساك بمعروف ، ثم أكد المعنى بالنهى عن ضده فى قوله : « **ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا** » فقوى الأول بموافقة فى المعنى ٠

ـــ عرض المعنى فى صورتين تؤديان الى نفس النتيجة :

كالذى فى قوله تعالى : « **قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر** » ؟ (٢) فالاستفهام هنا للتقرير بأن الله هو القادر على ذلك ومن ثم فهو المستحق للعبادة ٠ ثم يأتى بعد ذلك قوله تعالى :

« **قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده** » ؟ (٣) ٠٠ « **قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق** » ؟ (٤) ٠ فالمراد هنا الاقرار بنفى صفات الالوهية عن الشركاء ومن ثم تكون النتيجة هى الاقرار باستحقاق الله للعبادة وانفراده بالالوهية فهذا اقرب شىء الى التأكيد بالتكرير ، ولكنه ليس تكرير الالفاظ بل تقوية المعنى الأول بموافقه فى المعنى ٠

على أننا نلاحظ أن فى الآيات لونا آخر من التكرير ، وذلك أن كل استفهام من هذه الاستفهامات كاف فى اثبات ما يراد اثباته ، فتكرار الاستفهام وتواليه لون من التأكيد بالتكرار اللفظى ٠

ـــ الالحاح على المعنى بالتعبير عنه فى صور مختلفة متتالية ، كل منها تؤكد الاخرى ، وتعتبر كالتكرير لها :

كالذى فى قوله تعالى : « **فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا اكبر ، فلما افلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون ٠ انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين** » (٥) ٠

---

(١) البقرة : ٢٣١ ٠ — (٢) يونس : ٣١ ٠

(٣) يونس : ٣٤ ٠ — (٤) يونس : ٣٥ ٠

(٥) الأنعام : ٧٨ ، ٧٩ ٠

والنص الكريم يصور ما كان بين ابراهيم عليه السلام وقومه عندما اتبـع فى هدايتهم أسلوب الاستدراج والمجـاراة حتى يروا بأنفسهم دليـل بطلان عقيدتهم فبعد أن استعرض عددا من الكواكب وأرى قومه أنها لا تستحق العبادة لأنها تأفل وتغيب والاله الحق منزه عن ذلك ـ بعد هذا آن له أن يجهر بالحق ويعلن عقيدته التى يؤمن بها وأن يعلن براءته مما يشركون ونظرا لمـا يقتضيه المقام من تأكيد قوى نراه يعبر عن مراده مكررا له أربع مرات فى صور مختلفة كلها يؤدى المعنى فيعـلن براءته أولا ممـا يشركون « **ياقوم انى برىء مما تشركون** » ثم يبين عقيدته التى ارتضاها « **انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض** » ثم يكرر المعنى بقوله « **حنيفا** » أى مائلا عن الأديان الباطلة مخلصا الـدين لله ثم يكـرر براءته من الشرك ونفيه « **وما أنا من المشركين** » .

● التوكيد بالتعبير بالماضى بدل المستقبل :

التعبير عن المستقبل بصيغة الماضى من صور مجىء الكلام على خـلاف مقتضى الظاهر ، بقصد الاشارة الى تيقن حدوثه ، وتأكيد وقوعه ، ومثـاله ما فى قوله تعالى : « **ونـادى أصـحاب الجنـة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا** » وقوله : « **ونادى أصـحاب الأعـراف رجـالا يعرفونهم بسيماهم** » وقوله : « **ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينـا من الماء** » (١) فنرى أن هذه المشاهد لم يأت زمانها بعد ، ولكن عبر عنهـا بصيغة الماضى ليدل على تحقق الوقوع .

ومنه قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : « **قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا** » (٢) فهو لم يؤت الكتاب بعد ، ولم يكلف بالرسالة ولكنه عبر بالماضى للتنبيه على أن هذا أمر مقضى ، وأنـه واقع لا محالة ، وهذا هو معنى التأكيد ، وأمثلة هذا كثيرة لا تحتاج الى تنبيه . وواضح أن ذلك من الاستعارة فى الفعل باعتبار زمنه .

● التوكيد بصيغة القصر :

ليس الغرض هنا دراسة أسلوب القصر ، ودوره فى البلاغة دراسة وافية ولكننا نلمس الموضوع من ناحية دلالة هذا الأسلوب على التوكيد الذى ندرسه كواحد من وسائل التأثير فى الأسلوب القرآنى :

---

(١) انظر الآيات : ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٠ من سورة الأعراف .
(٢) مريم : ٣٠ .

وطرق القصر سواء تلك المتفق عليها وهى العطف بـ « لا » النافية ، و « ما » و « الا » ، و « انما » والتقديم ، أو المختلف فيها ، وهى تعريف المسند والمسند اليه ، وضمير الفصل ، تفيد التأكيد فى بعض صورها بلا جدال ، وقد أكد القرآن الكريم بها معانيه فى مواضع لا تحصى كثرة ٠

وأوضح ما تكون دلالتها على التوكيد فى المواطن الآتية :

ـــ فى قصر الموصوف على الصفة ، وبخاصة عندما تكون هناك حالات تتجسم فيها صفة من صفات الشىء حتى تطغى على ماعداها ، وحتى يكون الموصوف كأنه قد خلص لها ، فلم يعد متصفا بغيرها ، كما فى التعبير الكريم : « **وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون** » (١) ٠

جاء فى تفسير أبى السعود تفسيرا لمعناها « والمعنى اما على حذف المضاف أو على جعل الحياة الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة ٠ كما فى قول الخنساء فانما هى اقبال وادبار » (٢) ٠

ومثل هذا قوله تعالى : « **انما أموالكم وأولادكم فتنة** » (٣) فليس المراد قصر الأموال والأولاد على صفة الفتنة بمعنى أنهما لا يوصفان بغيرها ٠ ولكن المراد أن هذه الصفة قد غلبت فيهما على غيرها من الصفات حتى لكأنهما غير متصفين الا بها ٠

وكذلك قوله تعالى على لسان قارون : « **انما أوتيته على علم عندى** » (٤) فهو لا يريد قصر أسباب تحصيله لما لديه من الكنوز على علمه فقط بمعنى نفى أن يكون هناك سبب غيره ٠ ولكنه يريد تأكيد أن هذه الصفة هى الأساس فى حصوله عليها ٠

ـــ وكذلك أن يراد فى قصر الصفة على الموصوف المبالغة فى كمال الصفة ، وهو ما يعبر عنه بأنه قصر ادعائى ، وذلك كقوله تعالى : « **وغدوا**

---

(١) الأنعام : ٣٢ ٠

(٢) تفسير أبى السعود ص ٩٣ جـ ٢ ٠

(٣) التغابن : ١٥ ٠

(٤) القصص : ٧٨ ٠

عـلى حرد قادرين » (١) فالمراد بالتقديم هنا قصر قدرتهم عـلى الحرد وهو المنع ، وهم قادرون على غيره كالاعطاء والتسامح ، ولكن آثر أسلوب القصر هنا ليؤكد اصرارهم على الحرد ، واستحكام الشر فى نفوسهم ، وامتلائها به لدرجة لا تجعلها قادرة الا على المنع وحرمان الفقراء ٠

● **التوكيـد بالتقديم :**

يفيد التقديم التوكيد فى حالات ويفيد القصر فى حالات أخرى ، ومما يكون التقديم فيه للتوكيد ودفع الشك :

ـــ اذا تقدم المسند اليه المعرفة على الخبر الفعلى ولم يكن فى الكلام نفى ، وفى هذه الحالة اما أن يفيد القصر أو التوكيد حسب المقـام ومراعاة حال المخاطب ، ففى مثل قوله تعالى : « **ومن أهل المدينة ، مردوا على النفاق لا تعلمهم ، نحن نعلمهم** » (٢) مفيد للقصر ، اذ المـراد لا يعلمهم الا نحن ٠ لابطانهم الكفر فى قلوبهم فلا يطلع عليه الا الله ٠

وفى مثل قوله تعالى : « **واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقـون** » (٣) يراد به التوكيد ، اذ المراد تأكيد أنهم خلق الله فليسوا أهـلا للعبادة ، لا قصر الفعل « **يخلقون** » عليهم لأنـه محال فهم بعض خلق الله ٠

ـــ اذا كان فى الكلام نفى ولكن المسند اليه تقدم على المسند وعلى النفى أيضا وفى هذه الحالة يفيد التقـديم التـأكيد فقط ، وذلك مثل قوله تعالى : « **والذين هم بربهم لا يشركون** » (٤) ٠ فانه يفيد من التأكيد فى نفى الاشراك مالا يفيده لو قلنا والذين لا يشركون بربهم أو بربهم لا يشركون ٠ ومنه قوله تعالى : « **ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون** » (٥) ٠

---

(١) القـلم : ٢٥ ٠

(٢) التوبة : ١٠١ ٠

(٣) الفرقان : ٣ ٠

(٤) المؤمنون : ٥٩ ٠

(٥) الانفال : ٥٥ ٠

● **التوكيد بأحرف الزيادة :**

أطلقنا على هذه الحروف التى تذكر للتأكيد أنها زائدة تمشيا مع ما أطلقه النحويون عليها ، والا فما دامت تقوم بدور فى المعنى وهو التوكيد فالأوفق أن يقال عنها انها قد جىء بها للتأكيد · وهى كثيرة منها :

ـــ زيادة « لا » النافية فى القسم مثل قوله تعالى : « **لا أقسم بهذا البلد** » (١) وقوله : « **فلا أقسم بمواقع النجوم** » (٢) فقد قال العلماء انها مزيدة للتأكيد (٣) ·

ـــ ومنها « لا » فى قوله تعالى : « **قال ما منعك الا تسجد اذ أمرتك** » (٤) فهى أيضا لتأكيد معنى الفعل الذى دخلت عليه كما فى قوله : « **لئلا يعلم أهل الكتاب** » (٥) · منبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود (٦) ·

ـــ ومنها « من » فى قوله تعالى : « **ومن رزقناه منا رزقا حسنا** » (٧) ، فقد زيدت للتأكيد وضاعف من جمالها اضافتها الى نون العظمة ·

ـــ ومنها « زيادة حرف فى كلمة كما فى قوله تعالى : « **عينا فيها تسمى سلسبيلا** » (٨) يقول صاحب الكشاف : يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل » · وقد زيدت الباء فى التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ودلت على غاية السلاسة (٩) ·

وأمثال هذه الحروف المفيدة للتأكيد كثيرة متناثرة فى البحث ·

● **التوكيد بالتعبير بالخبر والمراد الأمر :**

وهذا أيضا من الاساليب المفيدة للتوكيد ومثاله قوله تعالى : « **فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله** » (١٠) · فقد قيل ان المراد بها الأمر ان المعنى : فلتطع المرأة زوجها ولتحفظه ، ويكون سر العدول عن

---

(١) البلد : ١ · (٢) الواقعة : ٧٥ ·
(٣) انظر تفسير أبى السعود جـ ٥ ص ١٣٤ ·
(٤) الأعراف : ١٢ · (٥) الحديد : ٢٩ ·
(٦) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ١٥٨ · (٧) النحل : ٧٥ ·
(٨) الانسان : ١٨ · (٩) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٩٨ ·
(١٠) النساء : ٣٤ ·

أسلوب الأمر الى الخبر هو المبالغة فى التأكيد ، فكأنه يقول : ان هذا الحفظ هو طبيعة الصالحات ومن مقتضى صلاحهن ٠

وكذلك قوله تعــالى : « **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** » (١) فان الجملة خبر فى معنى الأمر ، فأصل المعنى : وليتربص المطلقات « واخراج الأمر فى صورة الخبر تأكيد للخبر ، واشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة الى امتثاله فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجودا » (٢) ٠

هذا ويمكننا أن نلمح معنى التوكيد فى أساليب أخرى كالتنبيه والتشويق والتعبير بالظاهر بدل الضمير ، والتفصيل بعــد الاجمــال ، والايضاح بعــد الابهام ، والتأكيد باختيار الصيغة الدالة على المبالغة ، والتأكيــد بالوصف والنداء وغيرها ٠ ولكن نرجو أن يكون فيما قدمناه من أساليب ما يفى بما قصــدنا بيانه من أن القــرآن الكريم فى دعوته يتوسع فى استخدام أسلوب التأكيد لقيمته الكبرى فى التأثير كما سبق أن بينا ٠

★ ★ ★

● ثالثا ـ ايثار الأساليب القادرة على احتــواء المشـــاعر الوجـــدانية والتعبير عنها :

القرآن الكريم كتاب دعوة ، والدعوة تشق طريقها الى القلوب بالاقناع والتأثير فى النفوس ، ولكى يبلغ القرآن هــذه الغاية نراه يضرب فى النفس على أوتار متعددة ليصل الى قرارها وموضع التأثير والاقناع فيها ٠

والأساليب متفاوته فى قدرتها على احتواء المشاعر الوجدانية ، تعبيرا عنها واثارة لها ٠ فكان طبيعيا أن يؤثر القرآن منها الأقدر على هــذه المهمة ويكثر من استخدامها ، لأنها المناسبة للغرض الموافقة لمقتضى الحال ٠

ومن أهم هذه الأساليب التى لاحظناها من خلال دراستنا التطبيقية فى الباب الثانى لاحتفاء القرآن بها وكثرة ورودها فيه :

---

(١) البقرة : ٢٢٨ ٠   (٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٦٥ ٠

● **أسلوب الطلب :**

يقــرر نقاد الأدب أن الجملة الطلبية أدنى الى روح الشعر الذى يراد به التأثير من الجملة الخبرية (١) ٠ ذلك أن أســلوب الطلب من أمر ونهى واستفهام ورجاء وتمن ، ونداء وعرض وتحضيض تستخدم بجانب معانيها الحقيقية فى فيض من المعانى البلاغية التى يقتضيها المقــام ، ويستدعيها التعبير عما تجيش به نفس المتكلم من مشاعر ، وما يريد أن يثيره فى المخاطب من انفعالات ٠

فنجد الأمر مثـــلا يستعمل بجانب معناه الحقيقى ـ وهو : طلب الفعــل على وجه الاستعلاء فى معان أخرى كالاباحة ، والتهديد ، والتعجيز ، والاهانة والتمنى ، والدعاء ، والالتماس ، الى آخر ما ذكره البلاغيون ، وكذلك نرى أسلوب الاستفهام ومعناه طلب العلم بشىء لم يكن معلوما من قبل يخرج الى معان بلاغية أخرى منها : « الاختبار والانكار بمعنى النفى ، والانكار للتوبيخ والتقرير ، والتكثير ، والأمر ، والتمنى ، والتشويق ، والتلطف ، والتعظيم ، والتحقير ٠ وقد يصاحب هذه المعانى معان أخرى فرعية كالتعجب والتهكم والوعيد ، والعتاب والاشفاق والايناس ، والافتخار والامتنان ، والشماتة ، والتزلف ، والعتاب ، والتحسر ، والتحريض ، والتثبيت وغير ذلك (٢) ٠

وهكذا غيره من أســاليب الطلب تستعمل فى معان وجدانية بجــانب معناها الحقيقى ، مما يجعلها أقدر على أداء ما تجيش به النفس من انفعال ٠

ونظرا لخصائص أسلوب الطلب هذه نراه أكثر ما يكون استخداما فى الأغراض الوثيقة الصلة بالمشاعر النفسية ، كما فى الدعوة الى العقــائد من ايمان بالله وبرسوله واليوم الآخر ، والتنفير من عبادة الأصنام ٠ وهى الأغراض الأساسية فى القرآن المكى ، حيث المخاطبون به من المشركين الذين تمتلىء قلوبهم بمشاعر العداء له ، ويواجهونه بالسخرية والتعجب والعناد ، فيصور القرآن مشاعرهم تلك ، ويواجهها بما يطابقها ، فينكر عليهم ، ويتعجب منهم ، ويوجه اليهم القول متهكما ومقررا وموبخا ومتوعدا ومحقرا ٠

---

(١) انظر كتاب أساليب الاستفهام فى القرآن ص ٤٨٨ ٠

(٢) انظر كتاب أساليب الاستفهام فى القرآن ص ٢٤٧ ٠

ومن هنا نرى أساليب الطلب شائعة فيه بالمقارنة بما نزل بالمدينة ، حيث جدت أغراض أخرى من تشريع وعبادات تقل حاجتها الى مثل هذه الأساليب فتتجه بصورة أكبر الى العقل منها الى العاطفة ٠

وقد قام صاحب كتاب « أساليب الاستفهام فى القرآن » باحصاء أسلوب الاستفهام فى القرآن كله ، نستأذن فى اثباته هنا ، لدلالته القوية على ما نحن بصدده ، فالاستفهام أحد أساليب الطلب ٠ يقول : ان نسبة حجم القرآن المكى الى نسبة حجم القرآن المدنى كنسبة ٣ ـ ٢ وقد أحصيت جملة أساليب الاستفهام فى المكى فوجدتها ٩٩٦ أسلوبا ، وجملة أساليب الاستفهام فى المدنى فوجدتها ٢٦٤ أسلوبا ، فتكون نسبة الاستفهام المكى الى الاستفهام المدنى كنسبة ٩٩٦ : ٢٦٤ = ٣٧ : ١٠ تقريبا ٠ ثم يقول : ولبيان ذلك أقول : انى عددت سطور المكى فوجدتها ٤٥٦١ سطرا ووجدت سطور المدنى ٢٩٠١ سطرا أى أن فى ٤٥٦١ سطرا وهو القرآن المكى ٩٩٦ أسلوبا من الاستفهام أى بنسبة ٢٦٠ فى الألف ٠ وفى ٢٩٠١ سطرا وهو القرآن المدنى ٢٦٤ أسلوبا من الاستفهام أى بنسبة ٩١ فى الألف » (١) ٠

ودلالة هذا الاحصاء على اثبات ما قلناه لا تحتاج الى تعليق ٠

هذا وفى دراستنا التطبيقية ـ بالباب الثانى ـ تعرضنا لعشرات بل مئات من نماذج هذا الأسلوب الطلبى ، وبخاصة أسلوب الاستفهام ، ولمسنا قدرته فى اثارة المشاعر والتعبير عنها فى كل موضع وردت فيه ، ولكننا هنا نشير فقط الى أن ايثار أسلوب الطلب ظاهرة واضحة ومطردة فى الأسلوب القرآنى حيث كان المقام يستدعيها ٠

والواقع أن أسلوب الاستفهام فى القرآن الكريم لا يستعمل فى معناه الحقيقى الا اذا كان حكاية لأقوال الآخرين مثل قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : « **كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى الى الله** » (٢) أما فى غير ذلك فهو مستعمل فى معان مجازية تصور المشاعر ، وتثير الانفعالات النفسية ، مما جعل لهذا الأسلوب قيمة عظيمة فى مجال التأثير ٠

---

(١) ص ٤٨٧ من المرجع المذكور ٠ وقد نقلنا النص كما ورد فى الاصل حيث كتب مابه من أعداد بالأرقام لا بالحروف ٠

(٢) الصف : ١٤ ٠

ولنقرأ قوله تعالى : « **قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون · سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون · قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم · سيقولون لله ، قل أفلا تتقون · قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون · سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون** » (١) ·

فنجد الآية الكريمة تتوجه اليهم باستفهامات تقريرية كى تجبرهم على الاعتراف وهم لا يملكون الا أن يعترفوا ، وعند ما يعترفون تعقب على كل اعتراف باستفهام آخر يحمل معنى التعجب من مساكهم والتسفيه لآرائهم ويكشف عما فى عقيدتهم من تناقض · فبينما يقرون أن ذلك كله لله لا يعملون بما يوجبه هذا الاقرار من توحيد لله ونفى الشرك عنه · حتى يقوا أنفسهم عذاب هذا القادر الذى أقروا بأن له كل شيء وهو قادر على كل شيء · « **أفلا تذكرون** » « **أفلا تتقون** » « **فأنى تسحرون** » ·

ولنقرأ قوله تعالى : « **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ، ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين** » (٢) ولنتأمل ما يتضمنه الاستفهام من تعجيز وافحام يترك المجادلين وقد أسقط فى أيديهم وانقطعت حجتهم وعقدت ألسنتهم ·



● **رابعا ـ وسائل التشويق والاثارة والتنبيه :**

من السمات التى يتميز بها الاسلوب القرآنى ، وتمنحه قدرة على التأثير فى النفس وتهيئتها لقبول المعنى ، تضمنه لكثير من وسائل التشويق والاثارة والتنبيه التى تقوم بدورها فى تمكين المعانى فى النفوس ، باثارة تطلعها الى معرفة الخبر أو جلاء ما به من ابهام ، أو تفصيل ما به من اجمال · فاذا ورد المعنى بعد هذه الاثارة أنست اليه النفس ، وتمكن فيها بعد أن سبقه اليها رسول مهد له موطنا مكينا ·

من أهم هذه الوسائل ما يأتى :

---

(١) المؤمنون : ٨٤ ـ ٨٩ ·　　　(٢) الاحقاف : ٤ ·

● التفصيل بعد الاجمال والبيان بعد الابهام :

اذا ألقى الكلام الى النفس مجملا استشرفت لمعـــرفة تفاصـــيله وتظل متطلعة بكل حواسها الى ما سيلقى اليها · فاذا سيق الكلام بعد ذلك مفصلا وصل الى أعماقها ·

مثل قوله تعالى : « **وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا** » (١) هــكذا عبر عن جزائهم فى اجمال بأن مصيرهم الجنة ، ثم فصل ما فى الجنة من ألوان النعيم فيقول ذاكرا أحوالهم فيها : « **متكئين فيها على الأرائك ، لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا · ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا** » ··· الى آخر الآيات (٢) ·

ومثل قوله تعالى « **واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا** » (٣) هكذا يعبر فى اجمال ثم يفصــل بعض هــذا الملك الكبير والنعيم فيقول سبحانه : « **عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وســقاهم ربهم شرابا طهورا · ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا** » (٤) ·

ومثل قوله تعالى : « **ان سعيكم لشتى** » (٥) فقد بين أن مساعى الناس فى الدنيا متنوعة ثم فصل ذلك بقوله : « **فأما من أعطى واتقى · وصــدق بالحسنى · فسنيسره لليسرى · وأما من بخل واستغنى · وكذب بالحسنى · فسنيسره للعسرى** » (٦) ·

ومثال الابهام ثم التوضيح قوله تعالى : « **ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين** » (٧) فقد ذكر لفظ « **مثــلا** » مبهما ثم فسره بما جاء بعده ليثير تطلع النفس الى معــرفة المراد ويشوقها اليه ·

---

(١) الانسان : ١٢ ·
(٢) الانسان : ١٣ ، ١٤ ·
(٣) الانسان : ٢٠ ·
(٤) الانسان : ٢١ ، ٢٢ ·
(٥) الليــل : ٤ ·
(٦) الليل : ٥ ــ ١٠ ·
(٧) التحريم : ١٠ ·

● أسلوب الالهاب والتهييج :

من الأساليب التى استخدمها القرآن أيضا فى التأثير ما يسميه العلماء: أسلوب التهييج والالهاب ، وذلك بألا يكون المقصود بالأمر هو حصول المأمور به لأنه متحقق وموجود ، بل الغـــرض اثارة الهمة وتقوية العـــزيمة على استدامته والاستمرار عليه ·

ومن ذلك قوله تعالى: **«يا ايها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين، ان الله كان عليما حكيما** » (١) فحاشا لله أن يكون الرسول عليه السلام ممن لا يتقون الله حتى يؤمر بها ، أو أن يكون مطيعا للكافرين فينهى عن طاعتهـم ولكنه أسلوب الالهاب والتهييج الذى يراد به الحث عـلى زيادة التمســك والتصلب والثبات على ما هو عليه « ويكون فضل هذه الطريقة فى التعبير على قولنا : استمر فى التقوى أو ازدد منها وازدد تمسكا بعدم طاعة الكافـرين والمنافقين : هى انهـا تفيـد مع ذلك الالهـاب والتهييج ، وتثير الشـــعور والوجدان ، فتكون النفس أحسن تلقيا ، وأكثر تمسكا بما هو كائن ، ولذلك نجد هذا الفن من فنون القول مستعملا فى المعانى الهامة التى هى أصول فى هذا الدين » (٢) ·

ومثل هذا قوله تعالى مخاطبا المؤمنين : « **آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » (٣) فالمخاطبون مؤمنون ولكنه أسلوب الالهـاب غرضه البلاغى ما قلناه فى الآية السابقة ·

ومثل هذا فى القرآن كثير ·

● أسلوب الالتفات :

« الالتفات عند الجمهور هو الانتقال من أسلوب الى أسلوب ، بأن يعبر بأسلوب التكلم مثلا ثم ينتقل الى أسلوب الخطاب ، وهكذا على أن يكون ذلك على خلاف ما يتوقع المخاطب » (٤) ·

---

(١) الاحزاب : ١ ·
(٢) من أسرار التعبير القرآنى ·
(٣) الحديد : ٧ ·
(٤) محاضرات فى تاريخ البلاغة العربية ص ١١١ ·

ولهذا الأسلوب مكانته فى التأثير النفسى ، اذ فيه تجديد لنشاط السامع واثارة لانتباهه لمعنى يواليه المتكلم اهتماما خاصا ، ويريد من المخاطب أن يتلقاه مصغيا اليه ، متفتح الوجدان لاستقباله ، فيلجأ لهذا الأسلوب ليحقق له ما يريد من تأكيد للمعنى وتثبيته ٠

وأمثلته كثيرة فى كتاب الله عز وجل ومنها :

قوله تعالى : « **وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** » (١) ٠

ففى قوله تعالى « **فأولئك هم المضعفون** » التفات من الخطاب الى الغيبة يقول عنه صاحب الكشاف « كأنه قال لملائكته وخواص خلقه : فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون ، فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون » (٢) ٠

ومنه أيضا قوله تعالى : « **وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، ان ربك حكيم عليم** » (٤) ٠

فقد بدأ بأسلوب التكلم ثم انقل منه الى أسلوب الخطاب فى قوله « **ان ربك حكيم عليم** » على طريق الالتفات ، اظهارا لمزيد اللطف والعناية بابراهيم عليه السلام ، ايناسا له جزاء ثباته وحده أمام الأمة كلها ٠

● **الخصائص الصوتية للتعبير القرآنى :**

لا شك أن للكلمات خصائص صوتية لها قدرة على حكاية المعنى وتصويره ، تجعل بعضها أشد توافقا مع بعض المعانى منها مع بعضها الآخر ٠ وتكتسب الكلمات هذه الخصائص المميزة من طبيعة الحروف المكونة لها ومخارجها فى النطق بين جهر وهمس ، وشدة ولين ، الى آخر ما يدرس فى علم التجويد ، أو فى علم الأصوات الحديث ٠ والنقد الحديث يعبر عن هذه الظاهرة بالموسيقى الداخلية وهى ذاتها ما عناه النقد القديم فى دعوته الى

---

(١) الروم : ٣٩ ٠ (٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٢٤ ٠

(٣) الأنعام : ٨٣ ٠

التلاؤم بين اللفظ والمعنى ، وأن يكون للغزل ألفاظ غير ألفاظ الفخر والحماسة والهجاء الى آخر ما ذكروه ٠

كما أن لبعض التعبيرات لونا آخر من الخصائص الصوتية ، وهو الايقاع والنغم الذى يجلبه التجانس الذى يجىء من ملاءمة الحروف لما يقع عليها من حركة أو سكون ، ومن طبيعة الحروف وترتيبها فى الكلمة ، أو ما يتبع هذا من التجانس بين الكلمة وأخواتها ، وبين العبارة والعبارة والمقطع والمقطع (١) ٠

هذه الخصائص الصوتية تهز المشاعر هزا عميقا ، وتحدث فى القارىء أو السامع نشوة وطربا ، وتجدد نشاطه ، وتزيد رغبته فى الاقبال عليه ، ولذلك أثره فى تثبيت المعانى والتأثر بها ٠

والقرآن الكريم يستخدم هذه الخصائص الصوتية كوسيلة من وسائل التأثير على أكمل صورة وأوفاها :

- فهو فى جملته لحن متوافق متآلف يسترعى من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر ، ولنستمع الى الدكتور محمد عبد الله دراز يتحدث عن ذلك :

« أول ما يلاقيك ويسترعى انتباهك من أسلوب القرآن خاصية تأليفه الصوتى فى صورته وجوهره ٠ دع القارىء المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلا بنفسه على هوى القرآن ، لا نازلا بالقرآن على هوى نفسه ، ثم انتبذ مكانا قصيا لا تسمع فيه جرس حروفه ، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ومداتها وغناتها ، واتصالها وسكتاتها ، ثم ألق بسمعك الى هذه المجموعة الصوتية وقد جردت تجريدا وأرسلت ساذجة فى الهواء فستجد نفسك منها بازاء لحن غريب لا تجده فى كلام آخر ٠ ستجد اتساقا وائتلافا يسترعى من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر على أنه ليس بأنغام ولا بأوزان ٠٠

ثم يقول : وهذا الجمال التوقيعى فى لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن ، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب » (٢) ٠

---

(١) انظر اتجاهات وآراء فى النقد الحديث ص ٢٨ ، ٨٥ ٠

(٢) النبأ العظيم ص ١٠١ ـ ١٠٢ ٠

ـ وقد تحدثنا من قبل عن الألفاظ المصورة بجرسها الخاص ، حتى انها لتكاد ترسم صورة للمعنى بنغمها المميز من أمثال : الصـــاعقة والصرصر وغيرهما ٠

ـ ثم هو فى بناء جمله يعمد الى لون من التوافق تكاد تكون به متوافقـة فى الوزن ، فلنقرأ قوله تعالى : « **والليل اذا يغشى ٠ والنهار اذا تجلى ٠ وما خلق الذكر والانثى ٠ ان سعيكم لشتى** » (١) فنجد ذلك الايقاع المميز الذى يشيع فى هذه الجمل ، فيجعلها كأنها مضبوطة بتفاعيل وأوزان متحدة ٠

ـ وثمة سـمة أخـرى للتعبير القرآنى هى ذلك التشـاكل الواقع بين الحروف فى أواخر الآى الذى يطلق عليه العلماء الفواصل ، وهى تمد التعبير بميزة صوتية أخرى تزيد تأثيره ، بجانب وظيفتها المعنوية ، اذ تساعد عـلى تلاوته مرتلا مجودا ، بأنغام آسرة ، ذات ايقاع يتناسب مع الموقف واتجـاه المشاعر التى تصاحبه ولهذا نرى أن القرآن الكريم ينتقل من فاصــلة الى أخرى تبعا للموقف ، وما يتطلبه من ايقاع يتناسب معه ٠

ولنقرأ قوله تعالى : « **يا أيها المدثر ٠ قم فانذر ٠ وربك فكبر وثيـابك فطهـر ٠ والرجـز فاهجر ٠ ولا تمنن تستكثر ٠ ولربك فاصبر** » (٢) فنراه يســتخدم قافية الراء الســاكنة التى يوحى ايقاعها بالحزم والجد الذى يستوجبه سياق هذه الأوامر الى نبيه الكريم بعد انقطاع الوحى عنه ٠

فاذا انتقل الى غرض آخر تغيرت الفاصلة بأخرى ذات ايقاع مغاير « **فاذا نقر فى الناقور ٠ فذلك يومئـذ يوم عسير ٠ على الكافرين غير يسير** » **(٣)** فهو هنا يذكر باليوم الآخر وما فيه من أهوال ، فيختار الألفاظ المتسمة بالشدة والقافية الموحية بالرهبة العميقة ٠

ومثل هذا نجده فى قصة مريم ، فقد التزم فى القافية الياء المشددة ، « **واذكر فى الكتـاب مـريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ٠ فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا** » (٤) الى آخر القصة فاذا انتهت وانتقل الى تقرير مغزى القصة وبيان العبرة من ذكرها نقرأ قوله تعالى :

---

(١) الليل : ١ ـ ٤ ٠

(٢) المدثر : ١ ـ ٧ ٠

(٣) المدثر : ٨ ـ ١٠ ٠

(٤) مريم : ١٦ ، ١٧ ٠

« **ذلك عيسى ابن مريم ، قـول الحق الذى فيه يمترون · ما كان لله أن يتخذ من ولد ،سبحانه ، اذا قضى أمرا فانما يقـول له كن فيكون · وان الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم** » (١) فتتغير القافية كما ترى « وكأنما هذه الآيات الأخيرة تصدر حكما مستمدا منها ، ولهجة الحكم تقتضى أسلوبا موسيقيا غير أسلوب الاستعراض ، وتقتضى ايقاعا رصينا قويا بدل ايقـاع القصة الرضى المسترسل وكأنما لهذا السبب كان التغيير » (٢) ·

وهكذا يستخدم القرآن الكريم الخصائص الصوتية كوسيلة للتأثير كما سبق أن بينا · فيختار لكل مقام ما تستوجبه البلاغة فى التعبير عنه ·



● **خامسا ـ اثارة بواعث الطاعة وتزكية دواعى الخير فى النفس :**

أشرنا فيما مضى الى أن النفس الانسانية هى مستقر لأشتات من النوازع والأهواء ، وعديد من الأشواق الروحية والحاجات المادية ، وأن هذا الحشد المتعارض المركوز فى فطرتها جعل منها ميدانا لمعركة دائمة محتومة ، وأن السلوك الانسانى هو مظهر لنتائج تلك المعركة النفسية ، حيث ينفرد المنتصر فيها بالقيادة والتوجيه ·

وهنا يأتى دور الدعوة القرآنية فى تزكية دواعى الخير ودعمها ، ليعلو صوتها فى التوجيه الى السلوك الطيب ·

والقرآن الكريم يحقق ذلك بأسـاليب متعـددة ، كلها تتجه الى النفس الانسانية بالتربية والتهذيب لتستقيم على الجادة ، وهو ينوع فى أساليبه لتجد كل نفس فيه ما يطب داءها ويناسب علتها · ويمكننا أن نذكر منها ما يلى :

● **الترغيب والترهيب :**

من المسلم به أن المعرفة وحدها لا تكفى فى الزام الانسـان بالفضائل وكفه عن الرذائل ، بل لابد معها من وسائل أخرى للتهذيب والتربية ، تحفز

---

(١) مريم : ٣٤ ـ ٣٦ ·

(٢) التصوير الفنى فى القرآن ص ٩٠ ـ ٩١ ·

الارادة وتبعث الهمة على الالتزام فى السلوك بما توجبه المعرفة من عمل الخير والبعد عن الشر ٠

وهذه الوسائل تنحصر فى نوعين ، أولهما الثواب والعقاب اللذان يدفعان الانسان الى عمل ما يعود عليه بالخير ، ويمنعانه عما يسبب له الأذى، وثانيهما التربية الخلقية التى تتعهد النفس الانسانية فتنمى فيها حب الخير وكراهية الشر حتى تصل بها الى عمل الخير حبا فيه ، دون نظر الى ما يترتب عليه من جزاء مادى ، بل يدفعها اليه ما تشعر به من الرضا والراحة عندما تفعله ، وتمتنع عن الشر لما تحسه من كراهية ونفور من التلبس به دون نظر الى ما يعقبه من عقاب ومآخذ ٠

والانسان فى تفاوت أفراده فى الاستعدادات النفسية والاستجابة الى وسائل التأثير محتاج الى كلا النوعين ، والمنهج السليم هو الذى يأخذ فى اعتباره الطبيعة الانسانية وتفاوت استعداداتها ، فيواجه كلا بما يناسبه ، ويقوده بما يصلح له ٠

ومن هنا نرى أن القول « بأن التربية بالترغيب والترهيب هى أحط أنواع التربية وأبعدها عن القيم الانسانية لأنها تستغل غريزتين من غرائز الحيوان وهما غريزتا الخوف من الألم والحرص على اللذة المادية ٠ فاستخدام وسائل التخويف من العقوبات والاغراء بالمكافآت فى التربية نزول بالانسان الى مرتبة الحيوان » (١) ٠

نقول : ان هذا القول فيه مثالية تتجاهل الواقع الواضح وهو تفاوت النفوس فى الاستعداد للتأثر ، فان كلا النوعين من وسائل التربية يصلح لفريق من الناس وقد لا يصلح لغيرهم لقصور استعدادهم النفسى عن الاستجابة له والتأثر به وسيبقى الانسان هو الانسان متفاوتا فى هذا الشأن ، محتاجا لتعدد وسائل التربية مهما بلغ من الحضارة والرقى ، وسيبقى المنهج القرآنى فى جمعه بين مختلف وسائل التأثير هو القمة فى مناهج التربية واصلاح النفوس ٠ ومن هنا كان ما فى القرآن من ترغيب وترهيب هو ما تقضيه البلاغة ويطابق الحال ٠

---

(١) انظر دراسات اسلامية ص ٧١ ٠

❁ تربية الشعور الدينى :

وذلك بأن يعقد صلة دائمة بين النفس الانسانية وخالقها ، ويعمق فيها المعانى التى تجعلها متجهة الى الله فى كل لحظة ، وفى كل عمل وفى كل فكرة وشعور ٠

فهو يثير فيها دائما الشعور بقدرة الله المطلقة ، ويثير فيها الشعور برقابة الله الدائمة عليها ، ويثير فيها مشـــاعر تقوى الله وخشيته ومراقبته فى كل عمل ، وكل خطرة فكر ، ويثير فيها التطلع الدائم الى رضاء الله وحبه ، ويثير فيها الاحساس بربوبيته ورعايته وفضــله ، ويثير فيها الاحســاس بالبعث والجزاء ٠

كل هــذه المعانى وغيرها يوقع القرآن الكريم على أوتارها فى النفس الانسانية يمهد بها للأمر أو النهى ، أو يعقب بها على التشريعات والأحكام ، فتؤتى ثمارها ، ايقاظا للوازع الدينى الذى يجعل المؤمن دائما على ذكر من ربه مستشعرا رقابته مؤملا فى فضله ، معتمدا عليه ، مستمدا منه الهــدى والرشاد ، مجتهدا فى نيل رضاه ومحبته ٠

ولنقرأ قوله تعالى معقبا على أحكام المحرمات فى النكاح : « **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم ٠ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ٠ يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفا** » (١) ٠

فنراه يثير فى نفس المؤمن الثقة فى هــذه الأحكام لأنها من عنــد الله الحكيم العليم ، الذى يريد الخير والهدى لعباده ، فهو يشرع لهم ما فيه الخير ويخفف عنهم ، وييسر عليهم ، مراعاة لطاقتهم لعلمه بما جبلــوا عليــه من ضعف ، فتشريعه صادر عن رحمة بهم وحب الخير لهم ٠

وفى استثارة شعور مراقبة الله نقرأ قوله تعالى : « **واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حليم** » (٢) ٠

---

(١) النساء : ٢٦ ــ ٢٨ ٠ (٢) البقرة : ٢٣٥ ٠

وفى استثارة شعور التوكل على الله ، والأمل فى فضله نقرأ قوله سبحانه « **ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدرا** » (١) •

والقرآن الكريم زاخر بمثل هذه التوجيهات ، وهى سمة لا تحتاج الى دليل •

● تربية الشعور الأخلاقى :

القرآن الكريم هنا يوقظ فى النفس الاحساس بحب الخير لذاته ، دون رغبة أو رهبة ، لما فيه من راحة للضمير ، واطمئنان للقلب ، وبغض الشر لذأته لما فيه من فحش وسوء وأذى للضمائر الطاهرة •

ولنقرأ قوله تعالى : « **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف ، انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا** » (٢) فهو ينهى عن هذا الفعل القبيح ، لأنه فاحشة يجب أن تعافه النفس ، وتتعالى على الاقدام عليه •

ومثل ذلك قوله تعالى فى الزنا « **ولا تقربوا الزنا ، انه كان فاحشة وساء سبيلا** » (٣) وعندما يحثنا على غض البصر ، وطهارة الذيل ، يقول سبحانه : « **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم** » (٤) • فهو يعلل أمرنا بهذا السلوك بأنه سلوك فاضل ، يجب أن يلتزمه المؤمن لفضله • وفى هذا ايقاظ للشعور الخلقى ، ليستقيم السلوك بدافع منه •

● أسلوب الاحتكام الى النفس :

يلجأ القرآن الى أسلوب نفسى ناجح فى ضمان الاستجابة والطاعة وهو أسلوب يمكن أن نسميه أسلوب الاحتكام الى النفس ، كما فى قوله تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ،**

---

(١) الطلاق : ٣ •
(٢) النساء : ٢٢ •
(٣) الاسراء : ٣٢ •
(٤) النور : ٣٠ •

واعلموا أن الله غنى حميد » (١) فالقرآن هنا يطالب المنفقين بالاحتكام الى أنفسهم ، والتفكير فيما يكون عليه الأمر ، اذا كان المنفق فى مكان الشخص الآخذ وهذا أسلوب من أحكم الأساليب فعن طريقه يكون احترام الانسان لشعور الآخرين ومعاملتهم بما يحب أن يعامل به ٠

ومثله قوله تعالى : « **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا** » (٢) ٠ ففى سبيل ايقاظ مشاعر الرحمة والحنان فى قلوب الأوصياء على اليتامى يذكرهم النص بأن أولادهم أنفسهم قد يقعون تحت ولاية غيرهم فليعاملوا ما تحت يدهم بما يحبون أن يعامل به أولادهم من غيرهم وليكن ذلك دافعا لهم الى تقوى الله فيهم والعدل اليهم والبر بهم ٠ ومن هنا كانت بلاغة النص فى تضمنه ما يضمن الاستجابة الى التوجيه الربانى بهذا الأسلوب الحكيم ٠

● **اللمسات الوجدانية المناسبة للموقف :**

منها التعقيب على المعانى بذكر صفات الله المناسبة للموقف ، والتى تلقى بايحائها القادر على استمالة النفوس واذكاء تطلعها الى ما بها من سمو للتأسى بها كالذى نراه فى قوله تعالى : « **يا أيها الذين أمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم ، ان الله كان بكم رحيما** » (٣) فاختيار الرحيم من بين أسمائه سبحانه هو المناسب لمقام النهى عن هذه الجرائم ضمانا للاستجابة أى انه سبحانه مبالغ فى الرحمة بكم ولذلك نهاكم عما نهاكم عنه فان فى ذلك رحمة عظيمة لكم بالمزجر عن المعاصى ، وللذين فى معرض التعرض لهم بحفظ أموالهم وأنفسهم » (٤) ٠ فلتتخلقوا بأخلاق الله وليكن التراحم هو أساس تعاملكم ٠

ومن ذلك قوله تعالى :«**قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما ، ان الله سميع بصير** » (٥) فان التعقيب على ما تضمنته الآية بذكر هاتين الصفتين يذكى فى المؤمن شعور مراقبة الله والحياة فى ظل الاحساس باطلاعه على أموره كلها وذلك أعظم دافع للسلوك القويم ٠

---

(١) البقرة : ٢٦٧ ٠
(٢) النساء : ٩ ٠
(٣) النساء : ٢٩ ٠
(٤) الكشاف جـ ١ ص ٢٣٣ ٠
(٥) المجادلة : ١ ٠

ومن تلك اللمسات الموحية ما نراه فى قوله تعالى : « **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا** » (١) ففى قوله تعالى : « **من أنفسكم** » لمسة توثق عرى الرابطة بين الرجل والمرأة ، فهى من أنفسكم وشطر منكم وليست بجنس آخر تحزنون عندما ترزقون بها ٠

ومنه قوله تعالى : « **فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** » (٢) فهذه اللمسة تصل النفس بالله وتهدىء من ثورة الغضب وتثنأ من حدة الكره ، حتى يعاود الانسان نفسه فى هدوء ، وحتى لا تكون الحياة الزوجية عرضة للخطر ، كلما طرأ على النفس شعور ، قد لا يلبث أن يزول ٠

ومن ذلك ايثار صفات خاصة فى النداء مثل قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا** » وقوله : « **يا بنى اسرائيل** » وقوله : « **يا أهل الكتاب** » وذلك لأن النداء بمثل هذه الصفات يكون أكثر استمالة للمخاطبين ، وأعظم ترغيبا فى الطاعة ٠

وأمثال هذا فى ثنايا هذا البحث كثير ٠٠

★★★

● **سادسا ـ المنطق الوجدانى :**

جادل القرآن الكريم خصوم الدعوة على تشعب اتجاهاتهم ، ما بين جامد مقلد ، ومتعصب لا ينقاد ، ومغرور بمنطقه وعقله ، وأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد ، فكذبوا وحرفوا وأحالوا الدين وسيلة لاستدرار الرزق والاستزادة من المغانم ، والاستعلاء بالسلطة والقيادة ٠

جادل هؤلاء وغيرهم كما سبق أن أوضحنا ، ولكن القرآن فى جدله جمع بين نهايات الفضيلة فى البيان والاقناع ، وسلك طريقا لا يقدر عليه الا رب الناس العليم بأسرار الخلق وخفايا النفوس ٠

ان القرآن دعوة عامة خالدة ، فهى للناس جميعا ، وللأجيال كلها ، فجاء جدله ملبيا لحاجة الدعوة الى اقناع الناس جميعا على اختلاف

---

(١) النحل : ٧٢ ٠ (٢) النساء : ١٩ ٠

نزعاتهم وتعاقب أجيالهم ، وكان بذلك أيضـا وسـيلة من وسـائل التأثير الحاسمة المتجددة فى القرآن الكريم ·

وقد سبق أن أشرنا الى المعرفة التى تصل الى النفس عن طريق العقل المجـرد تكون باردة واهنة مستكينة ، لا تستطيع أن تجـد لنفسها مكانا فى حنايا القلوب تستقر فيه ، وتباشر منه التوجيه والقيادة فى السلوك · كما أن أساليب البشر فى التعبير عن الحقائق العقلية بأسـاليب المنطق ، ومقولات الفلسفة غالبا ما تستعصى على الفهم لدى الغالبية العظمى من النـاس ، مما يجعلها مقصورة على الخاصة الذين أوتوا نصيبا ملحوظا من الاقتدار العقلى والطاقة الفكـرية · وهؤلاء بدورهم لا يعجـزون عن اثارة الشبهات حولها والتشـكيك فيها أو نقضـها بقضـايا وأفكار تعارضـها ، ممـا يدمر قيمتها ، ويجعل منها فى الواقع جهدا ضائعا لا يؤدى الى شىء ·

ولهذا صاغ القرآن الكريم جدله فى أسلوب متميز ، لا يجـرى على ما تعارف عليه الناس فى جدلهم وأساليب اقناعهم ، لقد استخدم ما يمكن أن نسميه المنطق الوجدانى · مستعيرين تلك التسمية ممن سبق له اطلاقهـا عليه (١) ·

وهذا الأسلوب المتميز هو القادر فعلا على الوفاء بحق الدعوة العالمية الخالدة ، بما تضمنه من خصائص تمكنه من ذلك ·

فالقرآن الكريم فى عرضه لهذه الألوان من الأدلة لا يعبر عنها تعبيرا ذهنيا مجردا ، ولا يلجأ الى المعميات والأحاجى ، بل يعرضها فى أسـلوب يمتع العقل والعاطفة ، مستخدما الاثارة الوجدانية وتحريك العاطفة ، وهز مشاعر الخوف والرجاء ، وانتزاع الأدلة من الأمور المحسة الواضحة فى أسلوب تصويرى أخاذ قادر على مخاطبة جوانب النفس المتنوعة ، ليصـل بقضاياه الى أعماقها بالاضافة الى ما يتضمنه التعبير من اللمسات الموحية ، مما يجعلنا نقول فى ثقة انه أسلوب الهى ، لا طاقة لبشر على مجاراته ، فهو تنزيل من العليم الخبير · ولنورد بعض الشواهد المؤكدة لما قلناه ·

يريد القرآن الكريم أن يسوق الدليل المنطقى اليقينى على وحدانية الله ونفى الولد والشريك عنه متكئا على حقيقة لا تنكر وهى أنه لو كان هناك آلهة

---

(١) انظر التصوير الفنى فى القرآن ص ١٨٤ ·

غير الله كما يزعمون لاستقل كل اله بما خلق ولحاول بعضهم أن يكون له الغلب والسلطان على غيره فيحدث الشقاق ويؤدى ذلك الى فساد الكون ، ولكن الواقع الذى لا ينكر بحال أن الكون كله ينتظمه قانون واحد ولم يتطرق اليه فساد ، اذن فمدبره واحد وليس هناك غير الله • ولكن القرآن يسوق هذا الدليل فى هذا التعبير المعجز فى بلاغته فيقول سبحانه :

« قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون • سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون • قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم • سيقولون لله ، قل أفلا تتقون • قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون • سيقولون لله ، قل فانى تسحرون • بل أتيناهم بالحق وانهم لكاذبون • ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون » (١) •

فنراه يمهد للدليل بهذه الاستفهامات التقريرية كى ينتزع اعترافهم بالمقدمات اليقينية التى لا يمكن انكارها • ثم يضمن النص لمسات توجه أنظارهم الى التناقض الواضح فيما يعتقدون ، فاذا كانوا يقرون بهذه الحقائق وأن الله مالك السموات والأرض وخالقهما ومدبرهما فكيف يشركون معه آلهة أخرى فى العبادة « **أفلا تذكرون** » ؟ « **فانى تسحرون** » ؟ • ثم يثير فيهم مشاعر الخوف وحب السلامة بقوله « **أفلا تتقون** » ؟ ، « **وهو يجير ولا يجار عليه** » • ثم يحملهم على الاجابة بقوله « **ان كنتم تعلمون** » ويكرر ذلك كى يقروا حتى لا يتهموا بالجهالة والحمق •

ثم يختار من الألفاظ ما يوحى بالمهابة والتعظيم لجنابه سبحانه وذلك ليلقى فى نفوسهم ما يحملها على الايمان بهذا القادر القوى فنراه يكرر لفظ « الرب » ويضيفه الى العرش ويصف العرش بالعظمة ، والعرش رمز الاستعلاء ، ثم يختار لفظ « الملكوت » وهو بصيغته الدالة على المبالغة يوحى بالتمكن وقوة السلطان ثم يضيف الملكوت الى « كل شيء » للاشارة الى امتداد سلطانه تعالى الى ما ذكر وما لم يذكر ، وكل هذه الخصائص التى لوحظت فى التعبير توحى بالمهابة وتعمق الشعور بالاجلال لله وتعظيمه •

وفى جو هذا التأثير الوجدانى يسوق الدليل العقلى « **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على**

---

(١) المؤمنون : ٨٤ ـ ٩١ •

بعض » (١) وهو كما نرى مشرق ومضىء لا أثر فيه لغموض يستعصى على الفهم أو القياس يحتاج الى تفسير ٠

ثم يعقب عليه بما يؤكد المهابة فى القلوب «**سبحان الله عما يصفون**»(١) تنزه سبحانه عما يقولون ٠ وهكذا ساق القرآن الكريم الدليل العقلى فى غمار هذا الفيض من المؤثرات الوجدانية ، وتلك هى طريقة القرآن فى جدله للمنكرين ٠

هذا وقد استخدم القرآن كثيرا من أساليب الجدل ولكن عرضه لها كان دائما متسما بهذه السمة الوجدانية لتنشرح الصدور لقبولها ومنها أسلوب مطالبة الخصم بتصحيح دعواه واقامة الدليل عليها ، حتى اذا عجز لزمته الحجة ، وكان ذلك تأكيدا للدعوى التى يريد القرآن اثباتها ، كالذى نقرؤه فى قوله تعالى :

« **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ، ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين** » (٢) ٠

كما يستخدم أسلوب مجاراة الخصم واستدراجه حتى يستنبط بنفسه الحق بالتجربة كالذى نراه فى قوله تعالى : « **واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ، انى أراك وقومك فى ضلال مبين ٠ وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ٠ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ٠ فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ٠ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون ٠ انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما انا من المشركين** » (٣) ٠

هذا ويستخدم القرآن فى الاقناع أسلوب ضرب المثل ، وأسلوب التقرير وغيرها ويعرضها فى أسلوبه المميز الذى يجمع بين الاقناع العقلى والتأثير الوجدانى والوضوح الكامل والسلامة من كل تعقيد أو غموض ٠ وبذلك يصل فى البلاغة الى مدى لا يتطاول اليه بشر ٠

★ ★ ★

---

(١) المؤمنون : ٩١ ٠ (٢) الاحقاف : ٤ ٠

(٣) الانعام : ٧٤ ــ ٧٩ ٠

● **سابعا ـ توجيه النظر الى الظواهر والآثار الكونية للتعرف على الأسباب الكامنة وراءها :**

من أساليب التأثير فى القرآن الكريم أسلوب الدعوة الى الملاحظة العلمية لما فى الكون من ظواهر وآثار ، وتدبر أسرارها ، والتأمل فى ملكوت السموات والأرض وما فيهما من دلائل قاطعة على أن وراءها صانعا حكيما ، وخالقا مبدعا وقادرا عظيما •

ولهذا الأسلوب تأثير عقلى ووجدانى فى وقت واحد ، ولهذا أفردناه بعنوان خاص ، فعن طريقه تجد العقول الباحثة عن الحق الدليل الذى لا يجحد على أن لهذا الكون الها منفردا بالملك ، متعاليا عن الشركاء ، متصفا بكل كمال ، وعن طريقه أيضا يفاض على الروح تيار متدفق من المشاعر تملؤها هيبة واكبارا وتقديسا لهذا المبدع العظيم وتلين وتصفو وترق ، وتتطهر من نوازع العناد والتطاول ، فيعنو وجهها لهذا الخالق العظيم بعد أن عرفت أنها ليست بأكثر من هباءة فى هذا الملكوت الرهيب ، وصدق الله العظيم : **« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب• الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » (١) •**

ومن سمات هذا الأسلوب أن تأثيره ذاتى متجدد ، لا يختص بعصر دون عصر ، ولا بجنس دون جنس ، ولا بمستوى ثقافى دون آخر ، فمتى وجه الانسان فكره الى هذا السبيل انثالت عليه تأثيراته العقلية والروحية ، فلا يملك لها دفعا • وكلما ازداد علما ازدادت قدرته على استقبال فيض أعظم من هذه التأثيرات •

ولعل ما نقرؤه من كتب تتتابع لعلماء لا صلة لهم بأمور الدين ـ بل ربما كانوا فى موقع يغرى بالتمرد عليه ، فجلهم علماء فى العلوم الكونية والطبيعة ـ دليل ساطع على ما نقول ، فان هؤلاء العلماء أدركوا بعقلهم المجرد فى نظرته لمظاهر الكون وتوصلوا الى كل ما تدعو اليه الأديان فى مجال العقيدة من اثبات الألوهية والتوحيد ، وصفات الكمال • أما ما نسمعه عن علماء من تفسيرات لنشوء الكون بالصدفة وغيرها فانه يمثل انحرافا بالفطرة ، التى

---

(١) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ •

أودعها الله فى النفس سببه التعصب الأعمى لنظـريات و « أيديولوجيات » خاصة تريد الترويج لنفسها وفرض آرائها على الآخرين واجبارهم على السير فى ركابها · وقد تكفل من هم أرسخ منهم قدما فى العلم بتسفيههم ونقض آرائهم (١) ·

والقرآن الكريم زاخر بمثل هذه الآيات التى تدعو الى النظر فى الكون منها قوله تعالى : « **ان فى خلق السـموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** » (٢) ·

وقوله تعالى : « **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعـالمين · ومن آياته منامكم بالليل والنهـار وابتغاؤكم من فضله ، ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون · ومن آياته يريكـم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** » (٣) ·

وقوله تعالى : « **وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون · وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** » (٤) ·

★ ★ ★

---

(١) من الكتب القيمة فى هذا ، كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » لمجموعة من العلمـاء المتخصصين فى العلوم الطبيعية والكونية ـ مؤسسة فرانكلين الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٦٨ · وكتابا : « مع الله فى السماء » و « مع الله فى الأرض » للدكتور أحمد زكى · وغيرهما كثير ·

(٢) البقرة : ١٦٤ ·

(٣) الروم : ٢٢ ـ ٢٤ ·

(٤) الرعـد : ٣ ، ٤ ·

● ثامنا ـ الصياغة القرآنية وأسرار التراكيب فيها :

عندما نتحدث عن الصياغة القرآنية ، وما لخصائصها من القدرة على الوفاء بحق المعانى ، وعرضها فى صورة تسترعى السمع ، وتثلج الصدر ، وتملك القلب نجد أننا أمام عالم من الأسرار واللطائف والاعتبارات ، يأخذ كل باحث منها بمقدار ما يفتح الله له من رحمته ، وما يهبه من عطاء وكلما عاود النظر فيها تجلى له من أسرارها الجديد المبهر ، والجميل الآسر فلا تنفد عجائبها ولا يغيض معينها ٠

ونستعير هنا تعبير عبد القاهر عن النمط العالى من الكلام والباب الأعظم والذى لا ترى سلطان المزية يعظم فى شىء عظمه فيه ـ ولله المثل الأعلى ـ « اعلم أنه مما هو أصل فى أن يدق ويغمض المسلك فى توخى المعانى التى عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها فى بعض ، ويشتد ارتباط ثان بأول ، وأن يحتاج فى الجملة الى أن تضعها فى النفس وضعا واحدا ، وأن يكون حالك فيها حال البانى يضع بيمينه ههنا فى حال ما يضع بيساره هناك ، نعم وفى حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين ، وليس لما شأنه أن يجىء على هذا الوصف حد يحصره ، وقانون يحيط به فانه يجىء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة » (١) ٠ والقرآن الكريم هو هذا النمط فى صورته المثلى ٠

وقد سبق أن أشرنا الى أن القرآن الكريم لم يبتكر جديدا فى ألفاظ اللغة ولا فى أوضاعها وتراكيبها ، ولكن الأمر أمر حسن الاختيار فى تلك الألفاظ والأوضاع أيها أحق بأن يسلك فى تأدية الغرض ٠

ذلك أن الغرض الواحد يؤدى على طرائق شتى ، يتفاوت حظها فى الحسن والقبول « ففى اللغة العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمبين ، وفيها العبارة والاشارة والفحوى والايماء ، وفيها الخبر والانشاء وفيها الجمل الاسمية والفعلية ، وفيها النفى والاثبات ، وفيها الحقيقة والمجاز وفيها الاطناب والايجاز ، وفيها الذكر والحذف ، وفيها التعريف والتنكير ، وفيها التقديم والتأخير وهلم جرا ٠٠٠ ومن كل هذه المسالك ينفذ الناس الى أغراضهم غير ناكبين بوضع منها عن أوضاع اللغة جملة بل هم فى شعابها يتفرقون ، وعند حدودها يلتقون ٠

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٦٨ ـ ٦٩ ٠

بيد أنه ليس شيء من هذه المسالك بالذى يجمل فى كل موطن ، وليس شيء منها بالذى يقبح فى كل موطن ، اذن لهان الأمر على طالبه ، ولأصبحت البلاغة فى لسان الناس طعما واحدا • كلا ، فرب كلمة تراها فى موطن ما كالخرزة الضائعة ، ثم تراها بعينها فى موضع آخر كالدرة اللامعة فالشأن اذن فى اختيار هذه الطرق أيها أحق بأن يسلك فى غرض غرض وأيها أقرب توصيلا الى مقصد مقصد » (١) •

والقرآن الكريم هو القمة فى حسن هذا الاختيار ، سواء فى ذلك الألفاظ المفردة ، باعتبارها اللبنات التى تصاغ منها الجملة ، ويتكون الأسلوب ، أو طريقة تركيب الألفاظ وصياغة العبارة ، « فهو يتخير أشرف المواد وأمسها رحما بالمعنى المراد ، ويضع كل مثقل ذرة فى موضعها الذى هو أحق به » (٢) • ولنفصل ذلك بعض التفصيل :

● دقة اختيار الألفاظ :

ألفاظ القرآن الكريم كلها منتقاة مختارة ، لتؤدى دورها فى المعنى على أكمل وجه ، وفى دقة تامة حسب المراد من التعبير بحيث يشعر الباحث بأن كل لفظ قد وضع حيث لا يسد غيره مسده فى موضعه ، ونستطيع أن نمثل لذلك بكل ما جاء فى القرآن من الألفاظ ، ولكن سنذكر بعض النماذج التى تبدو حكمة اختيارها دون سواها واضحة جلية :

فمن ذلك قوله تعالى : « **ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون** » (٣) فالمراد بالآية الكريمة بيان أن الدافع لعدم الانفاق فى سبيل الله هو ما فى النفس من طبيعة الشح والحرص ، ولكن القرآن الكريم يعبر عن ذلك بقوله « **ومن يوق شح نفسه** » ولفظ « **يوق** » يوحى بأن الشح بلاء يودى بصاحبه ، ومن ثم فهو فى حاجة الى من يقيه شره ويكف عنه أذاه ، وهذا الايحاء الذى تضمنه اللفظ الذى اختاره القرآن فى التعبير هو المناسب للمقام لأنه ينبه المسلم على الخطر ويدفعه الى ترويض غرائزه ، وكبح جماحها ، ووقاية نفسه من غوائلها بالاستعلاء عليها وعدم الاستجابة لها •

---

(١) النبأ العظيم ص ٩٠ ـ ٩١ • (٢) النبأ العظيم ص ٩٢ •

(٣) التغابن : ١٦ •

ومن ذلك قوله تعالى : « **قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا اين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا** » (١) .

فعيسى عليه السلام يخبر قومه بحقيقة أمره ويبرىء أمه مما يوجهه قومها اليها . فيقرر أنه عبد الله آتاه الكتاب والنبوة وأمره بالصلاة والزكاة . ولكن القرآن الكريم يعبر عن الأمر بالصلاة والزكاة بقوله « **وأوصانى** » وذلك اشارة الى أهمية هاتين العبادتين فلفظ أوصانى يدل على الأمر المصحوب بالتأكيد ، فكأنه قال : أمرنى أمرا مؤكدا ومن هنا كان اختيار لفظ « أوصانى » هو المناسب للمقام وهو الذى تقتضيه البلاغة .

ومن ذلك قوله تعالى : « **ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بايمانكم ، بعضكم من بعض ، فانكحوهن باذن أهلهن** » (٢) . الآية الكريمة ترخص بالزواج من الاماء لمن لا يقدر على تبعات الزواج من الحرائر . والزواج من الاماء تحيط به اعتبارات متعددة ، فمن جهة نرى أن الرق يعرض الاماء لكثير من الأمور تجعل الزواج منهن سببا فى كثير من الأضرار . كتعريض الولد للرق ، فالولد تابع لأمه ـ الا اذا كان الأب هو مالك الأمة فيكون الولد حرا وتصبح هى أم ولد تعتق بموت سيدها ـ فهو يضيف الى المجتمع أعدادا جديدة يولدون وقد علقت بهم وصمة يعمل الاسلام على تخليص المجتمع منها . بالاضافة الى أن الأمة بحكم وضعها ممتهنة مبتذلة ليس لها من الاعتبارات الأدبية ما يوفر لها الصون والعفة . ومن جهة أخرى فان هؤلاء الاماء المؤمنات على الرغم من هذه الاعتبارات أخوات فى الانسانية والدين لا يجب أن تمتهن كرامتهن أو يجحد حقهن كبشر كرمه الله .

والنص الكريم يجمع بين كل هذه الاعتبارات ويصوغ المعنى فى الألفاظ قادرة على الوفاء بهذا كله .

فنراه فى مجال الترغيب فى زواج الحرائر يختار لهن وصف « **المحصنات** » وهو وصف يوحى بالترغيب كأنه يقول « ان الحرة أولى أن يتزوج بها لان لها من حريتها ما يحصنها ويحميها من الامتهان والاقدام على ما لا ينبغى . أما اذا ألجأت الضرورة الى الزواج من الاماء فنرى القرآن

---

(١) مريم : ٣٠ ، ٣١ .

(٢) النساء : ٢٥ .

المعجز يختار من الألفاظ ما يصون الكرامة ويحافظ على المشـــاعر ويوحى بحسن المعاملة فهو يسميهن « **فتياتكم** » فلا يعبر عنهن بالاماء أو الجوارى ثم يضيفهن الى ضمير المخاطبين رعاية لشعورهن وايحاء بحسن معاملتهن • ثم يعبر عن مالكيهن بقوله « **أهلهن** » فلا يسميهم سادة أو ملاكا ، وهــكذا يختار القرآن ألفاظه الموافقة للمعانى السامية التى يحرص على تعميقها فى النفوس •

● **دقة التراكيب وخواصها :**

يتبع نظم الجملة فى القرآن الكريم المعنى المراد أداؤه ، فهو يختــــار من أوضاع اللغة وطرائقها فى التعبير أقدرها على تصوير المعنى وابرازه ، مقدرا لكل شىء موقعه وقدره كى يأتى التعبير فى النهاية فى أكمل صيغة يمكن أن يؤدى المعنى بها • فاذا قدم أو أخر ، واذا حذف أو ذكر ، واذا عـرف أو نكر واذا طابق أو جانس الى آخر ما يمكن أن تكون عليه الصياغة من أوضاع فانه لا يفعل ذلك لمجرد الصناعة اللفظية بل لأن المعنى هو الذى جعل تركيب التعبير على هذه الصورة أو تلك ضرورة لا معدى عنه • فكل شىء عنـده بمقدار ، ولكل شىء سره البلاغى الذى يتطلبه المعنى ويقتضـيه المقام « حتى صار من العسير بل من المســتحيل أن تغير فى الجملة كلمة بكلمة ، أو أن تستغنى فيها عن لفظ ، أو أن تزيد فيها شيئا ، وصار قصارى أمرك اذا أردت معارضة جملة فى القرآن أن ترجع بعد طول التطواف اليها ، كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعانى غير هذه الألفاظ ، وكأنما ضاقت اللغة ، فلم تجد فيها ، وهى بحر خضم ، ما تؤدى به تلك المعانى غير ما اختاره القرآن الكريم لهذا الأداء » (١) •

ولنستعرض ألوانا من اختيار القرآن الكريم ابناء تعبيره فى صيغة دون أخرى لنرى صدق ما قدمنا •

يستخدم القرآن فى تعبيره كلا من الجملة الاسمية والفعلية ولكنه يتوخى فى كل موضع اختيار المناسب للمقام ، فيؤثر الفعلية اذا أضاف التعبير بها اعتبارا يحتاجه المعنى كالاشارة الى التجدد والحدوث ، كالذى نراه فى قوله تعالى :

---

(١) من بلاغة القرآن ص ١٠٥ •

« **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير · تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب** » (١) فهذه الأفعال الصادرة عن مالك الملك تتجدد فى كل حين وتقع فى كل وقت ومن هنا كانت الجملة الفعلية وصيغة المضارع الدالة على الحال والاستقبال هى المتعينة فى التعبير عنها ·

كما يؤثر الجملة الاسمية اذا كان المقام يتطلبها ، كأن يريد الاشارة الى الاستمرار والثبوت ، وأن الأمر دائم لا يتغير كالذى فى قوله تعالى فى شأن المؤمنين : « **أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون** » (٢) فالمشار اليه وهم المؤمنون بالغيب والمنفقون مما رزقهم الله والمؤمنون بما أنزل على الرسول وما أنزل من قبله هؤلاء هدايتهم ثابتة وفلاحهم دائم · ومن هنا جاء ما تتضمنه الجملة الاسمية من تأكيد ·

وقد يؤثر القرآن الكريم تقديم ما تقتضى الصناعة اللفظية تأخيره كتقديم معمول الفعل فى قوله تعالى : « **قل أغير الله اتخذ وليا** » (٣) « وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك : أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ؟ وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ وأيكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك ؟ ولا يكون شىء من ذلك اذا قيل : أأتخذ غير الله وليا · وذلك لأن الانكار حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ولا يزيد على ذلك » (٤) ·

وقد يفضل القرآن الحذف اذا كان المعنى يتطلبه ، كالذى نراه فى قوله تعالى : « **واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين** » (٥) فان المستعان عليه فى الآية غير مذكور وسر هذا الحذف الايحاء بأن كل ما يواجه الانسان فى حياته من مشقات وما يعترضه من صعوبات يستعان فى التغلب عليه بالصبر والصلاة · أى لافادة العموم ، وهذا المعنى لا يستفاد لو ذكر المستعان عليه فانه حينئذ سيكون مقصورا عليه ·

---

(١) آل عمران : ٢٦ ، ٢٧ ·
(٢) البقرة : ٥ ·
(٣) الأنعام : ١٤ ·
(٤) دلائل الاعجاز ص ٩٥ ·
(٥) البقرة : ٤٥ ·

وقد يؤثر القرآن الكريم التنكير لأنه المناسب للمقام مثل قوله تعالى :
« **واذا قيل ان وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين** » (١) ٠

فالقرآن هنا يصور ما فى نفوسهم فهم جاحدون لقيام الساعة واذا كان لديهم تردد فى انكارهم لها فهو ظن ضئيل ٠ فكان التنكير هنا لافادة التقليل الذى يقتضيه المقام ٠

وقد يفضل القرآن الكريم التعبير بالاسم الموصول لغرض بلاغى كما فى قوله تعالى : « **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا** » (٢) والسر البلاغى فى ايثار التعبير بالاسم الموصول هو أن ينص فى صلته على مدار الحكم ، وأن استحقاق الأجر مترتب على تحقيق ما تضمنته الصلة من صفات ٠ هذا الى ما فيه من تشويق الى معرفة الخبر بل والتمهيد له ٠

وقد يؤثر التعبير بالاسم الظاهر بدل الضمير لداع بلاغى مثل قوله تعالى : « **أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ، ان ذلك على الله يسير** » (٣) فقد أعاد لفظ الجلالة بدل الضمير فى قوله « **ان ذلك على الله يسير** » وذلك لأن اسمه سبحانه يوحى بالجلال المؤذن بيسر بدء الخلق عليه وقدرته على اعادته ٠

وقد يؤثر التعريف بـ « أل » لسر بلاغى كالذى فى قوله تعالى : « **ذلك الكتاب لا ريب فيه** » (٤) ٠ لأن « أل » هنا مستخدمة لاستغراق الجنس ، فكأنه قال : ذلك هو الكتاب المستكمل لخصائص جنسه ، فهو الكتاب الكامل ٠

وقد يؤثر التعبير باسم الاشارة لغرض يراد تحقيقه مثل قوله تعالى :

«**الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**» (٥)
فالمقصود بـ « **أولئك** » هم من اتصفوا بالصفات السابقة عليه والسر البلاغى

---

(١) الجاثية : ٣٢ ٠ — (٢) النساء : ٥٧ ٠
(٣) العنكبوت : ١٩ ٠ — (٤) البقرة : ٢ ٠
(٥) الأنعام : ٨٢ ٠

فى التعبير باسم الاشـارة هو بيـان أن هـذا الحكم مبنى على تحقق هـذه الصفات ٠

وقد يفضل التعبير بأسلوب القصر كما فى قوله تعالى : « **لا يصلاها الا الأشقى** » (١) فالمقام هنا مقام ترهيب ولهذا تضمن التعبير ألوانا من وسائل التأثير منها اختيار لفظ « **يصلاها** » لما يلقيه فى النفس من تصوير مفزع ومنها تسمية مستحقها « **الأشقى** » ثم استخدام أسلوب القصر كأن النار لم تخلق الا له ٠ وفى ذلك من التأكيد ما يناسب المقام ٠

وقد يستخدم أسلوب الفصل أو الوصل اذا اقتضى المقام أيهما ٠ ولنتأمل قوله تعالى : « **افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ٠ والى السماء كيف رفعت ٠ والى الجبال كيف نصبت ٠ والى الأرض كيف سطحت** » **(٢) ٠**

فقد وصل بين الجمل بالواو لأن هذه الأشياء كلها مما يحض القـرآن على النظر فيه وتدبره ليصل المتأمل لها الى الايمان بالبعث والحساب ٠

ولنتأمل أيضا قوله تعالى : « **ان الذين كفروا سواء عليهم اأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** » (٣) ٠ فقد فصل بين الجملة الأولى وبين قوله «**لا يؤمنون**» لأن الثانية تأكيد للأولى فبينهما من الارتبـاط المعنـوى ما يغنى عن الوصل بالواو ٠

وقد يؤثر القرآن الكريم أسلوب الجناس لاستدعاء المعنى له كالذى فى قوله تعالى : « **يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ٠ يقلب الله الليل والنهار ، ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** » (٤) ٠ « فان كلمة الأبصـار الأولى مسـتقرة فى مكانها فهى جمع بصر ، ويراد به نور العين الذى يميز بين الأشـياء ، وكلمة الأبصار الثانية جمع بصر بمعنى العين ، ولكن كلمة الأبصار هنا أدل على المعنى المراد من كلمة العيون ، لما أنها تدل على ما منحته العين من وظيفة الابصار ، وهى التى بها العظة والاعتبار ، فأداء المعنى كاملا تطلب ايراد هذه الكلمة ٠ حتى اذا وردت رأينا هذا التناسق اللفظى » (٥) ٠

---

(١) الليل : ١٥ ٠

(٢) الغاشية : ١٧ ــ ٢٠ ٠

(٣) البقرة : ٦ ٠

(٤) النور : ٤٣ ، ٤٤ ٠

(٥) من بلاغة القرآن ص ١٨١ ــ ١٨٢ ٠

وعلى هذا المنوال يستخدم القرآن سائر الأساليب من تشبيه أو استعارة أو كناية أو تعريض أو تلميح أو مشاكلة أو طباق أو مقابلة ، أو مراعاة النظير أو غيرها فيؤثر منها أمسها رحما بالمعنى وأقدرها على الوفاء به وعرضه فى صورة استوفت شرائط البلاغة واكتملت لها القدرة على التأثير حتى اذا ما انتهت صياغة المعنى بدا التعبير وكأنه بناء هندسى بلغ الغاية فى الكمال والجمال ، يهزك ايقاعه وتناسقه ، وتمتعك صوره وظلاله ، وتستولى عليك ايحاءاته ومعانيه ، ويبهرك جماله وجلاله ، ويأخذ عليك نفسك كلها ، ومن هنا كان ما سمعناه وما نلمسه من تأثير القرآن فى النفوس وامتلاكه أزمة العقول والقلوب ٠

وبعد ٠ فهذه هى أهم وسائل التأثير فى أسلوب الدعوة القرآنية ٠ وقبل أن ننتقل الى الحديث عما بقى لنا من موضوعات فى البحث نحب أن نسجل أمرين هامين ٠

أولهما : أن هذه الوسائل كما رأينا هى فى الواقع حسن استخدام لألوان البلاغة وفنونها فمنها تنبع وبها تكون وعنها تنشأ ، فالبلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال والكلام البليغ هو ما صيغ فى صورة ضمنت من الاعتبارات والخصائص ما يجعلها قادرة على الوفاء بما يقتضيه المقام حتى يصل المتكلم به الى ما يريد من نفس السامع ووجدانه وعقله ٠

ثانيهما : أنها فى تعددها وتفاوت أثرها قد جمعت كل الأساليب والوسائل التى توصل اليها علماء النفس والاجتماع والمتخصصون فى فن قيادة الجماهير التى أشرنا اليها فى الباب الأول وزادت عليها بما فى طبيعة الدعوة الاسلامية باعتبارها دعوة الهية صادرة عن الحق تبارك وتعالى الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فكان لزاما أن تكون معجزة بين الدعوات ، مبرأة من كل ما تستبيحه دعوات البشر فى سبيل الوصول الى غايتها من تضليل ونفاق واكراه مادى وأدبى ومن وسائل تنافى الخلق الكريم والقيم السامية ولم يكن عجيبا وتلك حال الدعوة القرآنية أن يهرع الناس اليها ، وأن تبنى فى ظلها أكبر امبراطورية عرفها التاريخ فى زمن يسير مازال المؤرخون عاجزين عن تفسير سره ، ولكنهم لو أبصروا وأخلصوا لعلموا أنه القرآن الكريم الذى يحيى القلوب ويفجر الطاقات وينير البصائر ويغير النفوس ٠



الفصل الثانى

توافق الأسلوب القرآنى
مع موضوع الدعوة

فى الجزء التطبيقى من هذا البحث درسنا ثلاثة موضوعات كنماذج لبلاغة القرآن فى الدعوة الى أهدافه ، ففى جانب العقائد درسنا الدعوة الى الوحدانية ، وفى جانب العبادات درسنا الانفاق فى سبيل الله ، وفى جانب المعاملات درسنا بعض التشريعات الاسلامية للأسرة ٠

وقد لمسنا تفاوتا فى خصائص الأسلوب القرآنى من موضوع الى آخر ، فى أسلوب عرضه ، ودعوته اليه ٠ وسر هذا التفاوت ـ فيما نرى ـ يرجع الى أمرين رئيسين ، أولهما : مراعاة حال المدعوين فى كل موضوع ، وثانيهما : مراعاة طبيعة موضوع الدعوة ذاته ٠

ونخصص هذا الفصل ـ ان شاء الله ـ لبيان السمات الخاصة للأسلوب القرآنى فى كل موضوع ، التى تجعله متوافقا معه ، قادرا على الوفاء بحقه ٠

● **أولا ـ خصائص الأسلوب القرآنى فى الدعوة الى العقائد :**

اذا كان الاسلام عقيدة وشريعة ، فان جانب العقيدة قد استأثر بالجزء الأعظم من القرآن الكريم ، يؤكد هذا أن عدد آياته ستة آلاف ومائتان وأربع عشر آية (١) ٠ وعدد الآيات الخاصة بالأحكام فيه خمسمائة آية ، وقيل مائة وخمسون باعتبار أن هذه المائة والخمسين هى الآيات التى صرح فيها بالأحكام وما فوقها استنبط منه الحكم ، فان آيات القصص والأمثال وغيرها يستنبط منها كثير من الأحكام (٢) ٠

وأيا كان عدد آيات الأحكام فانه يمثل نسبة ضئيلة الى جانب الآيات الخاصة بالعقيدة ٠

---

(١) الاتقان فىعلوم القرآن جـ ١ ص ٦٧ ٠

(٢) الاتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١٣٠ ٠

هـــذه الظاهـرة التى تؤكد اهتمام القرآن بالدعوة الى العقيدة يمكن تفسيرها فى ضوء ما تقدم من مراعاة حال من توجه اليهم الدعوة ، ومراعاة طبيعة موضوع العقيدة نفسه ·

أما فيما يتعلق بالمدعوين فان الاســلام دين البشرية كلها ، أبيضـــها وأسودها منذ أشرق نوره على الكون ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليهــا ، وهذا يعنى أن دعوته الى العقيدة التى جاء بها موجهة الى الناس جميعا ، من كانوا فى عصر نزوله ، ومن يأتون بعدهم الى يوم الدين · هذه الحقيقة اقتضت منه أن يواجه ألوانا من العقائد المخالفة ، وأنواعا من الثقافات ، والفلسفات والمواريث الراسخة فى نفوس أصحابها ، والتى تحتاج زحزحتها ـ لتتخلى فى النهاية عن مكانها للعقيدة الجديدة ـ جهودا خارقة · وقد سبق أن أشرنا الى المناخ الفكرى الذى واجهته الدعوة يوم نزولها وتصدت لتغييره ، فقد واجهت أهل الكتاب من نصــارى ويهود ، وواجهت المشركين الذين خلعوا صـــفات الألوهية على أنواع من المخلوقات ، كالحجارة والحيوانات ، أو على بعض مظاهر الطبيعة وقواها ، كالنار والكواكب وغيرهــا ، وواجهت الحــائرين القلقين الذين أدركوا بفطرتهم فساد ما عليه قومهم ، ولكنهم لم يهتدوا الى طريق الحق ، وواجهت المتبلدين الغافلين الذين كانوا يقولون : « **ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر** » (١) ، واجهت كل ذلك منذ أول يوم ، وكان عليها أن تواجه الى جانبهم ـ باعتبارها خاتمة الرسالات ـ كل ما يمكن أن يستحدث من فلسفات ومذاهب فكرية ، مما سمعنا عنه ، وما سيأتى من بعد ، ذلك هو الواقع الذى أعدت الدعوة الاسلامية نفسها لمواجهته، وهو واقع عريض يفسر لنا جانبا من حكمة تخصيص القدر الأكبر من القرآن الكريم لأمور العقيدة ، أما ما يزيد الأمر وضوحا ويكشف السر الكامن وراء هذه الظاهرة ، فهو طبيعــة العقيــدة ، وما تحتاجه من جهــد لتمكينهــا فى النفوس ·

ذلك أن القرآن فى دعوته للعقيدة لا يخاطب نفوسا خالية ، ولا يسطر عقيدته فى صفحات بيض ، يثبت فيها ما يريد ، بل ان كل مخاطب بالدعــوة الجديدة هو فى الواقع مؤمن بعقيدة تملأ نفسه ، وتستقر فى وجدانه ، ذلك أن حاجة الانسان الى عقيدة أيا كانت قيمتها سامية أو هابطة يكاد يكون أمرا فطريا ، بل غريزة من الغرائز المركوزة فى الطبيعة الانسانية والغرائز لابــد أن تحقق نفسها فى واقع تتمثل فيه ·

---

(١) الجاثية : ٢٤ ·

« يقول معجم (لاروس) للقرن العشرين : ان الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ، وأقربها الى الحياة الحيوانية ٠٠ وان الاهتمام بالمعنى الالهى وبما فوق الطبيعة هو احدى النزعات العالمية الخالدة للانسانية » ٠ ويقول « ان هذه الغريزة الدينية لا تختفى ، بل لا تضعف ولا تذبل الا فى فترات الاسراف فى الحضارة وعند عدد قليل جدا من الأفراد » (١) ٠

واذا كان الأمر بهذه المثابة ، فان الدعوة الى العقيدة الجديدة تواجه فى الواقع بسد منيع فى نفس كل مدعو اليها ، متمثل فى عقيدته الخاصة التى تخالط كيانه كله ، وهذا السد المنيع هو أكثر الأمور استعصاء على التغيير ، بل أعتاها مقاومة لكل من يحاول لمزه أو طعنه ، دعك من تقويضه وهدمه ٠

وربما كانت العقيدة خامدة فى نفس صاحبها ، وكان سلوكه أبعد شىء عما تقتضيه وتتطلبه ، ولكنها تبعث فجأة كالمارد الجبار لتدافع بشراسة عن موقعها فى النفس ضد كل من يقترب منها بعيب أو انتقاص ٠ وكم رأينا أناسا تحللوا من كل ما توحى به عقيدتهم فى السلوك والقيم ، ولكن الواحد منهم يبذل روحه راضيا اذا مست عقيدته ٠

سأل أحد الصحفيين نهرو الزعيم الهندى ، وهو من هو تحضرا واستيعابا للأفكار ، وقدرة على النقد والموازنة بين الأمور : كيف تستسيغ ـ وأنت المفكر المتحضر ـ أن تتمثل صفات الألوهية فى البقرة ؟ ٠ فجاء رده عميقا فعلا اذ قال : ان العقيدة كالزوجة قد تكون دميمة ، ولكنها فى نظر الزوج أجمل النساء ٠

والواقع أن العقيدة لا تعتمد على الاقناع العقلى فقط والا كان من السهل الاقناع بفسادها ٠ بل هى شىء يخالط الكيان الانسانى كله ، ويمتزج بذراته كأنه أحد مكوناته الطبيعية ، ومن يغير عقيدته انما هو فى الواقع يقوم بعمل جبار ، كأنه يغير به ذاته كلها ، ومن هنا جاءت صعوبة الدعوة الى العقيدة وجاء أيضا تركيز القرآن الكريم على هذه المهمة ، واحتفاؤه بها كل هذا

---

(١) عن كتاب الدين ص ٨٢ ـ ٨٣ للدكتور محمد عبد الله دراز ٠ طبعة دار القلم سنة ١٩٧٠ ٠

الاحتفاء المتمثل فى ايثارها بالجانب الأعظم منه ، واستخدامه لمختلف الأساليب ، واستعانته بشتى وسائل التأثير والاقناع • واذا كانت البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال فهاهى ذى حال المخاطبين وطبيعة الموضوع ، وما تتطلبه من تنوع فى الأساليب ووسائل العرض •

فلنسجل اذن بعض سمات الأسلوب القرآنى فى هذا الغرض :

يستنهض القرآن الكريم كل القوى والملكات فى النفس الانسانية فيتجه اليها ، لينفذ من خلالها الى ما يريد لعقيدته من تمكين واستقرار فى أعماق النفس ومخالطة للكيان الانسانى كله •

— يتجه الى العقل : فيجادله ليكشف له عن زيف ما هو عليه من عقيدة فاسدة ، وأنها متهافتة لا تقوم على أساس ولا يقرها منطق سليم وليسوق له بعد ذلك الأدلة القاطعة على صحة العقيدة الجديدة ، وشهادة المنطق لها ، واطمئنانه اليها • وهو فى جدله ذاك يسوقه فى أسلوب تجتمع له جوانب الاقناع العقلى ، والتأثير الوجدانى ، مما يجعله جديرا بأن يطلق عليه المنطق الوجدانى كما سبق •

فقد جادل المشركين ، وركز فى جدله على اثبات عجز هؤلاء الشركاء المزعومين وعرض ذلك فى أساليب متعددة •

— مرة بالتلطف والاستدراج واشراكهم فى استنباط النتائج والوصول الى الحق ، كما رأينا فى ابطال عبادة الكواكب ، وكيف استعرضها ابراهيم عليه السلام واحدا واحدا ، ليثبت عدم أحقيتها للألوهية ، فاذا انتهى منها جميعا صدع بالحق الذى يريده قائلا : « **يا قوم انى برىء مما تشركون • انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين** » (١) •

— ومرة بأسلوب المواجهة الصريحة ، التى تقطع كل حجة ، وتنهى كل جدل ، كما رأينا فى تلك التجربة العملية التى قام بها ابراهيم ، ليثبت لقومه أن أصنامهم عاجزة ، لا عن النفع والضر بل عاجزة أيضا عن أن تدفع عن نفسها ، وذلك عندما حطمها وجعلها جذاذا متناثرا تطؤه الأقدام •

---

(١) الأنعام : ٧٨ ، ٧٩ •

ـــ ومرة بأسلوب التقرير الذى يجبرهم على النطق بالحق الذى لا يدفع « **قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قـل الله يبدأ الخــلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون · قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق ، قـل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهـدى الا أن يهدى ، فمالكم كيف تحكمون** » (١) ·

ـــ ومرة بالسخرية منهم وتصويرهم فى صورة العاجز عن أتفه الأمور ، كما رأينا فى قوله تعـالى : « **يا أيها النــاس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعـون مـن دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب · وما قدروا الله حق قدره ، ان الله لقوى عزيز** » (٢) ·

ـــ ومرة بمطالبتهم بالدليل على دعواهم حتى اذا عجـزوا كان ذلك قاطعا فى بطلانها لأنهـا لا تعتمد على دليل ·

ـــ ومرة بحثهم على تدبر ما فى الكون من دلائل على وحدانية الله وهو فى هذا المجال يعرض عليهم صفحات ناطقة من كتاب الكون الدال على ألوهية الله ووحدانيته فليس عليهم الا أن يعملوا عقولهم ويتدبروا وستبدو الحقيقة لبصائرهم جلية لا تحتاج الى دليل ·

الى غير ذلك من أساليب فى ابطال عقيدة الشرك ·

كما جادل أهل الكتاب فعرض لفكرة اتخاذ ولد فدحضها ، وهدم قواعدها وعرض ذلك أيضا بأساليب مختلفة ·

ـــ مرة ببيان استحالة ذلك ، لأنه لا يكون ولد الا اذا كانت هنــاك زوجة ، وهم لا يدعون أن له زوجة « **بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولـد ولم تكن له صاحبة** » (٣) ·

ـــ ومرة ببيان استغنائه عن الولد والشريك ، لأن الولد انما يطـلب للحاجة اليه ، والله خالق كل شىء له ما فى السموات والأرض « **ذلكم الله ربكم لا اله الا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل** » (٤) ·

---

(١) يونس : ٣٤ ـ ٣٥ ·
(٢) الحج : ٧٣ ·
(٣) الأنعام : ١٠١ ·
(٤) الأنعام : ١٠٢ ·

كما فند دعوى ألوهية المسيح فمحقها . مرة باثبات صفات المسيح التى لا تتفق مع الألوهية « **ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام** » (١) فكيف يكون المحتاج الى طعام وما يتبعه الها ؟ ومرة باقرار المسيح نفسه بأنه عبد الله الى آخر ما مر فى النصوص التى درسناها ٠

كما جادل أهل المنطق والفلسفة وساق لهم الأدلة اليقينية ومنها قوله تعالى : « **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، اذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض** » (٢) وقوله : « **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** » (٣) ٠

وهكذا توجه القرآن الكريم الى العقل يناقشه ويكشف له عن زيف ما يؤمن به ، ويقرر الحق الذى يدعو اليه ٠

ويتجه القرآن الكريم الى الوجدان باعتباره وعاء الشعور الانسانى ومجمع غرائزه ونزعاته ، وحوافز ارادته فنراه :

ــ يثير غريزة حب الذات بالترغيب ، فالانسان مجبول على حب الخير لنفسه والسعى لما يحققه ، فيعده بالخير فى الدنيا والآخرة ، ويعرض عليه صورا وألوانا منه ، مستخدما كل وسائل التأثير ، من تصوير معجب ، وتأكيد قوى ، وتشويق يثير الكوامن ، فيريه الجنة كأنه يرى مباهجها ، ويستروح نسماتها ، ويزين له ما يصنعه الايمان فى القلوب من شعور بالأمن وشعور بالرضا الى آخر تلك المعانى التى تلمس الوجدان وتفتح مغاليق القلوب ٠

ــ يثير غريزة الخوف بالترهيب مما سيترتب على عدم الاستجابة من ويل وبلاء فى الدنيا والآخرة أيضا ، فيعرض عليه صور العذاب فى الآخرة ويذكره بما أصاب الأمم السابقة فى الدنيا عندما تولت عن دعوة الله ٠ فى أساليب تجعله يرى مصارع القوم ، ويسمع أناتهم ، مما يهز القلوب ، ويزلزل النفوس لتنقاد وتلين ٠

---

(١) المائدة : ٧٥ ٠ (٢) المؤمنون : ٩١ ٠

(٣) الأنبياء : ٢٢ ٠

ـ يثير غريزة التدين فى الانسان التى تدفعه الى البحث عن الحق ، فيلقنه اياه ، فى أسلوب أخاذ يحثه فيه على النظر فى آيات الله ، ويعـرض عليه من ذلك ما يمتع الحس والعقل معا ٠

ـ كما يثير فيه مشاعر الهيبة والاجلال لله ، بما يعرضه عليه من صفات جلاله ، وعظـائم آياته الدالة على قدرته ، كما يثير مشاعر الحب لله ورجاء فضـــله والتودد اليه ، والتوكل عليــه ، والثقة فى رعايتــه وحمايتـــه ، بما يعرضه من ألوان نعمه ، وعميم فضله ، وســابغ رحمته ، فهو الرحمن الرحيم الودود الغنى الباسط الجواد أسبغ نعمه على الناس ظاهرة وباطنة ٠ تلك المعانى التى تمثل رباطا روحيا محكما يشد الانسان الى ربه ، يكررها القــرآن ويؤكدها حتى تســتقر فى النفوس فترقق العواطف وتلين القــلوب وتجذبها نحو الحق جل وعلا ٠

ـ كما يستجيش القــرآن شــعور الكرامة الانسانية ، فيربأ به أن يذل لمخلوق مثله ، وأن يعنو وجهه لما لا يملك لنفسه شيئا ، ويزكى فيه شــعور الاعتزاز بما فضــل به على سائر خلقه ، من اصطفائه للخلافة فى الأرض وحمل الأمانة ، وتلك المنـزلة العالية لا يصـــح أن يهدرها الانسان فيسجد لحجر أو يطلب العون من جماد ٠

هــذه الغرائز وتلك المشاعر التى يتجه اليها القرآن ليجد الحق طريقه الى القلوب من خلالها ، يختار فى التعامل معها ما يناسبها من الأســاليب المؤثرة التى تؤجج أوارها وتزكى حميتها ٠ واذا أردنا أن نشير الى الملامح البلاغية لأسلوب الدعوة فى باب العقيدة ، يمكننا أن نسجل ما يأتى :

ـ الكلمات ـ شأنها فى القرآن كله ـ تمتاز بالجزالة والفخــامة مع عذوبتها وسلامتها من الغرابة أو التنافر ، وتختص هنا بميزة أخرى وهى ايثار الألفاظ الموحية المصورة ذات الظلال والجرس المناسب للمقام ٠

ـ الصياغة محكمة التركيب كل لفظ فى موضعه المقدر له ، وتمتــاز بالايقاع المناسب للمقــام والفواصل المحكمــة فى مواضعها دون تكلف أو استكراه ٠

ـ والابداع فى التصوير ، واستخدام وســائل التأكيد ، والتأثير بكل ألوانها ولا سيما أسلوب التكرير ٠

- الاكثار من استعمال أسلوب الطلب لقدرته على احتواء المشاعر الوجدانية ·

- استخدام وسائل التشويق والتنبيه ، ولا سيما ما يمتاز به الأسلوب القصصى وضرب الأمثال ·

- حججه العقلية تتسم بالوضوح مع قدرتها على الالزام وتقرير القضايا ، وصياغتها الأدبية الفريدة ·

● ثانيا - خصائص الأسلوب القرآنى فى الدعوة الى العبادات :

يمتاز الأسلوب القرآنى فى الدعوة الى العبادات بما يجعله متوافقا أيضا مع حال المخاطبين بها ، ومع طبيعة الموضوع نفسه ·

فاذا كانت الدعوة الى العقائد تتجه الى البشرية كلها على مر العصور ، فان العبادات لا يطالب بأدائها ، ويدعى اليها الا من اقتحم العقبة الأولى فأسلم قلبه لله وانضم الى جماعة المؤمنين الموحدين · عندما فقط يبدأ تكليفه بالعبادة ، ولا حديث للقرآن عن العبادة الا مع المؤمنين ، فالمخاطبون بالعبادات اذن هم قطاع خاص من الناس ، وهم صفوة البشرية الذين آثرهم الله بفضله ، فأصبحوا بنعمته مؤمنين به ·

أما فيما يتعلق بطبيعة موضوع العبادات فانها واجبات دينية فرض على المسلم أداؤها تزكية لنفسه ، واحكاما لصلته بالله عز وجل ، وقياما ببعض حقوق المجتمع المسلم على أفراده ، وهى فى جملتها ما بين عبادة بدنية كالصلاة ، أو مالية كالزكاة ، أو يجتمع فيها المعنى البدنى والمالى كالحج ·

تلك هى الاعتبارات المؤثرة فى أسلوب الدعوة الى العبادات ، فلا حاجة للمسلم الى أسلوب الجدل لاقناعه بأداء العبادات ، اذ هى حق الله فهو يؤديها باعتبارها من مقتضيات العقيدة التى آمن بها · ولكن العبادات مع ذلك تكاليف وواجبات تلزم المسلم بالبذل والتضحية من ماله وجهده ، والنفس تستثقل الواجبات ، وتحاول التفلت من كل التزام لما فى فطرتها من حب الذات والأثرة ، كما أن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق ، فاذا لم يستطع أن يمنعه عن أداء العبادة ، أو يلهيه عنها ،

فهو يحاول افسادها عليه ، وذلك بأن يثير فى نفسه مشـاعر ودوافع تحبط العبادة كالرياء حبا للجاه والسمعة ، أو المن بالصدقة والاستعلاء بهـا على الناس وغيرها من النوازع النفسية التى يحتاج المسلم فى مواجهتها الى جهد جهيد،تلك الغرائز الفطرية فى النفس التى تصدها عن الخير،وهذه الوسوسة الشيطانية التى تزين الفحشاء وتخوف من الفقر وتلهى عن الخير ــ كل ذلك فى حاجة الى جهد يتعهد النفس بالتربية والتهذيب ، يصقل معدنها ، ويعالج أدواءها التى تبطل العبادة ، وينمى فيها دوافع الخير ومعانى الايثار وحب الخير ، والحـرص على ارضاء الخـالق جـل وعـلا ، وغير ذلك من المعـانى التى تقتضـيها طبيعـة تلك الفرائض ليؤديها المسلم على وجهها الصحيح ٠

ولهذا نرى أسلوب الدعوة الى العبادات وان خلا من الجـدل والاقناع فانه زاخر بألوان التأثير الوجدانى المتعددة ٠

ـــ فهو يتوجه الى غريزة حب الذات بالترغيب ، فيعرض ألوانا مما تحققه العبادات للمسلم فى الدنيا ، فالصـلاة تنهى عن الفحشـاء والمنكر ، وعند حديثه عن الحج يشير الى أنه فريضة ليشهد المؤمنون منافع لهم ، والزكاة تطهر المال وتزكى النفوس ، وتحقق الخير للمجتمع كله ، وتربط بين الغنى والفقير برباط الحب والاخاء ٠ ثم يسوق ألوانا من الجزاء فى الدنيا بمضاعفة الصـدقة والجـزاء الأوفى فى الآخـرة ، ويعـرض ذلك فى صورة آسرة تدفع النفوس دفعا للطاعة ٠

ـ ويتوجه الى غريزة الخوف بالترهيب ، فيوعد المقصرين بكل ألوان العـــذاب ٠

ـ ويتوجه الى غريزة الملكية فيفل من حدتها ، كما فى تسميته الصدقة قرضا فهى لن تضيع بل تتضاعف ، ويؤكد أن ما ينفقه المسلم اليوم سيضاعفه له الله غدا ، ويذكر بأن المـال الذى فى يد الأغنياء انما هو مال الله جعلهم مستخلفين فيه ، فهو يطالبهم باعطاء الفقراء بعض ما أعطاهم هو من مال ٠

ـــ ويتوجه الى النفس الانسانية فيعالج أدواءها من بخل وشح وحب للجاه والاستعلاء ، والمن والأذى ٠

كل ذلك لاحظه الاســلام فى دعوته العبادات ، لأن طبيعـة الموضـوع تقتضيه ، وساقه فى أساليب زاخرة بألوان من وسائل التأثير ، وفيما درسناه

من نصوص ـ فى الدعوة الى الانفاق فى سبيل الله من الشـواهد والنماذج ـ ما يفى بالغرض ، فلا داعى لاعادة شيء منه هنا ٠

واذا أردنا استجلاء الملامح البلاغية فى الدعوة الى العبادات ، فيمكننا أن نستثنى أسلوب الجـدل ، ونثبت كل ما سـبق من ملامح فى الدعوة الى العقائد :

ـــ فالالفاظ تجمع بين الجزالة والسهولة ، وتبرأ من الغرابة والتعقيد وتمتاز بقدرتها على الايحاء والتصوير ٠

ـــ والصياغة زاخرة بخصائص النظم التى يقتضيها المقام ، وتمكنها من أداء المعانى على أوفى الوجوه ، كما تمتاز بالايقـاع المناسب للمقـام ، والفواصل المطمئنة ذات النغم الملائم ٠

ـــ والأسـلوب حافل بكل صور البيان زاخر بالتصـوير ، ووسائل التاثير والتوكيد واللمسات الوجدانية ٠

ـــ يستخدم أسلوب القصة والمثل فى هذا الغرض لما فيها من خصائص التشـويق والتصوير ، وازجاء التوجيه الدينى بطـريقة الايحاء فى غمار الأحداث والصور ٠

● ثالثا ـ خصائص الأسلوب القرآنى فى الدعوة الى المعاملات :

فيما يتعلق بالمخاطبين فانهم هنا المؤمنون كما سـبق فى العبادات فلا حديث فى التكاليف الشرعية مع غير المسلم ٠

أما فيما يتعلق بطبيعة الموضوع فاننا نلاحظ ثلاث ظواهر ، انفرد بها هذا الأسلوب واقتضتها طبيعته :

أولها : أن القـرآن الكريم فى أحكامه لاحظ أنه يكلف بها أناسا لهم أعرافهم وتقاليدهم ، التى يحتكمون اليها فى شئون الحياة ، فلم يهـدم كل ما وجده بل أبقى على الصالح منها ، ونقض الفاسد ، وما اختلط فيه هـذا وذاك أبقى على ما فيه من خير ونفى عنه الخبث ٠

ولم يكن ذلك بالأمر الهين ، فللعادة سلطانها على النفوس وتمكنها من القلوب ، ولهذا لجأ القرآن فى بعض تشريعاته الى سبيل التدرج فى الأحكام

كما فى تحريم الخمر ، بل لجأ فى بعضها الآخر الى الاقناع والحجة مراعاة لسلطان العادة ، وتمكنها فى القلوب ، وذلك تثبيتا لأحكامه فى قلوب المؤمنين ، وتزكية لثقتهم فيها ، كما فى حكمه بحل بعض الذبائح التى كانوا يحرمونها ، وذلك قوله تعالى : « **ومن الأنعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين • ثمانية أزواج ، من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ، قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، نبئونى بعلم ان كنتم صادقين • ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين ، قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين** » (١) •

فقد استخدم في جدالهم ما يسمى بطريقة السبر والتقسيم ، وهى تقوم على تقسيم متعلق الحكم المستدل على بطلانه الى أقسام ينفرد كلمنها بوصف لا يوجد فى غيره ، ثم يكر على كل قسم منها بالرد والبطلان ، فاذا بطل وقوع الحكم على جميع متعلقاته ، وليس له متعلقات غيرها ، لزم من ذلك بطلان الحكم من أصله •

وذلك بأنهم حرموا بعض ذكور الأنعام تارة ، واناثها تارة أخرى وأولاد هذه الاناث طورا ثالثا • فان كان التحريم لصفة الذكورة فقد وجب أن يطرد في كل الذكور ، وان كان لصفة الأنوثة وجب اطراده فى جميع أفراد الاناث ، وكذلك الأمر بالنسبة لأولادها • اذن فالتحريم لم يبن على قيام علة مطردة يلزم من تحققها حصوله ، ومادامت علة التحريم غيرمطردة فلا يمكن قيام التحريم على أساسها ، ولم يبق الا أن يكون التحريم قد صدر ممن يملكه دون نظر الىعلته وسببه ، ولا يملك ذلك الا الله سبحانه وتعالى • وليس لدى المشركين دليل من وحى أو رسالة أو علم يفيد التحريم (٢) •

ثانيها : أن المعاملات هى أحكام تضبط أنواع السلوك ، وتحدد الحقوق والواجبات ، فهى لذلك فى حاجة الى ألفاظ محددة المعنى ، واضحة الدلالة ، بعيدة عن الاستخدام المجازى أو أساليب التصوير •

ثالثها : أن الشريعة الاسلامية دائمة مستمرة ، وصور المعاملات بين الناس وقضاياهم متجددة لا تنتهى • فاستلزم ذلك أن تكون قابلة لتناول كل

---

(١) الأنعام : ١٤٢ ـ ١٤٤ •

(٢) انظر نسمات من عبير الأدب ص ٣٨ ـ ٣٩ •

ما يجد فى الحياة ، صالحة لمواجهة التطور الطبعى فى مجال النشاط الانسانى ، ولهذا نراه يعمد الى التفصيل والاستيعاب والتحديد فى المواطن التى لاتختلف باختلاف الزمان ، كما فى أحكام الميراث والمحرمات من النساء ، ويعمد الى الاجمال مكتفيا بأن تجىء نصوصه دالة على المبادىء العامة ، والقواعد الكلية ، بها من المرونة والسعة ما يمكن أهل الاجتهاد والفقه من استنباط الأحكام الجزئية فى اطار القواعد العامة التى وضعها •

كما فى قوله تعالى فى شأن المساواة بين الرجل والمرأة : « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة** » (١) •

فالنص يساوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات مستثنيا حالة واحدة وهى القوامة التى جعلها الله للرجل ، والتعبير عام يشمل كل ما يتحقق به هذا المبدأ ، فليقنن الفقهاء هذه الحقوق فى اطار ذلك المبدأ العام (٢) •

تلك هى الظواهر الجديدة فى هذا الموضوع ، وقد راعاها القرآن الكريم فى تعبيره عن الأحكام ذاتها ، ولكنه لا يذكر الأحكام وحدها بل يعقب عليها أو يمهد لها ، بما يحمل على طاعتها من ترغيب وترهيب ، أو باللمسات الوجدانية المؤثرة ، كالذى رأيناه فى قوله تعالى تعقيبا على أحكام الطلاق : « **واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا ، واذكروا نعمة الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم** » (٣) •

وعند التنبيه على خصائص الأسلوب التشريعى لابد أن نلاحظ كل ذلك فهو :

أولا – فى النص على الأحكام تتضح فيه السمات التالية :

– فى الألفاظ يختار أدقها ، وأحكمها فى الدلالة على المعنى المراد ، ويكون استعماله للألفاظ استعمالا حقيقيا ، فاذا أطلق لفظا اطلاقا مجازيا

---

(١) البقرة : ٢٢٨ •

(٢) انظر التشريع الجنائى الاسلامى مقارنا بالقانون الوضعى ص ٢٧ – ٢٩ •

(٣) البقرة : ٢٣١ •

لغرض ما ، كان ذلك واضح المأخذ قريبا ، شـديد الظهور ، كما فى تسميته المرضعة أما ، والمشاركة للطفل فى الرضاعة من الأم أختا ٠

— فى الصـياغة يقصد الى تقرير الحقائق الدينية والأحكام الشرعية دون مبالغة أو تجوز ، فلا يستعمل الخيال فى أصول المعانى المرادة ، وانما التعبير الحقيقى ٠ المفصل الواضح اذا كان المقام يستدعى التفصـيل ، أو المجمل الجامع اذا كان المقام له ٠

ثانيا ـ فى التمهيد للأحكام أو التعقيب عليها بما يعين على طاعتها :

يؤثر غالبا المعانى الوجدانية لبعث الثقة فيها لأنها حـكم الله العـليم بما يصلح الناس ، أو التذكير برقابة الله واطلاعه على الأعمال أو التحـذير من مخالفتهـا واثارة شـعور التقوى فى النفس أو الترغيب فى الطـاعة ، والوعد بجزيل الأجر ، وحسن المثوبة ، كما يستخدم وسائل التأثير الأخرى كالتوكيد ، وتكرير صفات الله فى الفواصل ، أو اثارة الشعور الأخلاقى فى النفس ، وباللمسات الوجدانية التى توحى بها الألفاظ والتعبيرات ٠٠

★ ★ ★

خاتمة

أحب أن أضع بين يدى القارىء الكريم هنا أهم نقاط البحث والنتائج التى تمخضت عنها هذه الدراسة ٠

كان عنوان الباب الأول « البلاغة والدعوة » وقد أقمته على ثلاثة فصول ٠ وخصصت الفصل الأول لموضوع : « الدعوة والداعية » فأشرت فيه الى أن نقطة البدء فى كل تغيير انسانى ، وتحول حضارى ، هى فى تغيير النفوس ، فتلك سنة الله الذى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن هذا التغيير يعتمد على ثلاثة أمور : عقيدة أو أفكار جديدة ، وداعية آمن بهذه العقيدة أو الأفكار ايمانا ملأ عليه كيانه ، واستحوذ على مشاعره ، فنهض يدعو اليها فى حماسة وثقة ، وأسلوب للعرض قادر على التأثير فى النفوس واستوائها ٠ تلك هى عناصر الدعوة التى تعنى : استمالة الناس نحو هدف معين ، والوصول بهم الى الايمان به ايمانا يخالط كيانهم كله ، فالعقيدة أو الهدف لب الدعوة وجوهرها ، والداعية هو حامل لوائها ، الذى وقف حياته عليها ، وأسلوب العرض هو وسيلته فى التأثير على الناس ، ونقل ما فى نفسه من ايمان بالهدف الى نفوسهم ، كى يؤتى هذا الايمان ثماره ، تغييرا للواقع السيىء ، وبناء لواقع جديد ، كل ما فيه ــ من جوانب مادية أو معنوية ــ مستمد من العقيدة الجديدة ٠

ثم انتقلت الى دراسة ما يتعلق بالمدعوين ، فتحدثت عن خصائص الجماعة النفسية ، وعن العوامل المؤثرة فى سلوكها ، فقسمتها الى نوعين : أحدهما شعورى بفعل التربية والتهذيب والبيئة ، وثانيهما لا شعورى يتمثل فى الرواسب الموروثة ، التى يتكون منها روح الشعب ، فالى العناصر الشعورية يعزى ما بين الأفراد من الفوارق والتفاوت ، والى العناصر اللاشعورية يعزى التشابه بين الأفراد ٠ وفصلت القول فى ذلك ، مستعينا بأبحاث علماء النفس المتخصصين ، موردا الأمثلة الكثيرة ، لتأثير روح الجماعة على الأفراد واستهوائهم ، وتحديد مواقفهم ٠

ثم وازنت بين تأثير المشاعر والعقل والخيال فى سلوك الجماعات · موازنة أسفرت عن تضاؤل مكانة العقل ، الذى يفسح الجانب الأعظم من مجال التأثير للمشاعر والخيال ، مما يوجب أن تكون هذه الحقيقة أمام الداعية · ونصب عينيه عند تعامله مع الجماعات ·

وقد أدى ذلك الى التعرض للوسائل التى يمكن للداعية أن يستعين بها فى التأثير على المدعوين · فبينت أن تلك الوسائل لابد أن تلتقى بالانسان فى كل جوانبه ، ونواحيه الوجدانية والعقلية والارادية ، لأنها تمثل منافذ التأثير فى النفس ، على الداعية أن يلج منها ، ويصل الى ما يريد ، على أن يلاحظ أثر الجماعة فى الفرد ، واستواؤها له ، مما يجعل روحها العامة تسيطر على ملكاته الخاصة ، فتؤجج مشاعره ، وتنشط جانبه الوجدانى ، فيواجه ذلك بما يقتضيه من اهتمام بالجانب الوجدانى والوسائل المؤثرة فيه ·

وعلى رأس ذلك الأسلوب التصويرى الذى يترك فى النفس انطباعات تمثل دور الشرارة الأولى التى لابد منها فى احداث الحركة ، ثم التوكيد والتكرير ، الذى يثبت المعانى ، حيث ينتهى الأمر بتكرار معنى معين الى رسوخه فى النفس على أنه حقيقة ثابتة · وبالحجة العقلية باعتباره أحد القوى الانسانية على ألا نعطيه فوق ما يستحق فى هذا المجال ·

وبهذا تم لنا التعرف على طبيعة الدعوة ـ أية دعوة ـ باعتبارها وسيلة نقل الأفكار من واقعها المجرد فى صدور أصحابها ، الى الواقع الملموس فى نفوس الناس وسلوكهم ولون حضارتهم ·

ثم كان الفصل الثانى « طبيعة الدعوة الاسلامية » بمثابة التخصيص بعد التعميم لنقترب خطوة نحو هدف هذه الدراسة ·

فلاحظنا أن تعبير « الدعوة الاسلامية » قد يراد به الدين نفسه بمعنى مجموع عقائده وتشريعاته ، وأن هذا المعنى المراد من الدعوة الاسلامية ليس هدف دراستنا ، فذلك تكفلت به علوم الفقه والعقيدة · ولكننا نهتم به من زاوية واحدة هى أن العقائد والأحكام الاسلامية تمثل العنصر الفكرى النظرى الذى سبق أن قلنا انه لب الدعوة وجوهرها ·

فالقرآن الكريم فى الواقع قام بثلاث مهام ، وتضمن ثلاثة جوانب ، لم تجتمع فى غيره من النصوص ، فى أى لغة ، ذلك أنه هو الدين والرسالة وأنه أسلوب العرض والتبليغ وأنه دليل صدق الرسالة بما فيه من اعجاز ·

فدراستنا تنظر الى ما فيه من أحكام باعتبارها الأساس النظرى للدعوة فلا تستقصى فروعها وتتبع مسالكها ، وانما تنصب على الجانب الثانى ، وهو أسلوب عرضه لهذه الأفكار ، وقدرته على التأثير والاقناع ، وقد نتطرق الى الجانب الثالث وهو جانب اعجازه الدال على صدقه باعتباره أحد وسائل الاقناع به ٠

غير أن طبيعة الدعوة الاسلامية وخصائصها باعتبار أنها الدين والرسالة ذات أثر كبير فى اختيار أسلوب العرض ، وطريقة الأداء ومن ثم كان لزاما علينا أن نفصل القول بعض التفصيل ، فى هذه الخصائص ، لنرى هل جاء أسلوب العرض موفيا بالغرض ، قادرا على الوفاء بما تقتضيه هذه الخصائص أم لا ؟

فرأينا أن الدعوة الاسلامية باعتبارها الدين والرسالة تمتاز بسمات معينة كان لها أثرها فى أسلوب العرض والتبليغ ٠ وأهم هذه الخصائص أنها دعوة عالمية ، وأنها تلبى حاجات البشر المادية والروحية ، وأنها خاتمة الدعوات وكل واحدة من تلك الخصائص اقتضت أن يلاحظ فى أسلوب العرض أن يكون موفيا بمتطلباتها ، فعالميتها اقتضت أن يكون قادرا على مواجهة كل التجمعات البشرية والفكرية الموجودة وقت نزوله ، وبجانب ذلك أن يظل صالحا لمواجهة ما يتعاقب بعدها ويستجد ، وشمولها لحاجات البشر اقتضى أن تضم العقيدة والتشريع من عبادات ومعاملات ولكل من ذلك أسلوب عرضه ٠

وخاتميتها اقتضت أن تكون تشريعاتها ، وعقيدتها ، صالحة لكل زمان ومكان ، وقد فصلت القول فى ذلك مع ذكر الأمثلة لكل منها ٠ كما تحدثت عن نجاح القرآن الكريم فى التأثير ، وبلوغه فى ذلك مبلغا أزعج المشركين ، فجعلوا كل همهم أن يحولوا بين الناس وبين سماعه ٠ كما تحدثت عنه كمعجزة ، مشيرا باختصار الى ما ارتضيته من وجوه الاعجاز ٠

وبهذا تم لى تبين الجوانب التى خصصت هذا الفصل لمعالجتها ٠

ثم جاء الفصل الثالث « البلاغة وصلتها بالدعوة » لنخطو به خطوة جديدة ، نحو هدف الدراسة ، فتحدثت أولا عن البلاغة ، موضحا أن الدافع الأول للبحث فيها هو محاولة الكشف عن سر الجمال فى الكلام وتأثيره الذى يميز بعضه عن بعض ، فيجعل منه ما هو قادر على الهاب النفوس ، واثارة كوامنها ٠ وقيادتها بما فيه من سحر وتأثير ٠

هذا الاحساس الفطرى بقيمة البيان وخطره ، كان هو الداقع الأول للبحث عما وراءه من أسباب ، ثم أضيف اليه دوافع أخرى ، منها : نـزول القرآن الكريم على صورة معجزة ، ثم أضيف الى ذلك دوافع دينية تتمثل فى اثبات اعجاز القرآن ، ومواجهة دعوات الالحاد ، التى راح أصحابها يطعنون فى بلاغة القرآن الكريم ، ويشككون فى اعجازه ، ثم ما طرأ بعد ذلك على المجتمع الاسلامى من نهضة علمية متمثلة فى علوم اللغة والتفسير والكلام . كل هذه الدوافع جعلت البحث البلاغى ـ الذى جعل منهجه قائما على دراسة النصوص لتبين ما فيها من أسباب القوة والتأثير ـ قد وصل الى درجة من النضـج فى فترة وجيزة اتضحت ملامحها ، بل اكتملت صـورتها عـلى يد عبد القاهر .

وهنا نطيل الوقوف مع هذا الامام الذى يمثل منعطفا كبيرا فى تاريخ البلاغة ، فتتبعت آراءه ونظريته المتكاملة فى النظم ، والتى وصل بها الى أرقى ما يتحدث عنه النقد الحديث على المستوى العالمى . ثم بينت أثره فى تطوير البحث البلاغى مقارنا بين حال البلاغة قبله وما صارت اليه بفضل جهوده فاذا أوفيته حقه انتقلت الى ما يمثل منعطفـا آخر فى تاريخ البحث البلاغى على يد السكاكى ومدرسته ، التى ظلت مسيطرة على اتجاه البحث ، حتى شاء الله أن تجدد هذه الأمة حياتها ، فيشمل التجديد ـ فيما يشمـل ـ علوم البيان والبلاغة وتقوم الدعوات القوية للعودة مرة أخرى الى أمهـات كتب الأدب والنقـد التى لم تفسدها طريقة المتأخرين ، وأسـاليبهم المنطقيـة وتعريفاتهم المتكلفة . ثم يفد الى الحقل البلاغى عامل جديد ، باتصال الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية ، ومحاولة الدارسين أن يلقحوا البلاغة العربية بما حملوه معهم من أفكار جديدة ، وأشرت الى أن ذلك لم يكن خيرا كله . وان كان فى جملته قد أثرى البحث وأضاف اليه .

وبهذا تم لى رسم صورة للبلاغة فى ماضيها وحاضرها ، ثم عالجت صلة هذا كله بموضوع الدعوة ، وقلت ان البلاغة ـ بمعناها العملى كصفة للكلام ـ تعنى الجانب الذى يميز لونين من القول : أحدهما قادر على الوفاء بحاجة الانسان الفكرية ، وقضاء مصـالحه اليومية ، والثـانى قـادر على الوفاء ـ بجانب هذا ـ بالتعبير عن الانسـان بكل جوانبه ، ونقـل مشاعره وأحاسيسه ، والتأثير فى مخاطبه . وأن اللون الثانى من الكلام هو المستحق لصفة البلاغة . كما أن البلاغة بمعناها العملى ، كقواعد هى تسجيل لعوامل التأثير فى الكلام وأسباب الجمال فيه .

وإذا كانت الدعوة تعنى استمالة الناس نحو هدف معين ، واقناعهم به اقناعا يخالط وجدانهم ويصل بهم الى الايمان به – اذا كان هذا شأن الدعوة – فلا شك أن البلاغة هى سلاح الداعية الذى يحقق به ما يريد .

فالداعية يريد تغيير النفوس ، وتغيير النفوس يستوجب تعاملنا مع جميع ملكاتها ، وجوانبها الفكرية والوجدانية والارادية . والبلاغة هى المؤهلة للقيام بهذا الدور ، لأن الكلام البليغ فى جوهره هو الذى يبلغ المتكلم به ما يريد من نفس السامع باصابته موضع الاقناع من العقل والوجدان من النفس ، فاذا نجح الداعية فى ذلك كانت ثمرته تحريك الهمة ، وتوجيه الارادة للعمل ، وفق ما حصله من اقتناع عقلى ، وترسب فى أعماقه من انطباعات نفسية . والداعية لا يحتاج لأكثر من هذا ، فنجاحه وفشله انما يقاسان بالمدى الذى يصله فى هذا السبيل .

تلك هى أهم الموضوعات التى عالجتها فى الباب الأول وهى تمثل الجانب النظرى من دراستى ، والتى تمهد لما بعدها من دراسة تطبيقية ، نصاحب فيها بلاغة القرآن الكريم فى دعوته الى أهدافه .

أما الباب الثانى فكان عنوانه « مع بلاغة القرآن فى دعوته الى أهدافه فقد أقمته على ثلاثة فصول ، جعلت عنوان الفصل الأول « البلاغة فى الدعوة الى العقائد » فأشرت الى أن نقطة البداية فى طريق الدعوة هى الانذار بيوم الحساب لأنه يمثل الصيحة التى تنبه للخطر ، ثم أشرت الى تعدد الأساليب فى الدعوة لتكون قادرة على مخاطبة الناس جميعا بكل مستوياتهم الفكرية والحضارية واخترت موضوع الدعوة الى التوحيد ليكون نموذجا للدعوة الى العقائد وذلك بدراسة النصوص التى اخترتها بادئا بأسلوب الترهيب الذى يتكىء على غريزة الخوف ، وما فى النفس من حرص على ما يجنبها الأذى وعرضت ألوانا من الترهيب بالعقوبة فى الدنيا والآخرة ، وأتبعت ذلك بنصوص تمثل أسلوب الترغيب ، وهو أيضا يعتمد على ما فى النفس من غريزة حب الذات والعمل على ما يحقق لها الخير ، فدرست نصوصا تمثل أيضا الترغيب بالجزاء الأوفى ، فى الدنيا والآخرة . ثم انتقلت الى أسلوب الجدل وهو أسلوب اعتدنا ممن يستخدمه ، أن يتجه الى العقل ، ، يحكمه فيما يعرضه من قضايا ولكن القرآن الكريم يأتى منه بالمبدع العجيب ، فيصوغه فى أسلوب يجمع بين اقناع العقل ، ومخاطبة الحواس ، وسائر الملكات الانسانية ، وينأى عن جفاف المنطق وبرودة الفكر ، فيأتى أسلوبه فى الجدل جامعا لكل خصائص الأسلوب المؤثر الفعال . وقد استعرضت منه ألوانا فى جدال المشركين وأهل الكتاب ، وأهل المنطق والفلسفة والاقناع بضرب المثل ، وبأسلوب التقرير وغيرها .

فاذا وفينا أسلوب الجدل حقه انتقلت الى أسلوب آخر هــو الأسلوب التلقينى ، الذى يورد فيه القرآن الكريم الحق مجردا ، لكنه يختار فى عرضه أساليب قادرة على النفاذ الى أعماق النفس ، وهز كيانها ·

وهكذا تتبعت أساليب القرآن فى دعوته الى الوحدانية ، وأبرزت الــوان البلاغة فيها ، فى صورة لا يغنى فى الدلالة على ما بها من جهد الا قراءتهــا وتدبرها ·

أما الفصل الثانى من هذا الباب فقد جعلت عنوانه « البلاغة فى الدعوة الى العبادات » · وقد مهدت له بدراسة نفسية ، تكشف عن الاعتبارات التى لاحظها القرآن الكريم فى دعوته الى العبادات بعامة ، ثم أخذت الانفاق فى سبيل الله ليكون نمــوذجا للدعــوة الى العبادات مبينا أيضا الاعتبارات التى لاحظها القرآن فى دعوته اليه ·

ثم اخترت نصوصا تمثل مختلف الأساليب القرآنية فى الموضوع ، منهــا ما يتجه الى النفس يزكيها ، ومنها ما يتجه اليها بالترغيب والترهيب بعــرض الوان من صور المتاع الأخروى ، وأنواع من العذاب الذى يهز كيانها ، ويبدد عنادها ، كما يسوق الوعد بالحياة الكريمة ومضاعفة الأجــر للمنفقين ويحذر من العقوبة وسوء المصير للبخلاء فى الدنيا ·

وهكذا كنت أستعرض كل هذه النصوص وأحلل أساليبها وأنبه عــلى مظاهر جمالها ، وألوان بلاغتها ، وعناصر قوتها وتأثيرها ·

أما الفصل الثالث والأخير من الباب الثانى ، فقد جعلت عنوانه « البلاغة فى أسلوب الدعوة الى المعاملات » واخترت « التشريع للأسرة » كموضوع له ومهدت له بدراسة نفسية ـ كما سبق فى الفصل الثانى ـ ثم حللت النصوص التى اخترتها للدراسة ، وتشمل تعــدد الزوجــات ، والاصلاح بين الزوجين وبعض أحكام الطلاق ، وسيجد القارىء فى هذه الدراسة التطبيقية جهدا أرجو أن يكون كافيا فى الكشف عن السمات البلاغية ، التى امتاز بها كل أسلوب ، ومدى مطابقتها لمــا يتطلبه الموضوع من اعتبارات ·

أمــا الباب الثالث فقد خصصته لاستخلاص السمات المميزة للأســلوب القرآنى من خلال ما سبق من دراسة نظرية وتطبيقية ، وكان عنوانه « خصائص الأسلوب القرآنى » وقد أقمتــه على فصلين :

الفصل الأول : جعلت عنوانه « وسائل التاثير فى أسلوب الدعوة القرآنى » فذكرت من ذلك ثمانية أشياء ·

الأول : التصوير · وتحدثت عن قيمة الأسلوب التصويرى فى مجال التاثير ، ثم تحدثت عن أنواعه فى الأسلوب القرآنى ، فذكرت أن القرآن يصور بالكلمة المفردة ، وانه فى ذلك يستغل قدرة بعض الألفاظ على تصوير المعنى فى الاستعمال الحقيقى ·

ثم تحدثت عن التصوير بأسلوب التشبيه وقدرته على التاثير ، فاذا كان التشبيه قد سيق لتشبيه معنوى بحسى ، فان تاثيره مستمد من أنه ينقل النفس مما تعلمه الى ما هى أعلم به ، اذ تشترك الحواس فى ادراكه والنفس انس لما ياتيها عن طريق الحواس ، أما اذا كان التشبيه قد سيق لتشبيه حسى بحسى ، فانه يقرن صورة قوية تبعث الحياة فى صورة أخرى بجوارها ، وذكرت لذلك نماذج متعددة موضحا اثرها فى المعنى ·

ثم تحدثت عن التصوير بالاستعارة فى المفرد ، وقدرتها على التخييل المشخص للأشياء ، والذى يخلع عليها الحياة والارادة ، وقيمة ذلك فى تاكيد المعانى وابرازها ، كما تحدثت عن الاستعارة على سبيل التمثيل ، ودور هذه فى التاثير أقوى وأتم من الاستعارة المفردة ، وذكرت لهـا أمثـلة مبينـا قيمتها فى ابـراز خبيئات المعانى وفى ايحـاءاتها ، التى تترك الانطبـاعات المؤثرة فى النفوس ·

ثم تحدثت عن التصوير بالكنـاية وميزتها ، التى تجمـع بين التصوير والتاكيد ، اذ كل كنـاية تتضمن الحـكم مصحوبا بالدليل عليه بالاضافة الى ما فى بعضها من ذوق رفيع ، وأدب سام ، فى التعبير ، حيث تغنى المتكلم عن التصريح بمـا لا يجمل التصريح به ، وذكـرت لكل ذلك أمثـلة مبينا قيمتهـا وتاثيرها ·

ثم انتقلت الى التصوير بأسلوب المجاز العقلى ، فأوضحت أنه قادر على تشخيص المعانى ، والمواد الجامدة ، والظواهر الطبيعية ، مـع ذكر الأمثـلة المؤيدة لذلك مبينا أثـرها فى المعنى ·

بعد ذلك ذكرت ما فى أسلوب ضرب المثل من تصوير ، وما فيه بجـانب ذلك من قدرة على الاستحواذ عـلى المشـاعر ، وايقـاظ النفوس ، وتجـديد نشاطها ثم ما به أيضا من قدرة على الاقنـاع ، جعلته احدى وسائله مع اثبات ذلك بالشواهد والأمثلة ·

ثم انتقلت الى لون آخر من ألوان التصوير القرآنى ، وهـو التصوير الفنى برسم المشاهد دون أن يستخدم فى ذلك أى أسلوب من أساليب المجاز ، وبينت بالأمثلة قيمة هذا النوع فى الايحاء والتأثير النفسى ·

وجعلت فى خاتمة ألوان التصوير الأسلوب القصصى ، الذى فصلت القول فى خصائصه المؤثرة · واستعرضت احدى القصص القرآنية كنموذج للأسلوب القصصى ، وتأثيره ، وقبـل أن أترك الأسلوب التصويرى أشرت الى الوسائل الفنية التى تضاعف قدرة الأسلوب التصويرى على التأثير ، فذكرت منها : استحضار الصورة باستعمال صيغة المضارع ، واطالة المشهد التى ترمى الى تعميق الانطباعات التى يوحى بها فى النفس والحوار الذى يزيد الأسلوب حيوية وتأثيرا ·

بعد هذا انتقلت الى التوكيد باعتباره من أهم وسائل التأثير ، فبينت اهتمام القرآن به ، وكثرة استخدامه له ، وأنه يستخدمه فى التعبير عن كل أغراضه ، وأنـه لا يقتصر على ألوان التوكيد الاصطلاحية ، بـل يستخدم وسائل أخرى بجانبها ، وحللت نصا لأثبت بما فيه من ألوان التوكيـد ما ذهبت اليه ، ثم ذكرت من ألوان التوكيد التى يكثر ورودها فى القرآن الكريم أسلوب القسم ، مبينا جوانب التأثير فيه ، ثم التكرير مشيرا الى أنواعـه وصوره فى التعبير القرآنى ، ثم أشرت الى التوكيد بالتعبير بالماضى بدل المضارع للدلالة على تحقق وقوعه ، ثم التوكيد بصيغة القصر ، مشيرا الى أهم صـورة ثم التوكيد بالتقديم ، والتوكيد بأحرف الزيادة ، والتوكيد بالخبر والمراد الأمر ، وغير ذلك من ألوان التوكيد ·

وبعد ذلك انتقلت الى وسيلة أخرى من وسائل التأثير ، وهى ايثـار الأساليب القادرة على احتواء المشاعر الوجدانية ، والتعبير عنها ، فأشرت الى تفاوت الأساليب فى ذلك ، وأن القرآن كثيرا ما يؤثر الأسلوب الطلبى ، ولا سيما أسلوب الاسـتفهام ، وعللت لكثرة اسـتخدامه فى السور المكية ، معتمدا على احصائيات أثبتها ، مبينـا ذلك كله بشواهد متعـددة ·

ثم انتقلت الى وسيلة أخرى من وسائل التأثير وهى التشويق والاثارة والتنبيه ، فبينت أن ذلك يتمثل فى أمـور منها : التفصيل بعـد الاجمال ، والايضاح بعد الابهـام ، ومنها أسلوب التهيج والالهـاب ، ومنها أسـلوب الالتفـات ، ومنها الخصائص الصوتية للتعبير التى تتمثل فى الألفـاظ ذات الخصائص الصوتية القادرة على حكاية المعنى وتصويره ، ومنها التعبيرات ذات الايقاع والنغم ، وفصلت القول فى ذلك مشيرا الى ألوانه وأثره ، موضحا ذلك بالأمثلة التطبيقية ·

ومن وسائل التأثير التى ذكرتها أيضا اثـارة بواعث الطاعة وتزكيـة دواعى الخير فى النفس ، وأن لذلك طرقا متعددة منها : الترغيب والترهيب وتربية الشعور الدينى ، وتربية الشعور الأخـلاقى ، ومنها أساوب الاحتكام الى النفس ، ومنها التعقيب على المعانى بذكر صفات الله المناسبة للموقف والتى تلقى فى النفس بايحائها القادر على استمالة النفوس ، وتزكى تطلعها الى ما بها من سمو للتأسى بها •

ثم انتقلت الى أسلوب المنطق الوجدانى الذى يجمع بين غايات الفضيلة فى الاقناع والتأثير ، مبينا خصائصه وأهميته ، مشيرا الى أهم صوره •

ومن وسائل التأثير أيضا توجيه النظر الى الظواهر الكونية ، للتعرف على الأسباب الكامنة وراءهـا ، وهو ما يمكن أن نسميه طريق الملاحظـة العلمية فتحدثت عن أثره الذى يمتد الى العقل والشعور ، وذكرت أمثـلة له توضح قدرته على التأثير •

وأخيرا ذكرت تلك الوسـيلة الجامعة المتمثلة فى خصائص الصـياغة وأسرار التركيب فيها ، فبينت أن ذلك بحر من الأسرار لا ساحل له • وأن كل باحث يغترف منه بمقدار عطاء الله له • وذكرت منه ألوانا منها : الدقة فى اختيـار الألفـاظ ، وهى ألوان وفنون مثلت لها ، ثم الدقة فى تركيب الجملة والأسلوب فذكرت منها : ايثار التعبير بالجملة الاسمية أو الفعلية ، وايثار التعبير باسم الاشارة ، أو الاسم الموصول ، أو الاسم الظاهر بدل الضمير والتقـديم وأسراره ، والتعريف ودوافعـه ، والتنكير ، والحذف ، والقصر ، والفصل والوصل ، وغير ذلك مما يؤثر القرآن التعبير به عندما يقتضـيه الحال •

أما الفصل الثانى من الباب الثالث فقد جعلت عنوانه « توافق الأسلوب القرآنى مع موضوع الدعوة » وهو يعالج ظاهرة واضحة فى الأسلوب القرآنى تلك هى ما فيه من تفاوت فى خصائصه من موضوع الى آخر • وقد رجعنا تلك الظاهرة الى أمرين رئيسين :

أولهما : مراعاة حال المدعوين فى كل موضوع •

وثانيهما : مراعاة طبيعة موضوع الدعوة نفسه •

وقد تتبعت ذلك فى كل من العقائد والعبادات والمعاملات ، كاشفا عن الاعتبارات التى اقتضت هذا التفاوت فى كلا الأمرين ، مستعينا فى ذلك بالاحصائيات ، والتحليل النفسى للمخاطبين فى كل غرض مما تبين معه تمام التوافق بين كل أسلوب وما سيق من أجله ، كل ذلك فى تفصيل واضح واستيعاب كامل ٠

تلك أهم ما جاء فى الدراسة من نقاط ٠ أما النتائج التى حققتها فأستأذن هنا أن أشير فى تواضع الى أهم الأمور التى أعتقد أن الدراسة قد تمخضت عنها :

ـ تبوأت الدعوة مكانها باعتبارها وسيلة البعث ، فى كل تغيير انسانى ، كما اتضح مفهومها ، وتبلورت عناصرها ، وتهيأ للدعاة أن يجدوا ما يستعينون به فى نجاح مهمتهم المقدسة وتعاملهم مع الأفراد والجماعات ٠

ـ رسمت صورة واضحة للأبعاد الحقيقية للدعوة الاسلامية وما استتبعه ذلك من خصائص فى طرق العرض القرآنى لموضوعاتها ٠

ـ تجلت وظيفة البلاغة فى الحياة وبدا دورها الاجتماعى ٠

فلم تعد ترفا علميا ، أو بحوثا نظرية ، بل سلاحا يناضل به المصلحون وبناة الحضارات ٠

ـ أضاف الجزء التطبيقى من هذه الدراسة الكثير ـ فيما أعتقد ـ للثروة البلاغية ٠ فالتطبيق البلاغى ليس جهدا ميسورا ، ولكنه يحتاج الى أناة وصبر وتذوق ٠

ولعل أبرز ما فى هذا الجانب هو المنهج الذى اتبع فيه ، اذ لم تدرس الجمل مفصلة عن غيرها ليبحث عما بها من ألوان البلاغة ، بل لم يدرس النص منفصلا عن غيره من النصوص ، التى تعالج الغرض ، وانما درست مجموعة من النصوص التى تعالج الموضوع باعتبارها وحدة متكاملة ، ينهض كل منها بجزء من العبء ٠ فاذا بها فى مجموعها قد أوفت بحق الدعوة على أتم ما يكون الوفاء ٠ وذلك منهج أعتقد أنه جديد فى باب التطبيق البلاغى ٠

ـ أما الحديث عن وسائل التأثير فى الأسلوب القرآنى ، فأعتقد أنه جعل لكل لون بلاغى وظيفة يؤديها ، عند ما ينتدب اليها بحيث لا يصح أن يقحم شىء منها فى غير موضعه ٠

ـ وأخيرا أشير الى التزام الدراسة بمنهج مترابط ، يمهد فيه سـابق للاحق ، ويبنى فيه ثان على أول ، ليمضى البحث الى غايته فى خطوات متتابعة منتظمة على الدرب المرسوم ٠

وما توفيق الا بالله والحمد لله أولا وآخرا ٠ وصلى الله على سيدنا محمد امام الدعاة وسـيد المرسلين وخير البشر ، وعلى آله وصـحابته ومن دعا بدعوته الى يوم الدين ٠٠٠

* * *

مراجع البحث حسب الترتيب الأبجدى

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ الاتقان فى علوم القرآن — لجلال الدين السيوطى ، مطبعة الحلبى ـ القاهرة الطبعة الثالثة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م ٠

٣ ـ اتجاهات وآراء فى النقد الحديث — للدكتور محمد نايل مطبعة العاصمة ٠

٤ ـ أسرار البلاغة — للامام عبد القاهر الجرجانى ، مطبعة المنار الطبعة الثانية ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٥م

٥ ـ أسرار الاعجاز فى النسق القرآنى — للدكتور ابراهيم عوضين رسالة مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر ٠

٦ ـ أساس البلاغة — لجار الله الزمشخرى ، طبعة دار مطابع الشعب ١٩٦٠ م ٠

٧ ـ أسرار التكرار فى القرآن — لمحمود حمزة الكرمانى ، تحقيق عبد القادر عطا دار الاعتصام بالقاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م ٠

٨ ـ أساليب الاستفهام — للأستاذ عبد العليم فوده ، المجلس الأعلى للفنون والآداب بمصر ٠

٩ ـ الاسلام عقيدة وشريعة — للشيخ شلتوت ـ مطبوعات الادارة العامة للثقافة الاسلامية بالأزهر ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٥٩ م ٠

١٠ ـ أسس النقد الأدبى عند العرب — للدكتور أحمد بدوى ، الطبعة الثانية القاهرة مكتبة مصر بالفجالة ٠

١١ ـ أصول النقد الأدبى — للأستاذ أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م ٠

١٢ ـ اعجاز القرآن — للقاضى أبو بكر الباقلانى مطبعة البابى الجلبى ١٩٥١ م ٠

١٣ ـ اعجاز القرآن — لمصطفى صادق الرافعى ، المكتبة التجارية الكبرى ٠ الطبعة الثانية ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م ٠

١٤ ـ اعجاز القرآن البيانى بين النظرية والتطبيق — للدكتور حفنى محمد شرف المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م ٠

١٥ ـ الاعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق — للدكتورة عائشة عبد الرحمن دار المعارف ٠

١٦ ـ الله — للأستاذ عباس محمود العقاد دار الهلال ١٩٦٨ م ٠

١٧ ـ الله يتجلى فى عصر العلم — مجموعة بحوث لنخبة من علماء الطبيعة نشر مؤسسة الحلبى طبعة ١٩٦٨ م ٠

١٨ ـ الأمالى — لأبى على القالى طبعة دار الكتب ١٩٢٦ م ٠

١٩ ـ الأمالى — للشريف المرتضى القاهرة ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٢٦ م ٠

٢٠ ـ الايضاح لمختصر تلخيص المفتاح — للخطيب القزوينى ، الطبعة الثانية مطبعة صبيح ٠

٢١ ـ الانسان فى القرآن الكريم — للدكتور أحمد مهنى ، مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م ٠

٢٢ ـ بشائر النبوة الخاتمة — للدكتور رؤوف شلبى ، سلسلة مجمع البحوث الاسلامية ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م٠

٢٣ ـ البلاغية القرانية فى تفسير الزمشخرى — للدكتور محمد أبو موسى دار الفكر العربى ٠

٢٤ ـ البلاغة التطبيقية — للدكتور احمد موسى مطبعة المعرفة ١٩٦٣ م ٠

٢٥ ـ بيان اعجاز القرآن — للخطابى ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن دار المعارف مصر ٠

٢٦ ـ البيان العربى — للدكتور بدوى طبانة ، الأنجلو المصرية ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م ٠

٢٧ ـ البيان والتبيين — للجاحظ شرح وتحقيق السندوبى طبعة ١٩٣٢ م ٠

٢٨ ـ البيان القرآنى — للدكتور محمد رجب البيومى مجمع البحوث الاسلامية ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م ٠

٢٩ ـ تأويل مشكل القرآن — لعبد الله مسلم بن قتيبة ، مطبعة الحلبى ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م ٠

٣٠ ـ تذكرة الدعاة — للأستاذ البهى الخولى دار القلم ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م ٠

٣١ ـ التشريع الجنائى الاسلامى مقارنا بالقانون الوضعى — للأستاذ عبد القادر عودة دار نشر الثقافة ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٩ م ٠

٣٢ ـ التصوير الفنى فى القرآن — للأستاذ سيد قطب ، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٤٩ م ٠

٣٣ ـ تفسير أبى السعود — لأبى السعود محمد بن محمد العمادى مطبعة صبيح ٠

٣٤ ـ تفسير ابن كثير — للامام الحافظ اسماعيل بن كثير القرشى طبع دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى ٠

٣٥ ـ تفسير القران الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل — للعلامة أبى البركات عبد الله بن أحمد ابن محمود النسفى المطبعة الحسينية ١٣٣٢ هـ ٠

٣٦ ـ تفسير الكشاف — لأبى القاسم جار الله الزمخشرى ٠ مصطفى البابى الحلبى ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م ٠

٣٧ ـ تفسير ايات الأحكام — للشيخ محمد على السايس مطبعة صبيح ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٣ م ٠

٣٨ ـ تفسير القران الحكيم الشهير بتفسير المنار — تاليف الشيخ الرشيد رضا ، دار المنار مصر الطبعة الثالثة ١٣٨٢ هـ ٠

٣٩ ـ تفسير القران الكريم — للشيخ شلتوت ٠ دار القلم الطبعة الرابعة ١٩٦٦ م ٠

٤٠ ـ تفسير الرازى المسمى مفاتح الغيب — للفخر الرازى القاهرة ١٣٢١ هـ ٠

٤١ ـ تفسير الألوسى المسمى روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم — لشهاب الدين السيد محمود الألوسى دار الطباعة المنيرية ٠

٤٢ ـ تلخيص البيان فى مجازات القران — للشريف الرضى تحقيق محمد عبد الغنى حسن طبع القاهرة الحلبى ٠

٤٣ ـ التوحيد الخالص أو الاسلام والعقل — للامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود دار الكتب الحديثة ١٩٦٦ م ٠

٤٤ ـ حاشية الصبان على شرح الأشمونى — لمحمد بن على الصبان ، عيسى البابى الحلبى ٠

٤٥ ـ الحياة الوجدانية والعقيدية الدينية — للدكتور محمود فتح الله حب الله · مطبعة عيسى البابى الحلبى ١٩٦٩ م ·

٤٦ ـ الحيوان — للجاحظ تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام هارون القاهرة ١٩٥٠ م ·

٤٧ ـ خطوات التفسير البيانى — للدكتور محمد رجب البيومى سلسلة مجمع البحوث الاسلامية ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م ·

٤٨ ـ الخطابة — لأرسطو تحقيق وتعليق عبد الرحمن بدوى القاهرة مكتبة النهضة ١٩٥٩ م·

٤٩ ـ دراسات اسلامية فى العلاقات الاجتماعية والدولية — للدكتور محمد عبد الله دراز ، دار القلم الكويت الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م ·

٥٠ ـ دراسات فى النفس الانسانية — للأستاذ محمد قطب دار الشروق ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م ·

٥١ ـ الدعوة الاسلامية فى عهدها المكى — للدكتور رؤوف شلبى مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م·

٥٢ ـ دلائل الاعجاز — للامام عبد القاهر الجرجانى مطبعة المنار ١٣٣١ هـ ·

٥٣ ـ الدين دراسة ممهدة لدراسة تاريخ الأديان — للدكتور محمد عبد الله دراز · دار القلم ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م ·

٥٤ ـ روح الجماعات — لجوستاف ليبون ، دار المعارف ١٩٥٥ م

٥٥ ـ السبيل الى دعوة الحق والقائم بأمرها — للدكتور محمد البهى مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية ·

٥٦ ـ سر الفصاحة — لابن سنان الخفاجى ، المطبعة الرحمانية الطبعة الأولى ١٩٣٢ م ·

٥٧ ـ سيرة ابن هشام — ابن هشام مطبعة الحلبى ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م ٠

٥٨ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — للفاسى ابن الطيب تقى الدين محمد بن أحمد بن على مكتبة النهضة الحديثة ١٩٥٦ م ٠

٥٩ ـ شرح عقود الجمان — للسيوطى المطبعة الشرقية طبعة ١٣٠٥ هـ ٠

٦٠ ـ الشعر والشعراء — لعبد الله بن مسلم بن قتيبة القاهرة ١٣٢٧ هـ ٠

٦١ ـ الصبغ البديعى — للدكتور أحمد موسى ابراهيم دار الكتاب العربى ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م ٠

٦٢ ـ الصاحبى — لأحمد بن فارس بن زكريا ، المكتبة السلفية مطبعة المؤيد ١٩١٠ م ٠

٦٣ ـ صحيح البخارى — مطابع الشعب ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م ٠

٦٤ ـ الصناعتين — لأبى هلال العسكرى ٠ تحقيق على البيجاوى مطبعة الحلبى بمصر ٠

٦٥ ـ صور من تطور البيان العربى — للدكتور كامل الخولى الطبعة الأولى دار الأنوار بالقاهرة ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٢ م ٠

٦٦ ـ الطراز — ليحيى بن حمزة العلوى ، مطبعة المقتطف بمصر ١٣٣٢ هـ ٠

٦٧ ـ الظاهرة القرآنية — لمالك بن نبى القاهرة ١٩٥٨ م

٦٨ ـ عبد القاهر الجرجانى وجهوده فى البلاغة العربية — للدكتور أحمد بدوى سلسلة أعلام العرب مكتبة مصر بالفجالة ٠

٦٩ ـ العمدة — لابن رشيق القيروانى القاهرة ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٥ م ٠

٧٠ ـ عيار الشعر — لمحمد بن أحمد بن طباطبا القاهرة ١٩٥٦ م ٠

٧١ ـ الفلسفة الاسلامية وصلاتها بالفلسفة اليونانية — للدكتور محمد السيد غنيم والدكتور عوض الله حجازى الطبعة الأولى دار الطباعة المحمدية ٠

٧٢ ـ فلسفة المعرفة فى القرآن الكريم — للأستاذ على عبد العظيم مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م ٠

٧٣ ـ الفيلسوف المفترى عليه ٠٠ ابن رشد — للدكتور محمود قاسم ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ٠

٧٤ ـ فن القول — للأستاذ أمين الخولى دار الفكر العربى ١٩٤٧ ٠

٧٥ ـ فى ظلال القرآن — للأستاذ سيد قطب دار الشروق ١٩٧٨ ٠

٧٦ ـ القرآن والقصة الحديثة — للأستاذ محمد كامل حسن مطابع دار الكتب بيروت ١٩٧٠ م ٠

٧٧ ـ القاموس المحيط — للفيروز آبادى طبعة الحلبى ١٩٥٢ م ٠

٧٨ ـ الكون بين العلم والدين — للدكتور جمال الفندى ٠ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٩٧٣ م ٠

٧٩ ـ مبادىء تنمية المجتمع — دكتور عبد المنعم شوقى ٠ دار الكتاب العربى ٠

٨٠ ـ المثل السائر — لابن الأثير القاهرة ١٣١٢ هـ ٠

٨١ ـ مجاز القرآن — لأبى عبيدة معمر بن المثنى مطبعة الخانجى مصر ·

٨٢ ـ المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء — للشيخ محمد المدنى مطبعة مخيمر ·

٨٣ ـ محاضرات فى النصرانية — للشيخ محمد أبو زهرة ـ دار الكتاب العربى ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م ·

٨٤ ـ محاضرات فى تاريخ البلاغة العربية — للدكتور محمد عبد الرحمن الكردى الطبعة الأولى مطبعة السعادة ·

٨٥ ـ المطول على التلخيص — لسعد الدين التفتازانى مطبعة الحلبى ١٣٦٤ هـ ·

٨٦ ـ مع الله فى السماء — للدكتور أحمد زكى طبعة دار الهلال ١٩٥٨ م ·

٨٧ ـ معالم شخصية المسلم — للدكتور يحيى هاشم حسن فرغل المكتبة المصرية صيدا بيروت ·

٨٨ ـ معجم الأدباء — لياقوت الحموى مطبعة دار المأمون

٨٩ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم — محمد فؤاد عبد الباقى مطابع الشعب ١٣٧٨ هـ ·

٩٠ ـ مفتاح العلوم — لأبى يعقوب السكاكى مطبعة البابى الحلبى ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م ·

٩١ ـ المنجد فى اللغة والأدب والعلوم — المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ـ الطبعة التاسعة عشرة ·

٩٢ ـ منهج الفن الاسلامى — لمحمد قطب دار الشروق ·

٩٣ ـ مناهل العرفان فى علوم القرآن — للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى احياء الكتب العربية ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م ·

٩٤ ـ مناهج الأدلة فى عقائد الملة — للدكتور محمود قاسم الأنجلو المصرية ·

٩٥ ـ المنقذ من الضلال مع بحوث فى التصوف للدكتور عبد الحليم محمود — للامام الغزالى دار الكتب الحديثة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م ·

٩٦ ـ من بلاغة القرآن — للدكتور أحمد بدوى مطبعة نهضة مصر الطبعة الثانية ·

٩٧ ـ من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب والنقد — للأستاذ محمد خلف الله القاهرة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م ·

٩٨ ـ النبأ العظيم — للدكتور محمد عبد الله دراز دار القلم الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م ·

٩٩ ـ نظرات فى البيان — للدكتور محمد عبد الرحمن الكردى مطبعة السعادة ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٦ م ·

١٠٠ـ نسمات من عبير الأدب — للدكتور محمد سرحان الطبعة الأولى دار الطباعة المحمدية ·

١٠١ـ نقد النثر — لقدامة بن جعفر دار الكتب المصرية ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٣ م وبه مقدمة بقلم الدكتور طه حسين ·

١٠٢ـ النقد الأدبى الحديث — للدكتور محمد غنيمى هلال · مطابع دار الشعب الطبعة الثالثة ١٩٦٤ م ·

١٠٣ـ هجرة الأفكار — لجلبرت هايت ترجمة أسعد فريد القاهرة المطبعة العالمية ١٩٥٥ م ·

١٠٤ـ الوحى المحمدى — للسيد محمد رشيد رضا مطبعة المنار الطبعة الثالثة ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥ م ·

١٠٥ـ الوساطة بين المتنبى وخصومه — للقاضى عبد العزيز الجرجانى القاهرة ١٩٤٥ م ·

محتويات الكتاب

الفصل الثالث

البلاغة وصلتها بالدعوة

(٦٣ ـ ١٠٠)

الباب الثانى

مع بلاغة القرآن فى دعوته الى أهـدافه

(١٠١ ـ ٢٨١)

الفصل الأول

البلاغة فى الدعوة الى العقائد

(١٠٣ ـ ١٩٢)

الفصل الثانى

البلاغة فى الدعوة الى العبادات

(١٩٣ ـ ٢٣٩)

الفصل الثالث

البلاغة فى الدعوة الى المعاملات

(٢٤١ ـ ٢٨١)

الباب الثالث

خصائص الأسلوب القرآنى

(٢٨٣ ـ ٣٦٥)

الفصل الأول

وسائل التأثير فى أسلوب الدعوة القرآنى

(٢٨٥ ـ ٣٥٢)

الفصل الثانى

توافق الأسلوب القرآنى مع موضوع الدعوة

(٣٥٣ ـ ٣٦٥)